الحروب الصليبية مصادر ودراسات

عجائب المقدور في نوائب تيمور

تأليف

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي

ابن عربشاه

تحقيق وتقديم

أ. د. سهيل زكار

التكوين

عجائب المقدور
في
نوائب تيمور

دراسات تاريخية

- الكتاب: عجائب المقدور في نوائب تيمور
- الكاتب: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي
- تحقيق وتقديم: أ.د. سهيل زكار
- الطبعة الأولى **2008**

© جميع الحقوق محفوظة

للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني - الجادة الرئيسية
تلفاكس **2236468** جوال **0944 330989**
WWW.ATTAKWIN.COM
INFO@ATTAKWIN.COM
taakwen@yahoo. com
ص . ب: 11418

تنويه: الأرقام المتسلسلة في الأعلى من أجل الإحالة على الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تأليف

أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي

ابن عرب شاه (المتوفى ٤٥٤هـ - ١٣٧٢م)

عجائب المقدور في نوائب تيمور

تحقيق وتقديم

أ. د. سهيل زكار

جمعداری

شبكة كتب الشيعة

shiabooks.net

mktba.net رابط بديل

بســـم الله الرحمـن الرحـــيم

توطئة:

ارتبطت بدايات قيام دولة المماليك في مصر بنجاحهم في التصدي للحملة الصليبية الأولى بعد وفاة الملك الصالح أيوب الأيوبي، وثبت حكم المماليك وامتد إلى بلاد الشام مع النجاح في معركة عين جالوت، ثم استيلاء الظاهر بيبرس على الحكم بعد قتله للمظفر قطز، وصحيح أن معركة عين جالوت منعت المغول من الوصول إلى مصر إنها حررت بلاد الشام منهم، وأدخل بيبرس استراتيجيات جديدة استهدفت في بلاد الشام التصدي للخطر المغولي، وتصفية الوجود الصليبي، ونجح بيبرس ومن بعده قلاوون ثم الأشرف خليل بن قلاوون في هذا المجال كثيراً، فقد خاض بيبرس معارك ناجحة جداً ضد المغول، واسترد من الصليبيين—فيما استرده—صفد، وحصن الأكراد، وأنطاكية، وخاض قلاوون بنجاح باهر معركة حمص ضد المغول، ثم حرر مدينة طرابلس من الصليبيين، وبعد قلاوون حرر ابنه الأشرف خليل عكا وتولى تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام.

وفي هذه الأثناء أسلم حكام الدولة الإيلخانية في تبريز، ومع ذلك لم يوقفوا حملاتهم ضد بلاد الشام متحالفين مع الكرج والأرمن وقوى أخرى، وصحيح— كما مر معنا— نجح المغول بقيادة غازان في إلحاق الهزيمة بالجيش المملوكي في معركة الخزندار، ودخل غازان إلى دمشق، ولكن بعد وقت قصير نزلت بالمغول ضربة قاصمة في معركة شقحب.

وبعد وقت ليس بطويل قام السلم بين الإيلخانيين والمماليك، فعرفت بلاد الشام من جديد حقبة من الأمن والاستقرار والازدهار، لكن النظام المملوكي أخذ يعاني من كثير من المشاكل منذ الأيام الأخيرة لحكم الناصر محمد بن قلاوون، وعانى هذا النظام بعد وفاة الناصر

محمد ابن قلاوون من كثير من الاضطرابات وانعدام الاستقرار، واستفادت من ذلك قوى أخرى في المنطقة على رأس هؤلاء المملكة اللاتينية في قبرص التي اجتاحت الاسكندرية—كما مر معنا—وحاول حكام قبرص احتلال بعض مدن الساحل الشامي لكنهم أخفقوا، ومع ذلك استمر حكم المماليك الأتراك بالضعف، وظهرت الآن قوى المماليك الجراكسة، وكانت حقبة الانتقال من حكم المماليك الأتراك إلى حكم المماليك الجراكسة، أو الانتقال من دولة المماليك الأولى إلى دولة المماليك الثانية، حقبة فتن واضطرابات وتدهور، ولذلك طمعت قوى خارجية بالاستيلاء على بلاد الشام أو على الأجزاء الشمالية منها، وخاصة قوى الدولة العثمانية الناشئة، لكن ظهور المغول من جديد بقيادة تيمور أجل ذلك وتسبب في إيجاد حقائق جديدة.

وظهر ضعف دولة المماليك بشكل جلي في العجز عن التصدي لتيمورلنك، الذي وصل من بلاد ما وراء النهر على رأس جحافل كبيرة جداً، وألحق تيمور ببلاد الشام دماراً تعجز الأقلام عن وصفه وحصره، ولفتت ظاهرة تيمور انتباه الكتاب والمؤرخين، ومع أنني قدمت نخبة من أفضل ما كتب عن تيمورلنك، تبين لي أن عجائب المقدور لابن عرب شاه هو المصدر الأعلى قيمة بالعربية عن حياة تيمورلنك وأعماله، وعزمت منذ ما يزيد على عقدين من الزمن على نشر هذا الكتاب، لكن حال دون ذلك مشاغل جمة، وقررت منذ عام ١٩٩٧، ادخال هذا الكتاب ضمن الموسوعة الشامية نظراً لقيامي بدراسة التحالفات الصليبية المغولية، ونشر أهم مصادر تاريخ المغول.

ولاقى كتاب ابن عربشاه العناية منذ زمن طويل، ونشر في أوربا، كما ونشر في مصر ودمشق، واجتمع لدي نسخة عن طبعة أوربية للكتاب، وطبعتين له نشرتا في القاهرة، كما حصلت على صورة نسخة مخطوطة عن الكتاب مكتوبة سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م، ومحفوظة في المكتبة الظاهرية

في دمشق برقم ٦٨٩٣، ونسخة مخطوطة أكثر حداثة وأقل قدماً، أوقفت على مكتبة كنيسة الموارنة في حلب عام ١٧٣٣م.

وقد عرفت بوجود نسخ خطية كثيرة من هذا الكتاب، وكان الصديق الدكتور مظهر شهاب قد أهداني نسخة عن أطروحته لنيل الدكتوراه، التي تقدم بها عام ١٩٨١ إلى الجامعة اليسوعية في بيروت، وقد عدت إليها أثناء عملي في التحقيق واستفدت منها، واستفدت أيضاً من مصادر أخرى عديدة.

وابن عرب شاه هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي نصر محمد بن عرب شاه، ولد في دمشق سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م، وفي دمشق كانت نشأته الأولى، فنال قسطاً وافياً من معارف عصره، خاصة في ميدان اللغة والنحو، وغادر دمشق مع إخوته وأمه وبعض أقاربه سنة ٨٠٣ هـ أي قبيل اجتياح تيمور لها وتدميرها واحراقها، وقصد سمرقند عاصمة تيمور، لذلك امتلك الفرصة لتعلم كل من اللغتين: الفارسية والمغولية، للالتقاء بعدد من علماء بلاد ما وراء النهر التي تجول فيها وزار حواضرها فعرفها عن قرب، مثلما عرف أخبار تيمور، لذلك عُدّت مواد كتابه مواداً وثائقية، وذلك على الرغم من موقفه المعادي لتيمور—وهو محق بذلك—واعتماده على الصنعة في عرض الأخبار، وهي صنعة لم تؤثر مطلقاً على مواده، بل منحتها نغمة شاعرية ممتعة.

وزار ابن عرب شاه البلاط العثماني للسلطان محمد بن بايزيد، وأقام به نحو عقد من الزمن، حيث قام بأعمال الترجمة لبعض المؤلفات، كما تسلم ديوان الإنشاء لهذا السلطان، ويفيد هذا اتقانه للتركية، ثم عاد ابن عرب شاه إلى بلاد الشام، فأقام بحلب بعض الوقت ودخل دمشق سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م، ثم قصد مصر، وأقام في القاهرة وفيها مات سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م.

وصنف ابن عربشـاه وترجم كتباً كثيرة، استفدت من واحـد منها هو «فاكهة الخلفاء» حيث نقلت منه مادة عـن جنكيز خان وقوانينه وكذلك بعض أخبار تيمـور، وألحقت هذه المادة بكتاب «تزوكـات تيموري»أي «مذكرات تيمور».

ولاشك أن معلوماتنا سوف تزداد بنشر عجائب المقدور محققاً بشكل علمي دقيق، وذلك بالاضافة إلى المواد الأخرى التي حوت أخبار تيمور بالعربيـة، ومعها رحلة السفير الاسباني كـلافيجو، التي ستأتي في المجلد المقبل إن شاء الله تعالى.

لله الحمـد وله الثناء والشكر، ومنه جل وعـلا أستمـد العـون دائماً، والسـداد والتـوفيق لاسيما أن مشروع الموسوعـة بات من النهـاية قـاب قـوسين أو أدنى، وبدأت بإعداد خطط جـديدة على رأسها كتـابه تاريخ العـرب والاسـلام، والصـلاة والسـلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن أخذ بهداه إلى يوم الدين.

دمشق ٩ صفر ١٤٢٦ هـ/ ١٩ آذار ٢٠٠٥ م

سـهيل زكـار

- ١٧٤٤٥ -

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حسبي ونعم الوكيل

الحمد لله الذي على منوال إرادته وتدبيره تنسج مقاطع الأمور، ومن ينبوع قضائه إلى الخج قدره يجري تيار الإعصار والدهور، أذاق بعض بني آدم بأس بعض ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور، وأرسل عليهم في القرن الثامن من الهجرة بحار فتن أقبلت كقطع من الليل المظلم لم يدر أحد ما هي فإذا هي تمور.

أحمده حمد من كان على شفا جرف من نارها فانقذه منها، وأشكره

شكر من ورطه فيها عدله فأنجبته أيادي فضله عنها(١) وأشهد أن لاإله إلا هو الحكم العدل، الذي يقتص للمظلوم من الظالم يوم الفصل وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أرسله رحمة للعالمين، وجعله رسول الله وخاتم النبيين، فأخبر صلى الله عليه وسلم عن السر المصون، ونبأ بما كان في الأزل وبما يكون إلى يوم يبعثون، واستعاذ من غلبة الدين وقهر الرجال، ومن فتنة المحيا والمات، ومن فتنة المسيح الدجال صلى الله عليه صلاة تذكي المسك الأذفر في صدور الكتب والتواريخ، وتدني لقائلها في يوم الجزاء ثمرات الحسنات من أعلى الشماريخ،وعلى آله وصحبه الذين أفاضوا سيول الفتح في الأقاليم فغمروها، وشيدوا أركان الإسلام، وأناروا الأرض بالايمان وعمروها بالعدل والاحسان أكثر مما عمروها، وسلم تسليما غزيرا، دائما أبداً كثيراً.

أما بعد: فلما كان في التواريخ عبرة لمن اعتبر، وتنبيه لمن افتكر، وإعلام أن قاطن الدنيا على سفر، وإحضار لصورة حال من مضى وغبر، كيف قدر واقتدر، ونهى وأمر، وبنى وعمر، وختل وختر، وغلب وقهر، وكسر وجبر، وجمع وادخر، وتكبر وفخر، وكيف عبس وبسر، وضحك واستبشر، وتقلب في أطواره من الطفولية إلى الكبر، إلى أن قلبته أيدي العبر، واختطفته وهوآمن مما يكون مخاليب القضاء والقدر، فخالط ما صفا من عيشه الكدر، وتنغص حتى ذهب عنه ما حلا ومر، إن في ذلك لعبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن ادكر، وتبصرة لمن استبصر.

وكان من أعجب القضايا بل من أعظم البلايا، الفتنة التي يحار فيها اللبيب، ويدهش في دجى حندس الفطن الأريب، ويسفه فيها الحليم، ويذل فيها العزيز، ويهان الكريم، قصة تيمور رأس الفساق، الأعرج

١— في هذا اشارة إلى ما نال ابن عرب شاه من أذى وخطر عند اغارة تيمور على دمشق عام٨٠٣ هـ/ ١٤٠١، وفراره مع أسرته منها، حيث ذهب إلى سمرقند. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي—ط. دار مكتبة الحياة بيروت — ج٢

الدجال الذي أقام الفتنة شرقاً وغرباً على ساق، أقبلت الدنيا الدنية عليه فتولى وسعى في الأرض فأفسد فيها،وأهلك الحرث والنسل، وتيمم حين غمته النجاسة الحكيمة صعيد الأرض فغسل بسيف الطغيان كل أغر محجل فتحققت نجاسته بهذا الغسل، أردت أنا أذكر منها ما رأيته، وأقص في ذلك ما رويته، إذ كانت إحدى الكبر، وأم العبر، والداهية التي لا يرضى القضاء في وصفها بذا القدر، والله أسأل إلهام الصدق، وسلوك طريق الحق، إنه ولي الإجابة ومسدد سهم المرام إلى غرض الإصابة، وهو حسبي ونعم الوكيل.

فصل في ذكر نسبه وتدريج استيلائه على الممالك وسببه

اسمه تيمور— بتاء مثناة مكسورةفوق، وياء ساكنة مثناة تحت، وواو ساكنة بين ميم مضمومة وراء مهملة، هذه طريقة املائه—، وفي التصريف زنة بنائه، لكن كرة الالفاظ الأعجمية، إذا تداولها صولجان اللغة العربية، خرطها في الدوران على بناء أوزانها ودحرجها كيف شاء في ميدان لسانها، فقالوا في هذا تارة تمور، وأخرى تمرلنك، ولم يجر عليهم في ذلك حرج ولا ضنك، وهو بالتركي الحديد ابن ترغاي بن أبغاي، ومسقط رأس ذلك الغدار، قرية تسمى خواجه ايلغار، وهي من أعمال الكش، فأبعدها الله من حش، والكش مدينة من مدن ما وراء النهر، عن سمر قند بنحو من ثلاثة عشر شهر.

قيل رؤي ليلة ولد، كأن شيئاً شبيه الخوذة ترآى طائراً في عنان الجو، ثم سقط إلى فضاء الدو، ثم انبث على الأرض وانتشر، وتطاير منه مثل الجمر والشرر، وتراكم حتى ملأ البدو والحضر، وقيل لما سقط إلى الأرض ذلك السقيط، كانت كفاه مملوتتين من الدم العبيط، فسألوا عن أحواله الزواجر والقافية، وتفحصوا عن تأويل ذلك من الكهنة وأهل القيافة، فقال بعضهم يكون شرطياً، وقال بعضهم ينشأ لصاً حرامياً، وقال قوم بل قصاباً سفاكاً، وقال آخرون بل يصير جلاداً بتاكاً،

وتظافـــرت هذه الأقـــوال، إلى أن آل أمــــره، وكـــان هو وأبـوه من الغدادين(١)، ومن طائفة أوباش لا عقل لهم ولا دين.

وقيل كـان من الحشـم الرجـاله، والأوباش البطاله، وكـان مـا وراء النهر مأواهم، وتلك الضواحي مشتـاهم، وقيل كان أبوه اسكافا فقيراً جداً، وكـان هو شاباً حـديداً جلداً، ولكنه لما كان به مـن القلة يتحرم، وبسبب تلك الاضرام يتضرر ويتضرم، ففي بعض الليـالي سرق غنمـه واحتملها، فضربه الراعي في كتفه بسهـم فأبطلها، وثنى عليه بأخرى في فخذه فأخطلهـا(٢)، فازداد كسراً على فقره، ولؤمـا على شره، ورغبة في الفســاد، وحنقــا على العبــاد والبـلاد، وطلـب له في ذلك الأضراب والنظراء، وعشي عن ذكر الرحمن، فقيض له من الشياطين القرناء، مثل «عبـاس»و«جهـانشـاه»، و«قـاري»و «سليمان شـاه»و «ايدكـو تيمـور» و«جـاكو »و«سيف الدين»، نحـو أربعين لا دنيا لهم ولادين، وكـان مع ضيق يده، وقلة عدده وعدده، وضعف بدنه وحاله، وعدم ماله ورجاله يذكـر لهم أنه طالب الملك، ومـورد ملوك الدنيا مـوارد الهلك، وهم في ذلك يتناقلون عنـه هذا النقل وينسبـونه إلى كثـرةالحماقــة وقلة العقل، ويدنونه منهم ويقبلون إليه، ليسخروا منه ويضحكوا عليه.

شعر:

إن المقــــادير إذا ســــاعــــدت ... ألحقـت العـــــاجـــــز بـالحازم

فشرع فيما يقصده، والقضاء يرشده، والقدر ينشده:

لا يـؤنسك مـن مجد تبـــــاعـــــده ... فـإن للمجـــــد تـدريجاً وتدريبـــــا

إن القناة التـي شـــــاهدت رفعتهـــــا ... تنمـــــو فتنبـت أنبـــوبـاً فأنبـــوباً

١— الغداد: الراعي، أو مالك من الابل ما بين مائة إلى مائتي رأس، أو صاحب الصوت المرتفع

٢— هذا ما جعله أعرجا، حيث عرف باسم تيمورلنك، أي تيمور الأعرج.

وكـان في بلد «الكش» شيخ يسمـى «شمس الدين الفـاخـوري»(١) وهو معتقـد تلك البلاد، وعليـه لكل قصـد شيئاً من أمر الدين والدنيـا والاعتماد، فذُكر أن تيمـور وهو فقير عاجز، بين عز مـوهوم وذل ناجز، لم يكن له ســوى ثوب قطن، وأنه باعـه واشترى بثمنه رأس مــاعـز، وقصد به الشيخ المشـار إليه، وعول فيما قصده عليـه، وقد ربط بطرف حبل عنق ذلـك العناق، وربق عنق نفســه بالطرف الآخـــر من ذلك الوثاق، وجعـل يتشحط على عصى من جـــريد، حتـى دخل على ذلك الشيخ المفيد، فصـادفه وهو والفقـراء مشغولين بالذكـر، مستغرقين فيما هم فيه من الوجد والفكر، فلازال قـائماً حتى أفاقوا من حالهم، وسكتوا عن مقـالهم، فلما وقع نظر الشيخ عليـه، سـارع إلى تقبيل يديه، وأكب على رجليـه، فتفكر الشيخ ساعـة، ثم رفع رأسـه إلى الجماعة، وقـال: كـان هذا الرجل بذل عــرضـه وعـروضـه، واستمـدنا في طلب مـا لا يساوي عند الله تعـالى جناح بعوضـة، فنرى أن نمده، ولا نحـرمه ولا نرده، فأمدوه بالدعـاء إسعافـاً لما طلبه، فأشبهت قضيته قضيـة ثعلبة، ورجع من عند الشيخ وخرج، وعـرج بعد ما عرج إلى مـا مرج، وقيل إنه كـان في بعض تحرمـاته، فضـل الطريق صـوره، كما ضلهـا معنى وسيره، وكاد يهلك عطشـاً وجوعاً، وسـار على ذلك أسبوعـاً، فوقع في أثناء ذلك على خيل السلطان، فتلقــاه الجشـاري باللطف والإحسـان، وكان تيمـور ممن يعرف خصـائص الخيل بسماتها، ويفـرق بين هجانها وهجينهـا بمجـرد النظر إلى هيـآتها، فــاطلع الجشـاري على ذلك منه، وأخـــذ علم ذلك عنـه، وزاد فيـــه رغبـــة، وطلب منه دوام الصحبـــة، وجهـزه إلى السلطان مع أفـراس له طلبها منـه، وأخبره بفضيلته ومـا شاهد عنه، فأنعم السلطان عليه، ووصى به الجشاري ورده إليه.

١— يعـرف أيضاً باسم شمس الدين كيـلال، ولعل عمر تيمـور عندما لقيـه كان قـرابة الثانيـة والعشرين، وعليه يكون اللقاء قد حدث ما بين ٧٥٩ و ٧٦١ هـ/ ١٣٥٨—١٣٦٠ م ،انظر tha mongol Empire b y m. Prawdin,· London 1991, pp 411-416.

فلم يلبث الجشاري أن مات فتولى تيمور وظيفته، ولا زال يتردد عند السلطان حتى تزوج شقيقته(١)، ثم انه غاضبها في بعض مكافحته ومقاله، فعيرته بما كان عليه من أول أمره وحاله، فسل السيف ونحاها على أنها تفر من بين يديه، فلم تكترث به ولم تلتفت إليه، فضربها ضربة أزهق بها نفسها، واسكنها رمسها، ثم لم يسعه إلا الخروج والعصيان، والتمرد والطغيان، إلى أن كان من أمره ما كان.

وكان السلطان اسمه «حسين» وهو من بيت الملك ونافذ الكلمتين، وتخت ملكه مدينة بلخ وهي من اقصى بلاد خراسان، ولكن كانت بحار أوامره جارية في ممالك ما وراء النهر إلى أطراف تركستان وقيل كان أبوه أمير مائة عند السلطان المذكور، وهو بالجلادة والشهامة بين أحزابه مشهور، ويمكن الجمع بين هذه الأقاويل باعتبار اختلاف الزمان، وتنقل الأحوال والحدثان، والأصح أن أباه ترغاي المذكور كان أحد أركان دولة السلطان.

ورأيت في ذيل تاريخ فارسي يدعى المنتخب—وهو من بدو الدنيا إلى زمان تيمور وهو شيء عجب— نسباً يتصل منه تيمور إلى جنكز خان، من جهة النساء حبائل الشيطان، ولما استولى تيمور على ما وراء النهر، وفاق الأقران، تزوج بنات الملوك فزادوه في ألقابه «كوركان» وهو بلغة الموغول الختن، لكونه صاهر الملوك، وصار له في بيتهم حركة وسكن، وكان للسلطان المذكور من الوزراء أربعة، عليهم مدار المضرة والمنفعة، هم أعيان الممالك، وبرأيهم يقتدى السالك، والترك لهم قبائل وشعب، تكاد توازي قبائل العرب، وكل واحد من هؤلاء الوزراء كان من قبيلة، لسراج أرائه في بيوت تعميرها فتيلة طويلة، قبيلة أحدهم تسمى ارلات، وقبيلة الثاني تدعى «جلائر»، وقبيلة

---

١ — اسمها: أولجاي توركان آغا، وهي كما يذكر ابن عرب شاه أخت السلطان حسين، ولعل هذا الزواج كان سنة ٧٥٧ هـ/ ١٣٥٦ م، وقد أنجبت هذه الزوجة لتيمور بنتا هي سلطان بخت.

الثالث يقال لها «قاوجين»، وقبيلة الرابع اسمها «برلاس»، وكان تيمور ابن رابعهم في الناس، فنشأ شابا لبيباً، مصراعا هماماً حازماً جلداً أريباً، وكان يصاحب نظراءه من أولاد الوزراء، ويعاشر أضرابه من فتيان الأمراء، إلى أن قال لهم في بعض الليال، وقد اجتمعوا في مكان خال، وأخذت منهم العشرة والنشاط، وارتفعت أستار الأسرار، وامتد للبسط بساط: ان جدتي فلانه— وكانت من ذوي القيافة والكهانة—رأت مناماً ما ذاقت منه أحلاماً، وعبَّرته بأنه يظهر لها من الأولاد والأحفاد، من يدوخ البلاد ويملك العباد، ويكون صاحب القران، وتذل له ملوك الزمان، وذلك هوأنا، وقد قرب الوقت ودنا، فعاهدوني أن تكونوا ظهراً وعضداً، وجناحاً ويداً، وأن لا تستحيلوا عني أبداً، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وتقاسموا أن يكونوا في السراء والضراء معه لا عليه، ولم يزالوا يتجاذبون أطراف هذا الكلام، في كل مقام، ويتفاوضون فيض غدير هذا الغدر من غير احتشام واكتتام، حتى أنس برقه قاطن كل مصر وشام، وخاض في حديثه كل قديم هجرة من خاص وعام، وشعر به السلطان، وعلم أن غرس خلافه في دوح المملكة بان، فأراد أن يرد كيده في نحره، ويريح الدنيا من شره، والعباد والبلاد من عاره وعرّه، ويعمل بموجب ما قيل:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

فأخبره بذلك بعض الناصحين فخرج، وهوى إلى حضيض العصيان وهو سالم فعرج، ويمكن أنه في بعض هذه الأوقات، وأثناء هذه الحالات، توجه إلى الشيخ شمس الدين المشار إليه، واستمده كما ذكر فيما عول عليه، فإنه كان يقول: جميع ما نلته من السلطنة، وفتحته من مستغلقات الأمكنة، إنما كان بدعوة الشيخ شمس الدين الفاخوري، وهمة الشيخ زين الدين الخوافي، وما لقيت من بركه، إلا بالسيد بركه، وسيأتي ذكر زين الدين وبركه، ثم قال تيمور ما فتحت أبواب السعادة

والدولة علي، ولاضحكت عروس فتوحات الدنيا إليّ، إلا من سهام سجستان ومن حين أصابني ذلك النقصان، أنافي ازدياد إلى هذا الزمان.

والظاهر أن بدوّ أمـره وخـروجـه في تلـك الفئة، كـان فيها بين الستين والسبعين والسبعمائة، وقال لي شيخي الإمام العالم العامل، الكامل المكمل الفـاضل، فريـد الدهر وحيد العصر، عـلامـة الورى، أستـاذ الدنيا عـلاء الدين، شيخ المحققين والمدققين، قطب الزمـان، مرشد الـدوران، أبوعبد الله محمد بن محمـد بن محمد البخاري(١) نـزيل دمشق أدام الله تعالى أيام حيـاته، وامـد الاسلام والمسلمين بميـامن بركـاته، في شهـور سنة ست وثلاثين وثمانمائـه، إن تيمـور قتل السلطان حسيناً المذكـور في شعبـان سنة إحدى وسبعين وسبعمائه، ومن ذلك الوقت استقـل بالملك، وكانت وفاته في شعبـان سنة سبع وثمانمائة على مـا سيأتي فمدة استيـلائه مستقـلاً ست وثلاثون سنة، وذلك خارجا عن مدة خروجه وتحرمه إلى حين استيلائه.

ولماخرج صار هو ورفقاؤه يتحرمون في بلاد ما وراء النهر، ويعاملون الناس بالعدوان والقهـر، فتحرك لدفعهم كل ظاعن وسـاكن، وضيقوا عليهم تلك المغـاني والأمـاكـن، فقطعـوا جيحـون، وصفـر منهم ذلك المكان، فـاشتغلوا بالمحـرم في بـلاد خـراسـان، خصـوصـاً في نواحي سجستـان، ولاتسأل عما أفسـد في فـدافـد خـراسـان، ومفـاوز باورد، وماخان فـذهب بعض الليالي وقد أضر بهم السغب، واشتعل فيهم من الجوع اللهب، فدخل حائطا من حـوائط سجستان، قد أوى إليه بعض رعاء الضان، فاحتمل منها رأساً وأدبر، فشعر به الراعي وأبصر، فاتبعه للحين، وضربه بسهمين، أصـاب بأحـدهما فخذه وبالآخـر كتفـه، فلله دره سـاعـداً أذ أبطل بهذا الضرب الموزون نصفـه، ثم أدركـه واحتمله، وإلى سلطـان هـراة المسمى بملـك حسين(٢) أوصلـه، فبعد ضربه، أمر

---

١ — هو أبو عبد الله محمد بن محمد البخاري (٧٧٩—٨٤١هـ/ ١٣٧٧—١٤٣٨م) قدم دمشق من ايران وسكن فيها وتوفي: انظر شذرات الذهب لابن العماد ج ٧ ص ٢٤١.

٢ — هذا الملك هو غير الأمير حسين المتقدم الذكر، فقد كان هذا من أسرة كرايت التي حكمت هراة، انظر ستانلي لين بول، الدول الاسلامية ص ٥٣٣

بصلبه، وكان للسلطان ابن رأيه غير متين، يدعى ملك غياث، فشفع فيه، واستوهبه من أبيه، فقال له أبوه إنه لم يصدر عنك ما يدل على صلاحك، ويسفر عن نجابتك وفلاحك، وهذا جغتائي حرامي مادّة الفساد، لئن أبقي ليهلكنّ العباد والبلاد، فقال ابنه وماعسى أن يصدر من نصف آدمي، وقد أصيب بالدواهي ورُمي، ولاشك أن أجله قد اقترب، فلا تكونن في موته السبب، فوهبه إيّاه، فوكل به من داواه، إلى أن اندمل جرحه، وبرىء قرحه، فكان في خدمة ابن سلطان هراة، من أعقل الخدم وأضبط الكفاة، فتوفرت عنده حرمته، وارتفعت درجته، وسُمعت كلمته، فعصى من نواب السلطان، نائبه المتولي على سجستان، فاستدعى تيمور أن يتوجه إليه، فأجابه إلى ذلك وعول عليه، وأضاف إليه طائفة من الأعوان، فوصل إلى سجستان، وقبض على نائبها المتمادي في العصيان واستخلص أموال تلك البلاد، وأخذ من أطاعه من الأجناد، وتلا آية العصيان بالجهر، وارتحل بمن معه إلى ماوراء النهر.

وقيل بل كان في خدمة ابن السلطان إلى أن ودّع أبوه الحياة وانتقل، واستقرَّ ولده في الملك واستقل، فعند ذلك هرب تيمور إلى ماوراء النهر، وقد قوي منه الرأس والظهر، وكان إذ ذاك قد اجتمع عليه رفقاؤه، وانحاز إليه أصحابه المتحرمون وعشراؤه، فأرسل غياث الدين الطلب وراءهم، وقصد أن يكفي المسلمين شرهم وعناءهم، وهيهات فقد كان سبق العذل السيف، وضيع اللبن في الصيف.

(ذكر عبوره جيحون على فترة، وماجرى من العبرات بهذه العبرة)

فوصل تيمور وجماعته إلى جيحون، وكان إذ ذاك مثلهم طاغياً، ولم يمكنهم التواني لأن الطلب كان خلفهم ساعياً، فقال تيمور لأصحابه: النجاء النجاء، ليتعلق كل منكم بعنان فرسه ومعرفته، وليلق نفسه في الماء، وتواعدوا إلى مكان، وقال: توجهوا من غير توان، فمن لم يأت

الموعد، يُعلم أنه قد فقد، فتهافتوا هم وخيولهم في ذلك الماء العجاج، والتيار الزخار والأمواج، تهافت الفراش على السراج، ولم يعلم واحد منهم حال الآخر، ولااطلع من تقدّم منهم على أمر من تأخر، وكابدوا أهوال الموت، وشاهدوا أهوال الفوت، فنجوا ولم ينقص منهم أحد، واجتمعوا إلى ذلك الموعد، وذلك بعد أن أمنت منهم البلاد، واطمأن في مسالكها كل رائح وغاد، جعلوا يتجسسون الأخبار، ويتتبعون الآثار، ويحاربون الله ورسوله، ويؤذون عباده ويقطعون سبيله، ولم يزل على ذلك يجري ويمشي، إلى أن قصد مدينة قرشي(١).

ذكر ما له جرى من الخبطة، في دخوله إلى قرشي وخلاصه من تلك الورطة

فقال يوما لأصحابه، وقد أضر به الدهر واضرى به، وأخصب منهم ربع الفساد وأعشب: إن بالقرب منا مدينة «نخشب» مدينة أبي تراب النخشبي، رحمه الله عليه مدينة مصونة، مسورة مكنونة، لئن ظفرنا بها لتكونن لنا ظهراً وملاذاً، وملجأ ومعاذاً، وإن حاكمها موسى لو حصلناه، وأخذنا ماله وقتلناه، لتقوينا بماله من خيول وعده، ولحصل لنا الفرج بعد الشده، وأنا أعلم لها من ممر الماء درباً، هين الوصول واسعاً رحباً، فشمروا ذيلهم، وتركوا في مكان خيلهم، واستعملوا في نيل مرادهم ليلهم، ودخلوا حبس المدينة، وقصدوا بيت الأمير، ورفعوا أيديهم، فصادفوا يدهم والحصير، وكان الأمير في البستان خارج البلد، فأخذوا ما وجدوا له من أسلحة وعدد، وركبوا خيله، وقتلوا من وجدوا من الأكابر غيلة، فاجتمع عليهم أهل البلد، وأرسلوا إلى الأمير فأدركهم بالمدد، فتراكم عليهم البلاء باطناً وظاهراً، فلم يجدوا لهم سوى الاستسلام ناصراً، فقال له أصحابه، لقد ألقينا

١ — هذه هي التسمية المغولية لمدينة نسف، وقد ورد اسمها عند الجغرافيين العرب أحياناً نخشب، وقد مرّ بها ابن بطوطة سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م، ووصفها

بأنفسنا إلى حقيقة الهلاك من هذا المجاز، فقال: لا عليكم ففي مثل هذه المواطن يمتحن الرجل ويزان، فاجمعوا كيدكم ثم إئتوا صفاً، واندفعوا نحو باب المدينة يداً واحدة زحفاً، حاطمين على العدو، من غير توان ولا هدو، فإني أظن أنه لا يثبت لكم شيء، ولا يقف أمامكم حي، فامتثلوا أمره ورفعوا الصوت، وقصدوا الباب خائضين غمار الموت، وهجموا على العساكر هجوم الليث، واندفقوا ولا اندفاق الغيث، ففتح لهم عند الباب، لأمر يريده مسبب الأسباب، فلم يلو أمامهم أحد على أحد، ولا نفعه ما هو فيه من العَدد و العُدد، ثم انثنوا إلى مكانهم سالمين، ولم يزالوا على ذلك عائثين غانمين، واجتمع عليهم أصحابهم، وانحاز إليهم في الفساد أضرابهم، فصاروا نحو من ثلاثمائة، وبمن يتحيز إليهم من أهل الشرفئه، فأرسل إليهم السلطان عسكراً غير مكترث بهم فكسروه، واستولوا على حصن من الحصون فجعلوه معقلاً لكل ما إدخروه شعر:

لا تحقرن شأن العدو وكيده ... فلربما صرع الأسودَ الثعلبُ

وقيل: إن البعوضة تدمى مقلة الأسد

وقيل: لربما قمرت بالبيدق الشاه

ذكر من أسر في فتنة ذلك الجاف واستعبده من أحرار ملوك الأطراف

وأرسل تيمور إلى ولاة بلخشان(١)، وكانت الولاية بها لأخوين وهما بها مستقلان، تلقيا ذلك عن أبيهما، وكان السلطان نزعها من أيديهما، ثم أقرهما فيها على أن يكونا من تحت أمره واسترهن أولادهما عنده فصارا أسيري قهره، فلما راسلهما تيمور على طاعته، أجابا ودخلا تحت كلمته.

---

١ — ذكرها الجغرافيون العرب، وهي منطقة واسعة مرتفعة في جنوب شرق بلاد ما وراء النهر، وهي التي تعرف حديثاً باسم هضبة بامير

ذكر نهوض الموغول على السلطان، وكيف تضعضعت منه الأركان

ثم إن الموغول نهضت من جهة المشرق على السلطان حسين، فاستعد لهم وقطع جيحون ووقع الحرب بين الجهتين، فانكسر السلطان، فراسلهم أيضاً ذلك الجان، واسم حاكمهم «قمر الدين خان»، فأجابوا مراده، واقتفوا ما أراده، وسلطوه على السلطان ليستخلص من يده بلاده، وواعدوه بمصاهرتهم، وأمدوه بمظاهرتهم، ورجعوا إلى بلادهم وقد أسلموه زمام قيادتهم، فقويت بذلك شوكته، وسكنت القلوب هيبته، فلم يسع السلطان إلاّ بذل الجهد والإمكان، في إطفاء نائرته، وقطع دابرته، فجعله نصب عينيه، وتوجه بنفسه إليه، بعسكر جرار، كالبحر الزخار، حتى انتهى إلى مكان يسمى قاغلغار، وهو صدفان، بينهما مضيق، هو الجادة العظمى والطريق، يسير المار في ذلك مقدار ساعة، وفي وسط الدرب باب إذا أغلق وأحمي، فلا شيء مثله في المناعة، وحواليه جبال، كل منها عرنينه قد شمخ، وقدمه قد غاص ثبوتاً ورسخ، فصح أن يقال فيه أنف في السماء، واست في الماء، فأخذ العسكر فم ذلك الدربند، من جهة سمرقند، وتيمور الجانب الآخر، وهو كالمضايق والمحاصر.

ذكر الحيلة التي صنعها، والخديعة التي ابتدعها

فقال تيمور لأصحابه: إني أعرف ههنا جادة خفيه، مسالكها أبيه، لا تطأها الخُطا، ولا يهتدي إليها القطا، فهلم نسري ليلنا، ونقود في المسرى خيلنا، فنصبحهم من ورائهم وهم آمنون، فإن أدركناهم ليلاً فنحن الفائزون، فأجابوه إلى ذلك، وشرعوا في قطع تلك الوعور والمسالك، وساروا ليلهم أجمع، وبلغ الفجر المطلع، فأدركهم الصباح ولم يدركوا الجيش، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتنكد لهم العيش، ولم يمكنهم الرجوع، وأذنت الشمس بالطلوع، فوصلوا إلى العسكر وقد أخذ في التحميل وعزم على الرحيل، فقال أصحابه: بئس الرأي فعلنا، في قبضة العدو حصلنا، لقد وقعنا في الأشراك، وألقينا بأيدينا أنفسنا إلى

الهلاك، فقال تيمور: لا ضرر، توجهوا نحو العسكر، وانزلوا بمرأى منهم عن خيلكم، واتركوها ترعى، وأقضوا من ورد النوم والراحة ما فاتكم في ليلكم، فتراموا عن خيلهم كأنهم صرعى، وتركوا خيولهم ترعى... شعر:

واذا السعادة لاحظتك عيونها	نم فالمخاوف كلهن أمان
واصطد بها العنقاء فهي حبائل	واقتد بها الجوزاء فهي عنان

فجعل العسكر يمر بهم، ويخال أنهم من أحزابهم، حتى إذا استراحوا، ركبوا خيولهم وصاحوا، ووضعوا السيوف في أكناف أعدائهم، راكبين أكتافهم من ورائهم، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وغادروهم جريحاً وصريعاً، وعم الخطب المدلهم، ولم يعلم أحد البلاء كيف دهم، واتصل الخبر بالسلطان، وقد خرج التلافي عن حيز الإمكان، فهرب إلى بلخ، وقد انسلخ من المملكة أي سلخ، وشرع تيمور في النهب، والغارات والسلب، ثم ضبط الأثقال، وجمع الأموال، ولمَّ رعاع الناس والمداره(١)، وأطاعوه وهم ما بين راض وكاره، واستولى على ممالك ما وراء النهر، وتسلط على العباد بالغلبة والقهر، وأخذ في ترتيب الجنود والعساكر، واستخلاص الحصون والدساكر، وكان نائب سمر قند وأحد الأركان، شخصاً يدعى«علي شير» من جهة السلطان، فكاتبه تيمور على أن تكون الممالك بينهما نصفين، ويكون معه على السلطان حسين، فرضي علي شير بذلك وقاسمه الولايات والممالك، وتوجه إليه، وتمثل بين يديه، فزاد في إكرامه وبالغ في احترامه.

ذكر توجهه إلى «بلخشان»، واستنصاره فيها على السلطان

ثم إنه ترك علي شير بعدما ركن إليه، وقصد بلخشان، فاستقبله ملكاها وتمثلا بين يديه، واتحفاه بالهدايا والخدم، وأمداه بالجيوش والحشم، فساروهما معه من بلخشان، قاصدين بلخ لمحاصرة السلطان،

---

١ — أي السادة والزعماء.

فتحصن منهم فأحاطوه به من كل مكان، فأخرج أولادهما الذين كانوا عنده في الرهان، فضرب أعناقهم بمرأى من أبويهم، ولم يرق لهم ولا منّ عليهم، ثم أنه ضعف حاله، وقل عنه خيله ورجاله فنزل مستسلماً للقضاء والقدر، راضياً بما ذهب في قضاء الله بما حلا ومر، فقبض عليه تيمور، وضبط الأموال ثم رد أميري بلخشان إليهما مكرمين، وتوجه إلى سمرقند ومعه السلطان حسين، وذلك في شعبان سنة إحدى وسبعين، بعدما خلا من الهجرة سبعمائة سنين، ووصل إلى سمرقند واتخذها دار ملكه، وشرع في تمهيد قواعد الملك ونظمها في نظام سياسته وسلكه، ثم انه قتل السلطان، وأقام من جهته شخصاً يدعى «سيورغاتمش» من ذرية جنكيز خان، وقبيلة جنكيز خان هم المتفردون باسم الخان والسلطان، لأنهم هم قريش الترك، لايقدر أحد أن يتقدم عليهم، ولا تمكن أحد من انتزاع ذلك الشرف من أيديهم، ولو قدر أحد على ذلك، لكان تيمور الذي استخلص الممالك وسلك المسالك، فرفع سيورغاتمش دفعاً للمطاعن، وقطعاً للسان سنان كل طاعن، وإنما لقب تيمور «الأمير الكبير»، وإن كان في أمره كل مأمور منهم وأمير، والخان في أسره كالحمار في الطين، وشبيه الخلفاء بالنسبة في هذا الزمان إلى السلاطين، واستمر بعلي شير نائباً في سمرقند وكان يكرمه، ويستشيره في أموره ويقدمه.

ذكر وثوب «توقتاميش خان» سلطان الدشت (١) وتركستان

ثم إن توقتاميش خان سلطان الدشت والتتار، رأى ما جرى بين تيمور والسلطان فار دم قلبه، وغار، وذلك لعلة النسب وبسبب الجوار، وهيأ العسكر الجرار، والجيش الزخار، وتوجه إلى مصاف تيمور من جهة سغناق، وأترار،(٢) فخرج إليه تيمور من سمرقند، وتلاقيا باطراف

١— الدشت بالفارسية هي الصحراء، ومع ذلك قصد بهذه التسمية بلاد القبجاق.

٢— سغناق من مدن ما وراء النهر على نهر سيحون تدعى الآن صوناق قورغان، وأترار أيضاً من مدن ما وراء النهر على نهر سيحون، وهي إلى الجنوب الشرقي من سغناق.

تركستان قريباً من نهر خجند(١) وهو نهر سيحون، وسمر قند بين نهري سيحون وجيحون، فقامت بين العسكرين سوق المحاربة، ولم ينفق بينهم فيها سوى معاملات المضاربة، ولا زالت رحى الحرب تدور، إلى أن انطحن عسكر تيمور، فبينا عسكره قد فل، وعقد جنوده انحل، وإذا برجل يقال له السيد بركه قد أقبل، فقال له تيمور، وهو في غاية الضرر: يا سيدي السيد جيشي انكسر، فقال له السيد لا تخف، ثم نزل السيد عن فرسه ووقف، وأخذ كفاً من الحصا، وركب فرسه الشهبا، ونفخها في وجه عدوهم المردي، وصاح بقوله ياغي قاجدي(٢)، وصرخ بها تيمور تابعاً ذلك الشيخ النجدي، وكان عباسي الصوت(٣)، فكأنه دعا الإبل الظمأى بمجوت جوت(٤)، فعطفت عساكره عطفة البقر على أولادها، وأخذت في المجالدة مع أضدادها وأندادها، ولم يبق في عسكره من جذع، ولا قارح، إلا وهو بقوله "ياغي قاجدي" صائح، ثم إنهم كروا كرة واحدة، بهمة متعاقدة، ونهمة متعاضدة، فرجع جيش قوقتاميش منهزمين، وولوا على أعقابهم مدبرين، فوضع عسكر تيمور فيهم السيوف، وسقوهم بهذا الفتوح كاسات الحتوف، وغنموا الأموال والمواشي، وأسروا أوساط الرؤوس والحواشي.

ثم رجع تيمور إلى سمرقند، وقدضبط أمور تركستان وبلاد نهر خجند، وعظم لديه السيد بركة، وحكمه في جميع ما استولى عليه وملكه، وهذا السيد اختلف القول فيه، فمن قائل إنه كان مغربياً بمصر حجاماً، فذهب إلى سمرقند، وتسيدبها وعلا قدره وتسامى، ومن قائل إنه كان من أهل المدينة الشريفة، ومنهم من يقول إنه من أهل مكة المنيفة،

١— خجند واقعة على بعد خمسين كم جنوبي الضفة اليسرى لنهر سيحون، وذلك في سهل فرغانة، وإلى الجنوب الشرقي من طشقند (انظر فهارس كتاب تركستان حتى الغزو المغولي لبارثولد).

٢— أي انمحق وباد.

٣— شهر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوة صوته

٤— نداء بالفارسية لتجميع الجمال.

وعلى كل حـــال فإنه كـان من أكبر الأعيـــان في بلاد مــا وراء النهـر وخراســان، لاسيما وقد أمدّ تيمـور بهذه النجدة، وخلصـه بهذه اللطيفة المصادفة للقضاء والقـدر في هذه الشدة، فقال تيمور تمنّ علي، واحتكم لدي، فقـــال له : يا مـولانــا الأمير، إن أوقـاف الحرمين الشريفين في الأقـاليم كثير، ومن جملة ذلك اندخـوي(١) من ممالك خـراسـان، وأنا وأولادي من جملة مستحقي ذلك الإحســان، وإذا أقيم أصل ذلك وخصمه، وعلم قضمه وخضمه(٢) وضبطت أوقافه، ومصارف ذلك وصرافه، مـاكانت حصتي وحصة أولادي،أقـل من هذه القصبة في هذا الوادي، فأقطعني إياها ، مع مضـافاتها وأعمالها وقـراها، وهي إلى الآن في يد بني أولاده، وأسباطه وأحفاده.

ذكر علي شير مع تيمور، وما وقع بينهما من المخالفة والشرور

ثم إن تيمـور وقع بينـه وبين علي شير مخالفـه، وإنحـاز إلى كل منهما طائفة، فاغتاله تيمور وختله، ثم قبض عليه وقتله، فصفت الولايات والممالك لتيمور بعـض الصفا، وهرول إلى طاعته من النـاس، كل وجه ورأس كانا في التأبي وقفا.

ذكر ماجرى لزعار سمرقند والشطار، مع تيمور وكيف أحلهم دار البوار

وكـان في سمـــرقند طائفـة من الزعـــار كثيرون، وهم أنواع فمنهم مصارعـون ومنافقون، ومـلاكمون ومعـالجون، وهم فيما بينهم فـرقتان، كالقيس واليمن، والعداوة والمقاتلة بينهم قائمة على ممر الزمن، ولكل طائفة منهم رؤوس، وظهور وأعضاء وضروس، وكان تيمور مع أبهته يخافهم، لما كان يظهر له عنادهم وخلافهم، فكان إذا قصد جانباً، أقام له في سمرقند نائبـاً، فإذا بعد عن المدينة، خرج من تلك الجماعـة طائفة،

١— اندخوي: مدينة في شمالي خراسان، على بعد / ٧٠كم- من الضفة اليسرى لنهر جيحون (تركستان)
٢— أي ما انكسر وقطع.

فخلعوا النائب، أو خرجوا مع النائب، وأظهروا المخالفة، فما يرجع تيمور إلا وقد انفرط سلك نظامه، وتخبطت أموره، وتشوش مقامه، فيحتاج إلى تجديد وتمهيد، وتخريب وتشييد، فيقتل ويعزل، ويعطي ويجزل، ثم يتوجه لتمهيد ممالكه، وتوطيد مسالكه، فيعودون إلى عكرهم، ويؤوبون إلى ختلهم ومكرهم، وتكررت هذه القضية نحواً من تسع مرار، فضاق تيمور ذرعاً بالأشرار والزعار، فأعمل الحيلة في اغتيالهم، وكف أذاهم واستئصالهم، فصنع سوراً، ودعا إليه الخلائق كبيراً وصغيراً، وصنف الناس أصنافاً، وجعل كل ذي عمل إلى عامله مضافاً، وميز أولئك الزعار مع رؤسائهم على حده، وفعل معهم ما فعله أنوشروان بن كيقباذ بالملاحدة، وأرصد له في أحد الأطراف أنصاراً، وقرر معهم أن كل من أرسله إليهم يولونه دماراً، ويكون إرساله إليهم على قتله شعاراً، ثم إنه جعل يدعو رؤوس الناس، ويسقهم بيده الكأس ويخلع عليهم أفخر اللباس، وإذا أفضت النوبة من أولئك الزعار إلى أحد، سقاه كأسه، وخلع عليه، وأشار أن يتوجه به إلى نحو الرصد، فإذا وصل إليهم خلعوا عنه خلعته بل وثوب الحياة، فهتكوه، وسكبوا عسجد قالبه في بوتقة الفناء فسبكوه، إلى أن أتى على آخرهم، واستوفى بذلك قطع دابرهم، ومحا آثارهم، وأظفارهم، فصفت له المشارع، وخلا ملكه من مجاذب ومنازع، ولم يبق فيما وراء النهر ممانع ولا مدافع.

فصل في تفصيل ممالك سمر قند، وما بين نهري بلخشان وخجند

فمن ذلك سمرقند وولاياتها وهي سبعة تومانات، **وإندكان**(١) وجهاتها وهي تسعة تومانات، والتومان عبارة عما يُخرج عشرة آلاف مقاتل، وفيما وراء النهر من المدن المشهورة، والأماكن المعتبرة المذكورة، سمرقند وسورها قديماً على ما زعموا إثنا عشر فرسخاً وكان ذلك على

١ــ هي من مدن سهل فرغانة.

عهد السلطان جلال الدين قبل جنكيز خان، ورأيت حدَّ سورها من جهة الغرب قصبة بناها تيمور وسماها دمشق ومسافتها عن سمرقند نحومن نصف يوم، والناس إلى الآن يحفرون سمرقند العتيقة ويخرجون دراهم وفلوساً سكتها بالخط الكوفي، فيسكبون الفلوس ويخرجون منها فضة، ومن مدن ما وراء النهر «**مرغينان**»(١) وهي التخت كانت قديماً، وبها كان ايلك خان، ومنها خرج الشيخ الجليل العلامة برهان الدين المرغيناني صاحب الهداية(٢) رحمه الله، **وخنجد** وهي على ساحل سيحون، **وترمذ** وهي على ساحل جيحون، و«**نخشب**» و«**قرشي**» المذكورة، **والكش وبخارى واندكان**، وهي أماكن مشهورة، وغير ذلك من الولايات ، **بلخشان** وممالك **خوارزم** وأقليم **صغانيان** إلى غير ذلك من الأطراف الواسعة، والأكناف الشاسعة، وفي عرفهم ما وراء النهر إلى جهة الشرق توران، وما كان في هذا الطرف إلى جهة الغرب إيران، ولما اقتسم «كيكاوس» وأفراسياب البلاد كانت توران لأفراسياب، وإيران لكيكاوس بن كيقباذ، وعراق هو مغرب إيران.

ذكر ابتداء ما فعله من التسلط بالقهرة بعد استقصائه ممالك ما وراء النهر

ولما صفت ممالك ما وراء النهر، وذلت لأوامره جوامح الدهر، شرع في استخلاص البلاد، واسترقاق العباد، وجعل ينسج بأنامل الحيل الأشراك والأوهاق، ليصطاد بذلك ملوك الأقاليم وسلاطين الآفاق، فأول ما صاهر الموغول وصافاهم، وهادنهم وهاداهم، وتزوج ببنت قمر الدين ملكهم، وصار آمناً من تبعتهم ودركهم، وهم جيرانه من جهة الشرق، ولا تباين بينه وبينهم ولا فرق، إذ العلة، وهي الجنسية والمصاهرة والمجاورة، حاصلة ، والملة وهي التوراة الجنكزخانية ممشاة في كلا الدولتين، فأمن شرهم، وكفي كيدهم وضرهم.

١— هذه أيضاً من مدن سهل فرغانة، واسمها اليوم مرجيلان.

٢— كتابه بالفقه اسمه الهداية في الفروع.

ذكر تصميمه العزم وقصده جمع الأطراف وأولا ممالك خوارزم

فحين أمن مكرهم، وسد بالمصالحة ثغرهم، صمم العزم على التوجه إلى ممالك خوارزم، وهم مجاوروه غربا بالشام، ومباينوه بتمشيه قواعد الإسلام، وتختهم مدينة جرجان، وهي من أعظم البلدان، وهذه المملكة ذات مدن عظيمة، وولايات جسيمة، تحتها مجمع الفضلاء، ومحط رحال العلماء، ومقر الظرفاء والشعراء، ومورد الأدباء والكبراء، ومعدن جبال الاعتزال، وينبوع بحار أهل التحقيق من أرباب الهدى والضلال، نعمها كثيرة، وخيراتها غزيرة، ووجوه فضائلها مستنيرة، واسم سلطانها «حسين الصوفي»، وهو من الاعتقادات الباطلة قد عوفي، ومدن ما وراء النهر وضع بعضها قريب من بعض، لأنها كلها مبنية باللبن والآجر على الأرض، وأهل خوارزم كأهل سمر قند في اللطافة، وأفضل من أهل سمرقند في الحشمة والظرافة، يتعانون المشاعرة والأدب، ولهم في فنون الفضل والمحاسن أشياء عجب، خصوصاً في معرفة الموسيقى والأنغام، ويشترك في ذلك منهم الخاص والعام، ومماهو مشهور عنهم، أن الطفل في المهد منهم، إذا بكى أو قال آه، فإن ذلك يكون في شعبة دوكاه(١)، فلما وصل تيمور إلى خوارزم، كان حسين صوفي غائباً عنها، فنهب حواليها وما وصلت يده إليه منها، ولم يقدر عليها، فلم يكترث بها ولا التفت إليها، ثم لم أطراف حاشيته، وعاد إلى مملكته.

ذكر عوده ثانياً إلى خوارزم

ثم إنه شدّ حزام الحزم، وكرّ ثانياً إلى خوارزم، باستعداد تام، وجيش طام، وكان سلطانها أيضاً غائباً، وأقام لجميلة بكرها خاطباً، فحاصرها، وصابرها، وشدد على أعناق مسالكها التلابيب، وكاد أن يتشبث بأذيالها

١ــ مرتبة من مراتب الصوت في الغناء. معجم الموسيقى العربية، تأليف د. حسين علي محفوظ ــط بغداد ١٩٦٤ــ ص ٧٧.

منه المخاليب، فخرج إليه رجل من أعيانها، وكان تاجراً وله قدم صدق عند سلطانها، يقال له حسن سوريج، والتمس أن يرفع عنهم ذلك الأمر المريج، وأن يبذل له ما طلب، في مقابلة ما يريد من أسير وسلب، فطلب منه حمل مائتي بغل فضة، ترفع إلى خزائنه نضه، فلم يزل يراجعه، ويلاطفه ويمانعه، حتى صالحه على ربع سؤاله، وقام المصالح بذلك من ماله، وصلب حاله، ووزن له ذلك في الحال، وأخذ تيمور في الترحال، وكف عن الأذى شياطين جنده، وعزم على التوجه إلى سمرقند.

ذكر مراسلته ملك غياث الدين سلطان هراه الذي خلصه من الصلب وراود فيه أباه

ثم إنه أرسل سلطان هراه ملك غياث الدين الذي كان مغيثه، عملا بقوله: كتب الله على كل نفس خبيثة، وطلب منه الدخول في ربقة الطاعة، وحمل الخدم والتقادم إليه بحسب الاستطاعة، وإلا قصد دياره، وبلغه دماره، فأرسل ملك غياث الدين يقول صحبةالرسول: أما كنت خادماً لي وأحسنت إليك، وأسبلت ذيل إحساني ونعمتي عليك، فختلت وقتلت، وفتكت وفللت، وفعلت فعلتك التي فعلت، وذلك بعد أن نجيتك من الضرب والصلب، فإن لم تكن إنساناً تعرف الإحسان، فكن كالكلب ، فعبر جيحون وتوجه إليه، فلم يكن لغياث الدين قوة الوقوف بين يديه، فأرسل إلى حشمه وسكان قراه، فاجتمعوا هم ومواشيهم حول هراه، وحفر خندقاً حول البساتين، محيطاً بالرعاع وضعفة المساكين، وحصر نفسه في القلعة، وحسب أن يكون له بذلك منعة، وذلك لركاكة رأيه أولاً وآخراً، وجمود قريحته، وقلة عقله وانعكاس فكره ودولته.

قلت شعراً:

من لم يصادف سعده تقديره | يخطفه في تدبيره تدميره

فلم يكترث تيمور بقتال وحصار، ولكن أحاطت به العساكر دائراً ما دار، ومكث تيمور في الأمن والدعة، وعدوه في الضيق بعد السعة، فاضطربت الرؤوس والحواشي، ومارت(١) الأنعام والمواشي، وغص البلد بالزحام، وهلكت الخواص والعوام، وأضناهم التعب، وعلاهم الصراخ والصخب، فأرسل إليه السلطان، يطلب منه الأمان، وعلم أنه اختنق بسببه، وأنه أعانه أولاً فبُلي به، فذكره سابقة العرفان، وما أسداه إليه من إحسان، وطلب منه تأكيد الأمان بالأيمان. فحلف له تيمور أنه يحفظ له الذمام القديم، وأن لا يراق له دم ولايمزق له أديم، فخرج إليه ودخل عليه، وتمثل بين يديه، فدخل تيمور إلى المدينة(٢)، وصعد إلى قلعتها الحصينة، وصحبته السلطان، وقد أحاطت به جنود هراة والأعوان، فأشار واحد من أصح أبطال صاحب هراة على السلطان، أن يقتل تيمور ، ويجعل نفسه فداه، وقال ما معناه: أنا أفدي المسلمين بنفسي ومالي، وأقتل هذا الأعرج ولا أبالي، فلم يجبه إلى إشارته، واستسلم لقضاء الله تعالى وإرادته، وقال: إن لله تعالى تصريفاً في عباده، ولا بد أن ينفذ فيهم سهم مراده، ولا مفر من القضا، ولا محيد عما قدر الله تعالى وقضى. شعر:

وإذا أتاك من الأمور مقدّرٌ   وفررت فنحوه تتوجه

وهذا سر لابد من ظهوره، فلا تبحث عن حقيقة أموره، فمن غالب القضاء غُلب، ومن ناهب الزمان سلب، ومن قاوى تيار المقدور غرق، ومن استلذ بالغفلة في مشارب اللهو شرق، وذكر في ذلك الوقت مقالة أبيه له، واطلع على حقيقته، ولكن السهم خرج فما أمكن رده إلى فوقته.

١ــ مارت: ثارت وتحركت.

٢ــ كان احتلال تيمور لهراة في المحرم ٧٨٣ هـ/ نيسان ١٣٨١ م.

ذكر اجتماع ذلك الجافي، بالشيخ زين الدين أبي بكر الخوافي

وكان في بعض قدماته خراسان، سمع أن في قصبة خواف، رجلاً قد منحه الله تعالى الألطاف، عالماً عاملاً، كبيراً فاضلاً، ذا كرامات ظاهرة، وولايات باهرة، وكلمات زاهره، ومقامات ظاهره، ومكاشفات صادقة، ومعاملات مع الله تعالى بالصدق ناطقة، يدعى الشيخ زين الدين أبا بكر، لطائر اجتهاده في حظيرة القدس أعلى وكر، فقصد تيمور رؤيته، وتوجه إليه وجماعته، فقالوا للشيخ: إن تيمور قادم عليك، وواصل إليك، يقصد رؤيتك، ويرجو بركتك، فلم يفه الشيخ بلفظه، ولارفع لذلك لحظه، فوصل تيمور إليه، ونزل عن فرسه ودخل عليه، والشيخ مشغول بحاله على عادته، جالس في فكره على سجادته، فلما انتهى إليه، قام الشيخ فاحدودب تيمور منكباً على رجليه، فوضع الشيخ على ظهره يديه، وقال تيمور: لولا أن الشيخ رفع يديه عن ظهري بسرعة، لخلته انقض، ولقد تصورت أن السماء وقعت على الأرض، وأنا بينهما رضضت أشد رض، ثم إنه جلس بين يدي ذلك المنتخب، على ركبتي الأدب، وقال له بالملاطفة في المحاورة، على سبيل الاستفهام لا المناظره: يا سيدي الشيخ لم لا تأمرون ملوككم بالعدل والإنصاف، وأن لايميلوا إلى الجور والاعتساف؟ فقال له الشيخ: أمرناهم وتقدمنا بذلك إليهم، فلم يأتمروا فسلطناك عليهم، فخرج من فوره من عند الشيخ وقد قامت منه الحدبة، وقال: ملكت الدنيا ورب الكعبة، وهذا الشيخ هو الموعود بذكره.

ثم ان تيمور قبض على ملك هراة، واحتاط على ما ملكت يداه، وضبط ولاياتها جانباً جانباً، وقرر لكل جانب نائباً، وتوجه إلى سمرقند قافلاً بها أمكنه، وحبس السلطان في المئذنة، وأوصد عليه بابها، ووكل بحفظه أصحابها، وأضاف إليهم أشد الحفاظ، الزبانية الشداد الغلاظ، وذلك لحلفه أن لا يريق دمه، وأن يحفظ له ذمه، فلم يرق له دماً، ولكنه قتله في الحبس جوعاً وظماً.

ذكر عوده إلى خراسان، وتخريبه ولايات سجستان

ثم عاد إلى خراسان(١)، وقد عزم على الانتقام من سجستان، فخرج إليه أهلها طالبين الصلح والصلاح، فأجابهم إلى ذلك على أن يمدوه بالسلاح، فأخرجوا إليه ماعندهم من عدة، ورجوا بذلك الفرج من تلك الشدة، فحلفهم وكتب عليهم قسامات بالغة، أن مدينتهم غدت من السلاح فارغة، فلما تحقق ذلك منهم وضع السيف فيهم، فأضاف بهم جنود المنايا عن بكرة أبيهم، ثم خرب المدينة فلم يبق بها شجر ولا مدر، ومحاها فلم يبق فيها عين ولا أثر، ورحل عنها وليس بها داع ولا مجيب، وما فعل ذلك بهم إلا لأنه أولاً منهم أصيب، وذكر لي الشيخ الفقيه زين الدين عبد اللطيف بن محمد أبي الفتح الكرماني الحنفي، نزيل دمشق بالمدرسة الجقمقية، في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، أن الذين تخلصوا من القتل من أهل سجستان، بهزيمة أو غيبة أوبنوع لطيفة من الله تعالى المنان، لما تراجعوا إليها، بعد رجوع تيمور عنها، أرادوا أن يجمعوا بها، فأضلوا يوم الجمعة وما اهتدوا إليه، حتى أرسلوا إلى كرمان من دلهم عليه.

ذكر قصد ذلك الغدار ممالك سبزوار، وانقيادها إليه، وقدوم واليها عليه

ثم لما أثار بسجستان ما أثار، قصد بعساكره مدينة سبزوار(٢)، وكان واليها يدعى حسن الجوري، مستقلاً بالإمارة وهو رافضي، فما أمكنه إلا الإطاعة، واستقباله من الهدايا والخدم بما استطاعه، فأقره على ولايته، وزاد في رعايته.

فصل: وكان من عادة تيمور ومكره أنه كان في أول أمره، إذا نزل

١— هذا هو قدومه الثالث في عام ٧٨٥ هـ / ١٣٨٣ م، وكان دافعه المباشر الرغبة في الانتقام من حاكم مازندران المدعو شاه ولي.

٢— من مدن خراسان غير بعيدة عن نيسابور—تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٤٤٢.

بأحـد مستضيفاً استنسبـه، وحفظ اسمـه ونسبه، وقـال له إذا بلغك أني استوليت، وعلى المهالك استقليت، فإئتني بعلامـة كذا، فإني أكافيك إذاً، فلماانتشر ذكره، وشاع أمـره، وفشا في الدنيا خبره وخُبره، هرعت الناس بالعـلائم إليـه، ووفدت من كل فـج عميق عليه، وكـان ينزل كل أحـد منزلته، ويحله مرتبته.

ذكر ما جرى لذلك الداعر في سبزوار مع الشريف محمد رأس طائفة الزعار

وكان في مدينة سبـزوار، رجل شريف من الشطار يدعى السيد محمد السربدال، معه جماعة من الرجال كلهـم زعار، يسمون السربدالية يعني الشطار، وكان هذاالسيد رجلاً مشهوراً، بالمآثر والفضائل مذكوراً، فقال تيمور: عليّ به، فإني ما جئت إلا بسببه، وقد كنت متشوقاً إليه، ومتشوفا لعلم ما لديـه، فدعوه له فـدخل عليه فقـام إليه واعتنقـه، وقابله ببشرة منطلقة، وأكـرمه وأدناه، وقال في جملة فحواه: يا سيـدي السيد قل لي كيف أستخلص ممـالك خـراسـان وأحـويها، وأني أحـوزها أدانيهـا وأقـاصيهـا، ومـاذا أفعل حتى يتم لي هذا الأمـر، وأرتقي هذا المسلك الصعب الوعر؟ فقال له السيد: يامولانا الأمير، أنارجل فقير وقير، من آل الرسـول، مـن أين أنا وهذا الفضـول، وإني وإن قيل لي شريف، رجل عاجز ضعيف، لا طاقـة لي بموارد الملك، ومن أنا حتى أتشاوف لمصـالح الملك، ومن داخـل الملوك أو خـارجهم، أو عـارضهم في أمـورهم أو مازجهم، كـان كـالعائم في مجمـع البحرين، وكـالجاثم في منتطح الكبشين، والخارج عن لغتـه لحّان، وشتـان مـابين المأمـون والطحـان، فقـال له: لابد أن تدلني على هذه الطـريقـة، وتخبرني عن المجـاز إلى هذه الحقيقـة، ولولا أنني تفـرست فيك ذلك، وتكهنت أن برأيك تقتـدى المسـالك، ولولا أنك أهل لهذه المعـرفـة، مـا فهت لك ببنت شفـه، ولا استغنيت عنك استغناء التفـه عن الرفـه، فإن فراساتي

أياسيـة(١)، وقضـاياي كلهـا قيـاسيـة، فقـال ذلك المشير: أيها الأمير، أوتسمع في هذا مقـالتي، وتتبـع إشـارتي؟ فقـال له: مـا استشرتك إلا لأتبعك، ولا جـاريتك إلا لأمشي معك، فقـال: إن أردت أن يصفـو لك المشرب، وتنال الممالك من غير أن تتعـب، فعليك بخـواجـه علي ابن المؤيد الطوسي(٢) قطـب فلك هذه الممالك، ومـركـز دائـرة هذه المسـالـك، فإن أقبل عليك بظاهره لم يكن ببـاطنه إلا معك، وإن ولى عنك بوجهه فلن يفيدك غيره ولن ينفعك، فكن على استجلاب خاطره وحضوره إليك أبلغ جـاهد، فإنه رجل صلب وظاهره وباطنه واحد، وإن طاعـة الناس منوطة بطاعتـه، وأفعال الكل مـربوطة بإشـارته، فما فعل فعلوا، فإن حط حطوا وإن رحل رحلوا.

وكان هذا الرجل -أعني خواجه علي المذكـور رجلاً شيعياً، موالياً عليـاً، يضرب السكة باسم الاثني عشر إمـاماً، ويخطب بأسمائهم وكـان شهماً هماماً، ثم قال السيد: يا أمير ادع خـواجه علي، فإن لبى دعوتك، وحضر حضرتك، فـلا تترك من أنـواع الاحترام والتـوقير، والإكـرام والتكبير، شيئاً إلا أوصله إيـاه، فإنه يحفظ ذلك لـك ويرعـــاه، وأنزله منزلة الملوك العظـام، في التعظيم والتـوقير والاحترام، ولا تدع معـــه شيئاً مما يليق بحشمتك، فإن ذلك كله عائد إلى حرمتك وعظمتك.

ثم خـرج السيـد من عند تيمـور، وجهـز قـاصـده إلى الخواجـه علي المذكور، يقول له إنه قد مهد له الأمور، فإن جاءه قاصده فلا يتوقف عن الطاعـه، ولا يقعد عـن التوجـه إليـه ولا ساعـه، ويكون منشرح البـال، آمنا سطواته في الحال والمال، فـاستعـد خـواجـه علي لقـدوم الوارد، وورود القـاصـــد، وهيأ الخدمـات، والتقــادم والحمـولات، وضرب باسمــه واسم متــولاه الدرهم والدينـار، وخطب باسمهما في

١— نسبة إلى إياس بن معاوية، وكان عظيم الدهاء، سريع البديهة.

٢— طوس هي مدينة مشهد الآن في إيران.

جوامع الأمصار، وقعد لأمره منجزاً، وأقام للطلب مستوفزاً، وإذا بقاصد تيمور جاءه منه بكتاب، فيه من ألطف كلام و ألين خطاب، يستدعيه مع انشراح الصدر، وتوفير التوقير وتكثير البر، فنهض من ساعته، ملبياً بلسان طاعته، ولم يلبث غير مسافة الطريق، وقدم بأمل فسيح وعهد وثيق.

فلما أخبر بوفوده، جهز لاستقباله أساورة جنوده، وسُر سروراً شديداً، وكأنه استأنف ملكاً جديداً، فلما وصل قدم هدايا فاخره، وتحفاً متكاثره، وطرائف ملوكية، وذخائر كسروية، فعظمه تعظيماً بالغاً، وأولاه إنعاماً سائغاً، وأسبل على قامة رجائه من خلع إعزازه وإكرامه ذيلاً سابغاً، واستمر به على ولايته، وزاد في بره وكرامته، فلم يبق في خراسان أمير مدينة، ولا نائب قلعة مكينة، ولا من يشار إليه إلا وقصد تيمور وأقبل عليه، فمن أكابرهم أمير محمد حاكم باورد، وأمير عبد الله حاكم سرخس، وانتشرت هيبته في الآفاق، وبلغت سطوته مازندران، وكيلان، وبلاد الري والعراق، وامتلأت منه القلوب والأسماع، وخافه القريب والبعيد، وعلى الخصوص شاه شجاع(١)، وكل هذا في مدة قصيرة، وأيام قلائل يسيرة، نحواً من سنتين، بعد قتله السلطان حسين.

ذكر مراسلة ذلك الشجاع، سلطان عراق العجم أباالفوارس شاه شجاع

ولما صفت له بلاد خراسان، وأذعن لطاعته كل قاص ودان، راسل شاه شجاع سلطان شيراز وعراق العجم، يطلب منه الطاعة والانقياد وإرسال الأموال والخدم، ومن جملة كتابه، وفحوى خطابه: إن الله تعالى سلطني عليكم، وعلى ظلمة الحكام، والجائرين من ملوك الأنام،

١— شاه شجاع أحد أمراء الأسرة المظفرية التي حكمت في شيراز. انظر معجم الأسرات الحاكمة لزمباور ج ٢ ص ٥٢٦.

ورفعني على من نـاوأني، ونصرني على من خـالفنـي وعـاداني، وقــد رأيت وسمعت، فإن أجبت وأطعـت فبهـا ونعمت، وإلا فـاعلم أن في قـدومي ثلاثة أشيـاء: الخراب، والقحط والـوباء، وإثم كل ذلك عـائـد عليك، ومنسـوب إليك، فلم يسع شاه شجـاع إلا مهادنته ومهـاداته، ومصاهرته ومصـافاته، وزوج ابنتـه بابن تيمور، ولم يتم ذلك السرور لحدوث الشرور، فـانقبضت تلـك المبـاسطة بواسطة افسـاد الواسطة، وتثريب الخطابة، وتخريب الماشطة، قلت بديهاً مضمناً، شعراً:

إذا انتخبت لأمــر عــز واسطةً	فــاحــذر دهاه وكن منـه على وجل
واعلم بأن طبـاع الإنس قـد جُبلت	مـن الجفـاء ومـن مكـر ومن دُخَـل
فـلا تثـق منهم يـومـاً بواسطـة	وأشرع بنفسـك فيـه غير متكـل
فـإنما رجل الـدنيـا وواحـدهـا	من لا يعـول في الـدنيـا على رجل

ومدّ عنان الكلام، في هذا المقـام، يخرجنا عن المرام، ولكن ثمت رياض المحبة زاهرة، وأرباض المودة عامرة، وقفول المراسلة والمصادقة بين الطرفين سائـرة، واستمروا على ذلك من غير نزاع، إلى أن توفي شاه شجاع(١)، وكان شاه شجاع هذا رجل عالماً فاضلاً، يقرر الكشاف تقريراً شافياً كامـلاً، وله شعر رائق، وأدب فائق، فمن شعره العربي على ما قيل، شعر:

ألا إن عهــدي في الغــرام يطـول	وأسبــاب صبري لا تـزال تـزول
أصــون هـواهـا كلما ذر شـــارق	ولكـن بها بي قــديـم نحــول
ومن لم يذق صرف الصبــابة في الصبـا	علمـت يقينـاً أنـه لجهــول

ومن شعره الفارسي:

---

١ — توفي في ٢١ شعبان ٧٨٦ هـ/ ٨ ايلول ١٣٨٤.

اى بكام عاشقان حسنت جميل   كي كزينم ديكري برتوبديل
كر زيادت غافلم عيشم حرام   ورزجورت دم زنم خونم سبيل
هركسى تدبير كاري ميكند   مارها كرديم بانعم الوكيل

وهو شاه شجاع بن محمد بن مظفر، وكان أبوه من أفراد الناس ومن أهل البر، يسكن ضواحي يزد، وأبرقوه(١)، ذا بأس شديد يخافه القريب والبعيد ويرجوه.

وكان قد نبغ بين يزد وشيزار، حرامي عربي من آل خفاجة، سدّ على سالكي الطريقة حقيقة المجاز، يدعى جمال لوك، أفقر الغني، وأباد الصعلوك، لا يبالي بالرجال قلت أوكثرت، ولا يكترث بكواكب النبال اذا الكواكب على رأسه انتثرت، فأباد طائفة من البلاد، وأهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، فكمن له أبو شجاع، في بعض وهد أو بقاع، ثم قابله مواجهه، وكافحه مشافهه، ونازله فصرعه، وقطع رأسه وانتزعه، فقصد برأسه السلطان، فقدمه على سائر الأعوان، وأقطعه أماكن عده، وقربه وجعله عدّه لكل شيء، وكان له عدة أولاد، وأقارب وأحفاد، كل منهم رئيس مطاع، فمن أولاده شاه مظفر، وشاه محمود، وشاه شجاع، فصار كل منهم ذا كلمة نافذه، ويد مطيعه آخذه، ولم يكن للسلطان ولد ينقر وراءه في أمور الملك أو ينقب، فلما أقبل عليه رائد المنية أجابه، وولى مدبراً ولم يعقب، وكان إذ ذاك قد ثبتت أوتاد محمد بن مظفر، فتقدم في السلطنة ومن سواه تأخر، فصار في ممالك عراق العجم الملك المطاع، واستقل من غير تشاق ونزاع وتصرف في المهالك كيف يشاء، وردّاه(٢) الله خلعة ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء﴾(٣) ومات في حياته ولده شاه مظفر المشهور، وخلفه ولده

١ — يزد: مدينة معروفة الآن في إيران، وابرقوه مثلها أيضاً، تبعد عن شيراز نحو عشرين فرسخاً، إلى الشمال الشرقي منها.

٢— أي ألبسه.

٣— سورة آل عمران الآية: ٢٦.

منصور، ثـم جرى بين شاه شجـاع وبين أبيه، من النـزاع والشرور مالا خير فيـه، وقبض على أبيـه وقهـره، وفجعـه بكريمتيـه وأعـدمـه بصره، وتمكن من السلطنة واستقر، وكان به مـرض جوع البقر، بحيث أنه كان لا يقد ر على الصـوم لا في السفر ولا في الحضر، وكـان كثيراً ما يـدعو الله الغفـور، أن لا يجمع بينه وبين تيمـور، فلما أدركـه الأجل، وطوى فـراش الموت منه بسـاط الأمل، أحضر مـاله مـن الأقـارب والأولاد، وقسم عليهم الممالك والبـلاد، فـولى ابنه لصلبـه زين العـابدين، شيراز، وهي كـرسي الملك، ومقصـد الوافـدين، وأقطع أخـاه السلطان أحمد ولايات كرمان، وأعطى ابن أخيه شاه يحيى يزد، وابن أخيه شاه منصور أصفهـان، وأسند وصيته بذلـك إلى تيمور، وخلد ذلك في رق منشـور، وأشهد على ذلك من حضر مجمعه، فكان كمن سلم الريح لأبي زوبعة.

ولما أدمج الموت ثوب عمـر شـاه شجـاع، انتشرت بين أقـاربه شقق الشقاق والنزاع، فقصد منصور زين العابدين وقبض عليه، واستولى على شيـزار وفجعه بكريمتـه، وخالـف عمه ونقض حبل عهـده، وفعل مع أبيـه ما فعله أبوه بجـده، وحبل هذه القضيـة ممدود، والاشتغال بنقضـه وابرامه يخرج عن المقصود، فـانمعص تيمور وامتعض، وتجرع الغصص وارتهض، ولكن إرتقب في ذلك انتهاز الفرص.

ذكر توجه تيمور ثالثة، إلى خوارزم بالعساكر العابثة العائثه

ثم إن تيمور جدد الحزم، وصمم العزم على التوجه إلى خوارزم، فتوجه إلى تلك البـلاد، من خـراسـان على طريق أستراباد، وكـان سلطانها أيضـاً غـائبـاً، فأراد أن يولي عليهم من جهتـه نائبـاً، فخرج إليـه حسن المذكـور وصالحه، واشترى منه الشرور والمقـابحة، وقال لـه: يا مولانا الأمير: كلنا عندك أسير، ولكن سلطاننا غـائب، واذا أقيم علينـا من جهتك نائب، ثم رجع إلينا السلطان، فلا بد أن يقع بينهما شنآن، وإذا كان الأمر كذا، فلربما يصل إلي منه أذى، فيكون ذلك سبب تأكيـد العداوه، ويزداد بينكما الجفـا

والقســـاوه، فيفيـض حنقك على المسلمين، ويقع فســـاد ﴿والله لا يحب المفسدين﴾(١) وهب أن حسين صوفي صار نائبك، فكل الخلق يجب عليه أن يراعي خدمتك وجـانبك، ورأيك أعلى، واتباع مـرسومك أولى، فسمع تيمور كلامه، وقبل قوله وقوض للرحيل خيامه، وكان لحسن المذكور ابن غير فالـح، له عمل صالح، فكأنه فتك بحظيـة من حظايا السلطان، وذاع ذلك في المكان، وفاح ذفره في أنف الزمـان، فلم يتقيد بذلك الفعل القبيح حسن، وقال: إن لي على السلطان منناً وأي منن، حيث حميت بلده من كل ظلوم كفار، وبذلت في ذلك مالي ووجاهتي ثلاث مرات، فلا بد أن يقابل هذه المصالحة، بالعفو وعن جريمة ولدي والمسامحة.

فلما آب السلطان من سفره، واطلع على حقيقة الأمر وخبره، قبض على حسن وولده وقتلهما، وألقـاهما بين يدي أســد قهـره فأكلهما، وخـرب ديارهما، ونقل إلى خـزائنه شعارهما ودثارهما، ثم لم يلبث حسين صـوفي أن توفي، وولي ولده يوسف صـوفي، وكـان تيمــور قبل ذلك قـد صـاهرهم، وناصرهم على مخالفيهم وظاهرهـم، وزوج ابنا له يدعى جهـان كير، عقيلة منهم ذات قــدر كبير، وأصل خطير، ووجــه مستنير، أحسن من شيرين، وأظرف من ولادة، ولكونها من بنات الملوك كانت تدعى خانزاده، فولدت له محمد سلطان، وكان في نجابته، وإقباله ساطع البرهان، فلما شاهد تيمور في شمائله مخائل السعـاده، وقد فـاق في النجابة أولاده وأحفـاده، أقبل دون الكلل عليه، وعهـد مع وجود أعمامه إليـه، لكن عاند الدهر ذلك الظلوم، فتوفي قبله في آق شهر من بلاد الروم، وسيأتي ذكر ذلك.

ذكر توجه ذلك الباقعه، إلى خوارزم مرة رابعه

فلما سمع تيمور، ما جرى على حسن من الشرور، تحنق وشدد الازم، ووجــه ركـاب الغضب إلى خــوارزم، فأخـذهـا وقتل سلطانها، وهدم

١— سورة المائدة—الآية: ٦٤.

أركانها، وخرب بنيانها، وولى على ما بقي منها نائباً من عنده، ونقل جميع ما أمكنه عنهـا، الى ممالك سمرقند، وتاريخ خراب خـوارزم عذاب، كما ان تاريخ خراب دمشق خراب.

ذكر ما كان ذلك الجان، راسل به شاه ولي أمير ممالك مازندران

ثم إنه لما كان توجه إلى خراسـان، راسل شاه ولي أمير ممالك مازندران، وكـاتـب الأمـراء المستقلين بذلـك المكان، فمنهـم إسكندر الجلابي، وأرشيـوند، وإبـراهيم القمي، واستـدعـاهم إلى حضرتـه، كما هو جـاري عادته، فأجابه بالضرورة إبراهيم وأرشيوند واسكندر، وتأبى عليه شاه ولي ذلك الغضنفر، فلم يلتفت إلى خطابه، وخشن له في جوابه.

ذكر مراسلة شاه ولي سلاطين العراق وما وقع في ذلك من الشقاق وعدم الاتفاق

ثم أرسل شاه ولي إلى شاه شجاع سلطان عراق العجم وكرمان، وإلى السلطان أحمد بن الشيخ أويس متولي عـراق العرب وأذربيجان، يخبرهما بورود خطابه، وصـدور خطابه، ثم قـال: أنا ثغـركما، وإن انتظم أمـري انتظم أمـركما، وإن نزل بي منه بائقـه، فإنها بممالككما لاحقـه، فإن ساعدتماني بمدد، كفيتكما هذا النكد، وإلا فتصيران كما قيل شعراً:

من حُلقت لحيـة جـارٍ لـه ... فليسكـب الماء على لحيتـه

فأما شـاه شجاع فإطرح قوله ورماه، وهادن تيمـور كما ذكر وهاداه، وأما السلطان أحمد فأجـاب بجواب مهمل، وقـال: هذا الأشل الأعرج الجغتـائي ما عسـاه أن يفعل، ومن أين ومن أين، لـلأعرج الجغتـائي أن يطأ العـراقين، وإن بينه وبين هذه البـلاد، لخرط القتـاد ولكم بين مكان ومكان، فلا يخل العراق كخراسـان، ولئن عقدت على التوجه إلى ديارنا نيته، لتحلن به منيتـه، ولترحلن عنه أمنيته، فإنّا قـوم لنا البأس والشدة،

والعُـدة والعـده، والدولة والنجـده، ولنا يصلح التشـامخ والتأبي، حتى كأنه قال فينا المتنبي:

نحن قـــــوم ملجنّ في زي نـاس   فـــوق طير لها شخـــوص الجمال(١)

فلما علم ذلك منهم شـاه ولي، وأيقن أن كلا منهما عن شجـوه خلي، قال: أمـا أنا فوالله لأواقفنه، بعزم صـادق ونفس مطمئنة، فلئن ظفرت به لأنددن بكما في الأمصار، ولأجعلنكما عبرة لأولي الأبصـار، وإن ظفر بي فلا علي مـا يصل إليكما، فلينزلن القضاء الطام والبـلاء العام عليكما، ثم استعد للقائه، واستسلم لقدر الله تعالى وقضائه.

ولما ترأى الجمعان، واتصلـت المراشقة بالضرب والطعان، ثبـت شاه ولي ساعة لما نابه من شره وهره، ثم ولى الدبر لما حطمه ما رأى من كره وفـره، وتبع السنة في الفـرار مما لا يطاق، وتوجـه إلى الري إذ أمكنه التوجه إلى العـراق، وكان بها أمير مستقل يدعى محمد جـوكار، متصرفاً بحكومته في تلك القـرى والأمصار، وكان كريماً شجاعـاً وملكاً مطاعاً، ومع ذلك فإنه داري تيمـور، وراعى منه بعض الأمور، وخـاف سطوته وبأسه، فقتل شاه ولي وأرسل إلى تيمور رأسه.

ذكر ما جرى لأبي بكر الشاسباني من الوقائع مع ذلك الجاني

وكـــان في بعض ولايات مـازنـدران، رجل يسمى أبا بكر من قـــرية تدعى شـاسبان، وكـان في الحروب، كالأسـد الغضوب، وكان قـد أباد وأبار، الجم الغفير من عسـاكر التتار، إذا انتمى في المجـال، لا تثبت له الرجـال، وإذا وضع العمامـة، أقـام فيهم القيامـة، ولا زال يكمن بين الروابي والجبـــال، ويجندل الجنود والأبطال، حتى صـــارت تضرب به الأمثـال، وترعد منه الفـرائص ولو في طيف الخيال، فكان القـاتل منهم يقـول لمركـــوبه إذا علق عليـــه أو سقـاه، فتأخـــر عن الماء أو جفل من

---

١ — ديوان المتنبي ص ١٨٣ من ط . بيروت ١٩٦٩.

المخـلاة: كأن أبا بكر الشـاسبـاني في الماء أو بين العليـق تراه، وقيل لم يتضرر عسكر تيمـور في مـدة استيـلائـه، مع كثـرة حـروبه ومصـافـاته وإبلائــه، إلا من ثلاثة أنفــار، أضروا به وبعســاكـره غــاية الإضرار، وأوردوا كثيراً منهم مـوارد النار، أحـدهـم أبو بكر الشـاسبـاني، وثانيهم سيدي علي الكردي، وثالثهم أمة التركماني، فأما أبو بكر هذا فذكروا أنه في بعض مضائق مازندران، تغلب عليـه الجغتائي من كل مكان، وسدوا عليـه وجــه المخلص، وشـدوا حبل المقنص، فألجأه إلى جــرف مقـابله جـرف، مقـدار ثمانيـة أذرع مـا بين الجرف إلى الجرف، كأن قعـره جب النقير، أو واد في قعر السعير، فنزل أبـو بكر عن جواده المضمـر، وطفر وطمر(١) من أحد الجرفين إلى الآخر، بما عليـه من السلاح والمغفر، ولم ينل منه ضراً، أو نجـا كما نجا تأبط شراً، ثـم اتصل بحاشيتـه وأبادهم، ونقل إلى طاحـون الفناء منهم من استكمل دياسهم وحصادهم، ثم مـا أدري أمره إلى ماذا آل، وكيف تقلبت به الأحوال.

وأما سيدي علي الكردي فإنه كان أميراً في بلاد الكرد، معه طائفة من الخيل الجرد، والرجــال غير المرد، في جبـال عـاصيـة، وأمــاكن وعـرة متقاصيــة، فكان يخرج هو وجماعته، ومن شملتـه طاعته، ويترك على فم المضائق، من هو به واثق، ثم يشن على عساكـر تيمور الغارات، ويدرك فيهم للمسلمين الثــارات، ويقتطع من حـــواشيهم، ومــا يمكنـه من مواشيهم، ثم يرجع إلى أوكاره، بما قضى من أوطاره، ولم يزل على ذلك الثبات في حياة تيمور، وبعد أن مات، إلى أن أدركته الوفاة ففات.

وأمـا أمـة التركماني، فإنه كـان من تراكمـة قـراباغ(٢)، وله ابنان قـد وضع كل منهما على قلب تيمـور أيـداغ(٣)، وكـانت الحروب والنزال،

١ — أي وثب

٢— قـراباغ بالفـارسيـة البستـان الأسـود، وهو مـوقع وسط أران بين نهري الرس (أراكس حـاليـا) والكر(كورا الحالي). لاسترنج: بلدان الخلافة الشرقية— ترجمة عربية، ط. بغداد ١٩٥٤— ص ٢١٣.

٣— داغ بالفارسية: وصم أو حزن، أو مصيبة.

بينهم وبين أمير انشاه(١)، وعساكراً لجغتاي لاتزال، وأفنوا من جماعتهم عـدداً لا يحصى، وجـانبـاً فـات الاستقصـاء، إلى أن غـدر واحـد من المنتسبين إليهم، فطلب غـرتهم، ودل عسكر أميرانشـاه عليهم، فبيتـوهم ليـلاً، وأراقوا من دمهم سيـلاً، فـاستشهد الثـلاثة في سبيل الله، رحمهم الله، قلت شعراً:

وأصعـب فتنـةٍ تشميـت الاعــــــدا وأنكـــــي منـــــه تخذيــــل الموالي

وقيل شعراً:

وظلم ذوي القــربى أشــدّ مضــاضــة على المرء مـن وقـع الحســـــام المهنـد

وقيل شعراً:

إذا كـــــان هذا بـالأقـــــارب فعلكم فماذا الـذي أبقيتـم لـلأبـاعـــــــــد

ذكر توجه تيمور إلى عراق العجم وخوض شاه منصور غمار ذلك البحر الخضم

ولما توفي شاه شجاع، ووقع بين أهله كما مـر نزاع، واستقر أمر عراق العجم على شـاه منصور، وخلصت ممالك مـازندران وولايتها لتيمـور، وكـان شـاه شجـاع قـد أوصى إلى تيمـور بولده زيـن العـابدين—كما ذكر—ووكل أمره إليه.

ووجـد تيمـور على شـاه منصـور طريقـاً بما فعلـه مع ابن عمـه زين العـابدين، فـاحتج بذلك ومشى عليـه، فـاستمـد شاه منصـور أقـاربه، فكلهم صار محاربه، وعـاد مجاذبه ومجانبه، وأقام كل منهم يحفظ جـانبه، فتهيأ لملاقـاته وحـده، بنحـو ألفي فارس كـاملي العـدة، بعـد أن حصن المدينة، وحـوطها بالأهبة المكينـة، ورتب خيلها ورجلهـا، وحرض على

١— أميرانشاه هو ابن تيمور، وتكتبه المصادر الفارسية ميرانشاه، وهو ثالث أبناء تيمور.

التصبر والتربص أهلهـا، فقال له أكـابر أعيـانها، والرؤوس من سكانها، كأنا بك في المقتحم، وسـدا الحرب قد التحم، وقد منعناه مـن الوصول إلينا، ودافعناه عـن الهجـوم علينا، وربما جنـدلنا رجـالاً، وأبطلنـا من عسكره أبطالاً، ثم بماذا تصنع أنت بألفي راكب، مع هذا الغمام المتراكم المتراكب، وربما يحل عقدك، أو يفل جندك، فلا ترى لنفسك في الهيجاء، إلا طلب الخلاص والنجـاة، وتتركنا لحماً على وضم، بعـد أن زلت بنا معهم القدم، ولا ينفعنـا بعد تأكيد العـداوة والندم، ولا يجبر منا إذ ذاك هذا الكسر، إلا بالقتل والنهب والأسر، فـوضع يده على دبوسـه شـاه منصور، وقال هذا الألف في الكاف السادسـة من أم من يفر من تيمور، أما أنا فأقـاتل وجندي، فإن خذلني جندي، قـاتلت وحدي، وبذلت في ذلك جـدّي وجهـدي، وعـانيت عليـه وكـدي(١)، فإن نُصرت نلت قصـدي، وإن قتلت فـلا علي ممن بقـي بعـدي، وكأني أنا كنت الحاضر، والخاطر في خاطر الشاعر حين قال شعراً:

إذا هـمَّ بين عينيـــه عـــــزمـــه ونكّب عن ذكـــر العـــواقب جـــانبـــا

وقيل إن شاه منصـور فرق رجاله على قلاعـه، وأراد بذلك حفظ مدنه فضـاع في ضيـاعـه، ثم جمع رؤسـاء شيـزار وأجنادها، وأفـلاذ كبـدها وأولادها، وقال: ان هذا عدو ثقيل، وهو وإن كـان خارجيا فهو في بلادنا دخيل، فالـرأي أني لا أنحصر معه في مكان، ولا أقاتلـه بضرب أو طعان، بل أنتقل في الجوانب، وأتسلط أنا ورعـاياي عليه من كل جـانب، فنصفع أكتـافهم، ونقطع أطرافهم، ونواظبـه بالنهـار ونراقبه بالليل، ونعـدّ له مـا استطعنا من قوة ومن رباط الخيل، وكلما وجـدنا منه غره، كسرنا منه القفا والغـره، فتارة ننطحـه، وأخرى نرمحه، وكـرة نجـدحه(٢)ومـرة نجرحـه، ونسلبه الهجوع، ونمنعه الرجوع، فتشتد عليه المضائق، وتنسد عليه الطرق

١— الوكد: القصد.

٢— أي نبادره بالهجوم ونخالطه.

والطرائق، غير أن القصد منكم يا أحرار، ويا نمور القفار، ونسور النفار، أن تحتفظوا بضبط الأسوار، ولا تغفلوا عنها آناء الليل وأطراف النهار، فإني ما دمت بعيداً عنكم، لا يدنو أحد منهم منكم، وإن حاصروكم ففيكم كفاية، واستودعكم الله وهو نعم الوقاية، وغاية ما تكونون في هذه البوسى، مقدار ما واعد الله نبيه موسى، ولله هذا الرأي ما كان أمتنه، ووجه هذا القصد ما كان أحسنه، ثم انه خرج ذاهبا، وقصد جانباً.

ذكر دقيقة قصدت، فحلت ونقضت ما أبرمه شاه منصور من عقد حين حلت

فبينما هو عند باب المدينة جائز، نظرته سعلاة(١) من مشومات العجائز، فبدرته بالملام وآذته بالكلام، ونادت بلسان الأعجام، انظروا إلى هذا تركش بحرام، رعى أموالنا، وتحكم في دمائنا، وفر وفارقنا أحوج ما نحن إليه في مخاليب أعدائنا، جعل الله حمل السلاح عليه حراماً، ولا أنجح له قصداً ولا أسعف له مراماً، فقدحت زناده، وجرحت فؤاده، وتأججت نيران غضبه، وأحرق رأس فؤاده أكداس تدبره، شواظ لهبه، وثارت نفسه الأبية، وأخذته حمية الجاهلية، حتى ذهب لب ذلك الرجل الحازم، وغلط فأمسى وهو لغلطه ملازم، فثنى عنان عزمه، وكز أسنان أزمه، وأقسم لا يبرح عن المقاومة، ولا يرجع في مجلس قضاء الحرب عن ملازمة المصادمة، ويجعل ذلك دأبه صباحاً ومساء وعشاء، إلى أن يُعطي الله النصر لمن يشاء، ثم قابل، ورتب أبطاله وقاتل.

وكان في عسكر شاه منصور، أمير خراساني مباطن لتيمور، يدعى «محمد بن زين الدين»، من الفجرة المعتدين، وجل العساكر كان معه، فسار إلى تيمور وأكثر الجند تبعه، فلم يبق منهم إلا دون الألف، فما فرّ واحد منهم من الزحف، فثبت شاه منصور، بعد أن تضعضعت منه

١ــ السعلاة: أنثى الغول

الأمـور، فلم تزل نيران الهيجـاء تنتطح، وزناد الحرب توري إذ تنقـدح، وشرار السهـام تتطاير، وثمار الرؤوس بمناجل السيـوف تقطف فتتناثر، حتى أقبل جيش الليل، وشمـر للهزيمة جند النهـار الذيل، فتراجع كل منهم إلى وكره، وأعمل شاه منصور فكره في مكره.

ذكر ما نقل عن شاه منصور، مما أوقع بعسكر تيمور، من الحرب والويل، تحت جنح الليل

فعمد إلى فرس جفـول، من بين الخيول، أجمح من دهر رمح، وأرمح من عصر جمح، واتى بها عسكر العـدو، وقـد أخـذ الليل في الهدو، ثم ربط في ذنبهـا قدراً من النحـاس، ملفوفـة في قطعة بلاس(١)، وشـدها شدة أحكم وثاقها، وصوب رأسها نحو العدو وساقها، فجالت الفرس في العسكر واضطربت، واختبطت الناس واحتربت، وانسـابت جـداول السيوف في بطون تلك النحور وانسربت، حتى كأن الساعة اقتربت، أو السماء عليهم بالشهـب انقلبت، والأرض بهم اهتــزت وربـت، وشـاه منصور واقف حواليهم، كالبازي المطل عليهم، يقتل من شذّ، ويبيد من فذّ، وصاروا كما قيل شعراً:

الليـل داجٍ والكبـــــــاش تنتطـح	نطـاح جـــدّ مــــا أراها تصطلـح
فقـــــانم وقـــــاعـــد ومنبطـح	فمن نجـــا برأســـه فقـــد ربح

قيل أنهم اقتتلـوا فيما بينهم، حتى فني نحـــو مـن عشرة آلاف نفس منهم، فلما قوض الليل خيامه، ورفع النهـار أعلامه، علموا البلاء كيف دهاهم، وليت الليل لم يكن فارق ذراهم، ثم أن شاه منصور أصبح وقد قل ناصره، وفل مـؤازره، فـانتخب من جماعته فئـه، نحواً من خمسمائـه، فجعل يصـول بهم صـولـة الأسـد، ويخوض بهم غمار الموت فـلا يلوى أمـامهم أحــد، ويميل يسرة ويمنة وينتسب، ويصيح أنا شــاه منصـور الصـــابـر المحتسب، فتراهم بين يـديه حمراً مستنفــرة ، فـــرت من

---

١ — البلاس: بساط من شعر، وجاء في رواية أخرى: لباس.

قسوره﴾(١) وقصد مكاناً فيه تيمور فهرب منه ودخل بين النساء، واختفى بينهن وغُطي بكساء، فبادرنه وقلن نحن حُرم، وأشرن إلى طائفة من العسكر المصطدم، وقلن هناك بغيك، وبين أولئك طلبتك، فألوى راجعاً، وتركهن مخادعاً، وقصد حيث أشرن إليه، وقد أحاطت به جموع العساكر وحلَّقت عليه، قلت بديهاً شعراً:

وما حز أعناق الرجال سوى النساء | وأيُّ بلاءٍ مـا هُنّ به أبلى

وكم نارُ شرٍ أحرقت كبد الورى | ولم يك إلا مكرهن لها أصلا

وكان على فرس فاقت خصالاً، فضرب فيهم بسيفين يميناً وشمالاً، وفرسه السبوح كانت تقاتل معه، وتصدم وتكدم من يقرب منها في تلك المعمعة، وكأنه كان ينشد معنى ما قلته في مرآة الأدب شعر:

يد الله فوقي إن تكن فغُلت يداهم | وهذي يدي فيهم بسيفين تضرب

فصار كلما قصد رعلة من تلك الرعال، افترقت أمامه يميناً وشمالاً، وإن كانوا كلهم من أهل الشمال.

ولكن شعر:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى | فأوّل ما يجني عليه اجتهاده

حتى انهكته الحرب، وكلت يداه من الطعن والضرب، وجُندلت أبطاله، وقتلت خيله ورجاله، وتغيرت من كل جهة أحواله، وسدت طرائقه، وشدت مضائقه، وخرست شقاشقه(٢) وضرست فيالقه، وخمدت بوارقه، وهمدت بيارقه، وحص(٣)نجاحه، وقص جناحه، وخف مراحه، وأثقلته جراحه، وسكتت همهمته، وسكنت غمغمته،

١— سورة المدثر— الآيتان: ٥٠—٥١.

٢— الشقاشق: جمع شقشقة وهو صوت كالهدير يخرج من صدر البعير إذا هاج.

٣— حص: قل ونقص.

فانفرد عن أصحابه، وقد آذاه الجراح وأودى به، ولم يبق معه في ذلك البحر، سوى نفرين أحدهما يدعى توكل، والآخر مهتر فخر، وأخذه الدهش، وغلب عليه العطش، ونشف الرهج والوهج كبده، وطلب شربة ماء فما وجده، ولو وجد ما يبل به ريقه، لما قدر أحد أن يقطع عليه طريقه، فرأى الأولى، أن يطرح نفسه بين القتلى، فاطرح بينهم نفسه، ورمى أهبته وسيب فرسه، وقتل توكل ونجا فخر الدين، وبه من الجراح نحو من سبعين، وعمر بعد ذلك حتى بلغ تسعين، وكان من الأبطال والمصارعين، فتراجع جيش تيمور وتضام، وانتعش بعد أن بلغ موارد الحمام، وذلك بعد أن قتل منهم مالا يعد، وأفنى ليلاً ونهاراً ما لا يحصى ولا يحد، وطفق تيمور في القلق، والضجر والأرق، لفقد شاه منصور، وعدم الوقوف على حال ذلك الأسد الهصور، أهو في الأحياء فيخشى فكره، أم انتقل إلى دار الفناء فيؤمن مكره، فأمر بتفتيش الجرحى، والتنقيب عنه بين القتلى والطرحى، إلى أن كادت الشمس تتوارى بالحجاب، ويغمد حسام الضياء من الظلام في قراب.

فعندما ضم دينار البيضاء، تحت ذيل ملاءة الضياء، ومد نساج القدرة في جو الفضاء سُداً، والليل إذا سجى، ونثر على سطح هذا الأديم المساء، دراهم كواكبه الزهراء، واتسع الظلام واتسق، عثر واحد من الجغتاي على شاه منصور وبه أدنى رمق، فتشبث شاه منصور بذلك الإنسان، بل الشيطان الخوان، وناداه: الأمان الأمان، أنا شاه منصور، فأكتم عني هذه الأمور، وخذ مني هذه الجواهر، وخافت قضيتي ولا تجاهر، وكأني لا رأيتك ولا رأيتني، ولا عرفتك ولا عرفتني، وإن أخفيت مكاني، ونقلتني إلى إخواني وأعواني، كنت كمن أعتقني بعدما اشتراني، ومن بعد ما أماتني أحياني، وكنت ترى مكافأتي، وتغنم مصافاتي، ثم أخرج له من الجواهر، ما يكفيه وذريته إلى اليوم الآخر، فكان في قصته واستكشاف غصته، كالمستغيث بعمرو عند كربته، فما عتم أن وثب على شاه منصور،

وحز رأسه وأتى به إلى تيمور، وحكى له ما جرى، بتنجيز المشترى، فما صدقه، ولا في كلامه استوثقه، بل أخرج من قبائله وشعوبه، من عرفه به، فعرفوه بشامة، كانت على وجهه علامة.

فلما علم أنه شاه منصور بعينه، وتميز له صدق ذلك الرجل من مينه، تحنق وتحيف، وتحرق لقتل شاه منصور وتأسف، ثم سأل الرجل عن محتده، وعن والده وولده، وعن قبيلته وذويه، ومخدومه ومربيه، فلما استوضح أخباره، وعلم نجاره ووجاره(١)، أرسل مرسومه إلى متولي تلك الداره، فقتل أهله وأولاده، وأعوانه وأنصاره، وآله وأحفاده، وأختانه وأصهاره وقتله شر قتله، ومحا آثاره، وصادر مخدومه وقتله، وخرب دياره، ثم أرسل إلى أطراف ممالكه مطالعات، يذكر فيها صور تلك المصافات والمواقعات، وما شاهد من وثبات شاه منصور وثباته، وغشيانه غمرات الحرب وضرباته، وما حصل في واقعة القتال على الحديد في صف مراسلاته، وكيف زلزلت العاديات، وولولت النساء في فتح حجراته، بعبارات هائله، وكلمات في ميادين الفصاحة والبلاغة جائله، وهذه المطالعات تقرأ في المحافل والمشاهد، وتتلى في المصادر والموارد، ويستمد منها ذووا الآداب، ويعتني بحفظها الكتاب والصبيان في الكتاب.

رأيت في أخبار بعض المعتنين، أنه في شوال سنة خمس وتسعين، ورد رسول صاحب بسطام، يؤذن سلطان مصر بالإعلام، إن تيمور، قتل شاه منصور، وأنه تولى على شيراز وسائر البلاد، وأرسل إليه رأسه إلى حاكم بغداد، وأمره بالطاعه، هو ومن معه من الجماعه، وأرسل إليه خلعه، وأن يضرب السكه باسمه ويخطب بذلك في الجمعة، فلبس خلعته وائتمر، ممتثلاً كلما به أمر، وأنه علق رأس شاه منصور، بعد ما طافوا به على السور، وما أظن لذلك صحة.

---

١ — الوجار: جحر الضبع، وهنا أراد أصله.

ذكر ما وقع من الأمور والشرور، بعد واقعة شاه منصور

فاستولى تيمور على ممالك فارس، وأرض عراق العجم، وراسل من داناه من أقارب شاه شجاع وملوك الأمم، واستمال الخواطر، وأمن البادي والحاضر، ورحل فجاز، مدينة شيزار، وضبط أحوالها، وقرر فيها خيلها ورجالها، ونادى بالأمان، للقاصي والدان، فلبت دعوته ملوك البلاد، ولم يسعهم معه إلا الإطاعة والانقياد، فوصل إليه سلطان أحمد من كرمان، وشاه يحيى من يزد، وعصى سلطان أبو اسحاق في سيرجان(١)، فأنعم وخلع على من أطاعه وانقاد، ولم يتعرض لمن أظهر العناد، ولم يشق بينه وبين مخالفيه العصا، وأكرم من أطاعه ليوقع بذلك من عصى، وطرح على شيزار وسائر البلدان مال الأمان، وأقام في كل بلدة من جهته نائباً وتوجه إلى أصبهان، وأحسن إلى زين العابدين الذي هو وصيه من أبيه، ووظف له من الجوامك والادرارات ما يكفيه وذويه.

ذكر ما صنع الزمان عند حلوله باصبهان

فلما وصل إلى أصبهان، وكانت من أكبر البلدان، مملوة بالأفاضل، محشوة بالأماثل، وبها شخص من علماء الاسلام، والسادة الأعلام، قد بلغ في العلم الغاية، وفي العمل والاجتهاد النهاية، أفعاله مبروره، وكراماته مشهوره، ومآثره مذكوره، ومحاسنه على جبهة الأيام مسطوره، وهو معتقد المسلمين، وكان كاسمه همام الدين، وكان أهل أصبهان يذكرون له تيمور، ويحذرون من شره أي محذور، فيقول لهم: ما دمت فيكم حياً، لا يضركم كيده شيا، فإن وافاني الأجل، فكونوا من أذاه على وجل، فاتفق أنه في وصول تيمور، توفي الشيخ المذكور، فأصبحت أصبهان ظلمات بعضها فوق بعض، بعد أن كانت نوراً على نور، فتضاعفت حسرتهم، وترادفت كسرتهم، فوقعوا في الحيرة، وصاروا كأبي هريرة، رضي اله عنه حيث يقول:

١ - ذكرها أبو الفداء في تقويم البلدان ص ٣٣٦ باسم سيرجان، وهي قاعدة منطقة كرمان.

فخرجـوا إليه وصـالحوه على حمل أموال، فأرسل إليهم لاستخـلاصها الرجـال، فوزعـوها على الجهـات، وفـرضوها على الحارات، والمحـلات، وتفـرق فيهم المستخلصـون، فكانوا يعيثـون فيهم ويعبثـون، واستطالوا عليهم، فجعلوهـم كـالخدم، وتوصلوا إلى أن مـــدوا أيديهم إلى الحرام، فانتكوا منهم أي نكاية، فرفـع أهل أصبهان إلى رئيسهم الشكاية، وكثرت منهم الشكية، وهم قوم لهم حمية، وقالوا: الموت على هذه الحالة، خير من الحيـاة مع هذه الإستطاله، فقـال لهم رئيسهم إذا أقبل المسـاء فإني أضرب الطبل لكن تحت كسـاء، فإذا سمعتم الطبـل قـد دق، فـالقـول قـد حق، فليقبض كل منكم على نزيله، وليحتكم فيـه بسمين رأيه وهزيله، فاتفقـوا على هذا الرأي المعكوس، والأمر المنكوس، في الطالع المنحوس، وقصروا أيدي أنظارهم السقيمة، عن قصارى هذه الأمور الوخيمه.

ولما تعرى العنان(١) من ثوب نوره، وأبدل الجوارقاقمه بسموره(٢)، ومضـى هزيـع من الليـل، ضرب الـرئيس الطبـل، فحل بـالمستخلصين الويل، فقتلوهـم وكانوا نحـواً من ستة آلاف، فأصبحوا وقد غـرسوا في دوح العصيان أغصان الخلاف، فأثمـر ذلك لهم الجور بعد الكور، وبان لهم البوار فأصبحوا بهذا البور.

ولما سل الفجر حسـامه، وحسر النهار لثامـه، بلغ تيمور ذلك الصنع المشـؤوم، فنفخ الشيطـان منه في الخيشـوم، فـارتحل مـن فـوره، واستل غضب غضبـه، ونثل جعبـة جـوره، وتوجـه إلى المدينة مـزمجراً، متكلبـاً متأسـداً متنمراً، فـوصل إليها، وأخنى عليهـا، وأمر بالدمـاء أن تسفك، وبالحرمـــات أن تنتهك، وبالأرواح أن تسلب، وبالأمـــوال أن تنهب، وبـــالعمارات أن تخرب، وبـــالـــزروع أن تحرق، وبـــالضروع أن تخرق،

١— العنان: السحاب.

٢— القاقم حيوان يشبه ابن عرس، والسمور: الناقة السريعة.

وبالأطفـال أن تطرح، وبـالأجســاد أن تجرح، وبالأعــراض أن تثلم، وبالـذمم أن تُسلم ولا تَسلم، وأن يطـوى بســاط الـرحمه، وينشر مسح النقمه، فلا يرحم كبير لكبره، ولا صغير لصغـره، ولا يوقر عالم لعلمه، ولا ذو أدب لفضله وحلمـه، ولا شريف لنسبه، ولا منيف لحسبـه، ولا غريب لغربته، ولا قريب لقرابتـه وقربته، ولا مسلم لإسلامه، ولا ذمي لذمامه، ولا ضعيف لضعفه، ولا جـاهل لركاكة رأيه وسخفه، وبالجملة فلا يبقى أحد، ممن هو داخل البلد.

وأمـا أهل المدينة فعلمـوا أنـه ليس للجـدل مجال، فضــلا عن ضراب وقتـال، وأن قبول الأعـذار محال، وأنه ليس ينجيهم من ريب المنون، مـال ولا بنون، ولا يقبل منهم في الســاعـة، ولا ينفعهـم عـدل ولا شفــاعـة، فتحصنوا بحصـون الاصطبـار، وتدرعـوا دروع الاعتبـار، وتلقـوا سهـام القضاء من حنايا المنايا، بمجن تسليم المراد، واستقبلوا ضربات القدور من سيوف الحتوف، بأعناق التفويض والانقياد، فأطلق في ميادين رقابهم عنان الحسام البتار، وجعل مقابرهم بطون الذئاب والضباع، وحواصل الأطيار، ولا زالت عـواصف الفناء تحتهم من أشجـار الوجـود حتى حصروا عـدد القتلى فكان نحـو ست مــرار من أمـة يونس بن متى، فــاستغـاث بعض البصراء، بواحـد من رؤوس الأمراء، وقـال: التقيـه في البقيه، والرعـاية في الرعية، فقال ذلك الأمير، للسائل الفقير، أجمعوا بعض الأطفال عند بعض القلل، فلعل أن يلين منه عند رؤيتهم شيئاً مـا عسى ولعل، فامتثلوا مـا به أمر، ووضعوا شرذمـة من الأطفال منه على الممر، ثم ركب ذلك الأمير مع تيمـور، وأخـذ به على تلك الأطفـال ومـر، ثـم قـال: انظر يا مخدوم، نظر الراحم إلى المرحـوم، فقـال مـا هؤلاء الطرحـاء الأشقيـاء؟ فقـال: أطفـال معصومون، وأمة مرحومون ومحرمون، استحرالقتل بوالديهم، وحل غضب مـولانا الأمير على أكـابرهم وذويهم، وهـم يسترحمون بعـواطفك الملوكيـة وصغرهم، ويستشفعـون إليك بذلهم وضعفهم ويتمهم وفقرهم وكسرهم،

أن ترحم ذلهم، وتبقي من بقي لهم، فلـم يحر جـواباً، ولا أبدى خطاباً، ثم مـال بعنان فرسـه عليهم، ولم يظهـر أنه بصر بهم، ولا نظر إليهم، ومـالت معـه تلك الجنود والعساكـر، حتى أتى منهم على الأول والآخـر، فجعلهم طعمـــة للسنابك، ودقـــة تحت أقـــدام أولئك، ثم جمع الأمـــوال، وأوسق الأحمال، ومال راجعاً إلى سمرقند بما قد نال(١).

وكم بين هذه الأمور والقضـايا، من دواه وبلايا، وحكايا وتجهيز سرايا، وتوليـة وعـزل، وإبراز هزل في صـورة جـد وجـدّ في صـورة هزل، وبناء وهد، وصد ورد، وتعمير غـامر، وتخريب عـامر، وتهان وتعـاز، وانحراف وتواز، ومبـاحثات مع علماء، ومناظرات مع كبراء، ورفع وضعـاء، ووضع شرفاء، وتمهيد قواعد، وتقريب أباعد، وتبعيد أداني، وبروز مراسيم إلى كل قاص وداني، إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصر، ولا يضبط بديوان ولا دفتر.

ذكر ضبطه طرف الموغول والجتا(٢)
وما صدر منه في تلك الأماكن وما أتى

ولما وصل إلى سمـرقنـد أرسل ابنه محمـد سلطان بـن جهـانكير، مع سيف الدين الأمير، إلى أقصى مـا تبلغ إليـه مملكته، وتنفـذ فيه كلمتـه، وهو وراء سيحـون شرقـاً سـوا، آخذاً في نحـور ممالك الموغـول والجتـا والخطا، نحواً من مسيرة شهر، عن ممالك ما وراء النهر، فمهدوا هنالك الوهد والبقـــاع، وبنوا فيـــه جملة مـن القـــلاع، وأقصـــاهـا بلد يسمى أشبـاره(٣) فبنوا فيـه حصناً حصيناً معـد للنهب والغـاره، وخطـب من بنات الملوك ملكة أخرى، وكانت الأولى تدعى الملكة الكبرى والأخرى

١— وقعت مذبحة أصفهان في ذي القعدة ٧٨٩هـ/ أوائل تشرين الثاني ١٣٨٧ م.

١— الجتا اسم أطلق على سكان الجناح الشرقي من بلاد المغول.

٢— حـدد مـوقعهـا بارثولد إلى الجنوب الغـربي من بحيرة ايسيق—كـول في آسيـا الوسطى، انظر v.v.Bartholol, Four studies on the History oF central Asia . vol I . Leiden 1462, p 61.

الملكة الصغرى(١)، فأجابهم ملكهم إلى ما سأل، وأناب إلى ما طلبه منه بالإطاعة وبذل، وارتجت منه أقاليم الموغول والخطا، وذلك لما بلغهم مما فتك، في كل طرف وبتك، من بلاد الاسلام وسطا، وكان السفير في ذلك الله دادأخو سيف الدين المذكور، وهو الذي استخلص أموال دمشق ونزل في دار ابن مشكور.

وأمر تيمور ببناء مدينة على طرف سيحون من ذلك الجانب، وعقد إليها جسراً على متن النهر بالمراسي والمراكب، وسماها شاه رخيه(٢)، وهي في أماكن رحبه، وسبب تسمية ابنه شاه رخ بهذا الاسم، ووسم هذه المدينة بهذا الوسم، أنه كان على عادته، مشغولاً بلعب الشطرنج مع بعض حاشيته، وقد أمر ببناء هذه المدينة على هذا الساحل، وكانت إحدى حظاياه معه وهي حامل، فرمى على خصمه شاه رخا، وذبل خصمه لذلك وارتخى، وبينما خصمه قد وقع في الأين(٣)، إذ بمبشرين جاءا مخبرين أحدهما يبشره بولد، والآخر يبشره بتمام عمارة البلد، فسماهما بهذين الاسمين ووسمهما بهذين الوسمين.

ذكر عود ذلك الأفعوان إلى ممالك فارس وخراسان وفتكه بملوك عراق العجم واستصفائه تلك الولايات والأمم

ثم عاد بعد تمهيد البلاد، وتوطيد قواعد ممالك تركستان، إلى بلاد خراسان(٤)، فاستقبله الملوك والأمراء، والسلاطين والوزراء، وسارعوا

١— الملكة الأولى كما هو مرجح دلشاد آغا بنت قمر الدين خان الجتا، والملكة الثانية أو الصغرى هي: تكن خانوم بنت خضر خواجا خان الجتا.

٢— الشاه رخية هي مدينة بناكث القديمة الواقعة على مصب نهر ايلاق (أنكرين الحالي)في سيحون، كان المغول قد هدموها أيام جنكيز خان، وقد جدد تيمور عمارتها عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م، وأطلق عليها الشاه رخية تكريماً لابنه شاه رخ، وتعرف أطلالها الآن باسم شاركيا.

Barthold, Four Studies, vol, p 61.

٣— الأين: التعب والاعياء

٤— غادر تيمور بلاد ما وراء النهر عام ٧٩٤ هـ/ ١٣٩٢م، ووصل إلى غربي ايران في عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م، حيث توقف في منطقة مازندران للقتال ضد بعض خصومه.

إليه من كل جانب، ما بين راجل وراكب، ملبين دعوته، حاذرين سطوته، مغتنمين خدمته، وسلموه الأنجاد والأغوار، والأطواد والقفار، والقرى وسكانها، والذرى وقطانها، والقلاع العاصية، وربطوا بذيل أمره كل ناصية، ممتثلي أوامره، مجتنبي زواجره، عاقدي نطاق عبوديته بأنامل الإخلاص، تابعي رائد مرضاته على نجائب الولاء والاختصاص، فهم جميع من مر ذكره من المطيعين، ومن كانوا في الشواهق ممتنعين منيعين، ومن جملتهم اسكندر الجلابي أحد ملوك مازندران، وارشيوند الفارسكوهي ذلك الأسد الغضبان، صاحب الجبال، الشوامخ العاصية القلال، وإبراهيم القمي صاحب النجدة، والمعد لكل شده، وأطاعه السلطان أبو اسحاق من شيرجان.

فاجتمع عنده من ملوك عراق العجم سبعة عشر نفراً ما بين سلطان وابن سلطان وابن أخي سلطان، كل منهم في ممالكه ملك مطاع، مثل سلطان أحمد أخي شاه شجاع، وشاه يحيى ابن أخي شاه شجاع، سوى ملوك مازندران، وسوى أرشيوند، وإبراهيم، وملوك خراسان، ولما سلك السلطان أبو اسحاق نمط أقاربه في الطاعة، وعمل على ذلك الطرز، خلف ببلده شيرجان نائبا يقال له كودرز، فاتفق في بعض الأيام، أنه اجتمع عند تيمور هؤلاء الملوك العظام، فكانوا عنده، في خيمة له وهو بينهم وحده، فأشار واحد منهم إلى شاه يحيى وقد أمكنت الفرصة، أن يقتله ويرفع عن العالم هذه الغصة، فأجابه بعض وامتنع بعض، وقال لمن رضي بذلك، من لم يرض: إن لم تكفوا، وعن هذا المقال تعفوا، أخبرته بهذه المقالة، واطلعته على هذه الحالة، فامتنعوا عن هذا الرأي المتين، والفكر الرصين، لاختلافهم ولا يزالون مختلفين.

وكأنه طالع أحوالهم، أو تفرس أقوالهم، فأسرها في نفسه، ولم يبدها لهم، ثم مكث أياماً، وجلس للناس جلوسا عاماً، وقد لبس ثياباً حمراً، ودعا هؤلاء الملوك السبعة عشر طراً، ثم أمر فقتلوا جميعاً في ساعة

واحــدة صبراً، ثــم لما أبادهم، ضبط بـلادهم وجمع طريفهم وتـلادهم، وقتل هؤلاء أولادهم وأحفــادهم، وأقـام في ممالكهــم أولاده، وأمـراءه وأحفاده وأجناده.

وسبب قتله هؤلاء الملـوك وفتكه، وتمزيقـه ستر حيــاتهم وهتكه، أن بلاد العجـم كـــانت لا تخلـو من الملـوك الأكـــابر، ومـن ورث الملك والسلطنة كابراً عن كـابر، وهي ممالك واسعة، أطرافهـا شاسعـة، مدنها وافـرة، وقـراها متكاثرة، وأوتادها راسخـة، وعـرانين أطوادها شـامخة، ومخدرات قـلاعهـا ناشـزة، ومضمـرات مكامنهـا ومعـادنها غير بارزة، وكـواسر أكـاسرها كـاسره، ونواشر جوارحهـا للظهـور ناشرة، ونمـور زعـارها طامـره، وببور(١)شطارهـا طافره، وثعـابين أبطالها في جـداول الجدل ظاهره، وتماسيح أقيـالها في بحـــار الضراب قـاهره، فنظر تيمـور بعين بصيرته، في وذيلة(٢) تأمله، ومـرآة فكـرته، فـرأى أنه لا يزكـو له ورد عـارضها من شـوكـة عارض، ولا يصفـو ورد ثغـرها فائضهـا من شارب معارض، ولا يثبت له في بنيان ممالكها أساس محكم، لا ينبت له في بستان ممالكها أغراس ينعم، وكان قصده ابقاء مبانيها، وإجراء أموره على مـا اقتضتـه التـوراة الجنكيزخـانيـة فيهـا، فلم يمكن عمل فـلاحـة لسلطنته في بسيط أرضها، وسـوق أنهار أوامره في ضرائب ممالكها طولها وعـرضهـا، إلا بقلع عـلاليق أنسـاب أكـابرها، وكسر قـوادم أخشـاب أحســاب أكـاسرها، فسعى في استئصـال فـرعهم وأصلهم، واجتهـد في إهلاك حرثهم ونسلهم، وجعل لا يسمع لهم ببـزرة نطفة في أرض رحم إلا قلعها، ولا يشم منهم رائحة زهرة في كم كمين إلا قطعها.

وقيل أنه كان في مجلس فيه اسكنـدر الجلابي وكأنه كان مجلس نشاط، ومقـــام إنشراح وانبســاط، فسأل اسكندر، في ذلك المحضر، وقـــال إن

١— جمع ببر وهو الأسد بالفارسية.

٢— الوذيلة: قطعة من الفضة جليت جيداً حتى أصبحت كالمرآة.

حكم القضاء بافساد بنيتي، من تراه يتعرض لأولادي وذريتي، فأجابه وهو في حالة الشطح، وقد حُلت عليه دماغه ووضع سراج العقل منها فوق السطح، أول من ينازع أولادك المشائيم، أنا وأرشيوند، وإبراهيم، فإن نجا من مخاليبي منهم أحد، فإنه لا يخلص من أنياب إبراهيم الأسد، وإن أفلت أحد منهم من ذلك البند، فإنه لا مخرج له من شراك أرشيوند، وكان أرشيوند، وإبراهيم غائبين، فلم يتعرض تيمور لاسكندر بضر وشين، وأراد بالابقاء عليه، وقرعه مع صاحبيه، فلما أفاق اسكندر ليم على ما قال، فقال: لا مفر من قضاء الله ولا مجال، ولا عتب في ذلك علي، أنطقني بذلك الله الذي انطق كل شيء، ثم إن اسكندر وإبراهيم هربا، فقبض على أرشيوند، وألقاه في النازعات فصار نبا، وهتك حريم عمر اذ جرعه أول الرعد وأقرأه آخر نوح وسبا(١)، ثم إن اسكندر لم ير له أثر، ولا سمع عنه إلى يومنا هذا خبر، وكان كبير الهامه، طويل القامة، إذا مشى بين الناس كأنه علامه، حتى قيل إن مدى ذلك القصر المشيد، كان نحواً من ثلاثة أذرع ونصف بالحديد، وإبراهيم القمي استمر على انكماشه، ثم مات على فراشه، فكان ذلك سبب ايراده الملوك وأبناءهم المهالك.

فصل: ثم إن تيمور عصى عليه كودرز في قلعة شيرجان، وقال: إن مخدومي شاه منصور موجود إلى الآن، وكان هذا الكلام، فاشياً في الخاص والعام، فكان كودرز يتوقع ظهوره، ويزجي(٢) على ذلك أعوامه وشهوره، فحاصر تيمور قلعة شيرجان، فلم يلح له عليها سلطان، فوجه إليها عساكر شيزار، ويزد، وأبرقوه، وكرمان، وأضاف

١- أول الرعد قوله تعالى: ﴿المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون﴾ وآخر نوح الآيتان: ٢٦-٢٧ ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا●إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا﴾وآخر سورة سبأ الآية: ٥٤ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب﴾.

٢- التزجية: دفع الشيء. العين.

إليهم عساكر سجستان، وذلك بعد أن شملها العمران، وكان نائبها يدعى شاه أبا الفتح، فحاصروها نحواً من عشر سنين، وهم ما بين ظاعنين عنها وعليها مقيمين، وهي بكر لا تفتح لطالبها بابا، وعابس لا يملك خاطبها منها خطابا، وكان تيمور ولى كرمان، شخصاً يدعى ايدكو من إخوان الشيطان، فكان هو المشار إليه، ومن العسكر هو المعول عليه.

ولما تحقق كودرز من شاه منصور وفاته، وخذله الأنصار وأعجزه الإنتصار وفاته، وكان أبو الفتح يراسله كل ساعه، ويتكفل له عند تيمور بالشفاعه، أذعن للصلح، واستعمل لذلك أبا الفتح، ونزل مترامياً عليهم، وسلم الحصن إليهم، فحنق ايدكو عليه، لكون عقد الصلح لم ينحل على يديه، فقتله من ساعته، ولم يلتفت إلى أبي الفتح وشفاعته، فأخبر تيمور بذلك، وكان في بعض الممالك فغضب عليه غضباً شديداً، ولكن فات التدارك.

فصل: مما يحكى عن ايدكو هذا متولي كرمان، أنه كان بها للسلطان، أحمد أخي شاه شجاع ولدان صغيران، أحدهما يدعى سلطان مهدي، والآخر سليمان خان، وكان سليمان خان في غاية الحسن واللطافة، حاوياً معاني الملاحة والظرافة، مبنى بالكمال، مربى بالدلال، ألفاظه رائقه، وألحاظه راشقه، والأرواح إليه شائقه، وأرباب الألباب له عاشقه، حركاته في القلوب ساكنه، ولفتاته للخلق فاتنه، كما قيل شعراً:

نسيمُ عبيرٍ في غُـــلالة مــــاءِ ... وتمثـــال نـورٍ في أديم هـواءِ

وعمره إذ ذاك ستة أعوام، ولكن مفتتن به الخاص والعام فعزم ايدكو على اتلافهما، وإلحاقهما بأسلافهما، ولم يكتف من تلك الدرة بأنها صارت يتيمه، ولا رق لأمها التي خربت ديارها، لكونها مخدرة كريمه، ولم يكن لها مدافع، ولا عنها ممانع، فطلب من الجلادين من يعتمد في ذلك عليه، فلم تطب نفس أحد أن تمتد يد بمكروه إليه، ومضى على ذلك مدة،

والخلق بسبب هذه القضية في ضيق وشده، حتى وجدوا عبدا ما أسود، كأنه للبلاء مرصد، وكأن الشياطين له عبده، والعفاريت له جنود وحفده، وثوب الليل من سدا سواده انتسج، وأصل الشجرة التي طلعها، كأنه رؤوس الشياطين من حبة فؤاده نبت فنتج، يستلذ عند صدى صوته خوار الثيران، ويستحسن عند خيال صورته مشاهد الغيلان، قلت شعراً:

زبانية النيران تكره وجهه وحين تراه تستعيذ جهنم

قد نزع الله من قلبه الرحمة، وجبل فؤاده على المأثمه، فأرغبوه في أن يختلهما، ويقتلهما، وكانت عين سليمان خان رمدا، وقد سكن في حجر دايته وتهدا، فدخل عليه ذلك الظالم من ساعته، واغتاله وهو راقد في حجر دايته، فضربه في جنبه بخنجر، أنفذه من الجنب الآخر، فارتفع الضجيج والولولة، ووقع العجيج في الناس والزلزلة، وعم المأتم أمه الوالهة وأهلها، وطفق الناس يبكون عليها ولها، والظاهر ان هذه الأمور، كانت بإشارة تيمور، وعسكر ذلك الظلوم الكفار، ما كان يخلو عن مثل هذه الشرور والأشرار، ولو كان فاعله من غيرهم، لكن لعلة المصاحبة والمرافقة كان يسير بسيرهم.

حكاية

لما ارتحل من الشام بجنوده الغزيرة، كان مع واحد منهم أسيرة، قد كشفت أيدي النوائب قناع عصمتها ولطمتها، وعلى يدها بنت لها رضيع ففطمتها، فلما قربوا إلى حماه، جعلت البنت تئن أنين الأواه، ولما بها من المضض المنكي، تتنكد وتبكي، ومعهم جمّال من بغداد، منطو على الفساد، محتو على النكاد، مجبول على الغلاظة والقساوة، معمول من الفظاظة والغباوة، ممتلىء من القذى، متضلع من الأذى، لم يخلق الله تعالى في قلبه من الرحمة شيئاً فينتزع، ولم يودع لسانه لفظاً من الخير فيستمع، فأخذ تلك من أمها، فدار في مهمها، إنه أخذها ليخفف عنها من همها، وكانت راكبة على جمل، ثم انقطع ساعة عن الثقل، ثم وصل

ويده خاليه، وقهقهته عاليه، فاستكشفت أمها حالها، فقال مالي ومالها، فهوى عقلها ووهى، فطرحت نفسها، ونحت نحوها، فأخذتها وانقلبت، وأتت وركبت، فتناولها منها مرة أخرى، على أن لا يسومها ضراً، ثم غاب عنها ورجع، وقد صنع كما صنع، فألقت نفسها ثانية، وعدت إليها ثانية، وجاءت وهي حانية، وقطوف حتوفها دانية، فركبت وأخذتها، ووضعتها على كبدتها، التي منها فلذتها، فأخذها منها مرة ثالثة، بنية في الفساد عابثه، وحلف لها يميناً حانثه، أنه يحملها وينوء، ولا يمسها بسوء، فحملها ساعة، ثم خرج عن سنة الجماعة، ورمى بها في بعض البطاح، ومثل بها فعله اليهودي بصاحبة الاوضاح، وجاء ويده الدامغة، بالإثم ملأى، ومن البنت فارغه، وقد سلبها سلبها، وجلب إلى أمها جلبها، فاطرحت نفسها باكية، ورامت الرجعى جاريه، فقال لها لا تتعبي، كفيتك هماً فارجعي وأركبي، فبكت وصاحت، وأنَّت وناحت، ووقعت في العناء، وإن كانت استراحت، والناس على دين ملوكهم، سالكون طرائق سلوكهم.

سبب دخوله إلى عراق العرب، وإن كان إبداؤه لا يحتاج إلى علة وسبب

ولما خلص لتيمور جميع ممالك العجم، ودانت له الملوك والأمم، وانتهت مراسيمه إلى حدود عراق العرب، غضب السلطان أحمد صاحب بغداد، واضطرب، فجهز جيشاً عرمرماً، وجعل رئيسهم أميراً مقداماً مقدماً، يدعى سنتائي، فتوجه الجيش نحو الجغتائي، فبلغ تيمور خبر الجيش وخبره، فسر بذلك قلبه وانشرح صدره، فجعل ذلك سبباً لمهاوشته، وذريعة لمحاربة ملك العراق ومناوشته، وأنفذ جيشاً كراراً، بل بحراً زخاراً، فتلاقيا بصدق نيه، على مدينة سلطانيه(١)، فصدق كل منهما صاحبه الضرب، وسدد لنحره ألسنة الأسنة وسهام الحرب،

١— بنى مدينة سلطانية الايلخان أولجانيو بن أرغون بن أباقا بن هولاكو في موقع قونغور أولانغ، في الجنوب الشرقي من تبريز، وعلى بعد ٣٠٠ كم عنها، واستغرقت عمارتها من ٧٠٤—٧١٣هـ/ ١٣٠٤—١٣١٣م، انظر لى سترانج—بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٥٧—٢٥٨.

واستمد بحر الجغتائي من أفواج أمواجه واصطدم، فانكسر في قساطله قنيات جند سنتائي فانهزم، ووصل فلهم إلى بغداد، وتشتتوا في البلاد، فألبس السلطان أحمد سنتائي المقنعة، وأشهره في بغداد بعد أن ضربه وأوجعه، وكف تيمور عن عناده، وقفل متوجها إلى بلاده(١).

ذكر سكون ذلك الزعزع(٢) الثائر، وهدو ذلك البحر المائر، لتطمئن منه الأطراف فيحطمها كما يريد ويدبر بها الدوائر

ثم إن تيمور خرج من سمرقند إلى ضواحيها، وجعل ينتقل في جوانبها ونواحيها، وبنى حواليها قصبات، سماهن بأسماء كبار المدن والأمهات، وقد صفت له سمرقند وولاياتها، وممالك ما وراء النهر وجهاتها، وتركستان وما فيها من البلاد، ونائبها من جهته يدعى خدايداد، وخوارزم التي بها فتك وسطا، وكاشغر وهي في بحر ممالك الخطا، وبلخشان وهي ممالك على حده، عن ممالك سمرقند متباعده، وأقاليم خراسان، وغالب ممالك مازندران، ورستمدار(٣) وزاولستان(٤) وطبرستان، والري وغزنة واستراباد، وسلطانية وسائر تلك البلاد، وجبال الغور المنيعة(٥)، وعراق العجم، وفارس الشامخة

١— أغفل ابن عرب شاه هنا ذكر عدد كبير من الحوادث، عندما جعل عودة تيمور إلى بلاده مباشرة بعد صدامه مع قوات أحمد الجلائري، ذلك أن تيمور احتل أولاً تبريز، وكانت تابعة لأحمد الجلائري، ثم قصد نخجوان في بلاد الكرج، ومن نخجوان إلى قارص فتفليس، فشروان، وبعد توقف قصير في منتجع قراباغ تصدى لحملة مفاجئة قام بها القفجاق عبر دربند، واجتاح بعد هذا أرمينية الشرقية، وديار القراقونيلو (الشاة السوداء)، ثم ظهر في أذربيجان ودخل مراغة، وبعدها ذهب إلى أصفهان حيث أوقع المذبحة الهائلة بأهلها، وذهب بعد هذا إلى شيراز، حيث اضطر إلى العودة سريعاً إلى سمرقند ليصد هجوماً جديداً قام به القفجاق، واحتاجت جولة تيمور هذه قرابة العام ونصف العام: رجب ٧٨٨ إلى ذي الحجة٧٨٩هـ/ صيف ١٣٨٦ إلى كانون أول ١٣٨٧ م Prawdin, pp 44-450

٢— الزعزع الريح الشديدة.

٣— رستم دار: اقليم بجوار الري، والري الآن ضاحية لمدينة طهران

٤— زاولستان هي الكورة التي حاضرتها غزنة. معجم البلدان.

٥— هي الجبال الواقعة ما بين هراة وغزنة.

الرفيعـــة، وكل ذلك مـن غير منازع، ولا مجادل ولا ممانع، ولـه في كل مملكة من هذه الممالك ولد، أو ولد ولد أو نائب معتمد.

نموذج مما كان يغور، ذلك الظلوم الكفور، من عساكره في بحور ويغوص على أمور ثم يفور، بشرور، ومن جملة ذلك غوصه مما وراء النهر وخروجه من بلاد اللور(١)

ثم إنه مع اتساع مملكتـه، وانتشار هيبته وصولتـه، وشيوع أراجيفه في الأقطار، وبلوغ تخاويفه الأقـاليم والأمصار، وثقل أثقاله، وعـدم اختفاء توجهه إلى جهـة وانتقاله، كان يجري في جسـد العالم، مجرى الشيطان من ابن آدم، ويدب في البلاد، دبيب السم في الأجساد، قلت شعراً:

يصـــــــــوب يمنة ويصيب يسره ‌ ‌ وينوي جبهـــــة والقصـــــد نثـــــره

بينا يكون له في المشارق بيارق فيـالق، إذ لمع في الغرب بوارق بوائق، وبينما نغمات طبوله وضربات أعواده تقـرع في حصار العراق وأصبهان، وشيراز، وإذا برنات أوتـاره وبوقـات أبواقـه تسمـع في مخالف الروم، ومقام الرهاوي، وركب الحجاز.

فمن ذلك انه مكث في سمـرقند مشغـولا بإنشـاء البسـاتين، وعمارة القصـور، وقـد أمنت منه البـلاد واطمأنت الثغـور، فلما انتهت أمـوره، وبلغ الكمال قصـوره، أمـر بجمع جنده، إلى سمـرقند، ثـم أمـرهم أن يصنعـوا لهم قـلانس ابتـدعهـا، وعلى صـورة من التركيب والتضريب اخترعها، فيلبسونها ويسيرون، وما بين إلى أن يصيرون، ليكون ذلك لهم شعارا، وقـد كان أرصد له في كل جهـة من ممالكه جشارا(٢)، ثم رحل

١—اللور: كورة واسعة بين خوزستان وأصفهان، ودرس تاريخ هذه الكورة المرحوم المحامي عباس العزاوي بكتاب اسمه تاريخ الفيلية، طبع بعد وفاته حديثاً في بغداد من قبل المجمع اللغوي عام ٢٠٠٣م.

٢— رعاة مع قطعان ماشية.

عن سمرقند، وأشاع أنه قاصد خنجد، وبلاد الترك وجند، ثم إنه اندمس(١)، في دردور(٢) عسكره وانقمس(٣)، كأنه في لجة بحر انغمس، ولم يشعر أحد أين انعطف، ولا أني قصد المختطف، ولا زال في تأويب وإساد(٤)، وجوب بلاد بعد بلاد، يجري جري المراكب، ويسير سير الكواكب، ويطرح كلما وقف من نجائب الجنائب، حتى نبغ من بلاد اللور، ولم يكن لأحد به شعور، وهي بلاد عامره، خيراتها متكاثره، وفواكهها وافره، اسم قلعتها بروجرد(٥) وحاكمها عز الدين العباسي، وقلعتها وان كانت في الحضيض، لكن كانت تسامى بمناعتها حصون الجبال الرواسي، وهي بمجاورة همذان، ومناظرة عراق العرب كأذربيجان، فأحاط بالقلعة وما حواليها، وحاصر ملكها المتولي عليها، ولما كان صاحبها بلا عدد، ولا عُدد ولا أهبة ولا مدد، وكان في صورة المتوكل المحتسب، وأتاه البلاء من حيث لا يحتسب، لم يسعه إلا طلب الأمان، والإنقياد له والإذعان، فنزل إليه وسلمه قياده، فقبض عليه وضبط بلاده، ثم أرسله إلى سمرقند وحبسه، وضيق عليه نفسه ونفسه ثم بعد ذلك بمدة حلّفه ورفع عنه ما نابه، وصالحه على جمل من الخيل والبغال، ورده إلى بلاده واستنابه.

ولما استخلص ذلك الكفور، ولايات تلك الكفور(٦)، واصل السير إلى همذان، في أقرب زمان، فوصل إليها وأهلها غافلون، فجاءها البأس بياتاً أو وهم قائلون، فخرج إليه منها رجل شريف يقال له مجتبى، وكان

١— أي دخل الديماس، يعني استتر.

٢— الدردور: موضع من البحر يجيش فيخاف منه من الغرق، وأراد هنا أن يشير إلى كثافة جيش تيمور.

٣— انقمس: انغمس.

٤— الإساد: السير في الليل.

٥— بروجرد: بلد قرب همذان في بلاد الجبال. تقويم البلدان ص ٤١٩.

٦— جمع كفر، والكفر: البلدة.

عند الملوك مصطفى، ولديهم مرتضى، فشفع فيهم، فشفعه على أن يبذلوا مال الأمان، ويشتروا بأموالهم ما منَّ عليهم به من الأرواح والأبدان، فامتثلوا أمره وفعلوا، ووزعوا ذلك فجمعوه، إلى خزائنه نقلوا، فدعته نفسه الجانيه، أن طرح عليهم المال مرة ثانية، فخرج إليه ذلك الرجل الجليل، ووقف في مقام الشفاعة مقام البائس الذليل، فقبل شفاعته، ووهبه جماعته، ثم انه سدك(١) بمكانه وجثم، حتى تلاحق به عسكره والتأم.

ابتداء تخريب ذلك الحزب، أذربيجان وممالك عراق العرب

ولما بلغ السلطان أحمد بن الشيخ أويس(٢)، ما فعله بغنم رعايا جيرانه اللور، وهمذان ذلك الأويس، علم أنه لا بد له من قصد مملكته ودياره، لأنه هو باداه بالشر، وطرح على شراره طائر شراره، وإن عسكره وإن كان كالسيل الهامر، فإنه لا مقاومة له ببحره وتياره، وإنه إذا جاء نهر الله بطل نهر عيسى(٣)، ولا مقابلة لسحرة فرعون مع عصا موسى، قلت شعراً:

السيل يقلعُ ما يلقاه من شجرٍ — بين الجبال ومنه الصخر ينفطر
حتى يوافي عباب البحر تنظره — فقد اضمحل فلا يبقى له أثر

فاستعد للبلاء قبل نزوله، وتأهب له قبل حلوله، فتشمر للهزيمه، وعلم أن إيابه سالماً نصف الغنيمة، واقتصر من بسيط فقه المقاتلة والمقابلة على الوجيز، وصمم على الخروج من ممالك بغداد والعراق

١— سدك: توقف.

٢— أحمد بن الشيخ أويس الجلائري. انظر «العالم الاسلامي في العصر المغولي» لبرتولد شبولر—ترجمة عربية، ط. دمشق ١٩٨٢—ص ٨٢— ٨٣.

٣— نهر عيسى قناة متفرعة عن الفرات بالقرب من الأنبار، وكان هذا النهر يصب بالدجلة، لكن كانت مياهه تنقص في الصيف وتتوقف عن الجريان إلى أن تهطل الأمطار، وهي المعنية بنهر الله. انظر تقويم البلدان ص ٥٢.

وتبريز، وقال لنفسه: النجاء النجاء، وجهز ما يخاف عليه صحبة ابنه السلطان طاهر إلى قلعة النجاء(١)، وأرسل إلى تيمور الأشعار والهجاء، فمن ذلك ما ترجمه وهو شعراً:

لئن كانت يدي في الحرب شلا فرجلي في الهزيمة غير عرجا

ثم قصد البلاد الشامية، وذلك في سنة خمس وتسعين وسبعمائه، في حياة الملك الظاهر أبي سعيد برقوق رحمه الله تعالى، فوصل تيمور إلى تبريز، ونهب بها الذليل والعزيز، ووجه إلى قلعة النجاء العساكر، لأنها كانت معقل السلطان أحمد، وبها ولده وزوجته والذخائر، وتوجه هو إلى بغداد ونهبها، ولم يخربها ولكنه سلبها.

وكان الوالي بالنجاء رجلاً شديد البأس يدعى ألتون، عند السلطان أحمد مأمون، وله إليه ركون، ومعه جماعة من أهل النجده، وأولي البأس والشده، نحواً من ثلاثمائة رجل في العده، فكان ينزل بهم ألتون، إذا أخذ الليل في السكون، ويشن الغارة على تلك العساكر والمكان المسكون، فوهن أمر العسكر، فأبلغوا تيمور هذا الخبر، فأمدهم بنحو أربعين ألف مقاتل مشهور، مع أربعة أمراء كبيرهم يدعى قتلغ تيمور، فوصلوا إلى القلعة ولم يكن إذ ذاك ألتون فيها، وكان قد خرج الناس للغارة على من في ضواحيها، فبينا هو راجع، اذا بالنقع ساطع، فلما اطلع طلع الخبر، قال: ﴿أين المفر﴾ فقيل ﴿كلا لا وزر﴾(٢)، فعلم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فثبت جأشه وحاشيته، وتوكل عليه، وقال: إن الرؤوس في مثل هذا المقام، إنما يكونون تحت الأعلام، فأحطموا نحو قلب هؤلاء اللئام، فإما أن تبلغوا المرام أو تموتوا على ظهر الخيل، وأنتم كرام، إذ لاينجيكم من هذا الكرب، سوى الطعن الصادق والضرب، قلت شعراً:

١— يرد اسمها أحياناً باسم «قلعة النجق»، وهي قرب نخشان في بلاد الكرج (جورجيا).

٢— سورة القيامة— الآيتان: ١٠—١١.

كـــــــــــريباً مست وإلاّ لثيما فما والله بعـــــد الموت مـــــوت

فتعاضدوا بهمة صادقـة، وعزيمة على حصول الخلاص من الله تعالى واثقـه، وقد أحـاطوا بهم إحاطة الشبكة بالسمكة، وصـاروا في وسطهم كـالمغـزل في الفلكـه، وقصـدوا الراية وحـامليهــا، ومن يليهـا وذويها، فسـاعـدهم سـاعـد سعـد الحيـاة بنصريه، وحـل عنهم القبض الداخل إنكيس(١) عقلتـه، فأسالوا على رايـاتهم ذات البياض من الدمـاء حمره، وفتحت لجماعتهم طريق إلى عتبـة النصرة، فـلاح لهم فـلاح، ونجح لهم نجـاح، فنجــوا من الشرور، وحصـل لهم السرور، بعــد أن قتلوا من العسكر أميرين أحدهما قتلغ تيمـور، ولما وصل هذا الخبر إليه، إسودت الدنيـا في عينيه، بل انقلب الكون والمكان عليـه، ثم نهض إليها بنفسـه، وربض عليها بحرسه، وأحاط بجوانبها، وألقم الحرس أفواه مضاربها.

صفة قلعة النجاء

وهذه القلعـة أمنع من العقاب، وأرفع من السحـاب، يناجي السماك سماكها، ويباهي الأفلاك استمسـاكها، كأن الشمس في شرفها، ترس من الإبريز على بيض شرفهـــا، وكأن الثريا في انتصــابها، قنديل معلق على بابها، لا يحوم طائـر الوهم عليهـا، فأنى يصل طائش السهم إليهـا، ولا يتعلق بخـدم خدمتها، خلخـال خيال وافتكار، فضـلا عن أن يحلق على معصم عصمتها، من عسـاكر الأساورة سوار، وكان ألتـون قد تربى في تراب ترابها، وأهل مكة أخبر بشعابها، فصار كلما سجى الليل الساجي، وأرصد لسراق الشياطين عيونه الرواجي، هبط من تلك القلال، وسرى سري طيف الخيــال، ودب دبيب الشحم في اللحم، والماء في العـــود، والنار في الفحم، من درب لم تتـوهمه الظنون، بعون من لا تراه العيـون، بحيث لا يشعــر به الحرس، ولا يبصره العسس، ولا يـزال يتلو عليهم آيات الإعفــاء، وينفث بطلسماته الاستخفـاء، ويتقــرى ويترقب، حتى

١ — المنكوس في أشكال الرمل: الإنكيس: القاموس.

يلوح له في الحي مضرب، فيقتل ويسلب، وينهب ويهرب، فيكر سالماً، ويفر غانماً، فلم يزل ذلك دأبهم ودأبه، حتى أعجز تيمور وأصحابه، فلم ير تيمور أوفق من الارتحال، لضيق المجال، وعسر المنال، فارتحل عنها بعد أن رتب عليها للحصار يزك، واستمر الحصار مدة طويلة والقضاء يقول له: إصبر فإنها لن تعجزك.

قيل إنها مكثت في الحصار اثنتي عشرة سنة، وسبب أخذه لها أن ألتون المذكور، كان له أخ بالفسق مشهور، فحصل بينه وبين أم السلطان طاهر، خيانة أوجبت عليهما ما يجب على العاهر، فاطلع على ذلك طاهر ابن السلطان أحمد، فقبض عليهما وقتلهما سالكا في ذلك الرأي الأحمد، وكان إذ ذاك ألتون عن القلعة غائباً، قد خرج منها وقصد للغارة جانباً، فلما رجع ألتون أغلقوا باب القلعة عليه، ورموا بأخيه من فوق السور إليه، وأخبروه خبره، وعجره وبجره، فقال جزاكم الله أحسن الجزاء، وجعل حظكم من الخيرات أوفر الأجزاء، لو كنت عالماً فعله، أو حاضراً قتله، لعاملته بما هو أهله، وفعلت به ما يجب فعله، ويحل به من الزمان دواهيه، ولأريتكم العبر فيه، ولأشهرته في خلق الله تعالى وبريته، وناديت عليه: هذا جزاء من يخون ولي نعمته، ثم طلب الدخول، فقطعوه عن الوصول، فقال: أما أخي فإنه جنى فذاق ثمرة ما جناه، وأما أنا فقلبي على الوفاء بعهدكم من الأزل وإلى حين الوفاة، ولم أزل مـوالي وليكم، فقالوا: ربما أدركتك الحمية، ولحقتك العصبية، فتذكرت أخاك، وتفكرت شدتك بعد رخاك، فنقمت، وانتقمت، واعوججت بعدما استقمت، وتكدر منك ما صفا، وناهيك قصة الأخوين مع ذات الصفا، وقلت شعراً:

ويمكن وصل الحبل بعد انقطاعه ... ولكنه يبقى به عقدة الربط

فانشأ لهم أيماناً واثقه، أن كلماته وعهوده صادقه، فقالوا له: لا تطل فيما حييت، مالك عندنا مقيل ولا مبيت، فارجع من حيث جئت، وهذا

آخر العهد منك غضبت أم رضيت، فأخذ يذم دهره، ويعض يديه ندامة وحسرة، على أنه أنفد عمره، في طاعة من لم يعرف قدره، ثم دنا فتدلى، وعبس فتولى، وسيب فرسه وماله، وفرق خيله ورجاله، ولما لم يكن له ملجأ، سوى قلعة النجاء، وقد خرجت من يده، وألقت النار في كبده، ضرب أخماساً لأسداس، فيمن يقصده من الناس.

ثم أورى برأيه الزند، أن يقصد مدينة مرند(١)، وكانت تحت حكم تيمور، وفيها أوامره تمور، فسالمها، وقصد حاكمها، لابساً لبداً، وتاركاً مالاً وولداً، ولما اتصل بحاكمها الخبر، أحاط به الجبن والخور، فاضطرب واقشعر، واضطرم واعتكر، وأخذه الحذر، ورام المفر، فقيل إنه وحده، من غير رجال وعدة، فرجع عقله إليه، ودخل ألتون عليه، فأخذ في التفتيش عن أموره، ثم قطع رأسه وأرسله إلى تيموره، فتحرق لذلك وانتكى، وتأسف عليه وبكى، وأرسل إلى قاتله فعزله، ثم صادره وقتله، ثم إن السلطان طاهر لما أحدث هذا الحدث، وتنجس بهذه الخبائث والخبث، لم يمكنه الإقامة فأذن بالرحيل، وأم بجماعته قبلة التحويل إذ نشزت عنه مخدرات القلعة، فعجز عن إحصان تحصينها، وعنن في افتضاض أبكارها وعونها(٢)، وقل جيشه وانفل، فسل متاعه وانسل(٣)، فذل لتيمور صعابها، وفتح له من غير معالجة بابها، فولى فيها من يثق من الأعوان، ووصى به لعلة المجاورة الشيخ إبراهيم حاكم شروان، ثم ثنى عنان الفساد، إلى صوب بغداد، فهرب السلطان أحمد كما ذكر إلى الشام في فئه، وذلك في شوال سنة خمس وتسعين وسبعمائه، فوصل إليها حادي عشر يوم السبت، فكبتها ومن حواليها أي كبت، ثم صدر هو وقبيله عن ولاية بغدان قاصدين ديار بكر وأرزنجان.

١— مدينة في أذربيجان على مسيرة يومين من تبريز، في الجهة الشمالية الشرقية منها. معجم البلدان. تقويم البلدان ص ٤٥١.

٢— العون: المرأة في منتصف عمرها.

٣— كان خروجه في سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠ م.

ذكر أخبار صاحب بغداد وأسماء آبائه والأجداد وكيفية دخوله إلى هذه البلاد

وهو السلطان مغيث الدين أحمد ابـن الشيخ أويس ابن الشيخ حسن ابن حسين بن أقبغا بن ايدكان، صاحب بغداد وأذربيجان، وما أضيف إلى ذلك، من ولايات وممالك، وايد، كـان جده الأعلى ابن الخان الكبير النجيـد، شرف الدين سبط الخان أرغـون بن أبي سعيد(١)، كـان والده الشيخ أويس، من أهل الديانة والكيـس، ملكاً عادلاً، وإمـامـاً شجاعـاً فاضلاً، ومؤيداً منصوراً، صارماً مشكوراً، قليل الشر، كثير البر، صورته كسيرته حسنه، وكـانت دولتـه تسع عشرة سنه، وكـان محبـاً للفقـراء، معتقداً للعلماء والكبراء، وكان قد أبصر في منامـه، لوقت موافاته حمامه، ثم صـدر هو وقبيلتـه عن ولاية بغـداد قاصـدين ديار بكر وأرزنـجـان، فـاستعد لحلول فـوته، ورصد نزول مـوته، وخلع من الملك يده، وولاه حسنا ولده، وهـو أكبر بنيـه، والأفضـل من أهله وذويه، ونبـذ دانيـه ودنيـاه، وأقبل على طاعـة مـولاه، واستعطفـه إلى الرضى، والعفـو عما مضى، ولازم صلاته وصيـامه، وزكـاته وقيامـه، ولازال يصلي ويصوم، حتى أدركه ذلك الوقت المعلوم، فأظهـر سره المصون، وتلا: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخـرون سـاعــة ولا يستقـدمـون﴾(٢)، فـدرج على هذه الطريقـة الحسنة، وقد جـاوز نيفاً وثلاثين سنه، ومن مغـرب تبريز أفل قمره، وفي سنـة ست وسبعين وسبعمائة وصل إلى الشـام خبره، واستقر ولده جـلال الدين حسن مكانه، وأفـاض على رعيتـه فضله وإحسـانه، وكان كـريم الشمائل، جسيم الفـضائل، وافـر الشهامه، ظـاهر الكرامه، أراد أن يمشي على سنن والده، ويحيي ما دثر من رسـوم آثاره ومعاهده، فخـذلتـه الأقـدار، وخالطت صفـو مسـاعيـه الأكـدار، وفي سنة ثلاث

١— كذا وهو وهم لأن أبا سعيد كان حفيد أرغون. انظر زامباور ج ٢ ص ٣٦٢—٣٦٣.

٢— سورة الأعراف— الآية: ٣٤.

وثمانين وسبعمائـه، وصل من قصـاده إلى الشـام فئة، وهم القـاضي زين الدين علي بن جـلال الدين عبـد الله بن نجم الـدين سليمان العبـاسي الشـافعي، قاضي بغـداد وتبريز، والصاحب شرف الدين ابن الحاج عـز الدين الحسين الواسطي، وزير السلطان وغيرهما.

ثم في جمادى الآخــرة من هذه السنة وثب السلطان أحمد على أخيــه المشـار إليه فقتله، وقـام لينصر الملك والدين مكانه فخذله، فمـلأ جفن حيـاتـه من الفنا سنة، وعمـره إذ ذاك نيف وعشرون سنـة، ولما استـولى السلطان أحمد على ممالك العــراق، مـد يد تعـديه وضـم جناح الشفقـة والإرفاق، وشرع يظلم نفسـه ورعيته، ويذهب في الجور والفسـاد يومه وليلته، ثم بالغ في الفسق والفجور، فتجاهر بالمعاصي وتظاهر بالشرور، واتخذ سفك الدماء، إلى سبل الإقراض وثلب الأعراض سلماً.

فقيل إن أهل بغـداد مجوه، واستغـاثـوا بتيمـور، فأغيثـوا ﴿بماء كـالمهل يشوي الوجوه﴾(١)، فلم يشعر وإلا والتتار قـد دهمته، وعساكر الجغتائي خيـلاً ورجـلاً حطمته، وذلك يوم السبـت المذكور، من الشهـر المشهـور، فـاقتحموا بخيلهـم ورجلهم، وقصدوا الأسـوار، ولم يمنعهم ذلك البحـر التيار، ورمـاهم أهل البلد بالسهام، وعلـم أحمد أنه لا ينجيه إلا الانهزام، فخرج فيمن يثق به قـاصداً الشـام، فتبعه من الجغتائي طـائفة لئام، فجعل يكر عليهم ويرد عنهم، ويفر منهم فيطمعهم، وحصل بينهم قتـال شديد، وقتل من الطائفتين عدد عديد، حتى وصل إلى الحلة، فعبر من جسرها نهر دجله، ثم قطع الجسر، ونجـا من ورطة الأسر، واستمرت التتـار في عقبه، تكاد أنوفها تدخل في ذنبـه، فوصلوا إلى الجسر ووجدوه مقطوعـاً، فتراموا في الماء، وخـرجـوا من الجانب الآخـر ولم يزالوا تابعـاً ومتبـوعـاً، ففـاتهم ووصل إلى مشهد الإمام(٢)، وبينه وبين بغداد ثلاثة أيام.

٢— سورة الكهف— الآية: ٢٩.

١— مشهد الامام علي كرم الله وجهه في النجف الأشرف.

ذكر ما افتعله من الخديعة والمكر في بلاد أرزنجان وديار بكر

فـوصل إلى ديار بكـر واستخلصهـا، و من أيدي ولاتها خلصهـا، فعصت عليه قلعة تكريت، فسلط عليها من عساكره كل عفريت، وذلك يوم الثلاثاء رابع عشر ذي الحجه، وقد ارتجت منه البلاد أشد رجة، فحاصرها وأخذها في صفر بالأمـان، ونزل إليه متوليها حسن بن يولتمور متدرع الأكفان، وفي حضنه وعلى عاتقه أطفاله، وقد ودعه أهله وماله، وأسلمته خيله ورجاله، وذلك بعد أن عاهده أن لا يريق دمه، فأرسله إلى حائط فقضه عليه وردمه، وقتل من بها من رجال، وسبى النساء وأسر الأطفال، وجعل يعيث ويستأصل، ويقطع في الفساد ويوصل، حتى أناخ يوم الجمعة حادي عشري صفر سنة ست وتسعين على الموصل، فأخربها وكسرها، ثم أتى رأس عين ونهبها وأسرها، ثم إلى الرها تحول، ودخلها يوم الأحد عشرة شهر ربيع الأول، فزاد عبثاً وفساداً، وجارى فيها عاند ثموداً وعاداً، وخرج من تلك البلد، ثاني عشرية يوم الأحد، ثم اختار من نسور قومه طائفه، على ورد الدماء حائمه، وعلى قتل المسلمين عاكفه، فأخذهم واندعر(١)، وفي ممالك ديار بكر انغمر، ولم يزالوا بها عابثين، ولأذاها قاصدين، وعليها ظالمين، وفيها ماردين، فقصدها بتلك العفاريت المصاليت، وواصل السير إليها فوصل في خمسة أيام من تكريت، ومسافة ما بينهما للمجد، اثني عشر يوماً إن لم تزد، وكان سلطانها الملك الظاهر(٢)، تحقق أنه لا يضر من التجأ إليه، وقدم في ثوب الطاعة عليه، فما وسعه إلا التشبث بذيل ذممه، والانتظام في سلك خدمه.

١— اندعر: هجم

٢— هو السلطان الظاهر مجد الدين عيسى (٧٧٨—٨٠٩هـ/ ١٣٧٥—١٤٠٦م)، السادس عشر من حكام الأسرة الأرتقية— فرع ماردين. زامباور ج٢ ص ٣٤٥.

ذكر ما جرى لسلطان ماردين عيسى الملك الظاهر، من المحنة والبلاء مع ذلك الغادر الماكر

لكنه خاف غائلته، فجمع حاشيته وصاغيته، وقال: إني ذاهب إلى هذا الرجل، ومظهر له الانقياد، فإن ردني حسبما أريد فهو المراد، وإن طالبني بالقلعه، فكونوا أنتم على التأبي والمنعة، وإياكم أن تسلموها إليه، أو تعتمدوا في الكلام عليه، وإن دار الأمر بين تسليم القلعة وبين إتلافي، فاحتفظوا بالقلعة واجعلوا التلافي في تلافي، فإنكم إن تسلموها إليه، خرجتم من باطنكم وظاهركم، وأتى بالهلاك على أولكم وآخركم، وخسرتم شعاركم ودثاركم، وغبنتم في أنفسكم ودياركم، وإذا كان كذلك، فأنا أجعل نفسي فداكم، وأكفيكم بروحي ما دهاكم، وبعض الشر أهون من بعض، وها أنا أجس لكم النبض، ثم قصد ذلك الكالح، المفسد الطالح، بعدما استخلف ابن أخيه الملك الصالح، شهاب الدين أحمد بن الملك السعيد، اسكندر بن الملك الصالح الشهيد، ونزل يوم الأربعاء خامس عشري شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وسبعمائه، واجتمع به في سلخه بمكان يسمى الهلالية فقابله بشنعه، وقبض عليه بسرعه، وطلب منه تسليم القلعه، فقال: القلعة عند أربابها، وبيد أصحابها، وأنا ما أملك إلا نفسي فقدمتها إليك، وقدمت بها عليك، فلا تحملني فوق طاقتي، ولا تكلفني غير استطاعتي، فأتى به القلعة وطلبها منهم فأبوا، فقدمه إليهم ليضرب عنقه أو يسلموه فنأوا، فطلب منه في مقابلة الأمان، من الدراهم الفضة مائة تومان، كل تومان ستون ألفاً، خارجاً عما يتقرب به إليه زلفى.

ثم إنه شد وثاقه، وسد عليه ليذهب عنه ما به من قوة، كل باب وطاقه، وشمر للفساد ذيله، وجعل يريح رجله ويسمن خيله، ويتفوق(١) كاسات فساده، ويعربد على عباد الله وبلاده، واستمر على

١ — أي يشرب.

ذلك لا يعي ولا يفيق، ويتردد ما بين الفردوس إلى رسمل(١) ونصيبين والموصل العتيق، ثم أمر عساكره في جمادى الآخرة أن يمردوا(٢) قاصدين، ويقصدوا ماردين، فسابقوا الطير، ولاحقوا السير، وجاوزوا بالنهار الأنهار، وبالليل السيل، فقطعوا فقار القفار، قطع الهندي(٣)، وعملوا في تلك الجبال والقلاع بما قاله الكندي(٤) وهو:

سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالاً على حال(٥)

فوصلوا إليها على غفلة، واحتووا عليها من غير مهله، وذلك يوم الثلاثاء ثاني عشره، وقد سل الصبح حسام فجره، وطار غراب الدجى عن وكره، فصاروا سوار معصم تلك الأسوار، وأحلوا الدمار هاتيك الديار، فعموها رجفاً، وساموها خسفاً، وهدوها زحفاً، ودكوها وجفاً، وتعلقوا بأهداب أرجائها، وتسلقوا بالسلالم من أرضها إلى سمائها، وكان متسلقهم على الأسوار، من القبلة رابية اليهود، ومن الغرب التلول، ومن الشرق المنشار، فأخذوا المدينة عنوة وقهراً، وملأوها فسقاً وكفراً، وترفع أهل المدينة إلى القلعة، ولم يكره أحد سواهم علو المنزلة والرفعة، واكوهدوا (٦) ملتجئين إلى قوادمها وخوافيها، وذب عنهم من القلعة بالسهام والمكاحل من كان فيها، فقتلوا من ظفروا به ذكراً وانثى، صغيراً وكبيراً، ولم يرتضوا بما فيها نهباً وبمن فيها أسيراً، فجالد بعض الناس، وأظهر لهم بعض الجلاده، وأراد بتثبته لهم أن يضم الجهاد إلى الشهاده، ولا زالت آيات القتال عليهم تتلى، حتى امتلأت المدينة من الجرحى والقتلى، واستمر ذلك من قبل طلوع الشمس، إلى أن صار اليوم أمس،

١— الفردوس ورسمل: مواقع في ربض ماردين.

٢— أي يفسدوا ويخربوا من تمرد.

٣— الهندي هنا: السيف.

٤— الكندي: امرؤ القيس الشاعر.

٥— ديوان امرىء القيس— ط. دار صادر بيروت— ص ١٤١.

٦— اكوهدوا: من كهد بمعنى تعب.

وحين التقى على وجنتي الكون عارضاً الليل، واستوفى أولئك المطففون من ظلمهم وتعديهم الميزان والكيل، وبادر نون الظلام، يونس الشمس بالالتقام، طرأ على تلك الحركات السكون، فتراجعوا، ونزل العسكر مقابل عربون، وقد قتل من العسكريين ما سبق العدد، وأكثرهم كان من أهل البلد، فباتوا يعدون السلاح ويثقفونه، وينتظرون الصباح ويستبطئونه، إلى أن شق الليل مكتوم جيبه، وأظهر الظلام مكنون غيبه، وأمر الكون وجه النهار أن يضرب على جنبي الآفاق أصراف شيبه، بكروا بكور الغراب، وبدروا إلى الحراب والخراب، وعصروا أهل المدينة، وحاصروها أشد حصر، وهدموها وأسوارها من الظهر، فمحوا آثارها بعد العصر، ثم باؤوا بالآثام، وقد انتشر كظلمهم الظلام.

ايضاح ما أخفاه من الحيله، وصلود(١) زند تلك الأفكار الوبيله

ولما آب ليله بالخيبه، ولم يمكنه تحصيل القلعة بالهيبة، شحذ فكراً، وحدد مكراً، وتاب عن المقابحة، وثاب إلى المصالحة، فردع ذلك الخسيس، في نهار ذلك الخميس، وأرسل إليهم يقول، ضمن كتاب مع الرسول: «نعلم أهل قلعة ماردين، والضعفاء والعجزة المساكين العطاش، أننا قد عفونا عنهم وأعطيناهم الأمان على نفوسهم ودمائهم، فليأمنوا وليضاعفوا لنا الأدعية»، وهذه الرسالة نقلتها كما وجدتها، فما استتب كيده، ولا نجح قصده، لأن رصدها كانوا غير راقدين، وشياطين حرسها كانوا لها كزي ماردين، فارتحل ذلك البليه، بكرة السبت إلى البشيريه(٢).

وأرسل إلى آمد الجنود، مع أمير يدعى سلطان محمود(٣)، فتوجه بجيش طام، وحاصرها خمسة أيام، وأرسل يستمده عليها، فتوجه بنفسه

١— الصلود: صوت الزند أثناء قدحه ليشتعل، والزند هو العود الأعلى الذي تقتدح به النار.

٢— البشيرية: ربض من أرباض آمد.

٣— هو محمود بن سيور غاتمش، ولاه تيمور في عام ٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨م على عرش خانية جغتاي بعد وفاة والده.

إليها، وأحلها الهوان، فطلبوا الأمان، فأمن البواب، ففتح له الباب، فدخل من باب التل، ووضع السيف في الكل، فأباد الجميع، العاصي منهم والمطيع، وأسروا الصغار، وهتكوا أستار الحرم، وحرم الأستار، وأذاقوا الناس، لباس البأس، والتجأ بعض الناس إلى الجامع، فقتلوا منهم نحو ألفي ساجد وراكع، ثم حرقوا الجامع، ورحلوا وتركوها بلاقع، فهداه إبليس، إلى أخذ قلعة أرجيش(١)، ثم بادر بالتحريك، وحط على قلعة أونيك(٢)، وفيها مصر بن قرا محمد أمير التركمان(٣)، فحاصروها وأخذوها بالأمان، وذلك سنة ست وتسعين وسبعمائة بعد عيد رمضان، ثم قتل كل من كان بها من الجند، وصير مصر إلى سمرقند.

فصل: ثم استصحب الملك الظاهر بسوء نية، ورحل سابع ذي القعدة سنة ست وسبعين وسبعمائة وحبسه في مدينة سلطانية، وحبس عنده من أمرائه الأمير ركن الدين، وعز الدين التركماني، واستنبوغا، وضياء الدين، وضيق عليه بأن يقطع عن أهله خبره، بحيث لايدري أحد عجره وبجره، ولما أثخنه وشد الوثاق، قصد التوجه إلى دشت قفجاق، فأجرى نحوها ما أقام من الفتنة على قدم وساق.

ومكث الملك الظاهر سنة، لا يدري أحد خبره في يقظة ولا سنة، ثم وفدت الملكة الكبرى(٤) إلى سلطانيه، وخففت عنه ما به من ضيق وبليه، وفسحت له في مراسلة جماعته، وحرضته على طلب الدخول في رضى تيمور وطاعته، زاعمة أنها ناصحة له وطالبة مصلحته، وكان ذلك من مكائد تيمور وبإشارته.

١— قلعة أرجيش قرب خلاط. معجم البلدان.

٢— قلعة أونيك قلعة كبيرة، فوق جبل أحد منابع نهر الرس (أراكس الحالي) في شمالي أذربيجان لسترانج:ص ١٥٠.

٣— هو أمير قبائل القراقونيلو (الشاة السوداء).

٤— هي كما تقدم زوجة تيمور المدعوه دلشلد آغا قمر الدين خان الجتا، التي توفيت سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م، وبناء عليه كانت زوجة تيمور التي توسطت للسلطان الظاهر عيسى هي سرايملك خانوم، فهي التي كانت ترافقه في هذه الحملة.

ثم رجع تيمـــور من الدشت في شعبـــان، سنة ثمان وتسعين، فمكث بسلطانيه ثلاثة عشر يوماً، ثم توجه إلى همذان، ومكث بها إلى ثالث عشر شهر رمضان، ثم استدعى من سلطانيه الملك الظاهر، بإكرام تام، وانشراح صدر وخاطر، ففكوا قيوده وقيود متعلقيه، وعظموه غاية التعظيم مع ذويه.

وتوجه إليه يوم الخميس خامس عشره، ودخل عليه يوم السبت سابع عشره، فتلقاه بالاحترام واعتنقه، وأذهب عنه دهشه وقلقه، وقبله في وجهه مراراً، واعتذر إليه مما فعله معه جهاراً، وقال له: إنك لله ولي، ورفيع القدر كأبي بكر وعلي، وتحلل منه، عما صدر في حقه عنه، وأضافه ستة أيام، وخلع عليه خلع الملوك العظام، وأحله محلاً جميلاً، وأعطاه عطاء جزيلاً، من ذلك مائة فرس وعشرة بغال، وستون ألف دينار كبكية(١) وستة جمال، وخلعاً مزركشة مكلله، وانعامات وافرة مكملة، ولواء يخفق على رأسه منصوراً، وستة وخمسين منشوراً، كل منشور بتولية بلد، وأن لا ينازعه فيه أحد، أول ذلك الرها إلى آخر ديار بكر، إلى حدود أذربيجان، وأرمينيه، وكل ذلك من الدهاء والمكر، وأن جميع حكام تلك البلاد يكونون تحت طاعته، معدودين في جملة خدمه وجماعته، يحملون إليه الخراج والخدم، ولا ينقلون إلا عن أمره قدماً عن قدم، بحيث يكون شخص كل من مجاوريه بها أفاء الله عليهم لظله فيئاً، ويُعفى هو فلا يحمل إلى تيمور ولا إلى غيره شيئاً.

وهذا وإن كان في الظاهر كالإكرام فإنه فيما يؤول إليه وبال عليه وانتقام، وفيه كما ترى ما فيه، وإلقاء العداوة بينه وبين مجاوريه، وينجرّ ذلك إلى أن يلتجىء إليه، ويعول في كل أموره عليه، ويدخل لكثرة الأعداء تحت ضبنه(٢)، فيصل إذ ذاك منه إلى حضنه، ثم إنه شرط عليه، أنه كلما طلبه جاء إليه.

١- تنسب الدنانير الكبكية إلى الخان الجغتاني كبك بن دوا (٧١٨-٧٢٦هـ/ ١٣١٨-١٣٢٦م) زامباور ج ٢ ص ٣٧٢-٣٧٣.

٢- الضبع من الجسد: ما بين الكشح والإبط.

ثم عانقه وودعه، وأمر أمـراءه بتشييعه، فخرج من الضيق إلى السعه، لثـالث عشري شهر رمضـان ليلة الجمعة، سنة ثمان وتسعين وسبعمائـه، فوصل إلى سلطانيه، في عيشة رضية وحالة هنية.

ثم عزم على تبريز، في محفل نفيس عـزيز، واجتمع باميران شاه، فزاد في إكرامه وعطاياه، وشيعه في أحسن هيئة وأيمن طور، فجاء على وسطان(١) وبدليس (٢) وأرزن إلى الصـور(٣)، ووصل خبره إلى قبـائله والعشـائـر، فـابتهج الناس ودقت البشائـر، يوم الجمعة حـادي عشري شوال، وخـرج أهل المدينة والأكـابر للإستقبـال، وسبق الناس ولي عهـده الملك الصـالح، فـدخل المدينة بفأل سعيد وأمـر ناجح، وتوجه إلى مـدرسة حسـام الدين، وزار والده وأمـواته الماضين، وعزم على تـرك التخت المنيف، والتوجـه إلى الحجـاز الشريف، فلم يتركه الناس خـاصـة وعامـة، وترامـوا عليـه وقبلوا أقدامه، فصعد إلى محل كرامته، واستقر في كرسي مملكته، وسيأتي لهذا الشأن مزيد بيان، وما جرى من الأمور، عند قدوم تيمور، وحلول عسكره اللئام، مـاردين بعد خـرابهم ممالك الشـام، قيل لما استقر الملك الظاهر في مملكتـه، اجتمع عنده جماعـة من أدباء قـدماء حضرته، فـاقترح عليهم أن يقـولوا في ذلك شيئاً فقال أولا بدر الدين حسن بن طيفور شعراً:

طغـى تمر واستأصـل الناس ظلمــــه ... وشــاعت لـه في الخافقين الكبـــائـــر

لقـد زاد بغيـــاً فـــافـــرحـــوا بـزواله ... لأنْ على البــــاغي تـدور الدوائــــر

فقال ركن الدين حسين بن الأصفر أحد الموقعين ثانياً شعراً:

كن مـن رجـــال إذا مـــا الخطـب نابهم ... ردّوا الأمــــور إلى الرحمن واغتنمـــوا

فسلمـــــوا الأمـــــر لما أنْ رأوا خطراً ... لذي الجلال فلما سلَّمـــوا سُلِمـــوا

١— وسطان من مدن أرمينية على شاطىء بحيرة أرجيش (وان حاليا)، تقويم البلدان ص ٣٩٧.

٢— بدليس من مدن أرمينية بين خلاط وميافارقين. تقويم البلدان ص ٣٩٥.

٣— الصـور: بلدة بديار بكر بين حصن كيفـا وديار بكر. القـرمـاني — آثار الدول— ط. عـالم الكتب، بيروت—ص ٤٦١.

فقـال القاضي صـدر الدين ابن ظهير الدين الحنفي السمرقندي ثالثـا شعراً:

طويل حيـاة المرء كـالـيـوم في غـد | فخيرتـه أن لا يـزيـد على الحدّ
ولا بـدّ مـن نقـص لكـل زيـادة | وإن شـديد البطش يقتصُ للعبـد

ثم قال علاء الدين بن زين الدين الحصني أحد الموقعين رابعاً دوبيت شعراً:

لاتحزن فـالـذي قضـى الله يكـون | والأمـر مـوكـل إلى كن فيكـون
مـا بين تحرّك بلحـظ وسكـون | الحالـة تنقضي وذا الأمـر يهون

فأعجبه ذلك، وأجازه خمسة آلاف درهم، وصرفه، والله أعلم.

ذكر رجوعه من ديار بكر والعراق، وتوجهه إلى مهامه قفجاق ووصف ملوكها وممالكها، وبيان ضياعها ومسالكها

ثم انه رجع من عـراقي العرب والعجم، وقد ثبتت لـه في ممالكها آية قدم، وذلك أن قدم عليه الشيخ إبراهيم(١)، وسلمـه مقاليد ما بيده من الأقـاليم، فتقلد طوق عبوديتـه، ووقف في مـواقف خدمتـه، وانتظم في سلك عبـده، وأحلـه محل ولده، وسنذكـر كيف تعـرف إليـه، ومن أي طريق تقرب إليه.

فقصـد دشت قفجـاق، وجـد في الوخـذ والأعناق(٢)، وهو ملك فسيح، يحتوي على مهامـه فيح، وسلطانها توقتاميش، وهو الذي كان في حـرب تيمـور أمـام السـلاطين المخـالفين كـالجاليش، إذ هو أول من بالعـداوة بارزه، وفي بلاد تركستان واقفـه وناجزه، وانجـده في ذلك كما مـر السيـد بركـه، وبلاد الدشت تدعى بـلاد قفجـاق ودشت بركـه،

١— حاكم منطقة شروان، انظر أخباره عند القرماني ص ٣٤٢.

٢— الوخذ: السير السريع، والأعناق: السير الواسع الفسيح.

والدشت باللغة الفارسية اسم للبريه، وبركة المضاف إليه هو أول سلطان، أسلم ونشر بها رايات الملة الاسلامية، وإنما كانوا عباد أوثان، وأهل شرك، لا يعرفون الإسلام والايمان، ومنهم بقية يعبدون الأصنام إلى هذا الأوان، فتوجه إلى ذلك الأقليم، من طريق الدربند الجاري تحت حكم الشيخ إبراهيم.

وهو سلطان ممالك شروان، ونسبه متصل بالملك كسرى أنوشروان، وله قاض يدعى أبا يزيد، يفضل على جميع أركان دولته بالقرب إليه ويزيد، هو دستور مملكته، وقطب فلك سلطنته، فاستشاره في أمور تيمور، وما يفعله، أيطيعه أم يتحصن منه، أم يفر، أم يقاتله، فقال له: الفرار في رأيي الصواب، والتحصن في الجبال الشواهق أوثق عندي وأنسب، فقال: ليس هذا برأي مصيب، أنجو أنا وأترك رعيتي ليوم عصيب، وماذا أجيب يوم القيامة رب البريه، إذا رعيت أمورهم وأضعت الرعيه، ولا عزمت أن أقاتله، وبالحرب والضرب أقابله، ولكني أتوجه إليه سريعاً،وأتمثل بين يديه سامعاً لأمره مطيعاً، فإن ردني إلى مكانتي، وقررني في ولايتي، فهو قصدي وغايتي، وإن آذاني عزلني، أو حبسني أو قتلني، فتكفى الرعية مؤنة القتل والنهب والإسار، فيولي إذ ذاك عليهم وعلى البلاد من يختار، ثم أمر بالإقامات فجمعت، وأذن للجيوش فتفرقت وتمنعت، وبمدن الولايات أن تتزين وتتزوق، وبسكانها براً وبحراً أن تأمن فتعامل وتتأنق، وبالخطب أن تقرأ فوق المنابر باسمه، وبالدنانير والدراهم أن تضرب بوسمه ورسمه، ثم حمل التقادم والخدم، وتوجه إليه بأطيب جأش وأثبت قدم.

ولما وفد عليه وتمثل بين يديه، قدم له الهدايا والتحف، وأنواع الغرائب والطرف وعادة الملوك الجغتاي في تقديمهم الخدم أن يقدموا من كل جنس تسعه، لينالوا بذلك عند المهدى إليه الكرامة والرفعه، فقدم الشيخ إبراهيم من كل جنس من أصناف ما قدمه تسعه، ومن

المماليك ثمانيه، فقال له المتسلمون لذلك: وأين تاسع المماليك؟ فقال التاسع نفسي العانية، فأعجب تيمور هذا الكلام، ووقع من قلبه بمكان ومقام، وقال له: بل أنت ولدي، وخليفتي في هذه البلاد ومعتمدي، وخلع عليه خلعة سنيه، ورده إلى مملكته مستبشراً ببلوغ الأمنيه، ثم فرقت تلك الإقامات، وتوزعت الفواكه والطعامات، ففضل منها أمثال الجبال، عن ذلك العسكر الذي هو كالحصا والرمال، ثم تركه وسار، إلى بلاد الشمال والتتار.

وسبب آخر لقصده تلك الممالك وإن كان لا يحتاج إلى ذلك أن الأمير أيدكو كان عنده توقتاميش أحد رؤوس أمراء الميسره، والأعيان المتخذين في النائبات لدفعها، وأرباب الرأي والمشوره، وقبيلته تدعى قونكرات، وقبائل الترك كقبائل العرب، واللغات كاللغات، وكان أيدكو قد أحس من مخدومه، تغير خاطر خاف منه على نفسه، وكان توقتاميش شديد البأس فخشي منه حلول بأسه، فلم يزل منه متحرزاً، وللفرار إذا رأى منه ما يقتضي ذلك مستوفزاً، وجعل يراقبه ويراقيه، ويذاريه ويداريه، ففي بعض ليالي السرور، ونجوم الكاسات في أفلاك الطرب تدور، وسلطان الخمرة، قد أنفذ في أسير العقل أمره، طفح أن قال توقتاميش لايدكو، ونور البصيرة يخبو ويذكو: إن لي ولك يوماً، يسومك الخسف سوماً، ويوليك عن موائد الحياة صوماً، ويملأ عين بقائك من سنة الفناء نوماً، فغالطه ايدكو وباسطه، وقال: أعيذ مولانا الخاقان، أن يحقد على عبد ما خان، وأن يذوي غراساً هو أنشأه، أو يهوي أساساً هو بناه، ثم أظهر التذلل والخشوع، والتمسكن والخنوع، وتحقق ما كان ظنه، وأعمل في وجه الخلاص ذهنه، واستعمل في ذلك الذكاء والفطنة، وعلم أنه إن أهمل أمره أو أمهله أنه.

فمكث قليلاً، واستغفل السلطان، ثم انسل من بين الحواشي والأعيان، وخرج في لجاجه، كأن يريد قضاء حاجه، وأتى اصطبل

توقتاميش، بجأش يجيش ولا يطيش، وعمد إلى فرس مسرجه، منجية منتجة، أقيمت معدة، لكل شدة، وقال لبعض حاشيته، المؤتمن على سره من حاشيته، من أراد أن يوافيني، فعند تيمور يلاقيني، ولا تفش هذه الأسرار، إلا بعد أن تتحقق أني قطعت القفار، ثم تركه وسار، فلم يشعر به إلا وقد سبق، وركب طبقاً عن طبق، وقطع على أنوال السير أطول الشقق، فلم يدركوا منه آثار، ولا لحقوا منه ولا الغبار.

فوصل إلى تيمور وقبل يديه، وعرض حكايته وأخباره كما جرت عليه، وقال أنت تطلب البلاد الشاحطه(١)، والأماكن الوعرة الساقطه، وتركب في ذلك الأخطار، وتقطع فقار القفار، وتتلو أسفار الأسفار، وهذا المغنم البارد بين نصب عينك، تدركه هنيئا مريئا بهينك ولينك، ففيم التواني والتناعس؟ وعلام التقاعد والتقاعس؟ فانهض بعزم صميم، فأنا لك به زعيم، فلا قلعة تمنعك، ولا منعة تقلعك، ولا قاطع يدفعك، ولا دافع يقطعك، ولا مقابل يقابلك، ولا مقاتل يقاتلك، فما هو إلا أوشاب وأوباش، وأموال تساق وخزائن بأرجلها مواش، ولا زال يحرضه على ذلك ويطالب، ويفتل منه في الذروة والغارب، كما فعل معه عثمان قرا أيلوك(٢)، حين جاء إلى تبريز بوسواسه، وحرضه على دخوله الشأم بعد قتله السلطان برهان الدين أحمد ومحاصرة سيواسه —كما يذكر— فتهيأ تيمور بأوفى حركة، إلى استخلاص دشت بركة،وكانت بلاداً بالتتار خاصة،وبأنواع المواشي وقبائل الترك غاصة، محفوظة الأطراف، معمورة الأكناف، فسيحة الأرجاء، صحيحة الماء والهواء، حشمها رجاله، وجنودها نباله، أفصح الأتراك لهجة، وأزكاهم مهجة، وأجملهم جبهه، وأكملهم بهجه، نساؤهم شموس، ورجالهم بدور، وملوكهم رؤوس وأغنياؤهم صدور، لا زور فيهم ولا تدليس،

١— الشاحطة: البعيدة

٢— عثمان قرايلوك هو بهاء الدين مؤسس دولة تركمان الشاة البيضاء(آق قيونلو) في نواحي ديار بكر، بين الموصل وآمد في حوالي سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م. القرماني ص ٣٣٦.

ولا مكر بينهم ولا تلبيس، دأبهم الترحال على العجل، مع أمان لا يدانيه وجل، مدنها قليلة، ومراحلها طويله.

وحد بلاد الدشت من القبلة بحر القلزم(١)الظلوم الغشوم، وبحر مصر(٢) المنقلب إليهم من بلاد الروم، وهذان البحران، كادا يلتقيان، لولا أن جبل الجركس بينهما برزخ لايبغيان، ومن الشرق تخوم ممالك خوارزم وأترار وسغتاق، إلى غير ذلك من البلاد والآفاق، آخذاً إلى تركستان وبلاد الجتا، متوغلاً إلى حدود الصين من ممالك المغول والخطا، ومن الشمال مواضع وبرار وقفار ورمال كالجبال، وكم في ذلك من تيه، تحيّر الطير والوحش فيه، وهو كرضى أكابر الزمان غاية لا تدرك، ومهامه لا تسلك، ومن الغرب تخوم بلاد الروس والبلغار، وممالك النصارى والأشرار، ويتصل بتلك التخوم، ما هو جار تحت حكم ابن عثمان من ممالك الروم.

وكانت القوافل تخرج من خوارزم وتسير بالعجل، وهم آمنون من غير ريب ولا وجل، وإلى قريم طولاً ومسيرة ذلك نحو من ثلاثة أشهر، وأما عرضاً فهو بحر من الرمل أمده سبعة أبحر، لا يهتدي فيه الخريت(٣)، ولا يقربه من الدعاميص كل عفريت، فكانت القافلة لا تحمل زاداً ولا عليقاً، ولا يصبحون معهم رفيقاً، وذلك لكثرة الأمم، ووفور الأمن والمأكل والمشرب من الحشم، فلا يصدرون إلا عن قبيلة، ولا ينزلون إلا عند من يكرم نزيله، وكأنه قيل فيهم شعراً:

متكنفي جنبي عكاظ كليهما يدعو وليدهم بها عرعار

واما اليوم فليس بتلك الأماكن، من خوارزم إلى قريم من تلك الأمم

١- بحر القلزم هنا بحر الخزر.

٢- أي البحر الأسود.

٣- الدليل البارع.

والحشم، متحرك ولا ساكن، وليس فيها من أنيس، إلا اليعافير(١) وإلا العيس(٢)، وتخت الدشت سراي وهي مدينة اسلامية البنيان، بديعة الأركان، ويأتي وصفها، وكان السلطان بركه رحمه الله لما أسلم بناها، واتخذها داراً للملك، واصطفاها، وحمل أمم الدشت على الدخول في حمى الإسلام ورعاها، فلذلك كانت محل كل خير وبركه، وأضيفت بعد إضافتها إلى قفجاق وإلى بركه.

أنشدني لنفسه مولانا وسيدنا الخواجه عصام الدين ابن المرحوم مولانا وسيدنا الخواجه عبد الملك وهو من أولاد الشيخ الجليل برهان الدين المرغيناني رحمه الله في حاجى ترخان(٣) من بلاد الدشت، بعد مرجعه من الحجاز الشريف سنة أربع عشرة وثمانمائه وفي يومنا هذا أعني سنة أربعين وثمانمائة، انتهت إليه الرئاسة في سمرقند، قوله وقد قاسى في درب الدشت أنواع النكال، شعراً:

قد كنت أسمع أنّ الخير يوجد في ... صحراء تعزى إلى سلطانها بركه

بركتُ ناقة ترحالي بجانبها ... فما رأيت بها في واحد بركه

وأنشدني أيضاً لنفسه معرضاًبمولانا وسيدنا وشيخنا حافظ الدين محمد بن ناصر الدين محمد الكردي البزازي تغمده الله تعالى برحمته في الزمان والمكان المذكورين شعراً:

متى تُحَفظ الناس في بلدة ... مصالحُها في يدي حافظ

فحافظُها صار سلطانها ... وسلطانُها ليس بالحافظ

ولما تشرف بركه خان بخلعة الإسلام، ورفع في أطراف الدشت للدين الحنفي الأعلام، استدعى العلماء من الأطراف، والمشايخ من

---

١ — اليعافير: الغزلان.

٢ — العيس: الإبل.

٣ — بلدة على مصب نهر أتل (الفولغا) وهي مدينة استراخان الحالية.

الآفـاق والأكناف، ليوقفـوا الناس على معـالم دينهم، ويبصروهم طرائق توحيدهم ويقينهم، وبذل في ذلك الرغبات، وأفاض على الوافدين منهم بحـار الهبـات، وأقـام حرمـة العلـم والعلماء، وعظم شعـائـر الله تعـالى وشرائع الأنبياء، وكان عنده في ذلك الزمان، وعند أوزبيك بعده وجاني بيك خـان، مـولانا قطب الدين العـلامـة الرازي، والشيخ سعـد الدين التفتـازاني، والسيد جـلال الدين شـارح الحاجبية، وغيرهم من فضـلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم مـولانا حافظ الدين البزازي، ومولانا أحمد الخجندي، رحمهم الله فصـــارت سراي بواسطة هؤلاء الســـادات، مجمع العلم ومعـدن السعـادات، واجتمـع فيهـا من العلماء والفضـلاء، والأدباء والظرفــاء والنبـلاء، ومن كل صـاحـب فضيله، وخصلة نبيلة جميله، في مـدة قليلـه، مـا لم يجتمع في سـواهـا، ولا في جـامع مصر ولا قراها، وبين بنيان سراي وخراب ما بها من الأمكنة، ثلاث وستون سنة، وكانت من أعظم المدن وضعاً، وأكثرها للخلق جمعاً.

حُكي أن رجـلاً من أعيـانها هرب لـه رقيق، وسكن في مكان منحى عن الطريق، وفتح له حـانوتاً، يتسبب فيـه، ويحصل له قـوته، واستمـر ذلك المهين، نحواً من عشر سنين، لم يصـادفه فيـه مولاه، ولا اجتمع به ولا رآه، وذلك لعظمهـا، وكثـرة أممهـا، وهي على شط نهر متشعب من أتل، الذي أجمع السـواحـون والمؤرخـون وقطـاع المناهل، أنه لم يكن في الأنهر الجارية، والميــاه العــذبـة الناميــة، أكبر منه، وهو يـأتي من بلاد الروس، وليس له فائـدة سوى اغتيال النفـوس، ويصب في بحر القلزم، وكـذلك جيحـون، وسـائـر أنهار العجم، مع أن بحـر القلزم محصـور، وعليـه بعض ممالك العجم تدور، مثل كيـلان، ومـازندران، واستراباد، وشروان، واسم نهر سراي سنكـلا، ولايقطع أيضــاً إلا بـالمراكب، ولا يثبت عليـه قـدم لراجل ولا راكب، وكم فـرق تتفـرق من ذلك البحـر العريض الطويل، وكل فرق أعظم من الفراه والنيل.

ذكر وصول ذلك الطوفان وحجفه أمم الدشت بعد كسره توقتاميش خان

فوصل تيمور إلى تلك الداره، بالعسـاكر الجراره، بل بالبحار الزخاره، ذوي السهـام الطيـاره، والسيـوف البتـاره، والرمـاح الخطاره، والأسـود الهصـاره، والنمور الكراره، من كل شـان الغـاره، مدرك في العـدو ثأره، حام حقيقتـه وجاره، وعرينه ووجـاره، وفريسته ونجـاره، والج من بحر الحرب غماره، مقاوم أمـواجه وتياره، فأرسل توقتـاميش إلى غمار حشمه، وعظماء أممه، وسكان أحقافـه، وقطان أطرافه، ورؤوس أسرته، وضروس ميمنته وميسرته، فاستدعاهم، وإلى المقابلة والمقاتلة دعاهم، فأتوا في ثوب طاعته يرفلون، وهم من كل حدب ينسلون، واجتمعوا شعوباً وقبائل، ما بين فـارس وراجل، وضــارب ونابل، ومقبل وقـابل، ومقــاتل وقـاتل، بمرهف ذابل، وهم قـوم نبال النبال، ونصال النضـال، لا يطيشون سهماً، وهم من بني ثعـل(١) أرمى، إذا عقـدوا الأوتار، أصــابوا الأوتار، وإن قصـدوا الأوطار، وجــدوا المقصـد جثم أوطار، ثم نهض للمصــادمـه، واستعد للمقاحمة والمقاومه، بعساكر كالرمال كثرة، وكالجبال وفره.

ذكر ما وقع من الخلاف في عسكر توقتاميش وقت المصاف

وحين تواقف الصفان، وتثـاقف الزحفان، برز من عسكـر توقتاميش أحــد رؤوس الميمنة، له دم على أحــد الأمــــراء فطلبــه منه، وفي قتله استأذنه، فقال له: لينعم بالك، وليجب سؤالك، قلت شعراً:

لكـن ترى مـــــــا قـــــــد طـرى　　　على الـورى ومــــــا جـــــــرى

فأمهلنـا حتى إذا انفصلنا، وعلى المراد حصلنا، أعطيتـك غـــريمك، وناولتك خصيمك، فأدرك منـه ثأرك، وأقض أوطارك، قـال: لا ولكن السـاعه، وإلا فـلا سمع ولا طاعـه، فقال نحن في كـرب مهم، هو من مـرامك أهم، وخطب مدلهم هو مـن مصابك أعم، فـاصبر ولا تعجل،

١ــ بنو ثعل من طيء، شهروا بالمهارة بالرمي.

واطمئن ولا توجل، فما ذهب لأحد حق، ولا يضيع مستحق، فلا تلجىء الأعمى إلى الجرف، ولا تكن ممن يعبد الله على الحرف، فكأنك بليل الشده وقد أدبر، وبصباح الفلاح وقد أسفر، فالزم مكانك، ونازل أقرانك، وتقدم ولا تتأخر﴿فاصدع بما تؤمر﴾(١)، فانجر ذلك الأمير، بجمع كثير، واتبعه كل باغ وغاو، وقبيلته كلها واسمها أقتاو(٢)، فانطلق يروم، ممالك الروم، فوصل هو وحشمه إلى ضواحي أدرنه، واستوطن تلك الأمكنه، فاختل لذلك عسكر توقتاميش، وصارت سهام مرامه مراميه تطيش، ولم ير بداً من اللقاء، وصدق الملتقى، فثبت جأشه وجيشه، وهزم وقار طيشه، وقدم من أطلابه الأبطال، ورتب الخياله والرجال، وقوى القلب والجناح، وسدد النبل والصفاح.

فصل: وأما جيش تيمور، فإنه مستغن عن هذه الأمور، لأن أمره معلوم، ووصفه مفهوم، وسطر النصر والتمكين على جبين راياته مرقوم، ثم تدانى الجيشان واصطدما، واصطليا بنار الحرب واصطلما، والتقت الأقران بالأقران، وامتدت الاعناق للضراب، وشرعت النحور للطعان، واكفهرت الوجوه واغبرت، وكشرت ذئابه للضراب وأهرت، وتهارشت نمور الشرور، واستطرت(٣)، وتعانشت(٤)، أسود الجنود وازبأرت(٥)، واكتست بريش النبال الجلود فاقشعرت، وهوت جباه الجباه ورؤوس الرؤوس في محراب الحرب للسجود فخرت، وثار الغبار وقام القتام، وخاض بحار الدماء كل خاص وعام.

وصارت نجوم السهام، في ظلام القتام، لشياطين الأساطين رجوماً رواشق، ولوامع السيوف في سحاب التراب على الملوك والسلاطين

١— سورة الحجر— الآية: ٩٤.

٢— المعنى الحرفي لهذا الاسم من الفارسية: الشعاع الأبيض

٣— استطرت: سارت مسرعة

٤— تعانشت: تعانقت

٥— ازبأرت: تهيأت للشر

بروقاً وصـواعق، ولا زالت سلاهب(١) المنايا تجوب وتجول، وضراغم السرايا تصوب وتصول، ونقع السنابك إلى الجو راقياً، ونجيع السوافك على الدو جاريا، حتى غدت الأرض ستاً، والسموات كالبحار ثمانيا، واستمر هذا اللدد والخصام، نحواً من ثلاثة أيام، ثـم انجلى الغبار، عن أن انهزم جيش توقتاميش، وولى الأدبار، وفرت عساكره وابذعرت(٢)، وانتشرت جنود تيمـور في ممالـك الدشت واستعـرت، واستـولى على قبـائلها، وأتـى على ضبط أواخرها وأوائلهـا، واحتـوى على الناطق(٣) فمازه(٤)، وعلى الصـامت فحـازه، وجمع الغنائم، وفـرق المغـانم، وأباح النهب والأسر، وأذاع القهـر والقسر، واطفأ فتـائلهم، وأكفأ مقـاولهم، وغير الأوضـاع، وحمل مـا استطاع، من الأمـوال والأسرى والمتـاع، ووصلت طراشتـه(٥)، إلى أزاق(٦)، وهدم سراي وسراي جـوق(٧)، وحـاجي ترخـان، وتلك الآفـاق، وعظمت منزلة أيدكـو عنده، ثم قفل قاصداً سمرقند، وصحب أيدكو معه، ورام أن يتبعه.

ذكر أيدكو وما صنعه، وكيف خلب تيمور وخدعه

فأرسل أيدكـو قـاصـداً إلى أقـاربه وجيرانه، وقبـائل الميسرة كلهم من أصحـابه وأخـدانه، من غير أن يكون لتيمـور، بذلك شعـور، أن يرحلوا عن مكانهم، وينشمـروا عن أوطانهم، وأن ينحـوا جهـة عينهـا، وأمـاكن بينهـا، صعبة المسـالك، كثيرة المهالك، وإن أمكنهم أن لايقيمـوا في منزل

١— السلاهب: الطوال من الخيل والرجال. العين

٢— ابذعروا: فزعوا فتفرقوا. العين

٣— الناطق من المال: الظاهر

٤— ماز الشيء: فرزه عن غيره

٦— أي الذين يسببون الطرش لكثرة ما يصدر عنهم من ضجيج

٦— من المرجح أنها كانت مـدينة مهمة لاسيما للبنادقـة، قامت على نهاية طرق التجـارة الدولية من الصين عبر آسية ومن ثم أوربا prawdin, pp 346-347

٧— سراي جوق: بلدة بالقرب من مصب نهر الأردال في بحر الخزر

واحـد يومين فليفعلـوا ذلك، فإنه إن ظفـر بهم تيمـور، بدد شملهم، وأبادهم كلهم، فـامتثلوا ما رسم به أيدكـو، وارتحلوا ولم يلووا، ولما علم أيدكو أن جماعتـه فوزوا(١)، وحشمه لتيمـور أعجزوا، قـال له: يا مولانا الأمير، إن لي من الأقارب والحشم الجم الغفير، وإنهم عضدي وجناحي، وبصـلاح معـايشهم صـلاحي، ولا آمن عليهم أن يلقـوا بعـدي، من توقتاميش الجور والتعـدي، بل لا أشك أنـه يفنيهم، ويبـددهم عن بكرة أبيهم، وحيث يمتنع عليـه بجـاه جنابك جانبي، ينتقـم لسوء طويتـه من حشمي وأقـاربي، لأن سـدا هذه الملاحم أنا ألحمتـه، وفي مضـائق البـلاء ومـآزق الانكسـار أنا أقحمتـه، وعلى كـل حـال فـلا يطيب على قلبي أن يسـاكنوه، وكيف يهنأ لي العيش وأصـدقـائي مجاوروه، فإن اقتضت الآراء المنيره، إرسال قـاصد إلى تلك الأماكـن والقبائل الكثيره، صحبة مـرسوم شريف، وأمـر عـال منيف، باستمالة خـواطرهم، وتطييب قلوب قبـائلهم وعشـائـرهم، والأمـر بترحـالهم، وترقيح(٢) حـالهم، فنكون جميعـاً تحت الظـل الشريـف، في روض عيـش وريـق وريـف، ونتخلـص مـن هـذا الدشت(٣)، الخلق الدست ونقتضي مـا مضى من الأعمار، ونقضي الباقي في ﴿جنات تجري من تحتهـا الأنهار﴾ فـالـرأي الشريف أعلى، واتبـاع مـا يبـديه بالمماليك أولى، فقـال له تيمـور: أنت عـذيقهـا المرجب وجـذيلهـا المحكك(٤)، ومع وجـودك أنت من يسلـك هذا المسلك، فقـال: بل كل الأنام عبيدك، وتابع مرادك ومريدك، ومن تراه لشيء أهلا، كان كل حزن عليـه سهـلا، فقـال: بل أنت أولى بهذا الأمـر، فكن ضمينه، إذ لايفتى ومـالك في المدينه، فقـال: اضف إلي واحـد من الأمـرا، ليكون لي عليهم وزرا، مع مراسيم شريفه، بما تقتضيه الآراء المنيفـه، فأجابه وقضى مراده، وأضاف إليه من أراده، فقضيا مآربهما ونجزا، ونحو مطلبهما تجهزا.

١— أي عبروا المفازة وابتعدوا

٢—إنه ليرقح معيشته: أي يصلحها

٣— سورة البقرة—الآية: ٢٥، وفي سور أخرى كثيرة

٤— أي أنت وحدك المؤهل لذلك

ولما فصل أيدكـو عن تيمور، استدرك فـارطه، وعلم أن أيدكـو خلبه عقله وغالطه، فأنفـذ إليه قـاصداً، أن يكون إليه عـائداً، لأمـر قد سنح، ورأي قد جنح، فلما قـدم القاصد عليـه، وبلغ ما أرسل به إليـه، قال له وللامير الذي معه، وقـد نهى كلا منهما أن يتبعه، إقضيا مـآربكما، والحقا صاحبكما، وقبـلا يديه وأبلغاه، أن أمـد اجتماعنا هذا منتهاه، وأني بريء منه إني أخـاف الله، ولم يمكنهما مخاشنتـه، ولا وسعهما في تلك الضائقـة الشديدة إلا ملاينته، فودعاه وانصرفا، وانحرفا وما وقفا.

ولما بلغ تيمور ذلك تضرر وتضرم، وتبرح وتبرم، وحـرق عليه الإرم وتندم، ولات حين مندم.

وكـاد يقتل نفسه حنقـاً عليـه، وتجرع كاسـات﴿يوم يعض الظالم على يديه﴾(١)، ولم يمكنه التقيـد به، فلـم يتحـرك له بحـركـه، وتوجـه إلى ممالكه ثم إلى سمرقند وتركه، فكان هذا آخر أمره من دشت بركه، حتى قيل إنه لم يخدع تيمور ويدهيه، ويخلبه قـولاً وفعلاً ويطفيه، سوى أيدكو المار ذكـره، أقـول وسـوى قـاضي القضـاة ولي الدين عبـد الرحمن بن خلدون المالكي الآتي حكايته وأمره.

تتمة قصة ما جرى في نواحي الشمال بين توقتاميش وأيدكو من الجدل والقتال إلى أن تغير أمر كل منهما وحال

ولما انفصل تيمور بما حصل، واستقر في مملكته بعد ما وصل، واتصل أيدكو بحاشيتـه، وابتهج بصاغيته وغاشيتـه، أخذ في التفتيش، عن أمور توقتاميش، وتحفظ منه وتحرز، ولمنـاوأته انتصب وتجهز، إذ لم يمكنه رتق ما فتقه، ولا رقع ما خرقـه، وأيضاً ما أمكنه الاستقلال بادعاء السلطنة، إذ لو أمكن ذلك، لإدعـاه تيمـور الـذي ملك الممالك،فنصب من جهتـه سلطانا، وشيد في دار الملك خـانا، ودعا رؤوس الميسرة ووجوه قبـائلها

١— سورة الفرقان— الآية: ٢٧

إليه، فلبـوا دعوته، وأقبلوا عليـه، إذ كانوا أقـوى من غيرهـم، آمنين من ضرر الجغتـاي وضيرهم، فقـوى بذلك سلطـانه، وعمـر بقفـول الجنود خانه، وثبت في دار الملك أساسه وعلت أركانه.

وأمـا توقتاميش فبعـد أن تراجع وهله(١)، واستقـر في دماغـه عقله، ورحل عـدوه، وحصل هدوه، جمع عساكـره، واستنجد قومـه وناصره، فـلا زالت ضروب الضراب لخراب الحروب بينه وبين أيـدكـو قـائمـه، وعيون السكون كجفون الزمـان المتعامي عن صلحهما نائمه، إلى أن بلغ مصافهم خمس عشرة مـره، يدال هذا على ذلك تارة وذاك على هذا كره، فأخـذ أمـر قبـائل الدشت في التنقص والشتـات، وبواسطة قلة المعـاقل والحصون، وقعـوا في الانبثاث والانبتات، لاسيما وقـد تناوشهما أسدان، وأظل عليهما نكدان، وقد كـان جلهم ذهب مع تيمور، وأمسى وهو في أمـره محصور، وفي حصره مأسـور، فـانفذت منهم طائفـة لا تحصى ولا تحصر، ولا يمكن ضبطهـــا بديـوان ولا دفتر، وانحـــازت إلى الروم والروس، وذلك لحظهـم المشـؤوم وجـدهم المعكوس، فصـاروا بين مشركين نصـارى، ومسلمين أسارى، كما فعله جبله ببني غسـان، واسم هذه الطائفة قرابوغدان.

فبواسطة هذه الأسباب، آل عامر الدشت إلى الخلاء والخراب، والتفرق والتباب(٢)، والانفلات يهلك على الحقيقه، لإضاعته في المجاز طريقه، أما صيفاً فـلأن الرياح للرمال تسفي، فتخفي الطريـق على الماره وتعفي، وأما شتـاء فـلأن الثلج النازل فيهـا، يتراكـم فيغطيهـا، إذ كل أرضهـا مجاهل، ومنازها مـذاهل، ومـراحلها مهـامـه ومناهل، فعلى كل تقـدير، سلوكهـا مهلك عسير، فكانت الوقعـة الخامسـة عشر على أيدكـو فتشتت وتشرد، وتبذر وتبدد، وغـرق هو ونحو من خمس مائة رجل من أخصـائه في بحر

١ــ وهله: فزعه

٢ــ التباب: الهلاك

الرمل، فلم يشعر به أحد، واستبد توقتامش بالمملكة، وصفا له دشت بركه، وكان هذا متشوقاً لأخبار أيدكو وأحواله، متشوقاً لمعرفة كيفية هلاكه في رماله، ومر على ذلك نحو من نصف سنه، وانقطع أثره عن الأعين وخبره عن الألسنه، وأيدكو كان دعيميص(١) تلك الأعقاص(٢) والأحقاف، وممن قطع بسير أقدامه أديم تلك النعال والأخفاف، فصار يتربص ويتبصر، ويتفكر معنى ما قلته ويتدبر، وهو شعر:

أرقُبُ الأمر وأنتظر فرجا ... وانتهز وقتاً إذا ما جا

وأمزج الصبر بالحجى فبه ... ورق التوت صار ديباجا

فلما تيقن أن توقتاميش أيسه، وتحقق أن ليث المنايا افترسه، شرع يتجسس أخباره ويتتبع، ويستشرف آثاره ويتطلع، إلى أن تحقق من الخبر، أنه في متنزه منفرد عن العسكر، فامتطى جناح الخيل، وارتدى جنوح الليل، ووصل السير بالسرى، واستبدل السهر بالكرى، فارعاً إلى الهضاب، فروع الجبال، مفرعا من الربى، إفراع الندى، حتى وصل إليه وهو لا يعلم، وانقض عليه كالقضاء المبرم، فلم يفق إلا والبلايا احتوشته، وأسود المنايا انتوشته، وثعابين الرماح وأفاعي السهام نهشته، فحاولهم قليلاً، وجاولهم طويلاً، ثم انجدل قتيلاً، وكانت هذه المرة من الوقعات السادسة عشر خاتمة التلاق، وحاكمة الفراق.

فاستقر أمر الدشت على متولي أيدكو، وصار القاصي والداني والكبير والصغير إلى مراسيمه يصفو، وتفرقت أولاد توقتاميش في الآفاق، جلال الدين، وكريم بردي في الروس، وكوباك وباقي إخوته في سغناق.

واستمر أمر الناس على مراسيم أيدكو يولي السلطنة من شاء، ويعزله منها إذا شاء، ويأمر فلا يخالفه أحد، ويحد فلا يجاوز ذلك الحد، فمن

١ــ دعيميص: مصغر دعموص، وهو نوع من الدود يعيش في الماء

٢ــ الأعقاص: جمع عقص، وهو المساحة من الرمل التي لا طريق فيها.

ولاه قوتليغ تيمور خان وأخوه شادي بيك خان، ثم فولاد خان بن قوتليغ تيمور ثم أخوه تيمور خان، وفي أيامه تخبطت الأمور، فلم يسلم لأيدكو زمامه، وقال: لأعزله ولا كرامه، أنا الكبش المطاع فأنى أكون مطيعا، والثور المتبوع، فكيف أصير تبيعاً، فالتحم بينهما الشقاق ونجم من ذوي الضغينة مخبوء النفاق، وجرت شرور ومحن، وحروب وإحن.

وبينما ظلمات الفتن احتبكت، ونجوم الشرور في دياجي الدشت بين الفريقين اشتبكت.

واذا ببدر الدولة الجلالية، من مشارق السلالة التوقتاشية، بزغ متهللاً، وفرع من بلاد الروس مقبلاً، وكانت هذه القضية، في شهور سنة أربع عشرة وثمانمائه، فتعاظمت الأمور، وتفاقمت الشرور، وضعف حال أيدكو وقتل تيمور، واستمر النفاق والشقاق، بين ملوك ممالك قفجاق، إلى أن مات أيدكو غريقاً جريحاً، وأخرجوه من نهر سيحون بسراي جوق(١) وألقوه طريحا، رحمه الله تعالى.

وله حكايات عجيبه، وأخبار ونوادر غريبه، وسهام ذراه في أعدائه مصيبه، وأفكار مكائد، وواقعات مصائد، وله في أصول فقه السياسة نقود وردود، البحث فيها يخرج عن محصول المقصود، وكان أسمر شديد السمرة ربعه، مستمسك البدن شجاعاً مهاباً ذا رفعه، جواداً حسن الإبتسامه، ذا رأي مصيب وشهامه، محباً للعلماء والفضلاء، مقربا للصلحاء والفقراء، يداعبهم بألطف عباره، وأظرف إشاره، وكان صواماً، وبالليل قواماً، متعلقاً بأذيال الشريعة، قد جعل الكتاب والسنة وأقوال العلماء بينه وبين الله تعالى ذريعه، له نحو من عشرين ولداً، كل منهم ملك مطاع، وله ولايات على حده وجنود وأتباع، وكان في جماعات الدشت إماماً، نحواً من عشرين عاماً، وأيامه في جبين الدهر غره، وليالي دولته على وجه العصر طره.

١- موقع بلدة سراي جوق ليس على نهر سيحون، بل على نهر يابيق (الأورال الحالي) حيث تقع هذه البلدة قرب مصبه في بحر الخزر

رجعنا إلى ما كان فيه، من أمور تيمور ودواهيه

ولما وصل تيمـور إلى أذربيجـان، وانبث عسكـره في ممالك سلطانيـه وهمذان، واستـدعى الملك الظاهر سلطان مـاردين وأطلقه، وأنعم عليـه كما ذكر واستوثقه، وولاه ما بين الشام والعراق، وأحكم تلك الممالك بما وسعه من المكر والنفاق.

ولم يمكنه الإقامة بملك العجم، لما معه من الدشت من أمم، وجه عنان قصده، إلى ممالك سمـرقند، فنفض فيها أوطابه(١)، وفرغ عما كـان ملأ به من الدشت جـرابه، ثم خـرج من غير توان، وقطع جيحـون بالطوفـان، ووصل إلى خـراسـان، وواصل السير إلى أذربيجان، وتـوجه إليـه طهـرتن حاكم أرزنجان، متلقياً طوق مراسيمه بجيد الإطاعة والإذعان، وأهمل أمر ماردين وتناساها، ولم يتعرض إلى ما يتعلق بها من مدنها وقراها.

ابتداء ثوران ذلك القتام، فيما يتعلق بممالك الشام

ثم إنه قصد الرها، ورام نهبها، فخرج إليه شخص من أعيانها، ورؤساء قطانها، يقـال له الحاج عثمان بن الشكشك، فصـالحه واشتراها، بجمل من الأموال، وحملها إليه وأداها، فعند ذلك أرسل إلى القاضي برهان الدين أبي العباس أحمد، الحاكم بقيصرية، وتوقات، وسيواس، من الرسل عده، ومن الكتب شده، يبرق فيها ويرعـد، ويرغي في بحرها ويزبد، ويقيم بفحاويها ويقعـد، ومن جملة فحواها، ومضمـون ذلك ومـا حواه، أن يخطبـوا باسم محمود خان ابن سيورغاتمش خان وباسمه، ويضربوا السكة على طرز ذلك ورسمه، كما هو دأبه، ويتحمله رسوله وكتابه.

فلم يؤمن له السلطان برسـول ولا بكتاب، ولا تقيد لـه بجواب عن خطاب، بل قطع رؤوس الرؤوس من قصاده، وعلقهـا في أعناق الباقين وأشهرهم في بلاده، ثم جعلهم شطرين، وقسمهم نصفين، وأرسلهم إلى

---

١ — الأوطاب: جمع وطب، وهو كيس يملأ تبناً.

جهتين، للسلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق منهم جزؤ مقسوم، والجزء الآخر إلى السلطان أبي يزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان حاكم ممالك الروم، وأخبرهما بالقضيه، عن جليه، وما ورد عليه من خطاب تيمور المقوت، وأنه جعل في ذلك جوابه السكوت، وقتل قاصديه نكايه، ولم يزده على هذه الحكايه، وإنما فعل ذلك برسله وقصاده، استهواناً به، واستعظاماً لما فعله بعباد الله تعالى وبلاده، ثم قال القاضي: إعلموا إني جاركما، ودياري دياركما، وأنا ذرة من غباركما، وقطرة من بحاركما، وما فعلت معه هذا مع ضعف حالي، وقلة مالي ورجالي، وضيق دائرتي وبلادي، ورقة حاشية طريفي وتلادي، إلا اعتماداً على مظاهرتكما، واتكالاً على مناصرتكما، وإقامة لأعلام حرمة دولتكما، ونشراً لرايات هيبة صولتكما، فإني جنة ثغركما، ووقاية نحركما، وجاويش جنودكما، وجاليش بنودكما، وربيئة طلائعكما، وطليعة وقائعكما، وإلا فمن أين لي مقاومته، وأنى تيسر لي مصادمته، وقد سمعتم أحواله، وعرفتم مشاهدته وأفعاله، فكم من جيش كسر، وقيل أسر، ومُلك مَلك، ومَلِك أهلك، وستر هتك، ونفس سفك، وحصن فتح، وفتح منح، ومال نهب، وعز سلب، وصعب أذل، وخطب أحل، وعقل أذل، وفهم أضل، وخيل هزم، وأس هدم، وسؤل قطع وقصد منع، وطود قلع، وطفل فجع، ورأس شدخ، وظهر فضخ(١)، وعقد فسخ، ونار أشب، وريح أهب، وماء أغار، ورهج أثار، وقلب شوى، وكبد كوى، وجيد قصم، وطرف أعمى، وسمع أصم، وأنى لي ملاطمة سيل العرم، ومصادمة الفيل المغتلم، فان نجدتماني وجدتماني، وإن خذلتماني بذلتماني، ويكفيكما هيبة وشهرة، وناهيكما أبهة ونصره، أن من خدامكما قدامكما، من كفاكما ما دهاكما، وإن أصابني والعياذ بالله منه ضرر، أو تطاير إلى مملكتي من جمرات شره شرر، ربما تعدى ذلك الفعل بواسطة الحوادث، إلى مفعول به وثان وثالث.

١— فضخ: كسر

قلت شعراً بسبب هذه الشدائد:

والشر كـــالنار حين تقـــدحـــه	شرارةٌ فـــإذا بـــادرتـــه خمدا
وإنْ توانيـت عن إطفـائـــه كسـلاً	أورى فتـائل تشـوي القلب والكبـدا
فلـــو تجمـــع أهــل الأرض كلُّهُـــم	لما أفـــادوك في إطفـــائهـــا أبدا

وإنما أهملت خطابه، وأمهلت جوابه، لترسما فـأقتفي، وتأمرا فأكتفي، وتؤسسا فأبني عليه، وتجاوبا فيصل ذلك كذلك مني إليه.

ذكر ما أجابه السلطان أبو يزيد عثمان للقاضي برهان الدين أبي العباس سلطان ممالك سيواس

فأمـا السلطان أبو يزيد بن عثمان، فإن هذا الفعل أعجبـه، ونغم هذا القـول أطربه، واستحسن هذا الحكم من القاضي، واستصـوبه، وأرسل إليـه يقول: إن ارتدع تيمـور عنه وانتهى، وإلا فلنأتينه بجنود لا قبل له بها، فليقابله بعين قريرة، وليثبت له بحسن البصيرة، واخلاص السريرة، ولا يجزع من جنود الغـزيرة، فكم من فئـة قليلة، غلبت فئة كثيرة، وإن اقتضت آراؤه السـديدة، وأحكامـه السعيـدة، توجـه بنفسه إليـه، وقـدم بالغزاة والمجاهـدين عليه، ليرفع أعلامه، وينفذ أحكـامه، ويكون لسيفه يداً، ولجناحه عضداً، ثم أرسل كتابه، وانتظر جوابه.

وأمـــا الملك الظاهـر فما رأيت له كتـــاباً، ولا حققـت منه جـــواباً، والظاهر أن جـــواب الملـك الظاهر أبي سعيـــد، كـــان شقيق جـــواب السلطان الغـازي أبي يزيد، إذ أفعـالهما وأقـــوالهما في البـاطن والظاهر، كانت من باب توارد الخواطر.

ثم إني رأيت كتـــاباً، يتضمن خطاباً وجـواباً، وذكـــر أن الخطاب من ذلك الغـدار، والجواب من الملك الظاهر، وكـلاهما سـوى آي الكتـاب غير زاه ولا زاهر، أما صـورة الخطاب، فهو: قل اللهم فـاطر السموات

والأرض، عـالم الغيب والشهـادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كـانوا فيـه يختلفـون، اعلمـوا أنا جند الله مخلوقـون من سخطه، مسلطون على من يحل عليه غضبه، لانرق لشـاك، ولا نرحم عبرة باك، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فـالويل كل الويل لمن لم يمتثل أمورنا فإنـا قد خربنـا البلاد، وأهلكنا العبـاد، وأظهـرنا في الأرض الفساد، قلـوبنا كالجبـال، وعـددنا كـالرمال، خيـولنا سوابق، ورمـاحنا خوارق، ملكنا لا يرام، وجـارنا لا يضام، فإن أنتم قبلتم شرطنا، وأصلحتم أمرنا، كان لكم مالنا، وعليكم مـا علينا، وإن أنتم خلفتم وأبيتم، وعلى بغيكـم تماديتم، فـلا تلومن إلا أنفسكم، فـالحصـون منـا لا تمنع، والعسـاكـر لدينا لا تـرد ولا تدفع، ودعـاؤكم علينا لا يستجـاب، ولا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام وضيعتم الجمع، فابشروا بالذلة والجزع، فـ﴿اليوم تجزون عذاب الهون﴾(١) وقد زعمتم أننا كفره، فقد ثبت عندنا أنكم فجرة، قد سلطنا عليكم من بيده الأمـور مقدره، والأحكام مـدبره، كثيركـم عندنا قليل، وعـزيزكم عندنا ذليل، قـد ملكنا الأرض شرقاً وغـرباً، وأخـذنا منها كل سفينة غصبـا، وقــد أرسلنـا إليكم هذا الكتــاب، فأسرعــوا في رد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، ولم يبق لكم باقيـه، فينادي عليكم منادي الفناء، ﴿هل تحس منهم مـن أحــــد أو تسمع لهم ركـــزا﴾(٢)وقــــد أنصفنـاكم إذ راسلناكم، ونثـرنا جـواهر هذا الكلام، عليكم والسـلام، وهذه صـورة الجواب، وقيل هو إنشـاء القـاضي بدر الدين ابن عـلاء الدين بن فضل الله، وما أظن لذلك صحه، وهو: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل اللهم مـالك الملك تؤتي الملـك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشـاء وتعز من تشـاء وتذل من تشاء بيـدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾(٣)

١- سورة الأنعام- الآية: ٩٣

٢- سورة مريم-الآية: ٩٨

٣- سورة آل عمران- الآية: ٢٦

حصل الوقوف على كتاب مجهز من الحضرة الإيلخانيه، والسدة العظيمة الكبيرة السلطانية، قولكم: «إنا مخلوقون من سخطه، مسلطون على من يحل عليه غضبه، لا نرق لشاك، ولا نرحم عبرة باك، قد نزع الله الرحمة من قلوبكم»، فهذا من أكبر عيوبكم، وهذا من أقبح ما وصفتم به أنفسكم، ويكفيكم بهذه الشهادة واعظاً إذا اتعظتم ﴿قل يا أيها الكافرون● لا أعبد ما تعبدون﴾(١) ففي كل كتاب ذكرتم، وبكل قبيح وصفتم، وزعمتم أنكم كافرون، ألا لعنة ﴿الله على الكافرين﴾(٢)، من تشبه بالأصول لا يبالي بالفروع، نحن المؤمنون حقاً لا يصدنا عيب، ولا يداخلنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو رحيم بنا لم يزل، وقد عمنا ببركة تأويله، وقد خصنا بفضل تحريمه وتحليله، إنما النار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، ﴿إذا السماء انفطرت﴾(٣)، ومن العجب العجاب، تهديد الليوث بالرتوت(٤)، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع، نحن خيولنا عربية، وهممنا عليه، والقناة شديدة المضارب، ذكرها في المشارق والمغارب، إن قتلناكم نعم البضاعة، وإن قتلتمونا بيننا وبين الجنة ساعه﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾(٥)، وقولكم:« قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال» فالجزار لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير من الحطب يكفيه قليل من الضرم،﴿فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾(٦)الفرار لا من الرزايا، نحن من المنيه، في غاية الأمنيه، إن عشنا عشنا سعداء، وان متنا شهداء، ألا إن ﴿حزب الله هم الغالبون﴾(٧)أبعد أمير المؤمنين وخليفة

١— سورة الكافرون— الآيتان: ١— ٢

٢— سورة البقرة—الآية: ٨٩

٣— سورة الانفطار— الآية: ١

٤— الرت: شيء يشبه الخنزير، والجمع: رتوت. العين

٥— سورة آل عمران— الآية: ١٦٩

٦— سورة البقرة—الآية: ٢٤٩

٧— سورة المائدة—الآية: ٥٦

رب العالمين، تطلبون منا طاعة، لا سمع ولا طاعه، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا، فهذا الكلام في نظمه تركيك، وفي سلكه تفكيك، لو كشف البيان، قبل البنيان، أكفر بعد إيمان، أم اتخذتم رباً ثان﴿لقد جئتم شيئاً إدا●تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض و تخر الجبال هدا﴾(١)، قل لكاتبك الذي رصع رسالته، ووصف مقالته: حصل الوقوف على كتاب، كصرير باب، أو طنين ذباب، ﴿ وسنكتب ما يقوله ونمد له من العذاب مدا﴾(٢) ومالكم عندنا إلا السيف بقوة الله تعالى.

ثم إني وجدت في نسخة محا مرّ الدهور بتقادمه مدادها، وبيض كر العصور على وجه الزمان من شيبها سوادها، صورة هذا الكتاب، وهيئة هذا الخطاب، من إنشاء نصير الدين الطوسي على لسان هلاكو التتري، مرسلا ذلك إلى سلطان مصر، وصورة الجواب بعينه إنشاء من كان في ذلك العصر.

فصل: ولما بلغ تيمور ما فعله السلطان برهان الدين بقصاده حنق، ورتق بجناحي الغضب، وفار دم قلبه ورنق(٣)، وغص غضباً، فكاد من الغيظ أن يختنق، ولكن علم أن في الزوايا خبايا، وللاسلام جنوداً وسرايا، وفي عرين الدين من ليوث المسلمين بقايا، وإن أمامه أسوداً هواصر، وجوارح كواسر، فتصبر للزمان، ورجع القهقرى، وتربص بهم الدوائر.

ذكر توجه العساكر الشامية، لدفع تلك الداهية

مع أن ملك الأمراء بالشام هوتنم خرج بالعساكر إلى ارزنجان، ورجع وهو مغتنم، ولم يروا في ذلك ضيرا﴿ورد الله الذين كفروا

١—سورة مريم—الآيتان: ٨٩—٩٠

٢— سورة مريم—الآية: ٧٩

٣— رتق بجناحي الغضب: كظم الغيظ وتجلد، وتظاهر بعدم المبالاة، ورنق: تكدر

بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾(١) وعـاد من جيش الإسلام كل أسـد هصور، وقد اصطاد من كراكي ما ضاهى صورته وجاءه نور على نور.

ذكر رجوع ذلك الكنود وقصده استخلاص بلاد الهنود

ثم إن تيمـور بلغه إن سلطان الهند فيروزشـاه، انتقل من زحمة الدنيـا إلى رحمة الله، ولم يكن له ولد يكون له خليفه، فسعى تيمـور، لأن يتولى بحكم الوفـاة والشغور، تلك الوظيفـة، ولما فاظ صاحب الهنـد صارت الناس فوضى، ومرج بحر أمر الهند وماج، فجعل كل يخوض خـوضا، فعـز بعـض الناس، وبعضهم ذلوا، ثم اتفقـوا على توليـة وزيـر اسمـه مثلو، فـرأب من أمـر الناس مـا انصـدع، ورفع من استحـق الرفع، وخفض من بغير استحقـاق ارتفع، فعصى عليـه أخوه سـارنك خـان، متـولي مـدينة مـولتان، ووقع بينهـم التخالف، وافترق مـلأ الهند فـرقـاً وطوائف، فكان اختـلافهم لتيمـور أحسن مسـاعـد، وأقـوى عضـد وساعد، قلت شعراً:

وتشتت الأعـــــداء في آرائهـم سبب لجمع خـــواطر الأحبـــاب

وحين وصل تيمـور إلى مـولتـان، عصى عليه سـارنك خـان، فأقـام يحاصرها، وقعد يضاجرها، وكانت عسـاكرها جمه، وليالي كتائبها السود مدلهمه، حتى قيل إن من جملة عسكرها الثقيل، كان ثمانمائة فيل، مع أن كل أمير من أطراف الهنـد، ورئيس من أكناف السـد، كـان قـد لفلف أذياله، ولملم رحـاله ورجـاله، وضبط لجوائحـه أثقـاله، وربط لحوائجـه أفيـاله، واستمـر ذلـك اللدد والخصـام، نحـواً من ثلثي عـام، إلى أن استخلصها، ومن يده خلصها.

فصل: ولما استولى ملو(٢) واستقر أمر الهند عليـه، وبلغه توجه تيمور

١— سورة الأحزاب— الآية: ٢٥

٢— ملو إقبال خان، كـان وزير السلطان محمود فيروز شاه، استبد بـالسلطنة، وحاول التصدي لتيمور وأخفق

إليه، جد واجتهـد، وأعد العدد والعدد، واستمـد الإمداد والمدد، وأهلك ﴿مالاً لبـداً﴾(١)وحسب ﴿أن لن يقدر عليـه أحد﴾(٢)وفـرق الأموال، وجمع الخيل والرجـال، وأحضر مـا في مملكتـه من الأفيـال، ثم حصن مـدائنه، ومكن كمائنه، وشيـد على الأفيـال للمقـاتلة أبراجـاً، وأحكم في تحرير المناضلة طريقـة فقه فيهـا ذهب، ومنهاجـاً، وجد تيمـور في السير، حتى كـاد يسبق الطير، إذ لم يكن له في ذلك الإرث من يحجبـه، ولا في عسـاكـر سلطان الهنـد من يقـر بـه، فلما بلغ الهنود بالجنود، برزت إليـه بالجنود الهنود، وقـدموا الفيـول لتنفير الخيول، وقـد بنوا على كل فيل من الأتراس برجـا، وعبـوا في كل برج من المقـاتلين من يخشـى في المضـائق ويرجى، بعدما جعلوها من أكبر كستـوانات(٣)في حصار، وعلقوا عليها من القلاقل(٤)والأجـراس الهائلة ما يدعو العفاريت إلى الفـرار، وشدوا في خراطيمها سيـوفاً، يصلح أن يقـال أنها سيوف الهند، تدعـو الرؤوس شعلة لهيبها، فتخـر لها ساجدة فيحق أن يقـال لها نار السند، وهذا خارج عما لتلك الأفيلة من الأنيـاب، التي هي في الحروب كـالحراب، إذ هي في أداء ما وجب عليها نصاب كامل، وسهامها التي هي مصيبة في نحور من يقـابلهـا، تقصم كل نابل وذابل، فكانت تلك الأفيـال، في صف القتـال، كأنها غيل بأسـودها مـاشيـه، أو صيـاص(٥)بجنودهـا جـاريه، وأطواد بنمورها عاديه، أو بحـار بأفواج أمواجها رائحـه جائيه، أو ظل من الغمام بصـواعقها هاميـه، أو ليـالي الفراق بنوائبهـا السـود سارية، وخلفهـا من الهنود، فوارس الحرب، وأبطال الطعن والضـرب، وسـد الأسود، وطلس الذئـاب، ونمـش الفهـود، بالذابل الخطي، والصـارم الهندي، والنبل الخلنجي، مع قلب ذكي وجنان جري، وعزم قوي، وصبر رضي.

١— سورة البلد— الآية: ٥٦

٢— سورة البلد— الآية: ٥

٣— أراد هنا البركستوانات، وهي الدروع التي تلبسها الخيول

٤— المرجع أراد: الجلاجل

٥— الصياصي: الحصون

ذكر ما فعله ذلك المحتال من الخديعة في إجفال الأفيال

وحين اطلع تيمور على هـذه الحال، وتحقق أن شقـة عسـاكـر الهند نسجت على هذا المنوال، أعمل المكيدة، في قلع هذه المصيـدة، ومرق لهم بمـرقة قـدر طبخهـا أخثـر من العصيدة، فبـدأ أولا في الإحتيـال، بدفع مكيدة الأفيال، فاستعمل الفكر الحديد، في اصطناع شوكات من حديد، مثلثـة الأطراف، مستبعـدة الأوصـاف، كـانها في شكلهـا الخبيث، طرق القـائلين بالتثليـث، ووضع أصحـاب الأوفـاق أعـدادهـم المنسـوبة إلى الوفــاق، فصنعـوا له من ذلـك الألوف، ثم عمـد إلى مجال الفيــول في الصفوف، فنشر ذلك لها ليلاً، وجلب لأهلهـا حربا وويلا، ورقم لذلك حــدا، ورسم أن فعل ذلك الحد لا يعــدى، ثم ركب أطلابـه وأبطاله، ورتب أسـوده وأشبـاله، وهذب خيله، وشذب رجـاله، وأرصـد شمالاً ويميناً، من عسكره للعدو كميناً.

وحين بث سلطان السيــارة في جـوانب الآفــاق خيله، وضـم جيش الظلام رجالة أنجمه، وشمـر للهزيمة ذيله، مشى عسكره إلى ذلك الحد رويداً حتى وصل إليه، ولما تراءى الجمعان نكص على عقبيه، ثم نكب بالخيول، عن طريق الفيول، فتصورروا أن خيوله جفلت، وشمس نصرته انكسفت، وكواكب جيشه أفلت، فاقلعوا إقلاع الفيول، وانهمرت انهمار السيول، وساقوها خلف عساكـره سوقاً، على ذلك الشوك الملقى، وأتبع الفيـالة، من الهنـود الرجـالة والخيـالة، فلما وصلت سيــول الفيـول من مطارح الشوك إلى المقاسم، وأخـذ ذلك الشوك في تقبيل أيديها وأرجلها وتشبث بتلك المناسم، وأحست بقوائمها بشوكها، رجعت القهقرى، بل وولت الأدبار لعـدم عقلهـا، فنهنهـوها ونهوها عن التـولي، فلم يفـدها النهي والنهنهــه، وصارت في التقـدم إلى جهة العـدو كفيل أبرهه، ثم لم يسعها لما أضرها الشوك في تلك الحرار، إلا التـولي من الزحف والفرار، فحطمت الفيول، الرجـال والخيول، وصارت قتلى كالجبـال، والدماء في

أوديتهـا سيول، وخـرج عليهم الكمين، من ذات الشمال وذات اليمين، فأبادوا سائرهم، وألحقوا بأولهم آخرهم.

وقيل إن بلاد الهند ليس فيهـا أباعـر، وإن منظرها يجفل الفيل فيصير أبعد نـافراً، فأمـر تيمور أن يهيأ خمس مـائة بعير جفول، وتعبـأ رواحلها والحمول، قصبـاً محشواً بفتـائل، وقطن بالدهن مبلول، وأن تسـاق أمام الركبان، إلى أن يتراآى الجمعـان، فلما تصافوا ولم يبق إلا القتـال، أمر أن تطلق النيران في تلك الحشـايا والأحمال، وتسـاق إلى جهـة الأفيـال، فلما أحس البعـــران، بحـــرارة النيران، رغـت ورقصت، ونحـــو الفيـــول شخصت، وصارت كما قيل شعراً:

كـأنــك مـــن جمال بنـــي أقيـــش(١)   يقعقـع بين رجليـــــــــــــــــه بشـن

فلما رأت الفيلة النيران، وسمعت رغـاء البعـــران، ونظرت إلى الإبل كيف خلقت، وشـــاهدتها، وقـد غنت ورقصت، وبأخفـــافهـا صفقت، ألوت على عقبها ناكصه، وتلا الكـافرون آية النصر على أصحاب الفيل، وأرسلوا عليهم من السهام طيراً أبابيل، فلم ينتفعـوا بالأفيال، بل أفنت الأفيـال غـالب الخيل والرجـال، ثـم تراجعت عسـاكـر الهنود، وأبطال الخيالة من الجنود، وكتبـوا الكتائب، وبندوا البنود، ثم ترامـوا وتصـافوا، وتضـامنوا وتحافوا(٢)، وهم مـا بين مجوسي و مسلم، ومبـارز ومنتسب مناد بالشعـــار معلم، وكل في ســـواد اللون من الحديـد، كقطع الليل المظلم، ثم تدانوا مع التتـار وتزاحفـوا، وبعد المراشقـة بالسهام بالرمـاح تثاقفوا، ثم بالسيوف تضاربوا، ثم تلابيوا وتواثبوا، ثم ترامـوا عن ظهور الخيل، واعتكر في ذلـك القتـام النهــار بالليل، ولا زالـت تختلف بينهم

١— كان أقيش أبوحي من قبيلة عكل، اشتهر بجمال له غير عتاق، تنفر من كل شيء، القاموس باب الشين، فصل الهمزة.

٢— حف القـوم بسيـدهم: أي أطافـوا به وعكفـوا، ومنه قـوله تعـالى﴿حـافين مـن حـول العرش﴾العين

الضربات، وتصول فيهم الحملات، وتخمد منهم الصولات، حتى تلا لسان القضاء والقدر ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات﴾(١) ثم تناهى الاقتحام، وانفرج الازدحام، وأسفرت القضية عن أن برد حامي الهند، فانهزم جيش حام، وحل بالهنود الويل، ومحا الله آية الليل، ولما تفرقت الهنود وفلوا، وانتهى عقد عملهم في المحاربة فحلوا، وقتلت سرواتهم، وهرب سلطانهم ملو، وثبت تيمور وحكمه في هنده، إلى الآن كما ثبتت أوتاده في سمرقندْ، فجمع أقيالها، وربط أفيالها، وضبط أحوالها، وما غفل عن ضبطه ما عليها وما لها، وسلم أفيالها فيالها.

ثم توجه نحو تختها، وهي مدينة دهلي، مصر عظيم جمع الفنون للفضل وأرباب الفخر الجلي، معقل التجار، ومعدن الجواهر والبهار، فتمنعت عليه بالحصار، فأحاط بذلك السواد الأعظم، من عساكر السواد الأعظم، ومن معه من الخلائق والأمم، فقيل إن هذه العساكر والخلائق مع عظمها وكثرتها، لم يقدروا أن يكتنفوها لسعة دائرتها، وإنه أخذها من أحد جوانبها بالمحاصرة، وتم الجانب الآخر ثلاثة أيام في المجاذبة والمشاجرة، لم يدر من في الجانب المحاصر، لبعد المدى وكثرة الأمم، ما فعل بالجانب الآخر.

ذكر وصول ذلك الخبر إلى ذلك العقوق بوفاة الملكين أبي العباس أحمد والملك الظاهر برقوق

وبينما هو قد استولى على كرسي الهند وأمصاره، واحتوى على ممالكه وأقطاره، وبلغت مراسيمه أعماق أنجاده وأغواره، وانبث جيشه في ولاياتها سهلاً ووعراً، وظهر فساده في رعاياها براً وبحراً، إذ وفد عليه المبشر من جانب الشام، أن القاضي برهان الدين أحمد السيواسي، والملك الظاهر أبا سعيد برقوق انتقلا إلى دار السلام، فسر بذلك صدره

وانشرح، وكـاد أن يطير إلى جهة الشـام من الفـرح، فنجـز بسرعة أمـور الهند، ونقل إلى مملكته من فيها من العساكر والجند، بما أخذه من الأثقال، ونفـائس الأمـوال، ووزع ذلك الجمهــور، من ذلك الجند المأسور، على أطراف مـا وراء النهـر من الحدود والثغور، وأقـام في الهند نائبـاً من غير وجل، ثم حدر عن سمرقند قـاصداً إلى الشام على عجل، ومعه من الهند رؤوس أجنادها ووجوه أعيانها، وسلطان أقيالها وأفيال سلطانها.

ثم إنه صـار قرير العين بتلك الطوائف الطافيـة، في أوائل سنة اثنتين وثمانمائة، وانصب بذلـك الطوفان، من جيحون إلى خـراسان، وكـان قد قرر ولده لصلبـه أميران بمملكة تبريز وتلك الديار، والسلطان أحمد قد رجع إلى بغداد وهو مستوفز للفرار.

وسبب حركتـه إلى بلاد الشام —وإن كـان في إهلاك الحرث والنسل مالكي الالتـزام— ما فعله القاضي برهان الدين حاكم سيـواس بقصاده الأغتـام، لكنه أراد أن يغمــه مقصـــده، ويغطـي عن الناس مصـــدره ومورده، قلت بديها، شعراً:

وأنـى يختفـي للشمـس ضـــــــوء	عن الأبصـــار في ضحـــو النهـــار
وكيـف يُتَّر ذفـــــر المسـك يحشـــو	خيـــاشيم الـورى في يوم حـــار
وأنـى يختفـي للطبـل صـــــــوت	عـن الاسماع في وقـت النفـــــــار

فإن قصــده كـان بعيـد المدد، طويل الأمـد، محتاجـاً إلى إعـداد أهبـة السلوك، ويخشى أن تضاهي غزوة تبوك، وأظهر سبباً أبطن فيه، ما رامه من مكره ودواهيه، وأشاع ذلك وأذاع، فامتلأت منه القلوب والاسماع.

معنى كتاب وفد وهو في الهند عليه زعموا أن ولده أميران شاه أرسله إليه

وذلك أن ابنه أميران شاه المذكور راسله، وأنهى إليـه يقول على ما قيل في بعض ما قاوله وحاوله: إنك قد عجزت لكبر سنك، وشمول الضعف

ببـدنك ووهنك، عن إقــامـة شعـائـر الرئـاسـة، والقيــام بأعبـاء الأيالة والسياسة، والأولى بحـالك إن كنت من المتقين، أن تقعد في زاوية مسجد وتعبد ربك حتى يأتيك اليقين، وقد تم في أولادك وأحفادك، من يكفيك أمــر رعيتك وأجنـادك، ويقــوم بحفظ مملكتك وبلادك، وأنـى لك بلاد وممالك، وأنت عن قـريب هـالك، فإن كـان لك عين باصره، وبصيرة في نقد الأشياء ماهرة، فاترك الدنيا واشتغل بعمل الآخره، ولو ملكت ملك شداد، ورجع إليك اقتـدار العمالقة وعاد، وساعـدك النصر والعون، حتى تبلغ مقام هامان وفرعـون، ورفع إليك خراج الربع المسكون، حتى تفوق في جمع المال قارون، وصرت في خـراب البلاد كبختنصر، الذي طول الله تعـالى له فقصر، وبالجملة فلو بلغ سلطانك الأقطار، وقضيت من دنيـاك غاية الأوطار، وصـار عمرك فيهـا أطول الأعمار، وخدامك فيهـا ملوكها الأغمار، فقصر جنـدك قيصر، وكسر كسرى فـــــانكسر، وتبعـك تبـع النجاشي، وأوساط الملوك والأقيال غدوا لـك خداما وحواشي، وفغر لك بغبـور(١) بالثناء فاه، وأحنيـت على الخان وخاقـان، فـوجه كل في رقعـة دستك شاه، وأذعن لك فـرعون مصر وسلطانها، وجيء لك على يد خير الدين ايران الدنيـا وتورانها، وآل أمـرك إلى أن كـان لك سكان الأقـاليم وقطانها، أليس قصـــارى تطاول قصـورك إلى القصـــور، ونهاية كمالك النقص، وحياتك الموت، وسكناك القبور.

قلت شعراً:

فعش مـــا شئت في الـدنيـــا وأدرك ... بها مـــا رمـت من صيـت وصـــوت

فخيـط العيش مـــوصـــول بقطـع ... وحبل العمـــر معقـــود بمـــوت

وقيل شعراً:

قميـــص مـــن القطـــن مـــن حلـــة ... وشربـة مـــاء قـــراح وفـــوت

ينـــال بـــه المرء يـــا يـــرتجي ... وهـذا كثير على مـن يمـــــوت

١— بغبور: لقب ملك الصين-مفاتيح العلوم للخوارزمي-ط. القاهرة- المنيرية-ص ٧٣.

فأين أنت من نوح وطول عمره، ونياحته على قومه وحسن عبوديته وشكره، ولقمان ووعظه ولده، وتربيته لطول الحياة لبده، وداود في ملكه الفسيح، مع قيامه بأوامر الله تعالى وكثرة الذكر والتسبيح، وسليمان بعده، وحكمه على الإنس والجن، والطير والوحش والريح، وذي القرنين الذي ملك المشرقين، وبلغ المغربين وبنى السد بين الصدفين، ودوخ البلاد، وملك العباد، وأين محلك من سيد الأنبياء وخاتم الرسل، وصفوة الأصفياء المرسل، رحمة للعالمين ،الكائن نبيا، وآدم بين الماء والطين، محمد المصطفى، وأحمد المجتبى، الذي زويت له مشارق الأرض ومغاربها، وتمثل بين يديه شاهدها وغائبها، وفتحت له خزائنها، وعرض عليه ظاهرها وكامنها، وكانت جنوده الملائكة الكرام، وآمن به الإنس والجن والطير والوحش والهوام، وأيده الله الكريم المتعال، بأن أرسل لطاعته ملك الجبال، وكان حامل رايات نصره نسيم الصبا باليمين والشمال، فملك الجبابرة بالهيبة والقهر، وكانت الأكاسرة والقياصرة تهابه من مسيرة شهر، وأيده بنصره وبالمؤمنين من المهاجرين والأنصار، وتولى نصره ﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾(١) وان الله سبحانه به أسرى، في بعض ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكان مركوبه الشريف البراق، ثم عرج به إلى السبع الطباق، وقرن اسمه الكريم مع اسمه، وتعبد عباده بما شرعه إلى يوم القيامة، من غير تغيير لحده ورسمه، وخلق لأجله الكائنات، وأنار بوجهه الموجودات، ولم يخلق في الكون أشرف منه ولا أفخر، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأظهر من معجزاته أن أشبع الجم الغفير، من القرص الشعير، وسقى الكثير من الرعال، مما نبع من بين أصابعه من الماء الزلال، وانشق له القمر، وسعت إليه الشجر، وآمن به الضب وسلم عليه الحجر، وهل تحصى معجزاته، وتحصر كراماته، وناهيك بمعجزاته المؤيدة، وكرامته المؤبدة المخلدة، على مر الزمان، الباقية ما دار

١- سورة التوبة- الآية: ٤٠

الحدثان، الساكنة ماتحرك الملوان(١)، وهو القرآن المجيد، الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾(٢) وهذه منازله في الدنيا، غير ما ادخر له في العقبى، وبشره بقوله: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾(٣) مع أن الله تعالى أخذ ميثاق النبيين، بالأيمان به وبنصره، فلو أدركوه لم يسعهم إلا اتباعه وامتثال أمره، فهو دعوة إبراهيم الخليل، ومتوسل موسى وعلماء بني اسرائيل، والمبشر بقدومه على لسان عيسى في الإنجيل، وحامل لواء حمد ربه يوم لقائه، فآدم ومن دونه تحت لوائه، وهو صاحب الحوض المورود، والمخاطب من ربه في موقف الشفاعة والمقام المحمود، وبمعنى ما قلت مفوفا مقتبسا شعراً:

قل تسمع أشفع تشفع سل تنل تجد تفويف(٤) خلعة عز واقتبس نعمى

فانظر إلى هؤلاء السادة، معادن الخير، ومفاتيح السعاده، هل رغبوا في الدنيا واعتمدوا عليها، أو نظروا إلا بعين الاحتقار والإعتبار إليها، أو هل كان نظرهم غير التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، وناهيك بالخلفاء الراشدين، وأعظم بالعمرين، اللذين كانا في هذه الأمة بمنزلة القمرين، وهلم جرا بالخلفاء العادلين، والملوك الكاملين والسلاطين الفاضلين، الذين تولوا فرعوا حقوق الله تعالى في عباده، وحموا عباد الله عن الظلم في بلاده، وأسسوا قواعد الخير، وساروا في نهج العدل والانصاف أحسن سير، فمضوا على ذلك وبقيت آثارهم، وأحيت بعد موتهم أيامهم أخبارهم، فمضى على ذلك مثل الأولين، وبقي لهم ﴿لسان صدق في الآخرين﴾(٥) اذ صنعوا بموجب ما سمعوا شعر:

١— الملوان: الليل والنهار

٢— سورة فصلت— الآية: ٤٢

٣— سورة الضحى— الآيتان: ٤—٥

٤— الثوب المفوف: الرقيق.

٥— سورة الشعراء- الآية: ٨٤.

فكن حـــــديثـــا حسنا ذكـــــره   فإنما الناس أحـــــاديث

وأنت إن كنت تسلطت على الخلق، فقد عدلت أيضا، ولكن عن الحق، ورعيت ولكن أمـــوالهم وزروعهم، وحميت، ولكن بـالنار قلوبهم وضلوعهم، وأسست ولكن قواعد الفتن، وسرت ولكن على سير إمـاتة السنن، ومع هذا فلو عـرجت إلى السبع الشداد، ما بلغت منزلة فرعـون وشداد، ولو رفعت قصورك على شـوامخ الأطواد، ما ضاهت ﴿إرم ذات العماد● التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾(١)فـانظر لمن نهى وأمـر، ثم مضى وغبر، ولا تكن ممن طغى وفجر، و﴿تولى وكفر﴾(٢) وأقنع بهذا الخطاب، عن الجواب، واعط القوس باريها، واترك الدار لبانيها، وتولى الله ورسوله والذين آمنوا، وإلا فأنت إذا ممن تولى في الأرض ليفسد فيها، فإني إذ ذاك أمشي عليك، وأضرب على يديك، وأمنعك من السعي في الفســاد بأن أسوي بين رجليك، مع قلة آداب كثيرة، وعبارات ذنوبها كبيرة.

فلما وقف تيمـور على هذا الكتـاب، وجه إلى تبريز عنان الركـاب، وكان عند أميران شاه من المعتدين، جماعة سعوا في الأرض مفسدين، منهم قطب الموصلي أعجوبة الزمـان الدوار، وأستاذ الموسيقى والأدوار، إذا استنطق اليراعه، أسكت أهل البراعـه، وإذا وضع الناي بفيه، سحق عـود اسحـاق وأبيـه، وإن أخـذ في الأغـاني، أغنى عن الغـواني، تقـول النفس لنفسه الزخيم: خفف عني أنيني، فتشير براعته بالاصبع وتقـول على عيني، ثم ينفخ فيها الروح، فيشفي كل قلب مجروح، ويداوي كل فؤاد مقروح، فإن أقامت قامتها الرشيقه راقصة في سماعها، يحني الجنك ظهره خاضعاً لطيب استماعها، وان فتحت فاها لتقري أسماع القلوب ألحانه، يميل العود عنقه مصغياً إليها عاركاً بأنامل الأدب آذانه، قيل إنه كان يؤدي جميع الأنغام الفروع والمركبات والشعب والأصول، من كل

١— سورة الفجر—الآيتان: ٧—٨

٢— سورة الغاشية— الآية: ٢٣

ثقب من أثقب المأصول، ولـه مصنفات في أدوار المقامـات، وجرى بينه وبين الاستاذ عبد القادر المراغي مباحثـات، وكان أميران شاه به مغرما، يعـد صحبتـه والعشرة معـه مغنما، وكـان تيمـور لا يعجبـه العجب، لا يستهـويه اللهو والطرب، فقـال: إن القطب أفسد عقل أميران شـاه، كما أفسد عبد القادر أحمد بن الشيخ أويس وأطغاه.

فـوصل ذلـك الطاغ، سـابع شهـر ربيـع الأول سنة إثنين وثمانمائـة إلى قـراباغ(١)، فأناخ بها ركـابـه، وأراح بها دوابه، وضبط ممالك أذربيجـان، وقتل أولئك المفسـدين، وأهل العـدوان، ولم يتعـرض لأميران شـاه، لانه ولده و هو أنشأه، وبينهما أمـور متشـابهات لا يعلم تأويلهـا إلا الله، ثم توجـه بذلـك الخميس، ثاني جمادي الآخـره يوم الخميس، وأخـذ مـدينة تفليس، وقصـد بلاد الكرج، وهدم مـا استـولى عليـه من قلعـة وبرج، وقلعهم إلى الصيـاصي، والقـلاع العـواصي، وقتل من ظفـر بـه من طائع وعـاصي، وجزهم مـا بين رؤوس ونواصي، ثم ثنى عنان العناد، وحـرش البغاة على بغـداد، فهرب السلطان أحمد من ذلك اللجب، إلى قـرا يوسف في ثامن عشري شهر رجب، فسكن تيمـور زعازعه، وطمن بذلك مـراقبه ومنازعه، وتمهل في السير، واستعمـل في نحوه مع مناظريه مبـاحث سوى وغير، وصار يتجاوز ويتجاول، وينشد وهو يتغافل شعراً:

أمـــوه عـن سعـــدى بعلـوى وأنتم　　　مـــرادي فـــلا سعـــدى أريد ولا علوى

فتراجع السلطان أحمد، وقـــرا يوسف يـومـــاً إلى مـــدينـة الســـلام، متصـــورين انه لم يبرح من بـلاد الكرج اللئام، فلما تحققـا منه الخروج، وكانا حققا أنه إذا عرج على شيء فما يعوج، وأطارا طائرهما نحو الروم، وتركـا ديارهما ينعق فيهـا الغـراب والبوم، فتـوجـه ذلك القشعمان، إلى مصيف التركمان، فأغمد السيف، وكف عن الحيف، وتصرم الصيف.

١— قراباغ من منتجعات تيمور، ووقع في وسط أران بين نهر الكر (كورا) والرس (أراكس) في الشمال من أذربيجان. لى سترانج ص ٢١٣

ذكر ما وقع من الفتن والبدع وما سل للشرور من حسام بعد موت سلطان سيواس والشام

وكان اذ ذاك قد تخبط أمر الناس، ووقع الاضطراب ببلاد مصر والشام إلى سيواس، أما مصر والشام فلموت سلطانها(١)، وأما سيواس فلقتل برهانها، وكان موتهما متقارب الزمان، كموت قرايوسف، والملك المؤيد الشيخ أبي الفتح غياث الدين محمد بن عثمان(٢)، فان مدى ما بين هؤلاء الملوك العظام، كان نحو نصف عام، وكذا كان ما بين موت ذينك السلطانين.

ذكر نبذة من أمور القاضي وكيفية استيلائه على سيواس وتلك الأراضي

وسبب قتل القاضي برهان الدين، مخالفة وقعت بينه وبين عثمان قرايلوك رأس المعتدين، سيزداد بيانها، إذا أتى مكانها، وهذا السلطان أبوه كان قاضيا، عند السلطان أرتنا حاكم قيصرية(٣) وبعض ممالك قرامان، وكان بين الأمراء والوزراء ذا مكانة وامكان، وكان ابنه برهان الدين أحمد المذكور في عنفوان شبابه، من طلبة العلم الشريف وأصحابه، المجتهدين في تحصيله واكتسابه، فتوجه إلى مصر لاقتناء العلوم، وضبطها من طريقي المنطوق والمفهوم، وكان ذا فطنة وقاده، وقريحة نقاده، ومقلة غير رقاده، فحصل من العلوم عده، في أدنى مده،

١— الظاهر برقوق، الذي كانت وفاته في ١٥ شوال ٨٠١ هـ/ ١٢ آذار ١٣٩٩

٢— هو السلطان العثماني محمد الأول ابن بايزيد الأول (٨١٦—٨٢٤هـ/ ١٤١٣—١٤٢١)، وقد حارب حكام الدويلات التي أقامهم تيمور، وأعاد توحيد الدولة العثمانية، وقد أمضى ابن عربشاه مدة طويلة يعمل في ديوان انشائه، القرماني ص ٣٠٣—٣٠٤. السخاوي— الضوء اللامع ج٢ ص ١٢٧.

٣— هو أرتنا بن جعفر (٧٢٨—٧٥٣هـ/ ١٣٢٧—١٣٥٢م) وكان مغولي الأصل، استولى على سيواس، زاره ابن بطوطه، ووصف دولته بالقوة. رحلة ابن بطوطه ج ٨ ص ١٨٩— ط. القاهرة ١٩٥٨.

فبينما هو في مصر يسير، واذا هو بفقير جالس على الطريق كسير، فناوله شيئا يسد به خلته، ويجبر به فقره وكسرته، فكاشفه ذلك الفقير بلفظ معلوم، وكشف له عن السر المكتوم، وقال: لا تقعد في هذه الديار فإنك سلطان الروم، فصدع بهذا الكلام قلبه، فأخذ في إعداد الأهبة، وقطع الأعلاق، ودخل الطريق صحبة الرفاق.

ولما وصل إلى سيواس، ابتهج به والده وأعيان الناس، وشيد له بين الخلق أشد بنيان وأشد أساس، وشرع في إلقاء الدروس، ومصاحبة الأعيان والرؤوس، وكان ذا همة أبيه، وراحة سخية، ونفس زكيه، وخصائل رضيه، وشمائل مرضيه، وتحرير شاف، وتقرير واف، يحقق كلام العلماء، ويدقق النظر في مقالات الفضلاء، وله مصنفات في المعقول، ولطائف في المنقول، ينظم الشعر الرقيق، ويعطي عليه العطاءالجليل، ويعجبه اللفظ الدقيق، ويثيب عليه الثواب الجزيل، وهو في ذلك يتزيا بزي الأجناد، ويسلك طريقة الأمراء من الركوب والإصطياد، ويلازم أبواب السلطان، ويتخذ الخدم والأعوان، فمات السلطان عن ولد صغير، فأجلسوه على السرير، وكان عنده من أعيان الأمراء، ورؤوس الوزراء، أناس منهم غضنفر بن مظفر، وفريدون وابن المؤيد، وحاجي كلدي وحاجي إبراهيم وغيرهم، ومن أكبرهم أبو القاضي برهان الدين فصار هؤلاء الأمراء، والرؤوس من الوزراء والكبراء، يدبرون مصالح الرعية، ولا يفصلون إلا بالاتفاق ما يقع من قضيه.

فمات أبو القاضي برهان الدين وتولى ولده مكانه، وفاق بالعلم وحسن السياسة أباه وأقرانه، ففرق ولايات ذلك الاقليم، على: ابن المؤيد، وحاجي كلدي، وحاجي إبراهيم، فبقي حوالي السلطان محمد: فريدون، وغضنفر، وبرهان الدين أحمد، ثم توفي السلطان محمد، عن غير ولد، فبقيت الولاية بين الثلاثه، على سبيل الاشتراك وراثة، وقلما اتفقت ضرتان على زوج واحد والتقتا و﴿لو كان فيهما

آلهة إلا الله لفسدتا﴾(١)ومائة فقير، يلتفون في حصير، وملكان لايسعهما أقليم كبير، فأراد برهان الدين الإستبداد بالملك، والاستقلال، فنصب لشريكيه أشراك الاحتيال، إذ الملك عقيم، فرصد لذلك الطالع المستقيم، ونظر نظرة في النجوم فقال: إني سقيم، فرأى شريكاه أن العياده عباده، فطلبا بعيادته الحسنى، ورام هو الزياده، فعاداه وقد عاداهما، وما راعاه ولكن راعهما وما راعاهما، فدخلا عليه، وقد أرصد لهما رصداً وأعد لهما من الرجال المعدة عدداً، وقتلهما وقد حصلا في قبضة الإشراك، وخلص توحيد السلطنة الأحمدية عن الإشراك، فقوى بالتوحيد سلطانه، وأضاء به للدين حجته وبرهانه.

ولكن ناوأه أنداده، وعصى عليه من النواب أكفاؤه وأضداده، وأظهر كامن العداوة وأعداؤه وحساده، وقالوا هذه مرتبة لم ينلها آباؤه ولا أجداده، ونحن كلنا سواسية إذ انتمينا، فأنى يكون له الملك علينا، وحسد الرئاسة هو الغل القَمِل(٢)، وتحاسد الأكفاء جرح لا يندمل، فمنهم شيخ نجيب صاحب توقات القاسيه، ومنهم حاجي كلدي، وكان نائب أماسيه(٣)، فلما استقل بالملك تلقب بالسلطان، وكان قد استولى إذ ذاك السلطان علاء الدين على ممالك قرمان، فقال السلطان برهان الدين: إن رواة التواريخ حدثتنا وأسمعتنا، وكتب السير أنبأتنا وأخبرتنا، أن ماحوالينا من الممالك متعلق بنا، من سلطاننا وارثنا.

ثم شرع في استخلاص ما كان متعلقاً بسلطانه، وجعل يشن الغارات على من يتمادى في عصيانه، فقلع قلعة توقات من الشيخ نجيب قرا، واستصحبه معه طيبة وقهراً، وانحازت تتار الروم إليه وهم الجم الغفير،

١— سورة الأنبياء— الآية: ٢٢

٢— الغل القَمِل: الغل الكبير الضخم

٣— من مدن بلاد الروم إلى الجنوب من سينوب—تقويم البلدان: ٣٨٣

وعثمان الملقب بقرا يلوك قال له: أنا تحت أوامرك أمشي وفي قيد طاعتك أسير، فكان قـرايلوك من جملة خـدمـه، وفي حسـاب تراكمتـه وحشمـه فكان يرحل هو ومن معه من الناس، شتاء وصيفا بضواحي سيواس.

ذكر محو قرايلوك عثمان آثار أنوار برهان الدين السلطان بسبب ما أظهره من العدوان واضمره حالة العصيان وقبض عليه لما غدر به الدهر وخان

ثم إنه وقع بين قـرايلوك وبين السلطان منافـره، أدت إلى المشـاجـرة، وانتهت إلى المزاحمة والمناقــره، فنقض العهـود والـذمم، وامتنع من حمل التقـادم والخدم، وتمنع في الأمــاكن العـاصيـة بمن معــه من التراكمـة والحشم، فلم يكترث به السلطان، لأنه كان أقل الأعوان، وجعل يتوجه تارة إلى أمـاسيـة وأخـرى إلى أرزنجـان، وكـان بالقـرب من سيـواس مصيف، منظره ظريف، وترابـه نظيف، ومـاؤه خفيف، وهواؤه لطيف، كأن الخلد خلع على أكناف رياضه سندسه الأخضر، والفردوس فجر في خلال أشجـاره من نهره الكوثر، على حدائقه من روضـات الجنان شبه، وفي ربوة جبهته للأبصار دهشات وللبصائر نزه، قلت فيه شعراً:

عليــــه شقيـق قـــــد زهـا فكأنـه صحـــــون عقيـق أترعـت بـالعنابـر

فقصـده قـرايلوك، ورام في طريقه السلوك، فمـر على سيـواس، وبها القاضي أبو العبـاس، فجاز بركابـه، ولم يعبأ به، فألهب تموز قيظه، وكاد يتميـز من غيظه، وقال بلغ من هذا العـواء أن يلج برج الأسد، ويقـدم قدم إقدامـه، وأنا حل بهذا البلد، ثم أمر جماعته بالركـوب، وقصد عليه الوثوب، واستنفـره الغضب والطيش، أن ركـب وسبق الخيل، فقـال له بعض من معـــه من الجماعـه: لو يلبث مـولانا السلطان سـاعـــه، حتى يتلاحـق العسكر، كان أحـزم وأوفق وأجدر، وإن كانـت حرمة مـولانا السلطان فيها كفـاية ولها أيد، لكن قرايلوك تركماني ذو دهـاء وكيد، فلم

يلتفت السلطان إلى هذا الكلام، ولم يزل هاجماً وراءه حتى هجم الظلام، فكر عليه قرايلوك بجماعته، فقبض عليه باليد من ساعته، ولم يدر بحاله العسكر، وتفرق أمراؤه وجنده شذر مذر.

ذكر ما كان نواه قرايلوك من الرأي المصيب ورجوعه عنه لسوء طويته بشيخ نجيب

ثم إن قرايلوك عزم أن يجدد معه العهد والميثاق، ويقلع غراس الخلاف ويؤسس بنيان الصداقة والوفاق، ويرده إلى مكانه، ويصير كما كان أولا من أنصاره وأعوانه، ويعلم بذلك السلطان أنه له ناصح، فلا يسمع فيه كلام واش وكاشح، وإذا بشيخ نجيب الذي كان متولي قلعة توقات، وحاصره السلطان وضيق عليه مسالك الطرقات، ثم قهره وغلبه، وأخذ قلعته وبالكراهة استصحبه، وجد فرصة فانتهزها، وكان في قلبه كمائن فأبرزها، فجاء إلى قرايلوك، ووقف في خدمته كالمملوك، وقال أعيذ عالم عقلك أن يزل، ودليل فهمك أن يضل، ومصيب رأيك أن يصاب، وجميل فكرك أن يعاب، قد أمكن الله من العدو، وأنى لك مع هذا سكون وهدو قلت شعرا:

ما الدهر إلا ساعة وتنقضي   والمرء فيها حازم أو نادم

فلئن أبقيت عليه لا يبقي عليك، ولئن نظرت إليه بعين الرحمة والله لا ينظر إليك، فإنه رجل عتي، وبأنواع المكر وأصناف الخديعه عبي، عسر القياد—وأبيك—لا ينجع فيه الخير وأبي، وهبك —والعياذ بالله— منه مكانه منك، أكان يرق لك أو يصفح عنك، هيهات هذا والله محال، فقد وقع لك والله محال، فما كل أوان، يسمح بالمراد الزمان، والدهر فرص، وأكثره غصص، فإياك أن تفوت الفرصة، فتقع في الغصة وأي غصة، ولا ينفعك الندم، إذا زلت بك القدم، وتفكر فيما أقول، واستنبط دليل هذه المسألة من المعقول، واستبق شرفك الرفيع

بإراقة دمه، وحصن أستار حرمك بابتذال حرمه، وتذكر يا أمير، أمور قابوس بن وشمكير(١)، ولا زال ذلك الشيطان، يحسن له الرأي في قتل السلطان، ويقول هذا الرأي أنفع لك وعليك أعود، كما فعل بسطام أمير الكرد بقرايوسف لما قبض على السلطان أحمد، فرجع قرايلوك عن رأيه لما خدعه ودهاه، فقتل السلطان من غير إمهال ولا توقف رحمه الله— وكان قتل قرايوسف السلطان أحمد ابن الشيخ أويس في عاشر شهر رجب سنة ثلاث عشرة وثمانمائة والقصة مشهورة— وكان السلطان رحمه الله، كما ذكر أولاً، عالماً فاضلاً كريماً متفضلاً، محققاً في التقرير، مدققا في التحرير، قريباً من الناس، مع كونه شديد البأس، رقيق الحاشية أديبا، شاعراً ظريفاً لبيباً أريباً، جوادا مقداما، قرماً هماماً، نهاب الدنيا ووهابها، يهب الألوف ولن يهابها، يحب العلماء ويجالسهم، ويدني الفقراء ويكايسهم، وقد جعل يوم الاثنين والخميس والجمعة للعلماء وحفاظ القرآن خاصة، لا يدخل عليه معهم غيرهم من تلك الأمم الغاصة، وكان قد أقلع قبل وفاته عن جميع ما كان عليه، وتاب إلى الله تعالى ورجع إليه، وله مصنفات منها« الترجيح على التلويح».

وكان عنده نديم للفضل حريز، بغدادي الأصل يدعى عبد العزيز، وكان أعجوبة الزمان، وفي لطائف الشعر والنظم فارسياً وعربياً أطروفة الدوران، سرقه من بغداد من السلطان أحمد بن الشيخ أويس، فكان عنده رأس ندمائه، وعين أهل الفضل والكيس، والقاضي كان مربي الفضلاء، متطلباً من كل جهة الأدباء والشعراء، وكان أهل الفضل والأدب يفدون عليه من كل فج، حتى صار مقامه كعبة الحاج لا كعبة الحج، وصورة سرقته له أنه لما سمع بأوصافه أحبه فأراد قربه، فالتمسه من مخدومه، فلم تسمح نفس السلطان أحمد بمفارقة نديمه، ثم اختشى

١— انظر حول قصته ما كتبه ابن عربشاه في كتابه فاكهة الخلفاء—ط. القاهرة، المطبعة الميمنية—ص ١٢

من القـاضي رغبه، وخـاف لشدة دهيـه هربه، فـوصى به وحرج عليـه، وأقام له معقبات يحفظونه من خلفـه ومن بين يديه، فأرسل إليه القاضي إليه رسـولا ذكيا، فناداه نداء خفيا، وأجـزل له العطيه، ووعده مـواعيد سنيه، وفرق ما بين السلطانين من الحسن والقبح، كفرق ما بين البحرين العذب والملح، والملواوين: المساء والصبح، فلبى دعوته بالقبول، وواعد للخروج بعض القفـول، ثم خرج ولهيب الحر قـد وقد، والسلطان أحمد عند الحريم قـد رقـد، ووضع ثيابه على سـاحل دجله، ووجـه الى داخل النهـر في الطين رجله، ثم غـاص في الماء ومخر، وخـرج من مكان آخـر، ولحق برفقـائـه، واختفى بينهم اختفـاء اليربوع في نافقـائـه(١)، فطلبـه السلطان أحمد، ففتشوا عليـه فلم يوجد، فبالغـوا في طلابه، إلى أن وقفوا على ثيابه، ورأوا آثار رجليه في الطين، فلم يشكو أن الموج اختطفه فكان من المغرقين، فكفوا قدم السعي عن طلبه، ولم يضيقوا على أحد بسببه.

ثم بعد أيام يسيره، أخـرج غريق بغـداد رأسه بسيـواس عند القاضي برهان الدين من تحت الحصيره، ففـرقه في بحر نوالـه، وأسبغ عليه ذيل كرمه وأفضاله، فصـار عنده مقدما، ولديه مبجلاً معظما،، ألف له تاريخاً بديعاً، سلك فيه مهيعاً (٢)رفيعاً، وانتهج منهجاً منيعا، ذكر فيه من بدو أمره إلى قـرب وفاته، مع مـواقفه ووقائعـه ومصافـاته، ووشحه بظريف كناياته، ولطيف استعاراته، وفصيح لغـاته وبليغ كلماته، ورشيق اشاراته ودقيق عباراته، مـدّ فيه عنان اللسان، وهو موجود في ممـالك قرمان، في أربع مجلدات ذكـر ذلك لي من غـاص بحـره، واستخـرج دره، ووقف على تاريخ العتبي في اليمين(٣)، السلطان محمود بن سبكتكين، وأن هذا أحسن من ذلك أسلوبا، وأغزر يعبوبا، وأعذب مشروبا، مع أني لم أقف

١ــ اليربوع نوع من الفأر، ونافقائه: جحره

٢ــ طريق مهيع: منبسط واسع. العين

٣ــ تاريخ اليمبني أي تاريخ يمين الدولة محمود بن سبنكين، المؤسس الفعلي للدولة الغزنوية.

عليهما، ولا وصلت لقصر الباع إليهما، ثم إن الشيخ عبد العزيز هذا بعد لهيب هذه النائره، انتقل إلى القاهرة، ولم يبرح على الأبراح، ومعاقرة راح الاتراح، حتى خامـرته نشأة الوجد فصاح، وتردى من سطح عال فطاح، ومات متكسرا ميتة صاحب الصحاح(١)، والله أعلم.

ذكر ما وقع من الفساد في الدنيا والدين بعد قتل قرايلوك السلطان برهان الدين

ولما قتل السلطان برهان الدين لم يكن في أولاده من يصلح للرياسه، وينفذ أحكام السلطنة والسياسه، فرجع قرايلوك إلى سيواس، ودعا إلى نفسه الناس، فلم يجيبوه، ولعنوه وسبوه، فأخذ يحاصرهم ويناكدهم، ويضيق عليهم ويعاندهم، فاستمدوا عليه التتار فأمدوهم، وأتت طائفة منهم فنجدوهم، فكسرهم قرايلوك ففروا، واستنجدوا طوائفهم وكروا، وأقبلوا بالقض والقضيض، وملأ البقاع والحضيض، فلم يكن لقرايلوك على جبه قتالهم طوق، فدخل عليهم من تحت وجاءهم من فوق، وتوجه إلى تيمور، وكان بحر جيشه في أذربيجان يمور، فقبل يديه، وانتمى إليه وجعل يناديه إلى هذه البلاد ويدعو، كما فعل معه الأمير أيدكو، فحك له في الدبره(٢)، فأجابه إجابة برصيصا أبي مره(٣).

ذكر مشاورة الناس من أهل سيواس انى يسلكون ومن يملكون

ثم أن أهل سيواس، والأعيان من رؤسائها والأكياس، تشاوروا فيمن يملكون قيادهم، وإلى من يسلمون بلادهم، لسلطان مصر أم لابن قرمان، أم السلطان الغازي بايزيد بن عثمان، ثم اتفق رأيهم السديد، على

١ـــ صاحب الصحاح هو اسماعيل بن حماد الجوهري(ت: ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م)، وكتابه معجم مشهور مطبوع

٢ـــ الدبرة: قرحة تظهر في الدابة من الارتحال، وقصد المؤلف أنه جاءه من الناحية التي تهمه.

٣ـــ كان برصيصا من الرهبان العباد، فأغواه أبو مره ـــ الشيطان ـــ بوساطة امرأة.

المرحوم ايلدريم(١) بايزيد، فأرسلوا إليه قاصداً، واستنهضوه إليهم وافداً، وأنشدوا، وقد استنجدوه، شعراً:

وكم أبصرت من حسن ولكن   عليك من الورى وقع اختياري

فتوجه من ساعته إليهم، وقدم بالعساكر والجنود عليهم، ومهد القواعد والأركان، وولى عليهم أكبر أولاده أمير سليمان، وأضاف إليه خمسة أنفار، من أمرائه الكبار، يعقوب بن أورانيس، وحمزة بن بجار، وقوج علي، ومصطفى داود، واستمال خواطر الأعيان، وتوجه إلى أرزنجان، فهرب منها طهرتن المذكور، وقصد في انهزامه تيمور، فاستولى ابن عثمان، على مدينة أرزنجان، وأخذ أموال طهرتن وذخائره وحرمه، ومكن منهن سواسه وغلمانه وخدمه، ورجع بالأموال والحمول، واشتغل بمحاصرة استنبول.

فصل: فنبه قرايلوك، وطهرتن، من تيمور قائم الفتن، وإن كان المتحرك منه في الفساد ما سكن، حتى توجه إلى هذه البلاد، وعم فساده البلاد والعباد، فوصلوا إلى أرزنجان واردين، ثم ارتحلوا ونزلوا مفسدين ماردين، فعصى عليه الملك الظاهر، لما كان قاساه أولا من طاعة ذلك الغادر، فندم على إطلاقه أول مرة، كما سيندم يوم القيامة، ولم تنفعه الندامة، والحسرة، وكان ذلك في سنة اثنتين وثمانمائة، والخلف قد وقع بين العساكر الشامية والمصرية، وانحاز إلى كل فئه، وتفرقت آراؤهم أيادي سبأ ومال هؤلاء كل منهم إلى دبور، وشمال،و صبا، وأهملوا أمور الرعايا، وغفلوا عن حلول الرزايا، قلت شعراً:

من يهمل الأعدا ويأمن كيدهم   مثل النؤوم وراءه مستيقظ

قلت شعراً:

واللص ليس له دليل سائر   نحو الذي يبغي كنوم الحارس

١ — ايلدريم: لقب تركي معناه الصاعقة.

ثم قتل «تنم» ملك الأمراء بالشام المحروس، أعيان الأمراء والأعلام الرؤوس، في شهر رمضان من العام المذكور، وبيان هذه الأمور، في كتب التواريخ مسطور، قلت شعراً:

واذا العرين تصرعت آساده عوت الثعالب فيه آمنة الردى

ذكر قصد ذلك الغدار سيواس وما يليها من هذه الديار

ثم إن تيمور وجه عنان البأس، نحو مدينة سيواس، وبها كما ذكر أمير سليمان، بن بايزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان، فأرسل يخبر أباه بهذا الأمر المهول، ويستنجده وهو إذ ذاك محاصر استنبول، فلم يطق أن يمد إليه يدا، لاحتياجه إلى المدد، ولبعد المدى، فاستحضر من جنده أهل المنعه، وحصن المدينة والقلعة، واستعد للقتال واستمد للحصار، وفرق رؤوس أمرائه على أبدان الأسوار.

وجهز تيمور من جيشه العيون، ليتحقق ما هو عنده مظنون، ولما كشفت جيوشه لأمير سليمان رينها، فر لما أن رأى عينها، فعزم على التوجه إلى أبيه، واشترط مع أمرائه وذويه، أنهم يحفظون له البلد، ريثما يجهز لهم العدد والعدد، فلم يسعهم إلا الموافقة، والتخلف وعدم المرافقة، فرام لنفسه الخلاص، وأفلت وله حصاص(١)، فوصل إليها تيمور بتلك السيول الهاميه، سابع ذي الحجه سنة اثنين وثمانمائه، ولما أحل بسيواس رجله الشؤمي، قال: أنا فاتح هذه المدينة في ثمانية عشر يوما، ثم أقام في محاصرتها علامات الحشر، وفتحها في اليوم الثامن عشر، بعدما عثى فيها وعاث، وذلك يوم الخميس خامس المحرم سنة ثلاث، وبعد أن حلف للمقاتلة أن لا يريق دمهم، وأنه يرعى ذممهم ويحفظ حُرمهم وحَرمهم، ولما فرغت المقاتلة، واستمكن من المقاتله، ربطهم في الوثاق سُربا، وحفر لهم في الأرض سُربا، وألقاهم أحياء في تلك الأخاديد، كما ألقى في قليب

١— الحصاص: سرعة العدو في شدة، ويقال الحصاص: الضراط. العين

بدر الصناديد، وعدد من ألقى في تلك الحفر، كان ثلاثة آلاف نفر، ثم أطلق عنان النهاب، وأتبع النهب الأسر والخراب.

وكانت هذه المدينة من أظرف الأمصار، في أحسن الأقطار، ذات عمائر مكينه، وأماكن حصينه، ومآثر مشهودة، ومشاهد للخير معهوده، ماؤها رائق، وهواؤها للأمزجة موافق، وسكانها من أحشم الخلائق يتعاونون التوقير والاحتشام، ويتعاطون أسباب التكلف والاحترام، وهي متاخمة ثلاثة تخوم: الشام ،وأذربيجان ،والروم، وأما الآن فقد حلت بها الغير، وتفرق أهلها شذر مذر، وانمحت مراسم نقوشها، فهي خاوية على عروشها.

ذكر انسجام صواعق ذلك البلاء الطام
من غمام الغرام على فرق ممالك الشام

ولما استنقى سيواس لحما ونقيا، واستوفاها حصداً ورعيا، فوق سهام الانتقام، إلى نحو ممالك الشام، بجنود إن قيل كالجراد المنتشر، فالجراد كان من أعوانها، أو كالسيل المنهمر، فسيل الدماء جار من فرندها وخرصانها، أو كالفراش المبثوث، فالفراش يحترق عند تطاير سهامها، أو كالقطر الهامي فالديم تضمحل عند انعقاد قتامها، رجال توران، وأبطال إيران، ونمور تركستان، وببور بلخشان، وصقور الدشت والخطا، ونسور المغول وكواسر الجتا، وأفاعي خجند، وثعابين أيدكان، وهوام خوارزم وجوارح جرجان، وعقبان صغانيان، وضواري حصار شاذمان(١)، وفوارس فارس، وأسود خراسان، وضباع الجبل وليوث مازندران، وسباع الجبال، وتماسيح رستمدار، وطالقان، وأصل قبائل خوز، وكرمان، وطلس(٢)أرباب طيالسة أصبهان، وذئاب الري،

١– حصار شاذمان: بلدة على نهر القباذيان في اقليم صغانيان، في بلاد ما وراء النهر. لى سترانج ص٤٨٣.
٢– الطلس: الذئاب.

وغزني، وهمذان، وأفيـال الهند والسند وملتـان، وكباش ولايات اللور، وثيران شـواهق الغـور، وعقـارب شهـرزور، وجـرارات عسكر مكرم، وجندي سابور. شعر:

قـــوم اذا الشر أبـدى ناجـــذيه لهم طاروا إليـــه زرافـــات ووحـــدانا

مع مـا أضيف إليهم من عابر الخدم، وعشـائر التراكمـة والأوباش والحشم، وكـلاب النهـاب، من رعاع العـرب وهمج العجم، وحثـالة عباد الأوثان وأنجاس مجوس الأمم، مـالا يكتنفه ديوان، ولا يحيط به دفتر حسبان، وبالجملة فإنه الـدجال ومعه يأجـوج ومأجوج، والرياح العقيمة الهوج.

فتوجه والنصر قائده، والسعد رائده، والقضاء موافقه والقدر مساعده، ومشيئة الله تعـالى سائقتـه، وإرادة الله عـز وجل في تدبير العباد والبـلاد سـابقته، فبلغ خبره البـلاد الشاميـة، واتصل ذلك بالديار المصرية، فـورد مـرسوم شريف إلى نائب الشـام، وسـائر النواب والحكام، وغـزاة الدين، وكماة الإسلام، أن يتوجهوا إلى حلب، ويقيموا عليه الجلب، ويجتهدوا في دفعه، ويتعاونوا على منعه، فتجهز نائب الشام سيدي سودون مع النواب والعسكر، ورحلوا إلى حلب سنة ثلاث وثمانمائة في شهر صفر.

ووصل تيمـور إلى بهنسا، فنهب ضـواحيها ولم يبق بها نسـا، وحاصر قلعتهـا ثلاثاً وعشريـن ليله، فأخـذها ولكـن كف عنهـا —للطيفـة ربانيـة—ثبوره وويله، ثم وطأ مـدينة ملطيـة فأبادها، ودك أطوادها، ثم حل كعبـه المشـوم، بقلعـة الروم(١)، وكـان نائبهـا الناصري، محمـد بن موسى بن شهـري، وسنذكر مـا جرى له معه مشبعـا، وكيف اجتهد في مجاهدته وسعى، فأقام بها يوما، فلم ينتج له روما، ولم يحتفل لها بحصار وهياج، وقـال: هي أهون علي من تبالة على الحجـاج، وذلك أنه لما رآها

١— قلعة الروم: على ضفة الفرات الغربية مقابل بلدة البيرة معجم البلدان.

من بعيد، قـال فيها ما قـاله من لم يصل إلى العناقيد، والحق أنه لما رآها، قـال: إن اللـه لما بناها، ادخـرها لنفســه واصطفـاها، ثم انجــاب ذلك السحـاب، إلي عين تاب، وكـان نائبهـا أركماس، رجـلاً شـديد البـاس، فحصنهـا واستعـد، وباشر القتـال بنفسه واستبـد، ثم خـرج فهـرب إلى حلب، فلم يرسل وراءه الطلب.

ذكر ما أرسل من كتاب وشنيع خطاب إلى النواب بحلب وهو في عين تاب

ثم أرسل إلى النواب، قاصـده، وهو في عين تاب، وصحبته مـرسوم، بأنواع التفخيم مـوسـوم، وبأصناف التهـويل مـرقـوم، ومن جملتـه: أن يطيعـوا أوامره، ويكفـوا عن القتال والمشـاجـرة، ويخطبوا باسم محمـود خان، وباسم الأمير الكبير تيمور كوركان، ويرسلوا إليه أطلاميش الذي كان عنده فخـان، واقتبضه التركمان، وأرسله إلى مصر لحضرة السلطان، واطلاميش هذا زوج بنت أخت تيمور، وكان جـاء إلى الشام قبل وقوع هذه الشرور، وفيما بين ذلك أمور، كان لها بطون فصار لها ظهور، وكان أولاً في مصر محبوسـا، ونال ضرا وبؤسا، ثم صار معـززا مكرما، معظما مقدما، وكان تيمور عليه مغضبا، فجعل ذلك حجة للمعاداة وسببا، ثم شرع يقــول، وهو يجول في ميـدان هذه الرســالة يصــول: إنه هو أولى بسياسة الأنام، وإنه من نصبـه هو الخليفة والإمام، وإنه ينبغي أن يكون هو المتبوع والمطاع، ومـا سواه من ملوك الأرض له خـدام وأتباع، وأنى لغيره به الرئـاسة، وكيف تعرف الجراكسـة طرق السياسـة، مع كثير من التهويل، والحشو والتطويل.

وكان يعلم أن إجابتهم سـؤاله محال، وأنه طلب منهم مالا ينال، فلم يجيبوه بالمقـال، ولكنهم قضوا مراده بالفعال، ولم يلتفت سيـدى سودون لما يقــول، وضرب على رؤوس الأشهــاد عنق الـرســول، واستعــدوا للمبارزة، واستمدوا للمناجزه.

ذكر ما تشاور عليه النواب وهم في حلب وتيمور في عين تاب

ثم إن النواب والأمراء، ورؤوس الأجناد والكبراء، تشاوروا كيف يكافحونه، وفي أي ميدان يناطحونه، فقال بعضهم عندي الرأي الأسدّ، أن نحصن البلد، ونكون على أسوارها بالرصد، نحرس بروج أفلاكها، حراسة السماء بأملاكها، فإن رأينا حواليها من شاطين العدو أحداً، أرسلنا عليه من رجوم السهام ونجوم المكاحل شهابا رصدا، وقال آخر: هذا عين الحصر، وعلامة العجز والكسر، بل نحلق حواليها، ونمنع العدو أن يصل إليها، ويكون ذلك أفسح للمجال، وأسرع للجدال، ثم ذكر كل من أولئك، ما عن له في ذلك، وخلطوا غث القول بسمينه، وساقوا هجان الرأي مع هجينه، فقال الملك المؤيد، شيخ الخاصكي، وكان ذا رأي سدد، وهو اذ ذاك نائب طرابلس: يا معشر الأصحاب، وأسود الحرب، وفوارس الضراب، اعلموا أن أمركم خطر، وعدوكم داعر عسر، داهية دهياء، معضلة عضلاء، جنده ثقيل، وفكره وبيل، ومصابه عريض طويل، فخذوا حذركم، واعملوا في دفعه بحسن الحيلة فكركم، فإن صائب الأفكار، يفعل ما لا يفعله الصارم البتار، ومشاورة الأذكياء، مقدحة الفكر، ومباحثة العلماء، مقدمة النظر، إن هذا البحر ما يحمله بر، وجيشه عدداً كالقطر والذر، وهو إن كان كالوابل الصبيب، لكنه أعمى لأنه في بلادنا غريب، فعندي الرأي الصائب، أن نحصن المدينة من كل جانب، ونكون خارجها مجتمعين في جانب واحد، وكلنا له مراقب مراصد، ثم نحفر حولنا خنادق، ونجعل أسوارها البيارق والبوارق، ونطيِّر إلى الآفاق أجنحة البطائق، إلى الأعراب والأكراد، والتراكمة وعشران البلاد، فيتسلطون عليه من الجوانب، ويثب عليه كل راجل وراكب، ويصير ما بين قاتل وناهب، وخاطف وسالب، فإن أقام، وأنى له ذلك، ففي شر مقام، وإن تقدم إلينا صافحناه بسواعد الأسنة، وأكف الدرق، وأنامل السهام، وإن رجع وهو المرام، رجع

بخيبة، وأقيمت لنا عند سلطاننا الحرمة والهيبة، وإن كان بسلطانه علينا عرج، قلنا بحمد الله سلطان، وفي سلطاننا فرج، وأقل الأشياء أن نهاده ونتحرز من جنده، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده، وهذا الرأي الأسد، بعينه كان رأي شاه منصور الأسد، فقال تمرداش، وهو نائب المدينة: ما هذه الآراء مكينه، ولا هذه الأفكار رصينه، بل المناضلة خير من المطاولة والمناجزه، في هذه المواطن قبل المحاجزه، ومقام المنازله، لا تجدي فيه المغازله، ولكل مقام مقال، ولكل مجال جدال، وهذا طير في قفص، وصيد مقتنص، فاغتنموا فيه الفرص، وناوشوه بالحرب، وسابقوه بالطعن والضرب، لئلا يتوهم فينا الخور، ويستنشق من ركود ريحنا عرف الظفر، فاجمعوا أمركم وأعجلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وانهضوا وثابروا، واصبروا وصابروا، فأنتم بحمد الله أهل النجده، وأولوا البأس والشده، وكل منكم في فقه المناضلة مغن ومختار، وعلمه في إفاضة دماء الأعداء منار، وله في ذلك كفاية وهداية، ونهاية غيره له بداية، وهو لجمع الإسلام كنز واف، وجامع كاف ووقاية، تنحو ألسنة سيوفكم إلى تكليم الرؤوس، فهي في لفظها كافية شافية، وتصرف أسنان أسنتكم في مضاعفة كل ذي فعل معتل فهي في تصريف عللها شافية، فإن كسرناه فزنا بالمنال، وكفى الله المؤمنين القتال، وتلك من الله معونه، وقد كفينا عساكر المصريين المؤنه، وكان ذلك أعلى لحرمتنا، وأقوى في ورود النصر لشوكتنا، وأذكى لريح نصرنا وأزكى، وأبكى لعينه السخية وأنكى، وإن كانت والعياذ بالله الأخرى، فلا علينا إذا بذلنا مجهوداً، أو أقمنا عذرا، ومخدومنا يدرك ثأرنا، ويحيي آثارنا فتوكلوا على الله العزيز الجبار، واستعدوا لملاقاة هؤلاء الأشرار، وإذا لقيتموهم زحفاً فلا تولوهم الأدبار(١).

ولا زال تمرداش، يحسن لهم هذا الرأي اللاش، حتى أجمعوا عليه،

١ — انظر سورة الأنفال — الآية: ١٥.

واتفقوا على الخروج إليه، لأنه كان صاحب البلد، وعلى كلامه المعول والمعتمد، وكان تمرداش قد خالف الجمهور، ووافق في الباطن تيمور، وهذه كانت عادته، وعلى المراوغة جبلت طينته، فإنه كان كالشاة العابره، والمرأة العاهرة الغائره، إذا التقى عسكران فلا يكاد يثبت في أحدهما جبناً منه ومكرا، بل يعبر إلى هذا مرة وإلى هذا أخرى، مع أنه كان صورة بلا معنى، ولفظاً بلا فحوى، فاعتمد تيمور عليه، وفوض الأمور إليه، وكذلك عساكر الشام، وجنود الإسلام، ثم حصنوا المدينة، وأوصدوا أبوابها، وضيقوا شوارعها ورحابها، ووكلوا بكل حارة ومحلة أصحابها، وفتحوا الأبواب التي تقابل ملتقاه، وهي باب النصر، وباب الفرج وباب القناه.

ذكر ما صبه من صواعق البيض واليلب على العساكر الشامية عند وصوله إلى حلب

ثم أن تيمور نقل الركاب، فوصل في سبعة أيام إلى حلب من عين تاب، فحل بذلك الخميس، تاسع شهر ربيع الأول يوم الخميس، وبرز من ذلك العسكر، طائفة نحواً من ألفي نفر، فتقدم لهم من الأسود الشامية، نحو من ثمانمائة، ففلوهم بالصفاح، وشلوهم بالرماح، فبددوهم وطردوهم، وحدروهم وشردوهم، ثم اصبحوا يوم الجمعة، فبرز من عسكره نحو من خمسة آلاف، إلى مصاف الثقاف، فتقدم إليهم طائفة أخرى أرسالا وتترى، فالتحم بينهم النطاح، واشتبكت بين الطائفتين أنامل الرماح، فازدحموا واقتحموا، واشتدوا والتحموا، ولا زالت أقلام الخط، في ألواح الصدر تخط، والقضبان الصوارم لرؤوس تلك الأقلام والأعلام تقط، ومشاريط النبال لدماميل الدمال تبط، والأرض من أثقال جبال القتال تأط، حتى سجى ليلا الظلام والقتام وأغطشا، فتراجعوا وقد أعطى الله النصر لمن يشا، وجرى من دماء العدو مع كل فريق نهران، وفقد من العساكر الاسلامية نفران.

ثم أصبحوا يوم السبت حادي عشره، وقد تعبَّت الجنود الشامية، والعساكر الإسلامية السلطانيه، بالعدة البالغه، والأهبة السابغه، والخيول المسومه، والرماح المقومه، والأعلام المعمله، ولم يعوز أولئك الصناديد، سوى شمة من النصر والتأييد، فنحوا قصده، وقصدوا رده وصده، وأقبلت عساكره والسعد الميمون طائره، والقضاء موازره، والقدر مظاهره، بالجنود المذكوره، والجيوش المعهودة، المنصوره، تؤمهم الأقيال، وأفيال القتال، وإذا به قد أضمر لهم الويل، وعبى عساكره تحت جنح الليل، وبثهم فيهم، وأرسل عليهم، وقابلهم بمقدمتهم، وشغلهم بأوائلهم، وأحاط الباقون بهم فأتوهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، فمشى عليهم مشي الموس على الشعر، وسعى سعي الدبا (١) على الزرع الأخضر، وكان هذا الجولان، على قرية حيلان، ولما اهتمش أمر الناس وهاش، وجاشت الهوشة والامتحاش، وتهارشت الأسود وانتطحت الكباش، فرت الميمنة وكان رأسها تمرداش، فانكسر العسكر وطاش، وأخذ الأبطال من الدهشة الارتعاش، وغلبتهم الحيرة والإنبهار، فلم يلبثوا ولا ساعة من نهار، ثم ولوا الدبر، وصارت لأقلام رماحه ظهورهم الزبر، واستمروا أمامهم يتواثبون، وعسكره وراءهم يتخاطبون.

بمعنى ما قلت شعراً:

جعلنا ظهور القوم في الحرب أوجها ... رقمنا بها ثغراً وعينا وحاجبا

فقصدوا المدينة من الباب المفتوح، وهم ما بين مهشوم ومجروح، والسيوف تشقهم، والرماح تدقهم، وقد سالت بدمائهم الأباطح، ونثر من سائر لحمهم كل كاسر وجارح، فوصلوا إلى باب المدينة وانكرسوا، وهجموا فيه يداً واحدة وتكردسوا، ولا زال يدوس بعضهم بعضا، حتى صارت العتبة العليا من الباب أرضا، فانسدت الأبواب بالقتلى،

---

١ — أي الجراد.

ولم يمكن الدخول منها أصلا، فتشتتوا في البلاد، وتفرقوا في المهامه والأطواد، وكسر باب أنطاكية المماليك الأغتام، وخرجوا منه قاصدين بلاد الشام، فوصل فلهم إلى دمشق في أبشع صوره، وحكوا في كيفية هذه الوقعة أشنع سيره، وصعد النواب إلى قلعة حلب وتحصنوا، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت فاستأمنوا، ونزلوا بواسطة تمرداش إليه، وقد غسل كل منهم من الحياة يديه.

ثم إنه مشى على هينته، مع وقاره ورزانته وسكينته، ودخل حلب، ونال منها ما طلب، وفاز بالروح والسلب، ولما نزل النواب إليه، قبض على سيدي سودون وعلى شيخ الخاصكي، وأما تمرداش فخلع عليه، وقبض على ألتونبغا العثماني نائب صفد، وعلى عمر بن الطحان نائب غزة وجعل الكل في صفد، وشرع في استخلاص الأموال، وضبط الأثقال والأنفال، وقد ملأت القلوب هواجس هيبته، وانتشر في الآفاق شرار صولته، ثم إنه لم يكتف بما أزهقه من النفوس، حتى بنى الميادين(١)من الرؤوس، وسبب ذلك أن ذا قرابة البريدي الذي أرسله إلى حلب، وضرب نائب الشام عنقه وسلبه السلب، ذكر تيمور بقصته، وأراد القود من أهل حلب لذي قرابته، فأجاب سؤاله فمكنه، فيمن يختار منهم أن يفعل فيه ما استحسنه، فقتل طائفة منهم وبنى من رؤوسهم كذا وكذا مئذنه.

زيادة ايضاح لهذه المحنة مما نقلته من تاريخ ابن الشحنه

قال: أخبرني الحافظ الخوارزمي أن من كتب في الديوان من عساكر تيمور ثمانمائة ألف نفر ومنه أن تيمور قصد قلعة المسلمين(٢) وكان نائبها الناصري محمد بن موسى بن شهري، وأنه عصى عليه، وكان يخرج للغارات، ثم قال ما نصه بحروفه: وكان قد أبدع بجمائع تمرلنك

١— أي المآذن

٢— هي قلعة الروم المتقدم ذكرها

وطراشتـه، مدة اقامتـه على بهنسا، وقتل منهم جماعـة، وأرسل رؤوسهم إلى حلب وكسر تومـانا كـان جهزه إليـه أقبح كسرة، حتى رمى غـالب جماعتـه بأنفسهم في الفـراه وجهـز تمرلنك كتابـه إلى المشار إليـه، ونصـه يقول فيـه: إني خرجت من أقصى بلاد سمرقند، ولم يقف أحـد أمامي، وسائر ملوك البـلاد حضروا إليّ، وأنت سلطت على جمائعي من يشوش عليهم، ويقتل من ظفـر منهم، والآن فقد مشينـا عليك بعساكـرنا، فإن أشفقت على نفسك ورعيتك، فـاحضر إلينا لترى من الرحمة والشفقـة مـالا مزيد عليـه، وإلا نزلنا عليك، وخـربنا بلدك، وقـد قال الله تعـالى ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسـدوها وجعلوا أعزة أهلهـا أذلة وكذلك يفعلون﴾(١) فاستعد لما يحيط بك إن أبيت الحضور.

فأمسك المشـار إليـه الرسـول وحبسـه، ولم يلتفت إلى كـلام تمرلنك، فمشى إليـه أوائل عسكره، فبرز إليهم المشـار إليـه، وقـاتلهم وكسرهم، وفي اليـوم الثـاني حضر تمرلنك على قلعــة المسلمين، وبرز إليهم المشـار إليه، وقـاتله قتالا شـديداً، وكانت وقعـة عظيمة، رأى منهـا منه تمرلنك شدة وحـزم، ورجع عن محاربته، وأخـذ في مخادعته ومـلاطفته، وطلب منه الصلح، وأن يرسل إليه خيلا ومـالا لأجل حرمته، فلم ينخدع منه، وتنازل معه إلى أن طلب منه خادما فلم يعطه، وعاد خائبا، وأخذ المشار إليه في أواخـره قتلا ونهبا وأسرا، كل ذلك وباب قلعته مفتـوح لم يغلقه يوما واحد. وأنشد فيه لسان الحال، شعراً:

هـذا الامير الذي صحـت منـاقبـــــه ليث الوغـى عمت الدنيـا مفـــاخـره
ولى تمرلنـك مكســــــــــور أوائلـه منه مـــراراً ومـــذعــوراً أواخــره

وكـان حصـول تلك السعــادة للمشـار إليـه، دون غيره من الملوك، وأصحــاب الحصـون، لما كـــان فيــه من العلم والديانة والإخـــلاص، والصيانة، ولكونه من السلالة الطاهرة العمرية رضي الله عنها، ولما كان

١— سورة النمل—الآية: ٣٤.

يوم الخميس تاسع ربيع الأول نازل تمرلنك حلب، وكان نائبها المقر السيفي تمرداش، وقد حضرت إليه عساكر البلاد الشامية، وعسكر دمشق مع نائبها سيدي سودون، وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفي شيخ الخاصكي، وعسكر حماة مع نائبها المقر السيفي دقماق، وعسكر صفد وغيرها، فاختلفت آراؤهم، فمن قائل: إدخلوا المدينة، وقاتلوا من الأسوار، وقائل آخر: أخرجوا ظاهر البلد، تلقاء العدو بالخيام، فلما رأى المقر السيفي اختلافهم اذن لأهل حلب في إخلائها، والتوجه حيث شاؤوا وكان نعم الرأي، فلم يوافقوا على ذلك، وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو، وحضر قاصد تمرلنك، فقتله نائب دمشق قبل أن يسمع كلامه، ويوم الجمعة حصل بين الأطراف تناويش يسير، فلما كان يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الأول زحف تمرلنك بجيوشه وقبيلته، فولى المسلمون نحو المدينة، وازدحموا في الأبواب، ومات منهم خلق عظيم، والعدو وراءهم يقتل ويأسر، وأخذ تمرلنك حلب عنوة بالسيف، وصعد نواب المملكة وخواص الناس إلى القلعة، وكان أهل حلب قد جعلوا غالب أموالهم فيها، وفي يوم رابع عشر شهر ربيع الأول أخذ القلعة بالأمان والأيمان التي ليس معها إيمان.

وفي ثاني يوم صعد إليها، وآخر النهار طلب علماءها وقضاتها، فحضرنا إليه، فأوقفنا ساعة، ثم أمر بجلوسنا وطلب من معه من أهل العلم، فقال لأميرهم عنده وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين الحنفي، والده من العلماء المشهورين بسمرقند، قل لهم: إني سائلهم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند، وبخارى، وهراة، وسائر البلاد التي افتتحتها، فلم يفصحوا عن جواب، فلا تكونوا مثلهم، ولا يجاوبني إلا أعلمكم وأفضلكم، وليعرف ما يتكلم، فإني خالطت العلماء ولي بهم اختصاص وإلفة، ولي في العلم طلب قديم، وكان يبلغنا عنه أنه يتعنت على العلماء في الأسئلة، ويجعل ذلك سببا لقتلهم أو تعذيبهم، فقال القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الشافعي عني: هذا شيخنا،

ومدرس هذه البلاد ومفتيها، سلوه وبالله المستعان، فقال لي عبد الجبار: سلطاننا يقول: إنه بالأمس قتل منا و منكم فمن الشهيد قتيلنا أم قتيلكم؟ فوجم الجميع، وقلنا في أنفسنا هذا الذي بلغنا عنه من التعنت، وسكت القوم ففتح الله علي بجواب سريع بديع، وقلت: هذا سؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجاب عنه، وأنا مجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال صاحبي القاضي شرف الدين موسى الأنصاري، بعد أن إنقضت الحادثه: والله العظيم لما قلت هذا سؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه، وأنا محدث زماني، قلت هذا عالمنا قد اختل عقله، وهو معذور فإن هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه في هذا المقام، ووقع في نفس عبد الجبار مثل ذلك، وألقى تمرلنك إلي سمعه وبصره، وقال لعبد الجبار يسخر من كلامي: كيف سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا، وكيف أجاب؟ قلت: «جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسول الله إن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه، فأينا في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الشهيد» فقال تمرلنك: خوب خوب(١)، وقال عبد الجبار: ما أحسن ما قلت، وانفتح باب المؤانسة، وقال: إني رجل نصف آدمي وقد أخذت بلاد كذا وكذا، وعدد سائر ممالك العجم، والعراق، والهند، وسائر بلاد التتار، فقلت: إجعل شكر هذه النعمة، عفوك عن هذه الأمة، ولا تقتل أحداً، فقال: والله إني لا أقتل أحداً قصداً وإنما أنتم قتلتم أنفسكم في الأبواب، والله لا أقتل أحداً منكم، وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم، وتكررت الأسئلة منه، والأجوبة منا، فطمع كل من الفقهاء الحاضرين وجعل يبادر إلى الجواب، ويظن أنه في المدرسة والقاضي شرف الدين ينهاهم، ويقول لهم بالله اسكتوا ليجاوب هذا الرجل فإنه يعرف ما يقول.

١- خوب بالفارسية: جيد أو حسن.

وكان آخر ما سأل عنه: مـا تقولون في عليّ ومعاوية ويزيد، فأشار إلي القـاضي شرف الديـن، وكـان إلى جـانبي، أن أعـرف كيـف تجاوبه فإنه شيعي، فلم أفـرغ من سماع كـلامـه، إلا وقـد قـال القـاضي علم الدين القفصي المالكي: كـلاما معناه إن الكل مجتهـدون، فغضب لذلك غضبـاً شـديداً، وقـال: علي على الحق، ومعـاوية ظـالم، ويزيد فـاسق، وأنتم حلبيــون تبع لأهل دمشق، وهم يـزيديون، قتلوا الحسين، فأخــذت في مـلاطفتـه والاعتـذار عن المالكي، بـأنه أجـاب بشيء وجـده في كتـاب لايعرف معناه، فعاد إلى دون ما كان عليـه من البسط، وأخذ عبد الجبار يسأل مني، ومن القاضي شرف الدين، فقال عني: هذا عالم مليح، وعن شرف الدين: وهذا رجـل فصيح، فسألني تمرلنك عن عمـري، فقلت: مـولدي سنة تسع وأربعين وسبع مائـه، وقد بلغت الآن أربعـاً وخمسين سنة، فقال للقـاضي شرف الدين: وأنت كم عمرك؟ فقـال: أنا أكبر منه بسنة، فقـال تمرلنك: أنتم في عمـر أولادي، أنا عمري اليوم بلغ خمسـا وسبعين سنة وحضرت صـلاة المغـرب، وأقيمت الصـلاة، وأمنـا عبـد الجبار، وصلى تمرلنك إلى جانبي قائما، يركع ويسجد، ثم تفرقنا.

وفي اليوم الثاني غدر بكل من في القلعة، وأخـذ جميع ما كان فيها من الأموال والأقمشة والامتعـة مالا يحصى، أخبرني بعض كتابه انه لم يكن أخذ من مـدينة قط، ما أخذه من هذه القلعة، وعـوقب غالب المسلمين بأنواع من العقوبة، وحبسـوا بالقلعة مـا بين مقيد ومزنجـر، ومسجون، ومرسم عليه، ونزل تمرلنك من القلعـة، وأقام بدار النيابة، وصنع وليمة على زي الموغول، ووقف سائـر الملوك والنواب في خدمته، وأدار عليهم كـؤوس الخمــر، والمسلمـون في عقـاب وعــذاب، وسبى وقتل وأسر، وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم في هدم وحرق وتخريب، ونبش إلى آخر شهــر ربيع الأول، ثم طلبنـي ورفيقي القــاضي شرف الدين، وأعــاد السؤال عـن علي ومعـاوية، فقلت له: لا شك أن الحق كــان مع علي،

وليس معاوية من الخلفاء، فإنه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:« الخلافة بعدي ثلاثون سنة» وقد تمت بعلي، فقال تمرلنك: قل علي على حق، ومعاوية ظالم، قلت: قال صاحب الهداية: يجوز تقليد القضاء من ولاة الجور، فإن كثيراً من الصحابة، والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية، وكان الحق مع علي في نوبته، فانسر لذلك، وطلب الأمراء الذين عينهم للإقامة بحلب، وقال: إن هذين الرجلين نزول عندكم بحلب فأحسنوا إليهما، وإلى ألزامهما وأصحابهما، ومن ينضم إليهما، ولا تمكنوا أحداً من أذيتهما، ورتبوا لهما علوفة، ولا تدعوهما في القلعة، بل اجعلوا إقامتهما في المدرسة، يعني السلطانية التي تجاه القلعة، ففعلوا ما أوصاهم به، إلا أنهم لم ينزلونا من القلعة، وقال لنا الذي ولي الحكم منهم بحلب، وكان يدعى الأمير موسى بن حاجي طغاي: إني أخاف عليكما، والذي فهمته من سياق كلام تمرلنك، أنه إذا أمر بسوء فعل بسرعة، ولا محيد عنه، وإذا أمر بخير فالأمر فيه لمن وليه.

وفي أول يوم من ربيع الآخر برز إلى ظاهر البلد، متوجهاً نحو دمشق، وثاني يوم أرسل يطلب علماء البلد فرحنا إليه والمسلمون في أمر مريج وقطع رؤوس، فقلنا: ما الخبر، فقيل: إن تمرلنك أرسل يطلب من عسكره رؤوساً من المسلمين على عادته، التي كان يفعلها في البلاد التي أخذها، فلما وصلنا إليه جاءنا شخص من علمائه يقال له المولى عمر، فسألناه عن طلبنا، فقال: يريد أن يستفتيكم في قتل نائب دمشق الذي قتل رسوله، فقلت هذه رؤوس المسلمين تقطع وتحضر إليه بغير استفتاء، وهو حلف أن لا يقتل منا أحداً صبراً، فعاد إليه ونحن ننظره، وبين يديه لحم سليق في طبق، يأكل منه، فتكلم معه يسيراً، ثم جاء إلينا شخص بشيء من ذلك اللحم، فلم نفرغ من أكله، إلا وزعجة قائمة، وتمرلنك صوته عال، وساق شخص هكذا، وآخر هكذا، وجاءنا أمير يعتذر، ويقول: إن سلطاننا لم يأمر بإحضار رؤوس المسلمين، وإنما أمر

بقطع رؤوس القتلى، وان يجعل منها قبة إقامة لحرمته، على جاري عادته، ففهموا منه غير ما أراد، وإنه قد أطلقكم، فأمضوا حيث شئتم.

وركب تمرلنك من ساعته، وتوجه نحو دمشق، فعدنا إلى القلعة ورأينا المصلحة في الإقامة بها، وأخذ الأمير موسى— أحسن الله إليه— في الإحسان إلينا، وقبول شفاعتنا، وتفقد أحوالنا مدة إقامته بحلب وقلعتها، وتجينا الأخبار أن سلطان المسلمين الملك الناصر فرج قد نزل إلى دمشق وأنه كسر تمرلنك، ومرة تجيء بالعكس، إلى أن انجلت القضية عن توجه السلطان إلى مصر، بعد أن قاتل مع تمرلنك قتالاً عظيماً، أشرف تمرلنك منه على الكسر والهزيمة، وإنما حصل من بعض أمرائه خيانة، كان سبب توجهه آخذاً بالحزم، ودخل تمرلنك إلى دمشق، ونهبها وأحرقها، وفعل فيها فوق ما فعل بحلب، ولم يدخل طرابلس، بل أحضر له منها مال ولا جاوز فلسطين.

وعاد نحو حلب راجعاً طالباً بلاده، ولما كان سابع عشر شعبان من السنة المذكورة، وصل تمرلنك عائداً من الشام إلى الجبول شرقي حلب، ولم يدخلها، بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريبها، وإحراق المدينة، ففعلوا وطلبني الأمير عز الدين، وكان من أكبر أمرائه، وقال: إن الأمير رسم بإطلاقك وإطلاق من معك فاطلب من شئت، وكثر لأروح معكم إلى مشهد الحسين، وأقيم عندكم، حتى لا يبقى من عسكرنا أحد، وكان القاضي شرف الدين لا يفارقني، فطلبنا باقي القضاة، واجتمع معنا نحو من ألفي مسلم، وتوجهنا إلى مشهد الحسين صحبة المشار إليه، وأقمنا ننظر إلى النار، وهي تضرم في أرجائها، وبعد ثلاثة أيام لم يبق بها أحد، فنزلنا إليها، فلم نر بها أحد، فاستوحشنا، وما قدرنا على الإقامة بها من النتن والوحشة، ولم نقدر على السلوك في الطرقات من ذلك.

شعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكانت نـواب بلاد الشام معه مـأسورين وانفلتوا أولا بـأول، ومات سودون بالبطن معه في قبة يلبغا، واستقر في نيابة دمشق تغري بردي(١) والله أعلم، وهذا ما نقلته من كلام ابن الشحنة كما وجدته.

ذكر ورود هذا الخبر الذي أقلق ووصول استنبوغا الدوادار وعبد القصار إلى جلق

فــورد من حلب استنبــوغـا الدوادار، والفتـح الماهر المدعـو بعبـد القصار، وقالا: معـاشر المسلمين، الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين، من يقـدر على حذا، فيطلـب لنفسه طريق النجـا، ومن أطاق أن يشمـر ذيله، فـلا يبيتن في دمشق ليله، ولا يغـالط نفســه بالمداهنة، فليس الخبر كالمعـاينه، فتفرقت الآراء، واختلفت الأهواء، ومـاج أمر الناس مـوجاً، وتفرقـوا كما هو دأبهم فوجاً فـوجا، فبعض الناس انتصح، وجهـز أمره وانتـزح، وبعضهم كابـر وأصر، وكشر أنيابه لاستنبـوغـا وعبد القصـار وأهرّ، وأرادوا رجم هذين الناصحين، وان يسقوهما كأس حين، وقالوا: إنما أردتما بذلك تبـــديد الناس وتشريـدهم، وإجــلاءهـم عن أوطانهم وتجريدهم، وتفــريق كلمتهـم وتمزيق جلدتهم وإلا فــالأمن حــاصل، والسلطان بحمد الله واصل، والنواب في حلب كـانوا شرذمة قليله، ولم يتم لهم معه الفكر والحيله، مع أنه حصل من بعضهم مخامرة، ولم يوجد من الباقين منـاصحة ومظاهرة، ولم يكن لهم رأس، فلا تـأخذوا في هذه المسألة بالقياس، وأما عساكر مصر فإنهم كـاملوا العدة، وسابغوا العدة، وفيهم للمسلمين فرج بعد الشده، فقالا: نحن بعد اللتيا والتي من شره سلمنا، وما شهـدنا إلا بما علمنا، وكل منا أفصح عما أدى إليـه اجتهاده وأبان، ووالله إنه في نصيحتـه المسلمين النذير العـرفان، وقـد نصحناكم إن كنتم مفلحين، ولكن لا تحبــون الناصحين، واستمـر أمــر الناس في الترديد والتشاعب، والتفـرق والتبديل والتشاغب، فبعضهم توجـه نحو

١ — تغري بردي بن يشبغا، والد المؤرخ المشهور صاحب النجوم الزاهرة، وغير ذلك.

الأمـاكـن القـدسيــه، وتوجـه بعض إلى الديـار المصرية، وبعض تشبث بأذيال الجروف العاصيه، وتحصن آخرون بالأماكن الغامضة القاصية.

ذكر خروج السلطان الملك الناصر من القاهرة بجنود الاسلام والعساكر

ثم ان السلطان، خـرج من غيرتوان، وتوجـه بالعسـاكر والاستعـداد التـام، إلى جهـة بلاد الشـام، فلما بلغ النـاس ذلك سكن جأشهم، وزال استيحـاشهم، ورد غالب من كـان برح منهم، وانفـرج الكرب والضيق عنهم، وأمـا أولوا العزم، وذووا الـرأي السديد والحزم، فلم يلتفتـوا إلى قـدوم السلطـان، بل طلبـوا لنفسهم الأمــان، وانتظروا مـا يتــولد من حادثات الزمـان، وكأن أنامل الدهر الدائـر، كتبت لهم على مرآة الخاطر ما أنشده الشاعر، شعراً:

ألا إنها الأيـام أبنـاء واحـــــــــد ... وهذي الليــــالي كلهــــا أخـــوات

فـــــلا تطلبـن مـن عنـد يوم وليلـه ... خــــلاف الذي مــــرت بـه السنون

وقلت شعراً:

إن اختفـى مـــــا في الـزمــــان الآتي ... فقـس على الماضي مـن الأوقـــــــات

فصل: ولما نجّز تيمـور أمر حلب، ضبط أثقالها وما أخـذ منها من مـــال وسلب، ووضعـه في القلعــه، ووكل بعض أمــرائــه من ذوي الشجاعة والمنعة، وهو الأمير موسى بـن حاجي طغاي، وكان ذا عزم شـديد ورأي، وتوجه بذلك البحـر الطام، غـرة شهر ربيع الآخـر إلى جهـة الشـام، فوصل إلى حماه، ونهب مـا حـوت يداه، ولم يحتفل بأمـر نهب وأسير، ولا باسراع في مسير، بل سـار رويدا، وهو يكيـد كيـدا، وهم ﴿يكيدون كيدا﴾(١).

١— سورة الطارق— الآية: ١٥.

حكـايــة

رأيت حين توجهت إلى بـلاد الروم في أوائل شهــر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وثمانمائــه، عند وصـولنا إلى حماه، بـالجامع النوري بها من الجانب الشرقي، على حـائطه القبلي، نقشــاً على رخـامـة بالفـارسي مـا ترجمتـه: «وسبب تصـوير، هـذا التسطير، هو أن الله تعـالى يسر لنا فتح البـلاد، حتى انتهى استخـلاصنا الممالك إلى العراق، وبغـداد، فجـاورنا سلطان مصر، ثم راسلناه، وبعثنا إليـه قصـادنـا بأنواع التحف والهدايا، فقتل قصادنا من غير موجب لذلك، وكان قصدنا بذلك أن تنعقد المودة بين الجانبين، وتتأكـد الصـداقـة من الطرفين، ثم بعـد ذلك بمـدة قبض بعض التراكمة على أناس من جهتنا، وأرسلهم إلى سلطان مصر برقوق، فسجنهم وضيق عليهم، فلزم من هذا أنا توجهنا لاستخـلاص متعلقنا، من أيدي مخالفينا، واتفق لذلك نزولنا بحماة في العشرين من شهـر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانمائة».

فصل: ثم وصل إلى حمص فلم يتعرض بها لتشتيت وتبـديد، ووهبها لسيدي خالد بن الوليد، قلت بديها شعراً:

ألا لاتجاور ســـــــــــوى الخير ... ين أحيــا وكـن جــارهم في القبــور
ألم تــــــر حمص وسكـــــــانها ... نجــوا من بحـــار بـلابا تيمــور
لأنهم جـــاوروا خـــــالدا ... ومن جـــاور الأتقيـــا لا يـــور

وخــرج إليـه شخـص من أحـاد النـاس، يدعى عمــر بن الرواس، فـاستجلب خاطره، وكأنه قـدم إليـه تقدمـة فاخـرة، فولاه أمـور البلد، وركن إليه واعتمد، وولى قضـاء تلك البلاد، رئيساً يسمى شمس الدين ابن الحداد، ونادى بالأمان، للقاصي والدان، وتبايعوا بها وتشاوروا، وفي استفادة ربح الأمن لم يتماروا.

ثم إن نائب الشام ضعف معه ومـات على قبة يلبغا، ونائب طرابلس

هرب منه وللخلاص ابتغى، فوصل إلى مدينته، واستقر في ولايته، فاضطرم غضبا، واستشاط لهبا، واشتعل قيظ غيظه، وقتل كل من وكله بحفظه، وأسعر بهم سقر، وكانوا ستة عشر، وأما تمرداش فإنه داراه وماري، وهرب منه في قارا، واستمر علاء الدين التونبغا العثماني نائب صفد، وزين الدين نائب غزة وغيرهما معه في صفد.

ثم سار، وما ارتبك، حتى نزل على بعلبك، فخرج أهلها ودخلوا عليه، وتراموا طالبين الصلح بين يديه، فلم يلتفت إلى هذا المقال، وأرسل فيهم جوارح النهب والاستئصال، ثم ارتحل مجريا ذلك البحر الزخار، والسيل التيار، والطوفان الثرثار، حتى أشرف على دمشق من قبة سيار.

ووصلت العساكر المصرية، والجنود الاسلامية، وقد ملأوا الفضاء، وأشرق الكون منهم وأضاء، فيالق سهامها لحب قلب من نوى الخلاف فالقه، وصواعق سيوفها في عقاص كل عقص(١) صاعقه، وأسنة رماحها لرتق سماء الأرواح عن أرض الأشباح فاتقه، وقد طلبوا الأطلاب، وحزبوا الأحزاب، وعبوا الميمنة والميسرة، ورتبوا المقدمة والمؤخرة، وسووا القلب والجناح، وملأوا البطاح والبراح، وساروا بالمقانب المكتبه، والكتائب المقنبه، والكواكب الملوكيه، والمراكب الموكبه، والمراتب المقربه، والمقربات المرتبه، والسلاهب المجنبه، والنجائب التي هي على أكل اللحم مستلهبه، وفي كل كتيبة من الأسود الضراغم، ومن النسور القشاعم، قلت شعراً:

وربّ ذي لجب كالطود ذي حنق ... كأنه البحر في أثناه غايات
بحران في كل موج منهما أسد ... يلاعب الموت في كفيه حيات
كل يري العينَ معناه وصورته ... عند النزال وإن ينزل فشطفات
إن يسرِ تلقَ السما في الأرض دائرة ... أو سار تعقد أرضاً منه غَبَرات

---

١ — العقص: التواء في قرن الشاة أو التيس، وهو أيضاً دخول الثنايا في الفم. العين.

وقد تنكبوا حنايا المنايا، وتقلدوا سيوف الحتوف، واعتقلوا الذوابل النواهل، وثبتوا حيث نبتوا، وكأنهم خلقوا من كواهل الصواهل، قلت شعراً:

كأنّ الجوّ ثوب لازوردي	يزركش نسجه قصبُ الرماح
فإن عقد القتام عليه ليلا	أرَتْك صفاحُه لَمْعَ الصباح
كأنّ نجومُه النشابَ ترمي	شياطين الكفاح لدى النطاح

ولا زالت أفواج هذه الأمواج، على هذا المنهاج متلاطمه، وأثباج هذا البحر العجّاج، تحت العجاج متصادمه، وكل ينادي بطريق المفهوم، وما منا إلاّ له مقام معلوم.

فوصلت غيلان الوغى، إلى قبة يلبغا، يوم الأحد العاشر، من شهر ربيع الآخر، عام ثلاثة وثمانمائة من الهجرة، فنزل كل من العساكر يمنة ويسرة، واستقرت العساكر والأمراء الاسلامية، في البيوت والمساكن، ونزلت الجنود التتاريه، غربي دمشق من داريا وقطنا والحولة، وما يلي تلك الأماكن، ودخل بعض أثقال السلطان إلى البلد، وتحصنت القلعة والمدينة بالسلاح والعدد.

ثم أخذ كل من الجيشين حذره، ونجز للمقابلة والمقاتلة أمره، وحفروا الخنادق، وسد كل على الآخر أفواه المضائق، وشرعوا في المهاوشة والمناوشة، والمهارشة والمعانشة، ثم أمر السلطان العساكر، بالبروز من المدينة إلى الظاهر، وجعل يخرج من المدينة رؤساء أعيانها، وتنحاز في المقاتلة إلى سلطانها، والأطفال الصغار والرجال، يجأرون إلى الجبار، وينادون بحرقة، كل ليلة في الأزقة: يا الله يا رحمن، انصر مولانا السلطان، والناس في إضطراب وحركات، يستنزلون النصر والبركات، ويستغيثون الليل والنهار: يا مجاهدون الأسوار، واستشهد من رؤساء البلد في تلك الأيام، قاضي القضاة برهان الدين الشاذلي المالكي الحاكم

بالشام، وشلت يد قاضي القضاة شرف الدين عيسى المالكي بضربة حسام، وجعلوا يأتون بمن يظفرون به من العدو فيقتلونه، وبها غنموا منهم من ناطق وصامت، فيشهرونه.

ذكر واقعة وقعت ومعركة صدعت لو أنها نفعت

ثم في بعض الأيام، تقدم من أولئك الأغتام، نحو من عشرة آلاف، وزحفوا الى ميدان المصاف، فنهض لهم من العساكر الشامية، نحو من خمس مائه، ثم اتبعهم الامير اسنباي في نحو من ثلاث مائه، شعر:

أسود إذا لاقوا ظباء إذا عطوا ... جبال إذا أرسوا بحار إذا سروا
شموس إذا لاحوا بدور إذا إنجلوا ... رياح إذا هبوا غمام إذا همموا
صقور إذا انقضوا نمور إذا سموا ... رعود إذا صاحوا صواعق إن رموا

مع كل منهم خطار، تسجد قدود الملاح لخطراته، وبتار يتعلم سفك الدماء من لحظاته، وحنية تضاهي حاجبه، وسهام في تشبهها بأجفانه صائبه، وترس لين اللمس، اذا تغطى به رأيت البدر على شمس، وعليه خوذه، كأنها من لمعان وجنته مأخوذه، أو من بوارق طلعته مفلوذه، إذا نظر الطرف إليها، يأخذه الإنبهار، يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار، ولبوس أشبه لابسه، وصار ملابسه، ظاهره حرير ناعم كبشرته، وباطنه حديد كقلبه في قسوته، وقد امتطوا الفحول، من نجائب الخيول، فكأن بدور تلك الجموع، مع الرماح الملتهبة الأسنة عروس تجلى تحت الشموع، وتوجهوا إلى حومة الوغى، وتلاقوا في واد خلف قبة يلبغا.

فصل: ولما رأت هذه الأسود تلك الذئاب والكلاب، كانوا كالمؤمنين وقد رأوا الأحزاب، فبان منهم صحيح الضرب وعليله، و﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾(١) فأحاط أولئك بهؤلاء لكثرة الغلبة، وأداروا

١ــ سورة الأحزاب ــ الآية: ٢٢.

لقرضهم على هذه البحور الدائرة المجتلبه، وحين صاروا في خباء هذه الدائرة كالعروض، اشتغلوا بالضرب وتقطيع الدائرة بالحرب العضوض، فأول ما اضمروا لهم في ذلك الزحف، قطف الرأس وخبل العقل، وقطع الكف، فصلوا بالرمح الطويل عقلهم، وثملوا بالرشق المديد شكلهم، وبتروا بالعضب البسيط وافرهم، وشتروا بالسهم السريع كاملهم، فحذوهم وقصموهم، وخزموهم وشعثوهم وثرموهم، وجمعوهم ووقصوهم وعصبوهم، وعقصوهم وخرموهم ونقصوهم، فردوا صدورهم على الأعجاز، وسدوا على حقيقة الخلاص منهم المجاز، فانكشفوا عنهم وهم ما بين مشطور ومقطوع ومحذوف ومجزوء ومنهوك وموقوف، ورجع اسنباي المشار إليه وقد اقتضب بحربه المتدارك حنيفهم واجتث بضربه المتقارب المتهاسك ثقيلهم وخفيفهم، وتسبيغ سوابغهم بالنصر مرفل، وبالتمكين التام مذيل، وبيت دائرتهم المتفقة آمن من الخلل، وعروضه وضربه سالم من الزحاف والعلل.

ذكر ما افتعله سلطان حسين ابن ابنه تيمور(١) من المكر والمين

ثم إن سلطان حسين، وهو ابن ابنة تيمور، أظهر أنه خالف على جده وجاء إلى السلطان، وفي باطنه أمور، وكان شاباً ذا شجاعه، وعنده طيش ورقاعه، وأظهر بقدومه الفرح، واستشعروا النصر والمرح، وكان في رأسه جمة شعر فأزالوه، وخلعوا عليه وفي زيهم أظهروه.

فصل: ثم إن تيمور أشاع أنه خار وتتعتع، فرحل قليلاً ورجع القهقرى وتكعكع، كل ذلك من مكائده، وحبائل مصائده، وبيان ذلك أنه بلغه إن الخلاف واقع بين العساكر المصرية، وانهم سيفرون، فيفوتونه إذ ذاك فأظهر الخوف، وشيع أنه راحل ليثبتهم، وعن الفرار يثبطهم، فلما عزموا على الفرار، لم يبن لهم ثبات ولا قرار.

١— بالأصل: حسين ابن أخت تيمور، وهو تصحيف صوابه الذي أثبتناه.

ذكر ما نجم من النفاق، بين العساكر الاسلامية وعدم الاتفاق

وكان أتابك العساكر، وكافل الملك الناصر، الأمير الكبير باش بيك، وتحت يده الأكابر والأصاغر، والجند وإن كان مدده كثيراً، والجيش وإن ترآى عدده غزيراً، لكن كان كل منهم أميراً، ولم يكن شيء منهم سوى الرأس صغيراً، فتشتت آراؤهم، وتصارمت أهواؤهم، وانتقلت أشعار شعارهم من الدائرة المؤتلفه، إلى الدائرة المختلفه، ونقل كل منهم عن وزن بيته إلى أعاريض، وأخذ في عرض صاحبه بالتقاريض، وظهرت في تلك الساعة آيات الرحمن، في اختلاف الألسنة والألوان، وصاروا في رعاية الرعية كالذئب والضبع، وسلطوا على مرعى هزيلها النمر الغضوب والسبع، ولحق في سند هذا الحديث الأصاغر بالأكابر، والأسافل بالأعالي، والأوائل بالأواخر، وصاروا كما قال الشاعر شعراً:

تفـرّقت غنمي يومـاً فقلت لها … يا رب سلط عليها الذئب والضبعا

وتوجه منهم رؤوس إلى القاهره، تاركاً كل منهم قوته وناصره، وصدقوا تيمور في نفيه عنهم معرفة السياسه، والدربة في سلوك طرائق الرياسة.

فصل: ولما علم الغابرون، ما فعله السائرون، لم يسعهم غير تشمير الذيل، واتباعهم تحت جنح الليل، ومن تخلف عن قوم، أو أخذته سنة أو نوم، وقع في الشرك، وهوى به إلى أسفل الدرك، وكان الناس في الليل والنهار، ملازمين للإقامة على الأسوار، وكل قد فرح وابتهج، وتيقن أنه حل له من سلطانه فرج، ففي بعض الليالي، صعد الناس إلى مكان عالي، وإذا بأماكن مخيم السلطان، قد ملئت من النيران، ولم يعرف أحد ما الخبر، غير أن الدنيا ملئت بالشر والشرر، وأصبحوا وقد خلت الديار، ولم يبق في قبة يلبغا نافخ نار، فخشعت أصواتهم، وسكنت حركاتهم فجعلوا يتهافتون، وفيما بينهم يتخافتون، وماج الشر

واضطرب، وقال الناس: السلطان هرب، فانقصم ظهر الناس، وأيقنوا حلول البأس، وتفلقت الهموم، وتعاظمت الغموم، وتقطعت بهم الأسباب، وشمل الخلائق أنواع العذاب، وضاقت الحيل كالصدور، وتخبطت الأوامر والأمور.

فصل: ثم إن تيمور حمد ربه، ورحل من مكانه ونزل القبة(١)، وألقى عصاه، ونام مستريحا على قفاه، ونادى بمعنى ما قلت شعراً:

الحمد لله نلنا ما نؤمله ... والضدّ أدبر والمأمول قد حصلا

وحفر الخنادق حوله، وبث في الأطراف رجله وخيله، وأرسل الطلب، وراء من هرب، وصار كلما أتي بأحد من أجناد الرجال، أمر بإلقائه بين يدي تلك الأفيال، فتفعل معه الأفيال في تلك الفلاه، ما تفعله المواشي يوم القيامة في مانع الزكاه.

فصل: وأما السلطان فإنه لم يصبه من أحد ضيم، لأنه نشز نشوز الغيم، وانساب إنسياب الأيم(٢)، وتوجه على وادي التيم، فانتشرت شياطين تيمور في الأرض، وملأت الطول والعرض، ووصلت طراشتهم إلى أطراف البلاد وضواحيها، وعامة القرى ونواحيها، وجعلوا من كل حدب ينسلون في مشارق الأرض ومغاربها، التي بارك الله فيها، وتقدموا إلى المدينه، وكانت كما ذكر بالأهبة حصينه، وبأنواع الاستعدادات مكينه، مسدولة الحجاب، مغلقة الأبواب، فتمنع أهلها عليهم، ولم يسلموها إليهم، رجاء أن يشموا من النجدة الأرج، أو يمنّ الله عليهم بعد الشدة بالفرج، فاستمروا على ذلك نحواً من يومين، ثم استيقنوا من رجائهم الخيبة ومن ظنهم اللين، فكان قدوم السلطان وذهابه بالعساكر، كما قال الشاعر:

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة ... فلما رأوها أقشعت وتجلت

١— أي قبة يلبغا

٢— الأيم: ذكر الأفعى

ذكر خروج الأعيان بعد ذهاب السلطان وطلبهم من تيمور الأمان

ولما خـانتهم الظنـون، وعلمـوا أنه حل بهم ريب المنـون، اجتمع من المدينة الكبراء، والموجود من الأعيان والرؤسـاء، وهم قاضي القضاة محيي الدين محمود بن العز الحنفي، وولده قـاضي القضاة شهاب الدين، وقاضي القضاة تقي الدين ابراهيم بن مفلح الحنبلي، وقـاضي القضاة شمس الدين محمـد الحنبلي النابلسي، والقاضي ناصر الديـن محمد بن أبي الطيب كـاتب السر، والقـاضي شهـاب الدين أحمد بن الشهيـد الوزير، وكـان منصب الوزارة إذ ذاك له أبهة مـا في الحملة، والقـاضي شهـاب الدين الجيـاني الشافعي، والقاضي شهـاب الدين ابراهيم بن القوشة الحنفي نائب الحكم، رحمهم الله، فأمـا القـاضي الشـافعي وهو عـلاء الدين بن أبي البقـاء، فإنه هرب مع السلطان، وقـاضي القضـاة المالكي، وهـو برهان الدين الشـاذلي، فإنه استشهد كما ذكـر، فخرج هؤلاء الأعيان، وطلبوا منه الأمـان، بعد ما وقع المشاورة منهم الاتفاق، ونظمت كلمتهم في سلك الوفاق(١).

فصل: ولما اقلع السلطان بفلك عسـاكـره المشحـون، وقع في بحـر العسـاكـر التيمـورية قـاضي القضـاة ولي الدين ابن خلدون، وكـان من أعلام الأعيان، وممن قدم مع السلطان، فلما انفتل السلطان وانفرك، كأنه كـان غافـلا فوقع في الشرك، وكـان نازلا في المدرسـة العادليـة، فتوجـه هؤلاء الأعيان إليـه في تدبير هذه القضيه، فـوافق فكره فكرهم، فملكوه في ذلك أمـرهم، ومـا وسعهم، إلا استصحـابه معهم، وكـان مـالكي المذهب والمنظر، أصمعي الرواية والمخبر، فتـوجـه معهم بعمامة خفيفـه، وهيئة ظريفـه، وبـرنس كهـو(٢)رقيق الحاشيـه، يشبـه من دامس الليل الناشيه(٣)، فقدموه بين يديهم، ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم.

١— لمزيد من الشروح والتفـاصيل، انظر تـاريخ ابن قـاضي شهبـه، ج٤—ط. دمشق ١٩٩٧— ص ١٦١—٥٥٢

نزهة النفوس والأبدان لعلي بن داود الجوهري ج٢ —ط القاهرة ١٩٧١ص ٨٧—٩٧.

٢— لم أجد تعريفاً لكلمة كهو، ولعلها تصحيف كهب، فالكهبة: غبرة مشربة سواداً. العين

٣— الناشئة: أول الليل. العين

وحين دخلوا عليه، وقفوا بين يديه، واستمروا واقفين، وجلين خائفين، حتى سمح بجلوسهم، وتسكين نفوسهم، ثم هش إليهم، ومر ضاحكا عليهم، وجعل يراقب أحوالهم، ويسبر بمسبار عقله أقوالهم وأفعالهم.

ولما رأى شكل ابن خلدون لشكلهم مبائنا، قال هذا الرجل ليس من هاهنا، فانفتح للمقال مجال، فبسط لسانه (١) وسنذكر ما قال، ثم طووا بساط الكلام ونشروا سماط الطعام، فكوموا تلالا من اللحم السليق، ووضعوا أمام كل مابه يليق، فبعض تعفف عن ذلك تنزها، وبعض تشاغل عن الأكل بالحديث ولها، وبعض مد يده وأكل وما جبن في مصاف الالتهام، ولا نكل، وإلى الأكل أرشدهم، وناداهم وأنشدهم شعراً:

كلوا أكل من إنْ عاش أخبر أهله ... وإن مات يلق الله وهو بطين

وكان من جملة الآكلين، قاضي القضاة ولي الدين، وكل ذلك وتيمور يرمقهم، وعينه الخزراء تسرقهم، وكان ابن خلدون أيضا يصوب نحو تيمور الحدق، فاذا نظر اليه أطرق، وإذا ولى عنه رمق، ثم نادى وقال بصوت عال: يا مولانا الأمير، الحمد لله العلي الكبير، لقد شرفت بحضوري ملوك الأنام، وأحييت بتواريخي ما ماتت لهم من الأيام، ورأيت من ملوك الغرب فلانا وفلانا، وحضرت كذا وكذا سلطانا، وشهدت مشارق الأرض ومغاربها، وخالطت في كل بقعة أميرها ونائبها، ولكن لله المنة إذ امتد بي زماني، ومنّ الله علي بأن أحياني، حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة، والمسلك بشريعة السلطنة على الطريقة، فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف، فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك، ولنيل الفخر والشرف، فاهتز تيمور عجبا، وكاد يرقص طربا، وأقبل بوجه الخطاب إليه، وعول في ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك

١ — وصف ابن خلدون اللقاء بتيمور في كتابه «التعريف بابن خلدون، ورحلته غرباً وشرقاً — ط. القاهرة ١٩٥١ — ص٣٥١ — ٣٨٢.

الغـرب وأخبارها، وأيام دولتهـا وآثارها، فقص عليـه من ذلك ما خـدع عقله وخبله، وخلب لبه وسلبه، وكـان تيمور في سير الملوك والأمم أمة، وأبا التاريخ شرقا وغربا وأمه، وسنذكر لهذا المعان، بديع بيان.

فصل: وبينا هم يوما قـاعدون في حضرة ذلك البصير، وإذا بالقاضي صـدر الدين المنـاوي في أيديهم أسير(١)، وكـان قـد تبع السلطان في الهرب، فأدركـه في ميسلون الطلب، فقبضوا عليـه، وأحضروه بين يديه، وإذا هو بعمامـة كـالبرج، واردان كـالخرج، فتخطى الرقـاب وجلس من غير إذن فوق الأصحـاب، فاستشاط تيمـور غضبا، ومـلأ المجلس لهبا، وانتفخ سحـره، وسجر غيضـا نحـره، وشخر ونخـر، ونخر بحر حنقـه وزخر، وأمر طائفة من المعتدين، بالتنكيل بالقاضي صدر الدين فسحبوه سحب الكلاب، ومـزقـوا مـا عليـه من ثيـاب، وأوسقـوه سبـا وشتما، وأشبعوه ركـلا ولكما، ثم أمرهم بتشـديد أسره، وتجديد كسره، وترادف الإسـاءة إليه، وتضـاعف الكسرات على رغم التصريفين عليه، فأخـرج إخراج الظالم، يوم يولى مدبراً ماله من الله من عاصم.

ثم تراجع تيمور إلى مـا كان فيه، من ترتيب غـوائله ودواهيه، فألبس كـلا من هؤلاء الأعيان خلعـه، وأقامـه عنده في عزة ورفعـه، ثم ردهم منشرحي الصـدور، في دعـة وسرور، وفي خـاطره شرور، وأمـور تمور، فساروا وقد حاروا، قلت شعراً:

كـــالهدي زينه المهـــدي وعظمـــه وعن قـــريب لضيـف الموت أطعمـــه

وشرط لهم ولذويهم الأمـان، على أن يدفعـوا إليـه أمـوال السلطان، وماله وللأمراء من أثقـال، وتعلقات وأموال، ودواب ومواش، ومماليك وحواش، ففعلوا ما به أمر، ورفعوا إليه ما بطن من ذلك وظهر.

١ — هو محمد بن ابراهيم، تولى منصب قـاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية عـدة مرات. انظر السلوك للمقريزي ج٣، ص ٣١٠، ٩٣١، ١٠٥٤.

فأما القلعة فإنها استعدت للحصار، وكان نائبها يدعى ازدار، فحصنها، وبالأهبة الكاملة مكنها، وانتظر من السلطان نجدة أو مانعا ربانيا يفرج عنه الشده، فلم يلتفت تيمور في أول الأمر إليها، ولا احتفل بها ولا عرج عليها، بل صرف همه إلى تحصيل الأموال، وتوسيق الأحمال بالأثقال، فلما حصل الثقل، وإلى خزائنه انتقل، طرح على المدينة أموال الأمان، واستعان على استخلاصها، بهؤلاء الأعيان، وأقام عليهم دواوينه وكتبته، وأهل الضبط والحرص من مباشريه وحسبته، وفوض ذلك إلى كفاية الله داد، أحد أركان دولته، ومن عليه الاعتماد، وهو أخو سيف الدين المار ذكره في أول الكتاب، لأمه، وأقام معهم كل جبار عنيد، ومن نشأ في حجر الفظاظة ورضع ثدي ظلمه، ونادى بالأمان والإطمئنان، وان لا يبغى انسان على انسان، فمد بعض الجغتاي يدهم إلى غاره، بعد ما سمعوا هذا النداء واشتهاره، فبلغ ذلك تيمور، فأمر بصلبهم في مكان مشهور، فصلبوهم في الحريرين، برأس سوق البزوريين، ففرح الناس بهذه الفعله، وأملوا خيره وعدله، وفتحوا من أبواب المدينة الباب الصغير، وشرعوا يحررون أمر المدينة على النقير والقطمير، فوزعوا هذه الأموال على الحارات، وتنادى أهل الظلم والعدوان من القريب والغريب بالشارات، وجعلوا دار الذهب مكان المستخلص، وطفقوا يلقون الناس في ذلك القنص، وتسلط بعض الناس على البعض، واصطاد أرانب الأرض بكلاب الأرض، وكان فصل الخريف كجيش مصر قد قفل، وفصل الشتاء بزمهريره كجند تيمور بنيرانه على العالم قد نزل، فانتقل إلى القصر الأبلق، ثم إلى بيت الامير بتخاص، وأمر بالقصر أن يهدم ويحرق.

ودخل إلى المدينة من الباب الصغير، في جمع كثير وصلى الجمعة في جامع بني أمية، وقدم الحنفية على الشافعية، وخطب به قاضي القضاة محيي الدين محمود بن العز الحنفي المذكور، وجرى ما يطول شرحه من أمور وشرور.

ووقع بين عبد الجبار بن النعمان الخوارزمي المعتزلي، وبين علماء الشام، لاسيما قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي، مناظرات ومناقشات، ومباحثات ومراجعات، وهو في ذلك كترجمانه، يخاطبهم في جميع ذلك بلسانه، فمنها وقائع علي ومعاوية، وما مضى بينهم في تلك القرون الخالية، ومنها أمور يزيد وما يزيد، وقتله الحسين السعيد الشهيد، وإن ذلك ظلم وفسق بلا نكر، ومن استحله فهو واقع في الكفر، ولا شك أن ذلك الفعل الحرام، كان بمظاهرة أهل الشام، فإن كانوا مستحليه فهم كفار، وإن كانوا غير مستحليه فهم عصاة وبغاة وأشرار، وان الحاضرين، على مذهب الغابرين، فحصل منهم في ذلك أنواع الأجوبة، فمنها ما رده ومنها ما أعجبه، إلى أن أجاب كاتب السر وأجاد، وأصاب فيما قال وأفاد: أطال الله الكبير، بقاء مولانا الأمير، أما انا فنسبي متصل بعمر، وعثمان، وإن جدي الأعلى كان من أعيان ذلك الزمان، وحضر تلك الوقائع، وخاض هاتيك المعامع، وكان من رجال الحق، وأبطال الصدق، ومما تواتر من فعله، ووضعه الشيء في محله، أنه توصل الى رأس سيدنا الحسين، ونزهه عما حصل له من ابتذال وشين، ثم نظفه وغسله، وعظمه وقبله وطيبه وبجله، وواراه في تربة، وعد ذلك عند الله تعالى من أفضل قربه، فلذلك أيها الغمام الصيب، كنوه بأبي الطيب، وعلى كل تقدير، أيها الامير، فتلك أمة قد خلت، وغموم غيومها انجلت، وبما جرعت انقضت، وبما أذاقت مرت وحلت، وفتن أراحنا الله إذ أزاحنا عنها، ودماء طهر الله سيوفنا منها، وأما الساعة، فاعتقادنا اعتقاد أهل السنة والجماعة، فلما سمع هذا الكلام قال: بالله العجب، وما سميتم بأولاد أبي الطيب إلا لهذا السبب؟ قال: نعم ويشهد لي بذلك القاصي والداني، وأنا محمد بن عمر بن محمد بن أبي القاسم بن عبد المنعم بن محمد بن أبي الطيب العمري العثماني، فقال: لك المعذرة يا طيب الأسلاف، لولا أني ظاهر العذر لحملتك على عاتقي والأكتاف، ولكن سترى ما أفعله معك ومع أصحابك من التكريم والألطاف، ثم انه ودعهم، وبالتعظيم والاحترام شيعهم.

ومنهـا انه سألهم كناية، سـؤال إضرار ونكاية، فقـال: مـا أعلى الرتب، درجـة العلم أو درجـة النسب: فـأدركـوا قصـده وفهمـوا، ولكن عن رد الجواب وجموا، وعلم كل منهم أنـه قـد ابتلي، فـابتـدر بالجواب القـاضي شمس الدين النابلسي الحنبلي وقـال: درجة العلم أعلى من درجـة النسب: ومرتبتهـا عند الخالق والمخلوق أسنى الرتب، والهجين الفـاصل يقدم على الهجـان الجاهل، والمقـرف(١) المنيف، أولى للإمـامـة من السيـد الشريف، والدليل في هذا جلي، وهو إجماع الصحـابة على تقـديم أبي بكر على علي، وقد اجمعـوا على أن أبا بكر أعلمهم، واثبتهم قدماً في الاسـلام وأقدمهم، واثبـات هذه الدلالـة، من قـول صـاحب الرسـالة: «لا تجتمع أمتي على ضـلالة» ثم أخـذ في نزع ثيـابه مصيخـاً لتيمور، ومـا يصـدر من جـوابه، ففكك أزراره، وقال لنفسـه: إنها أنت عارة وكأس الموت لا بد من شربها، فسـواء مـا بين بعـدها وقـربها، والموت على الشهـادة، من أفضل العبـادة، وأحسن أحوالها لمن اعتقد أنه إلى الله صائر، كلمة حق عند سلطان جائر، فسأل مـا يفعل، هذا المهمل، فقال: يا مـولانا الجليل، إن فـرق عساكـرك كأمم بني إسرائيل، وفيهم من ابتدعـوا بدعاً، وتقطعوا في مـذاهبهم قطعا، وفرقوا دينهم، وكـانوا شيعا، ولا شك أن مجالس حضرتك تنقل، وعقائل مباحثها تحل الصـدور فتعقل، واذا ثبت هذا الكلام عني، ووعاه أحد غير سني، خصـوصـا من ادعى مـوالاة علي، ويسمى في رفضـه أبا بكر بالرافضي، وتحقق مني يقيني، وأنه لا ناصر لي يقينـي، فانه يقتلني جهـارا، ويريق دمي نهارا، واذا كـان كـذلك، فأنا استعـد لهذه السعـاده، واختم أحكام القضـاء بالشهـادة، فقال: للـه هذا ما افصحـه، واجـرأه في الكلام وأوقحه، ثم نظر إلى القوم، وقال لا يدخلن هذا علي بعد اليوم.

فصل: وهذا الرجل، أعني عبد الجبـار، كان عالم تيمور وإمـامه، وممن يخوض في دماء المسلمين أمـامه، وكـان عالماً فـاضلاً، فقيهـاً كامـلاً، بحاثاً

١ـــ المقرف: الهجين. العين.

محققا، أصوليا جدليا مدققا، وأبوه النعمان، في سمرقند كان، وهو في الفروع من أعلم أهل الزمان، حتى كان يقال له النعمان الثان، وكان من القائلين بعدم الرؤية في الأخرى، فأعمى الله تعالى بصره كبصيرته في الدنيا، وأكثر علماء مصر بها وراء النهر قرأ عليه الفروع، ونقل عنه مسائل المشروع، ولا خلاف في الفروع بين أهل السنة وأهل الاعتزال، وانما اختلافهم في أصول الدين في مسائل معدودة سلكوا فيها سبيل الضلال.

فصل: وتصدى لاستخلاص الأموال من أهل الشام، كل غشوم ظلام، وكفور صدام، وكان في قلة وفاقه، كصدقة ابن الجابي(١) وابن المحدث(٢)وعبد الملك بن التكريتي المنبوذ بسماقه، وغيرهم من نظرائهم، من عواقب الظلم وأبنائهم، مع حضور أكابر المدينة وأعيانها، المار ذكرهم ورؤساء قطانها، فإنه لم يمكنهم في ذلك أن يتخلفوا، ولا يتقاعسوا ولا يتوقفوا، وحضور دواوينه وحسابه، وضابطي أمور خزائنه وكتابه، ومنهم خواجه مسعود السمناني، ومولانا عمر، وتاج الدين السلماني، كل ذلك في دار الذهب، وهو مكان مشهور، ونزل الله داد داخل الباب الصغير في دار ابن مشكور(٣)، وجعل كل من في قلبه من أحد ضغينه، أو سخيمة دفينه، أو غل أو حسد، أو حقد أو نكد، يغمز على إخواته أولئك الظلمة الفظاظ، والزبانية الشداد الغلاظ.

شعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

بل بأدنى إشاره، وأقل عباره، يبنون على أرض وجود ذلك المسكين،

١— صدقة بن خليل الجابي، ولاه تيمور حاجب دمشق، وفرض على التجار الأموال واغتصبها من الناس. تاريخ ابن قاضي شهبة ج ٤ ص ١٦٩ — ١٨٣

٢— عن ابن المحدث المحدث، انظر المصدر أعلاه نفسه ص ١٧٣.

٣— الله داد: أي عطاء الله، كان من قادة تيمور الذين شاركوا في الهجوم على دمشق، وابن مشكور هو محمد بن عبد الله بن مشكور القاضي، ناظر الجيش بدمشق، مات سنة ٨٠٠ هـ. ابن قاضي شهبة ج٤ ص ٩٨

من جبال النكال قصوراً شـواهق، وينشؤون على حدائق ذاته، من سماء العـذاب سحـاب عقاب، ترعـد عليـه صـواعق، وتبرق له من الدمـار والبوار بوارق.

فصل: ثم إنه صار في هذه المدة، يحاصر القلعـة، ويعد لها ما استطاع من عدة، وأمـر أن يبنى مقابلتهـا بناء يعلوها، ليصعدوا عليـه فيهدوها، فجمعـوا الأخشـاب والأحطـاب وعبـوها، وصبـوا فـوقهـا الأحجـار والتراب ودكـوها، وذلك من جهـة الشمال والغـرب، ثم علوا عليـه وناوشـوها الطعن والضرب، وفـوض أمـر الحصـار، لأمير من أمـرائـه الكبار، يدعى جهان شاه، فتكفل بذلك وعاناه، ونصب عليها المجانيق، ونقب تحتها، وعلقهـا بالتعاليق، وكـان فيها من المقـاتله، فئة غير طائله، أمثلهم شهـاب الدين الزردكـاش الدمشقي، وشهـاب الدين أحمد الزردكـاش الحلبي، فأبليا في عسكـره بلاء حسنا، وكانا على جيشـه كلما فـاء إلى فنائهم وباء مصيبـة وفنا، فأهلكا من جيشـه بالإحراق، وإرعـاد المدافع والإبراق، ما فـات العد، وتبدد عن دائـرة الحد، ولكنه لما أحاط بها من بحـار تخريبـه سيل عـرم سائلهـا، وأمطر عليهـا من سهـام غمام رمـاته، وصواعق بوارق كماته، صيب وابلهـا، أتاها العـذاب من فوقهـا ومن تحتهـا، وعن أيمانها وعن شمائلهـا، وكلت عن المجـابذة والمنابذة أيدي مقاتليها فطلبوا الأمـان، ونزلوا إليه من غير توان، وكل هذا الأمر المهـول والقضـاء العجب، أواخـر شهـر ربيع الآخـر، وجمادين وشهـر رجب، ولكن مـا نال من القلعـة روماً إلا بعـد محاصرتها ثلاثة وأربعين يومـاً(١)، وصـار في هذه المدة يتطلـب الأفـاضل، وأصحـاب الحرف والصنائع وأرباب الفضائل، ونسج الحريريـون له قباء بالحرير والذهب، ليس درز فـإذا هو شي عجب، وبنـى في مقـابر البـاب الصغير قبتين متلاصقتين، على تربة زوجات النبي صلى اللـه عليه وسلم، وأمر بجمع العبيد الزنج، واعتنى بجمعهم أكثر من غيرهم وقدم.

١ — لمزيد من التفاصيل انظر نزهة النفوس والأبدان للصيرفي ج٢ ص ٨٨—٩٧.

ذكر ما صنعه بعض الأكياس من الناس خوفا من أن يحل به الباس ووقى بنفائسه النفوس والأنفاس

وكـان في صفد، تـاجر من أهل البلـد، أحد الرؤسـاء والتجـار، يدعى عـلاء الدين، وينسب إلى دوادار، كأنـه تقـدمت له خـدمـة على السلطان، فولاه حجوبية ذلك المكان، فلما توجه النواب إلى حلب، والعادة أن ينوب عن نائب البلدة في غيبتـه مـن حجب، ناب عن نائبهـا التـونبغـا العثماني، وحاجبها علاء الدين الدواداري، فغرق في أسر ذلك الطوفان، كل النواب ومن جملتهم العثماني، وابن الطحـان، ومات منهم من مـات، وفر من فـر، واستمر في قيـد الأسر ألتونبغـا وعمر، فلما تقـدم تيمور الشـام، وحل بها منه، ما يحل من قضاة السوء بأموال الأيتام، شرع كل متول في بلاد، يفعل ما أدى اليـه الاجتهاد، فبعض حصن أماكنـه، وبعض مكن كمائنه، وطائفة استنجزت للنفار، وفرقة استوفـزت للفرار، وقوم سالموا وساكنوا، وهادوا وهادنوا، ففكر علاء الدين المذكور وقدر، وتأمل في خلاص صاحبه وبلده وتبصر، وكـان من أبناء الناس، وعنده ذوق الأكيـاس، واستشـار مصيب عقله في ذلك واستنطقـــه، فقـــال: داره بما معك من مـــال، واترك سرب الفرار ونفقـه، وما كذبه إذ قـال كل مداراة عن العرض ستر له وصـدقه، وكان ذا مال ممدود، فقال ما ادخرت الدنانير الصفر، والدراهم البيض إلا للأيام السـود، فطلب من تيمـور الرياضـه(١)، وأراد أن يجس أولا بمجاملته مخاضه، فعالج هذا الأمر علاج النطس المريض، وبادر بالمهادنة، وحـال الجريض، دون القريـض(٢)، وأرسل إلى تيمور أجناساً من مـاله الطويل العـريـض، واستمال خـاطره، واستـدعى أوامـره، ثم أردفهـا بأضعافها، وأضعف خواصرها بأردافها.

١— أي طلب منه مهلة من الوقت.

٢— الجريض: الريق، خاصة الذي يبلع من ألم أو هم، والقـريض: الشعر ولاسيما شعر الطرب، والذي قصده هو: حال الألم دون الطرب.

فشكر تيمور لـه صنعه، وزاده ذلك عنده منزلة ورفعـه، وأرسل إليه مرسـوم أمان، وأن يعامل هو وأهل بلده بالمجامله والإحسـان، فليؤمن روعهم، وليسكن جنسهـم ونوعهم، ولتـــؤنس وحشتهم، ولتـــذهب دهشتهم، بحيث أنهم يتابعـون ويتشاورون، وإلى معاملتهم من عسـاكره يتجـاورون، وإن استطال أحد من أجناده، ولو أنه من إخـوته وأولاده، فليقابله بالمنع والإنكار، والضرب والإشهار، وصار يطلب منه ما أراده، فيرسله إليه بزياده، وكلما زاد فيها يقترحه عليه من نقد وجنس طلبا، زاد عـلاء الدين لـذلك نشـاطا وطربا، ومن جملة مـا اقترح عليـه في ذلك المقبض، حمل بصل أبيض، بناء على أن ذلك لا يوجـد، في الشام بأسرها فضلا عن صفـد، ففي الحال، وجد من ذلك ثلاثة أحمال، فأرسلهـا إليه كما هي، وكـان ذلك من الفضل الإلهي، حتى أحبـه، وتمنى قربه، وقـال فيه معنى ما قلت شعراً:

داريـــت وفتـــك واحتميـــت	بيــــذل مــــالك يـا بشر
لـو كـــان مثلك آخـــــر	في الشــــام مـــا سيمت بشر

وتوجــه طوائف من العسكر إليهم، واشتروا منهم وباعــوا عليهم، واستمـرت عقـود المصـادقـة لم تحل، الى أن قـوض خيـامـه عن دمشق ورحل، فلما أقشع من الشـام ضبـاب ضيره، وامتـد في ميـدان الرحيل حبل مسيره، أعقب عـلاء الديـن الدواداري، قـاصـداً إلى ذلك الأسـد الضـاري، ومعه تحف سنيـة، ونتف ملوكيـة، ومطالعـة فحاويها رائقـة، ومعانيها فائقة، وألفاظهـا بالخضوع والخشوع ناطقة، فيها من الترقيقات مـا تقشعـر منه الجلود، ويلين له الحديد والصخـر الجلمـود، ويجري في طبائع الأبدان اليـابسة جري الماء في العود، وطلب في أثنائهـا مراحمه في أمـر العثماني وابن الطحـان، وجـز ناصية عبـوديتهما بمقـراض الإعتـاق والامتنان، وأن يجعل العفو عنهما شكر القدرة، ويفيض عليهما من بحار مراحمه قطره، وأنهما أقل من أن ينسبا إلى أسره، اذ ملوك الأرض تود لو

كـانت أطفالا تحت حجـره، ورأيه الشريف أعلى، وامتثـال ما بيـديه من المراسيم أولى، فلما اطلع تيمـور على فحـواه، وفهـم مـا أبداه ومـا أنهاه، وشاهد تحفـه وهداياه، وتفكر في أول أمره ما ألحمه معـه من الخدم وما أسـداه، والخير له تأثير، والبـادىء أكـرم، والشر كله تقصير، والبـادىء أظلم، قلت شعراً:

ترقب جـــزاء الحسنى إذا كنت محسنا ولا تخش من ســـوء إذا أنت لا تسي

وقيل شعراً:

ومن يفعل الخير لايعـدم جـوائـــزه لايـذهب العـــرف بين الله والنـاس

لان قلبـه وإن كـان حـديداً، فقـد هـان صعبـه الذي لم يزل شـديداً، فدعـاهما، وأكرم مثواهما، وأحسن إليهما، وذكـر لهما شفاعـة علاء الدين فيهما، ثم أمنهما البأس، وأعطاهما ثلاثة أفـراس، للعثماني اثنان، وواحـدة لعمر بن الطحـان، ثم أضاف إليهما من بلغهما المأمن، فـوصل كل منهما إلى دار عزته، وحل ذاك في صفده وهذا في غزته.

فصل: ولما تنجز لتيمور أخـذ القلعه، جهز أمره ورام الـرجعة، وقد استخـرج منهـا مـا أراد من نفـائس وأمـوال، بأنواع العقـاب وأصناف العذاب والنكال.

ذكر معنى كتاب أرسل إليه على يد بيسق(١) بعدما فروا من بين يديه

وقيل ان السلطان لما هرب، أرسل إليـه كتـابا أثار منه الغضب، فمن معناه، وفحوى ما عناه:« لاتحسب أننا جـزعنا منك، وفررنا عنك، وإنما بعض مماليكنا قوى أنفاسه، وأخـرج عن ربقة الطاعة رأسه، وتصور أن كل من خرج عرج، ولم يعتبر بمن رام للارتقاء سلما فدرج، وأراد مثلك

١— بيسق بن عبد الله الشيخي، أمير آخور السلطان برقوق، مات في ٨٢١. تاريخ ابن قاضي شهبه ج ٤ ص ٥٩٤. ذيل الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني—ط القاهرة ١٩٩٢— ص ٢٦٣.

إلقـاء الفساد، وهلاك العبـاد والبلاد، وهيهـات فإن دون مـرامه خـرط القتـاد، والكريم إذا بدا بجسمه مـرضـان، داوى الأخطر، ورأيناك أنت أهون الخطبين وأحقـر، فثنى عـزمنـا الشريف عنانه، ليعـرك من ذلك القليل الأدب آذانه، ويقيم في نظم طاعته ميزانه، وأيم الله لنكرن عليك كـرة الأسد الغضبـان، ولنوردن منك ومن عسكرك نواهل القنا مـوارد الأضغـان، ولنحصـدنكـم حصـد الهشيم، ولنـدوسنكم دوس الحطيم، فلتلفظنكم رحـى الحرب في كل طريـق، لما تعـانون من غليظ الطعن وجليل الضرب، لفظ الدقيق، ولنضيقن عليكم سبل الخلاص، فلتندمن ولات حين مناص، ونحو هذه الترهات، ومثل هذه الخرافات، التي هي كـالملح على الجروح، وكـالريح عند خـروج الروح، ولو كـان بدل هذا الكلام الذي لا طائل فيه، والخطاب الهذيان الذي تمجـه الآذان وترميه، ما يستميل خـاطره، ويطفىء من لهيب غضبه نائـره، مع شيء من الهدايا والتقـادم، وإبراز قضـاياهم في صورة المعتـذر النادم، ربما كـان كسر من غيظه، أو همد من حنقـه، وبرد من قيظه، وإنما فعلوا تلك المعذره، بعـد حـريق دمشق وخـراب البصره، وأرسلوا الخدم والهدايا صحبـة النعـام والزرافات، وقد أعجز التدارك وفات، وصاروا كما قيل شعراً:

ذو الجهل يفعـل مـــا ذو العقل يفعلـه ... في النائبـات ولكن بعـدمـا افتضحـا

وكما قيل مصراع: «وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل».

فصل: ذكر بيسق هذا قال: لما مثلت بين يديـه، وأديت الرسالة إليه، وقرىء الكتـاب عليه، قال لي: قل الحق، مـا اسمك، قلت: بيسق، قال: مـا مدلول هذا اللفظ المزري؟ قلت لـه: يا مولانا لا أدري، فقـال: أنت لاتعرف مدلول اسمك يا ثعاله، فكيف تصلح لحمل الرساله، ولولا أن عادة الملوك أن لا يهجوا الرسل، وقد مهدوا على ذلك القواعد وسلكوا السبل، وأنا أولى من يتبع آثـار السـلاطين، ويحيي سنن الملوك الماضين،

لفعلت معك ما يجب فعله، ولأوصلتك ما أنت أهله، وبعد هذا فلا عتب عليك، وإنما اللوم على من تقدم بهذا الأمر إليك، ولا حرج عليه أيضا لأن ذلك مبلغ علمه، ومدرك عقله وفهمه، وقد ظهر بفعله الوبيل، نتيجة ما قيل:

تخير إذا ما كنت في الأمر مرسلا فبلغ آراء الرجال رسولها

ثم قال لي: توجه إلى قلعتكم، ومكان عزتكم ومنعتكم، فذهبت فوجدتها قد دكت دكا وسيم حرمها وحريمها خسفا هتكاً، ثم أتيته، وذكرت له ما رأيته، فقال: إن مرسلك أقل من أن أجامله، وأذل من أن أراسله، ولكن قل له: إني واصل إليه على عقبك، وها أنا منشب مخاليب أسودي بذنبك، فليشمر للقرار وللفرار الذيل، وليعد لأيهما اختار ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل، ثم أمر بي فأخرجت وما صدقت، أن تصوبت إلى جهة مصر ودحرجت.

فصل: وحين ملأ جراب طمعه من نفائس الأموال ودنه، واستدر خلفاتها شيئا فشيئا صافيا ورنقا، حتى صفاها بقطنه، أمر بتعذيب هؤلاء الأمراء الكبار، فعذبوهم بالماء والملح وسنفوهم الرماد والكلس، وكووهم بالنار، واسخرجوا خبء الأموال منهم، استخراج الزيت بالعصار، ثم أذن عنان الاذن لعساكره بالنهب العام، والسبي الطام، والفتك والقتل والإحراق، والتقييد بالأسر على الإطلاق، فهجمت أولئك الكفرة الفجرة على ذلك أشد الهجوم، وانقضوا على الناس بالتعذيب، والتثريب والتخريب، انقضاض النجوم، واهتزوا وربوا، وفتكوا وسبوا، وصالوا على المسلمين وأهل الذمم، صولة الذئاب الضواري على ضواني الغنم، وفعلوا مالا يليق فعله، ولا يحمل ذكره ونقله، وأسروا المخدرات، وكشفوا غطاء المسترات، واستنزلوا شموس الخدور، من أفلاك القصور، وبدور الجمال، من سماء الدلال، وعذبوا

الأكابر والأصـاغر بأنواع العـذاب، وبدا للخلق مالم يكـن في الحساب، واستخلصـوا بإصـلاء النار جـواهر النـاس منهـم خـلاصـات الذهب، وصنفـوا في استخراج النفـائس من النفـوس بأصناف العذاب، مسـائل يقضي منهـا العجب، وفـرقـوا بين الوالدة وولدها، والروح وجسـدها، وذهلت كل مرضعـة عما أرضعت، وجازوا كل نفس بها صنعت، وبغير ما صنعت، وفر﴿ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾وصار لكل منهم ﴿يومئـذ شأن يغنيـه﴾(١)وذل العـــزيز والكريـم، وهان الخطير والجسيم، وطم البلاء وعم القضـاء، وطاشت الحلوم، وتبلدت الفهوم، وتراكمت غيوم الغموم، فأقسم بالله لقـد كانت تلك الأيام، علامة من عـلامـات يوم القيـام، وأسفـرت تلك السـاعـه، عن أشراط السـاعـه، واستمر هذا النهب العام، نحواً من ثلاثة أيام.

ذكر إلقائهم النار في البلد لمحو الآثار

ثم انهم لما أنهوا العيث والعبـث، وقضـوا في حـج فسـادهم التفث، وأتموه بالفسق والجدال والرفث، وطافوا وسعـوا في المنكرات، ورموا في البيـوت النار وفي القلوب الجمـرات، وأفـاضـوا مـا أراقــوا من دمـاء المسلمين الواقعين في الإحصار، ورملوا في أشواط الاحراق، فأرسلوا في حرم المدينة شواظاً من نار، وكان فيهم من روافض الخراسانيه، فاطلقوا النار في جامع بين أميـه، فتشبثت النار بلهيبها، وساعـدت الريح بهبوبها فتساوقا في محو الآثار ريحا وناراً، واستمـر على ذلك باذن الله تعالى ليلا ونهاراً، فاحترق ما بقي من النفائـس والنفوس، وانمحى بلسان النار ما سطر على لوح وجـــود المدينة من الدروس، وأمسـت تلك المغــاني لا تسمع فيها لا غيـة ولا الهمس، وأصبحت حصيدا كأن لم تغن بالأمس، وذلك بعد أن أظهروا ما أخذوا من أموال، وأوسقوا منه الأحمال.

١— سورة عبس— الأيات: ٣٤—٣٧.

إقلاع هاتيك الرزايا واقشاع غمام تلك الدواهي والبلايا عن بلاد الشام بما تحمله من أوزار وخطايا وآثام

ثم ارتحل ذلك الفتـان، وأقلع صيب بلائـه الهتـان، يوم السبت ثالث شعبان، وقد أخذوا من نفائس الأموال فوق طاقتهم، وتحملوا من ذلك مـا عجـزت عنه قـوى استطاعتهم، فجعلوا يطرحـون ذلك في الدروب والمنازل، ويلقـونـه شيئا فشيئا في أوعـار المراحل، وذلـك لكثـرة الحمل وقلة الحوامل، وأضحت القفــار والبراري، والجبـال والصحـارى، من الأمتعة والأقمشة، كأنها أسواق الدهشة، وكأن الارض فتحت خزائنها، وأظهرت من المعادن والفلزات كامنها، قلت بديها شعراً:

وصـــــار لســــــان شرهم ينـادي   على قنن الشــــواهـق والبــــوادي

إلا ذي شنشنة عــرفنـاها، وعــادة فســاد ألفناها، مـن ملكنا ودينة اقترفناها، نهبنا أمــوال المسلمين وحفظناها، ومـا في وجههـا صرفناها، ولكنا حملنا أوزار من زينـة القـوم فقــذفناها، ومع ذلك فلو أخــذ من نفائس دمشق أضعـاف ما أخذ، وفلذ من أكباد ذخائـرها آلاف ما فلذ، مـا غاض ذلك مـا في عتبتهـا، ولا نقص من بحار معينهـا، ولكن النار كـانت هي البلاء الـداهي، والمصاب المتناهي، لأنها أحـرقت غـالب من كان داخل البلـد لعدم الغوات، فما ظنك بما يكـون من العمار والأقمشة والأثاث، وضريت الكلاب بأكل لحوم من مـات داخل البلد، فما صـار يجسر على العبور إلى جامع بني أمية أحد.

ذكر ما جرى في مصر وسائر الأقطار عند سماعهم هذه الأخبار واستيقانهم هذه الأهوال والأخطار

فأمـا مصر فما دونها من البلاد فإنها تخبطت، وانحلت قـواها، وأيديها تربطت، وعـدمت القـرار، واستعــدت للفـرار، فلو رأيت الناس وهم حيـارى، سكارى ومـا هم بسكارى، أبدانهم راجفـة، وقلوبهم واجفـة،

وأصواتهم خافتة، وأبصارهم باهتـه، وشفاههم يابسه، وصورهم بائسه، ووجوههم بـاسره﴿تظن أن يفعل بها فاقـره﴾(١)وقد استوفـز كل أهل الأمصار، وسكان الأنجـاد والأغوار، وقد أصـاخ لما يرد عليه من جلي الأخبـار، فيبني على ذلك مـا يكـون، من متعلقـات الحركـة والسكون، فأخـذ تيمـور على طريقته العـوجـا، ورجع على سبيل بغيـه التي اتخذها شرعة ومنهـاجا، وقد سـدت عساكره الآفـاق والأكناف، وعمت هيبته الأرجاء والأطراف.

ذكر من أصيب من سهام القضاء بالرشق ووقع في مخالب أسره من أعيان دمشق

وأخـذ من أعيان الشـام، ومشـاهيرها الأعـلام، قاضي القضـاة محيي الدين بن العـز الحنفي، بعد أن عـاقبوه بأنواع العقـاب وكووه، وسقـوه الماء والملح وبالكلس والنار شـووه، وولده قاضي القضاة شهـاب الدين أبو العباس، فـوصلا إلى تبريز ومكثـا بها مدة في شـدة وبأس، ثم رجعا إلى الشـام، وأخــذ أمـرهما في الانتظام، وقـاضي القضــاة شمس الدين النابلسي الحنبلي، وقاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي، فتوفي إلى رحمة الله الوهاب، غريقا في نهر الـزاب، وشهاب الدين أحمد بن الشهيد المعتبر، وكان متحملا أوزار الوزر، بعد أن رامـوا عذابه، وطلبوا عقابه، وكان قد جهز متعلقيه الى الأمـاكن البعيدة، وأقام هو في دمشق جريده، فذكـر لهم حكايته، وبـذل لهم في دفع وجوده طاقتـه، فأخذوا مـا أخفاه خفيــة ولم يعــذبـوه، ولكنهم بالأهنة والقلـة استصحبــوه، ووصل إلى سمـرقند، وقاسى بها من صروف الزمن، أنواعـا من غربة وفقـر ومحن، ثم رجع إلى دمشـق وتوفي بها رحمه الله تعــالى، ومن الأمــراء الخاص، الأمير الكبير بتخاص، وكان مقيداً معه ومات، عند وصوله إلى الفرات، فأما القـاضي ناصر الدين ابن أبي الطيب فإنهم عاقبوه بكل بليه، وكان

١ — سورة القيامة—الآية: ٢٥.

رقيق البدن لطيف المزاج سوداويه، فما كان عنده لذلك ثبات، فأعجزهم عما يرومــون منه بالموت وفـات، فمات واستراح، وشرب مـن الشهـادة كأس مدام جاءه وراح، فدفنوه عشيه، بالمدرسة الكروسيه.

ولما شرع في النهب العـام المبرح، استشهـد غلطاً قـاضي القضـاة تقي الدين ابن مفلح، وبرهان الـدين ابن القوشـة ضعف سبعـة عشر يومـاً، وانقطع في حـارة تل الجبن، ولحق بالأموات قـوماً، وكـانوا قد خـرجوا على الأحيـاء الأمـوات، وخـافـوا أن لا يكـون لأحـد منهم من أيديهم بحجة الوفاة فوات، فضبطوا بيوت المدينة بيتا بيتا، وحرجوا أن لا يخرج الأحياء ولا تجهز الموتى، فلما مات المذكور، تعسرت الأمور، فتحيروا في تجهيزه، وتغلبوا في أمره وتنجيـزه، ثم بعد جهد بليغ وسعي كثير، دفنوه في الصالحية بعد إخراجه من الباب الصغير، وخرج مع تيمور بالاختيار من الشـام، عبد الملك بن التكريتي فـولاه نيابة سيرام(١)، فمكث فيهـا لاقليل من الأيـام، وهي وراء سيحـون، وشخص آخـر يدعى يلبغـا المجنون وكـان مقـرباً عنده، وسبب ذلك أنه بذل في مناصحتـه جهـده، وأخبره على مـا قيل بفـداوي، فخلصـه بذلـك من المهـالك والمهـاوي، وحصل له بذلك قربه، وزيادة مـلازمة وصحبه، فـولاه ذلك الجساس، نيـابة مـدينة تدعى ينكي تلاس(٢)، وراء نهر خجند، نحـو خمسـة عشر يوماً عـن سمرقند، بينها وبين سيرام، نحـواً من أربعة أيام، وكـان اسم ذلك الخؤون، أحمد، فتلقب بيلبغا المجنون.

وأخذ من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع، وكل ماهر في فن من الفنون بارع، مـن النسـاجين والخيـاطين، والحجـاريـن والنجـارين، والأقباعيـة والبياطرة والخيميـة، والنقاشين والقـواسين والبازدارية، وفي

١— سيرام: مـدينة في حوض نهر آريس، الذي هو رافـد لنهر سيحـون، في بلاد ما وراء النهـر، وهي مدينة أسفيجاب عند الجغرافيين المسلمين. أبو الفداء-تقويم البلدان ص ٤٩٤-٤٩٥.

٢— ينكي تلاس هي مدينة طراز عند الجغرافيين الاسلاميين.

الجملة أهل أي فن كان، وجمع كما ذكرنا السودان، وفرق هؤلاء الطوائف على رؤوس الجند، وأمرهم أن يوصلوهم إلى سمرقند.

وأخذ جمال الدين رئيس الطب، وشهاب الدين أحمد الزردكاش، وكان في القلعة كما ذكر، وأباد من عسكره خلقا لا يحصون، ولا يحصرون كثرة، ولايستقصون، وكان في حدود التسعين وقد أحدودب، فلما رآه قابله بالسخط والغضب، وقال له: إنك أفنيت صاغيتي، وحصيت غاشيتي، وقصيت حاشيتي، فإن قتلتك مرة واحدة لا يشفي غليلي، ولا يهدأ غليلي، ولكن أعذبك على كبر سنك، وأزيدك كسرا على كسرك، ووهنا على وهنك، فقيده بقيد من فوق ركبتيه، زنته سبعة أرطال ونصف رطل بالدمشقي، وقصد بذلك التشديد عليه، فلم يزل مقيدا، مكتوب على قيده: مخلدا أبداً، حتى مات تيمور، وارتفعت الشرور، وخلص من القيد ذلك المأسور، ثم توفي إلى رحمة الله تعالى وربما يكون أخذ أناسا من الفضلاء والأعيان والسادات والنبلاء، ممن لا أعرفه، فكيف أصفه.

وكذلك كل أمير من أمرائه، وزعيم من زعمائه، أخذ من الفقهاء والعلماء، وحفاظ القرآن والفضلاء، وأهل الحرف والصناعات، والعبيد والنساء والصبيان والبنات، ما لا يسع الضبط، ولا يحل الربط، وكذلك كل من عسكره، أخذ كبيراً وصغيراً، وأسره في أسره، لأنه ما ثم حرج على من نهب شيئا وعزله، وكل من سبقت يده إلى شيء فهو له، وهذا إذا أطلق عنان الاذن بالنهب العام، تساوى فيه الخواص من عسكره والعوام، ولو كان الناهب أسيراً فيهم، أو دخيلا عليهم، والسالب من غير طينتهم، ولكن أبيح له ذلك، لما سار بسيرتهم، وتخلق بشيمتهم، وأطلق عليهم حكمهم، وأجرى عليه شكمهم، فأما قبل الإذن فلو تعدى أحد على أحد، وكان عند تيمور بمنزلة الوالد أو الولد، أو استطال بمقدار حبة، أو تلفظ بغارة أو نهبة، فانه يهدر ماله ودمه، ويهتك حرمته

وحرمـه، ولا ينجيه استغفاره وندمـه، ولا يجديه أهله وخدمـه، ولا يقال لعالم زلت به قدمه وكانت هذه قاعدة لا تخرم، وبنية لا تهدم.

ذكر ما أباد بعده الجراد

ولما فرغ من مستغـلات أموال دمشق الحصاد، وقـارب الرحيل عنها أعقبه لقـاط الجراد، وصار يسير معه حتي بلغ ماردين وبغـداد، فأعرى كل شجر ومـردا، وجرد مـا على وجه الأرض جـرداً، فوصل إلى حمص وما نهبها، ولخالد كما ذكر وهبها، ولكن نهبـوا قراها، وهدموا قواها، ثم إلى حماة فنهبـوا نفـائسهـا، واستخـرجـوا مكامنهـا، وأسروا عـرائسهـا، واستملكوا كنائنهـا، وفي سـابـع عشر شعبـان، انصب الى الجبـول ذلك الطوفـان، وأرسل إلى حلب وأخـذ مـن قلعتهـا مـا استـودعهـا، ثم إلى الفـرات وعبرهـا بالمراكب وغيرها فقطعهــا، ثم إلى الرهـا، فنهبهــا، واستحلب درها، ثم أرسل ذلك الغـادر، رسـوله إلى مـاردين يستـدعى الملك الظاهر، وديباجة كتابه الدقل(١)على ما نقل، شعر:

ســـلام عليكم والعهـــود بحــــالها لقــــد بلغ الأشــــواق منـا كمالها

فأبى أن ينزل إليـه، ولا استمع كلامـه ولا التفت إليه، فإنه كـان آذاه كما ذكر أول مره، فما احتاج إلى تجربته آخر كره، فسلك معه بر السلامه، وقال شطر بيت :

من جرب المجرب حلت به الندامه.....

ولكن أرسل إليـه قـاصـداً من بعض الخدم، يدعى الحاج محمـد بن خاصبك ومعه التقادم والخدم، واعتذر عن الحضور، بعد أمور، وعنوان جوابه، موافق لخطابه، وهو شعر:

فشــــوقي إليكـم زائــــد الحدّ وصفُـــــه ولكـن تخاف النفس ممـا جـــــــرى لها

---

١ — أي القصير، أو الضعيف.

فلم يلتفت تيمور إلى هذا الكلام، وأخذ يعنف نفسه بأنواع الملام، كيف خلص من مخاليبه أول مرة بسلام.

ذكر وروده ماردين بالهيبة وصدوره عنها بعد المحاصرة بالخيبة

فوصلوا يوم الإثنين عاشر شهر رمضان واردين ماء ماردين، فنزلوا دنيسر وغدوا للحصار قاصدين، واذا بأهلها وقد أخلوا المدينة، وانتقلوا الى قلعتهم الحصينة.

صفة هذه القلعة

وهذه القلعة عنقاء قلتها تكبر أن تصاد، وعرنين عانسها يأبى أن يدخل لخاطب تحت مقود انقياد، لأنها في قلة من القلل، على ظهر جبل، لم يكن فرق بينه وبين قبة الأفلاك، إلا أن تلك لا ثبات لها، وهذا ثابت ليس به حراك، بظهره واد بطنه أوسع من صدر الأحرار، فيه جنات تجري من تحتها الأنهار، وبه مطارح الزروع، ومسارح المواشي والضروع، وحدوده جروف لا تصل همم ذوي الكرم إلى ارجائها، وحروف يعجز قارىء التفكر عن تعديد هجائها، وطريقه من القلعة أو على القلعه، والقلعة في غاية المناعة والرفعة، والمدينة مبنية حواليها، متشبثة بذيلها، تأكل من فضلات نعمها، وتشرب من فائض سيلها، فهم بين نعمهم ونقمهم يترددون، وفي السماء رزقهم وما يوعدون، فأقام لمحاصرتها على مضائقها، يسترشد إلى طرق المضايقة وطرائقها، ولم يكن حواليها مكان للقتال، ولا لنصب المجانيق مجال، فعول على نقبها بالمعاول والفؤوس، واستعان على ذلك بالمقاول والرؤوس، وحاشا درز ذيل حشمتها وعصمتها أن يسام فتقا، لأنها وإن كانت عذراء قد اعجزت الفحول لكونها رتقا، فلا زالت المعول تقل، والفطاطيس(١) تكل، ومناقير الفؤوس تتعقف، وخصور المرازب كهيف القدود تنثني وتتقصف، قلت شعراً:

---

١ — الفطيس: المطرقة للحدادين . العين.

كـأن معـــــوَلهم في نقـب تربتهــــــا منقـــــار طير على صلد من الحجــــــر
أو عـــذل ذي حســـد صبــابـه صممٌ أو غمـــز عين معنًى فـــاقـــد البصر

واستمر على اللدد والخصام، إلى العشرين من شهر الصيام ولم يحصل على طائل ولم يظفر بمرام.

ذكر تركه في المحاصرة العناد والمكابرة وتوجهه بهارديه ذوى الفساد عن ماردين الى بغداد

ولما علم أنه رمي منهـا بالداهية الدهيـا، وطلاب ما لا يستطاع عيـا، والمكابرة مع الحق خروج عن المنهج، والبلاغة في غير مقامها عي لجلج، ستر عيبه، وأبقى بعض الحرمـة والهيبه، وخـرب المدينة وأسوارها، ومحا آثارها، وهدم مبانيها وجوامعها ومنازلها، وفك أساسها وأحجارها.

ثم انحدر إلى بغـداد، بعساكر كالذر والفـراش والجراد، وجهز بعض الثقل إلى سمـرقند مع الله داد، فــوصلوا إلى مـدينة الصـور، وليس بها بيت مشاد، ثم إلى خـلاط، وعيد الجوز وهي بلاد الأكراد، آهلة عـامرة البنيان، وأول مـا هو جاري تحت حكمـه من ولايات تبريز وأذربيجان، فعيد الثقل بعيد الجوز عيد رمضان، ثم دخلوا إلى ولايات تبريز، ثم إلى سلطانية، ثم إلى ممالك خراسان.

وكـان إذ ذاك وقــد خـرج فصل الشتـا، وفصل الربيـع تزين وأتى، وصفحات الرياض بأنامـل صباغ القدرة تلونت، وعـروس الروض قد أخذت من صواغ الحكمة زخرفها وأزينت، والأطيار في الأزهار، ما بين مائـة بلبل وألف هزار، قد شنفت الأسماع، وأقـامت السماع، واستمالت الطبـاع برخيم صـوتها، وأحيت آثار رحمة الله الأرض بعـد مـوتها، ولا زال الثقـل بين تـأويــب وإدلاج، وسير ولا سير الحاج، كـل يــوم في مـرحلة، وكل ليلة في مقـام، فـوصلوا إلى نيسـابور ثم إلى جـام(١)، ثم

١ــجام: قصبة بنواحي نيسابور. تقويم البلدان ص ٤٤٢.

قطعوا مفاوز باور وما خان، ثم إلى اندخوي، وانتهوا إلى نهر جيحان(١)، فعبروه بالمراكب، وساروا سير النجم الثاقب، ولم يزالوا منبعثين على ذلك انبعاثا، فوصلوا إلى سمرقند ثالث عشر المحرم من يوم الثلاثاء، سنة أربع وثمانمائه، وفيهم من أهل الشام فئه، أمثلهم القاضي شهاب الدين أحمد بن الشهيد الوزير، وباقيهم بياطرة، وصباغون ونساجة الحرير، وهذا أول ما تحمله من الشام من أحمال الأثقال، وباكورة ما وصل إلى سمر قند مما جناه من ثمر الاسارى والأموال، ثم أرسل الأثقال تترى بالأنفال وأحمال الأموال والأسرى.

فصل: ثم إن تيمور ولى آمد قرايلوك عثمان، وولى عن ماردين يوم الخميس لعشرين من شهر رمضان، وكان خامس أيار، وجعل يعيث في تلك الديار، وخرب نصيبين ورعى مستغلاتها، ثم محا من صحف الوجود صور سورها وآياتها، وكانت خالية من سكانها، خاوية من عامري عمرانها، ثم وجه إلى الموصل همه، وأخنى عليها بكتائبه المدلهمه، فبعد أن أحلها الحين، وهبها لحسين بيك بن بير حسين، ثم حمز بزجره، الى ناحية القنطره، وأشاع أنه كف فساده، وقصد بلاده، ولكن السلطان أحمد كان قد تحقق أنه قاصد بغداده، وقد أوهم وورى كما له بذلك دأب وعاده.

ذكر ما فعله السلطان أحمد بن الشيخ أويس
لما بلغه أنه توجه إليه ذلك الخسيس

فلما بلغ السلطان أحمد، أن تيمور بعد أن تدمشق تمرد، ثم عزم على أن يتبغدد، وقال العود أحمد، استعد ولكن للفرار، واستقر رأيه على أن لا قرار، ثم استناب نائبا يدعى فرج، وأوصى إليه وإلى ابن البليقي بأمور، وصحبه قرا يوسف إلى الروم وخرج، وكان من جملة ما وصى به أنه لا يغلق في وجه تيمور باب، ولا يسدل دون ما يرومه حجاب، ولا

١— أي نهر جيحون.

يشهر في وجهه سيف، ولا يقابل فيما يأمر به بلم وكيف، فبلغ تيمور، هذه الأمور، فجهز ذلك المخاتل، إلى بغداد عشرين ألف مقاتل، وأمر عليهم من أمرائه ورؤساء وزرائه والظلمة المعتدين، أمير زاده رستم(١)، وجلال الاسلامي، وشيخ نور الدين، وأمر أن يكون المقدم من الثلاثة الأمير رستم، فاذا تسلموا بغداد، يكون هو حاكم البلاد.

وحين غربت عن سماء بغداد شمس السلطان أحمد في غرب الغربة، ومد ظلام الظلم جناح العساكر التيمورية على آفاقها، وأرسل عليها شبهه، أبى فرج المذكور أن يسلم المدينة طوعا، واستعد للمقاتلة، فجمع ما عنده من أهبة المحاصرة فأوعى، فاطلعوا تيمور على هذا الأمر، وانتظروا ما يكون منه من نهي وأمر، فثنى نحوها عنان الحنق، واضمر ما تصل إليه يده من غرق وحرق، وأظل عليهم بغمام غم بعد ما رعد وبرق، فوصل بتلك الفرق، وأحل بهم البؤس والقلق، وأذاقهم لباس الجوع والفرق، فرجهم أي رج، وحاصرهم في أشهر الحج، فثبتت مقالتهم، وأكثروا من عساكره القتلى والجرحى، فحنق أشد الحنق وزحف عليها برجله وخيله، فأخذوها عنوة يوم الأضحى، فتقرب على زعمه بأن جعل المسلمين قرابين، وعليهم ضحى، ثم أمر كل من هو في دفتر ديوانه محسوب، والى يزك عساكره من الجند والجيش منسوب، أن يأتيه من رؤوس أهل بغداد برأسين، فسقوا كل واحد من خمرة سلب الروح والمال كأسين، ثم أتوا بهم فرادى وجمله، وجاروا بسيل دمائهم نهر الدجله، وطرحوا أبدانهم في تلك الميادين، وجمعوا رؤوسهم، فبني بها ميادين فقتلوا من أهل بغداد نحوا من تسعين ألف نفس صبراً، وبعضهم عجز عن تحصيل البغداديين، فقطع رؤوس من معه من أهل الشام وغيرها أسرى، وعجز بعض عن رؤوس الرجال، فقطع رؤوس ربات الحجال، وبعض لم يكن معه رقيق، فاصطاد من وجده في طريق،

---

١ — هو حفيد تيمور، ابن ابنه عمر شيخ.

واغتـال من معه من رفيق، وفـدى نفسـه بعدو وصـديق، ولم يلتفت إلى شقيق وشفيق، اذ لم يمكنهم الخروج عن ربقـة الطاعـة، ولا يقبل منهم عـدل ولا تنفعهم شفـاعـة، وهذا العـدد المذكـور، سـوى من قتل وهو محصور، أو قتل في مضيق، أو مات في الدجلة وهو غريق، فقد ذكر أن خلقاً، ألقـوا أنفسهم في الماء وماتوا غرقى، ومـن جملتهم فرج فإنه ركب سفينة وأبق، فاحتوشوه من الجانبين بالسهام، فجرحوه وانقلبت السفينة فأدركه الغـرق، وبني من الميادين، نحواً من مائـة وعشرين، كذا أخبرني القـاضي تاج الدين أحمد النعمان، الحنفـي الحاكم ببغـداد كـان، وتوفي في غرة المحرم سنة أربع وثلاثين وثمانمائة بدمشق رحمه الله تعالى.

ثم أن تيمـور خرب المدينه، بعـد أن أخـذ مـا بها من أموال خـزينه، وأفقـر أهلها وأقفـر منازلها، وجعل عـاليها سـافلهـا، وصارت بعـد أن كـانـت دار السـلام، دار السـام، وأسروا من بقي من ضعفـة أهـاليهـا فتمزق، ومزقتهم أيدي الزمان كل ممزق، بعد أن كانوا في ظلال ودلال، ومن مساكنهم في جنتين عن يمين وشمال، فاليوم عشش البوم والغراب في أماكنهم، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، وهذه المدينة هي أشهر من أن توصف، وعرف عارفتها وعـرفانها أذكى من أن يعرف، وناهيك أنها كاسمها مدينة السلام، وأنه على ما قيل لم يمت بها إمام.

ذكر رجوع ذلك الطاغ وإقامته في قراباغ

ثم ألوى بتلك الأتراك التي يصح ان يقـال لكل منها، إنه في التركيـة طاغية طاغ، وعزم أن يشتى في مكان يصلح أن يكون في الترك والعرب كصفاته وذاته قراباغ، وأمسى كـالبازي المطل بل كالبوم المشـوم، مراقباً أطراف الآفاق، وخصوصا ممالك الروم.

ذكر مراسلة ذلك المريد سلطان الروم ايلدريم بايزيد

فراسل سلطانها بايزيد المجاهد الغاز، وصرح بما يروم من بلاد الروم من غير كناية وألغاز، وجعل السلطان أحمد وقرايوسف سببا، وذكر أنهما

من سطوات سيوفه هربا، وأنهما مادة الفساد، وبوار البلاد، ودمار العباد، وسنخ (١) الخمول والإدبار، وكفرعون وهامان في العلو والاستكبار، وأن فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا خاطئين، وقد صارا بمن معهما في حمى ذراكم لاجئين لاطئين، واينما حلوا حلت التعاسة والشؤم، وحاشى أن يكون مثلهما من المفلوكين(٢) تحت جناح صاحب الروم، فإياكم أن تأووهم، بل أخرجوهم، وخذوهم واحصروهم، واقتلوهم حيث وجدتموهم، وإياكم ومخالفة أمرنا، فتحل عليكم دائرة قهرنا، فقد سمعتم قضايا مخالفينا وأضرابهم، وما نزل بهم منا في حرابهم وضرابهم، وتبين لكم كيف فعلنا بهم، فلا تكثروا بيننا وبينكم القيل والقال، فضلا عن جدال وقتال، فقد بينا لكم البراهين وضربنا لكم الأمثال، وفي اثناء ذلك أنواع التهديد والتخويف، وأصناف التهويل والأراجيف.

وكان ابن عثمان عنده رقاعة وشجاعه، ولم يكن عنده صبر ساعه، مع أنه كان من الملوك العادلين، وعنده تقوى وصلابة في الدين، وكان إذا تكلم وهو في صدر مكان، فلا يزال في حركة واضطراب، حتى يصل إلى طرف الإيوان، وكان بواسطة عدله ساعده الزمان، وقويت شوكته في المكان، فاستصفى ممالك قرمان، وقتل ملكها السلطان علاء الدين وأسر له عنده ولدان، واستولى على ممالك منتشا، وصاروخان(٣)، وهرب منه الى تيمور الامير يعقوب بن شاه(٤) حاكم ولايات كرميان، وصفا له من حدود جبل بالقان، من ممالك النصارى الى ممالك أرزنجان.

فلما وقف على كتابه وفهم فحوى خطابه، نهض وربض، وامتعض

١— السنخ: الرائحة الكريهة.

٢— أي الحمقى.

٣— من الإمارات التركية في الأناضول التي قضى عليها العثمانيون.

٤— الأمير يعقوب بن علي شاه حاكم كرميان، كان من الأسرة التي حكمت كوتاهية. زامباور ج ٢ ص ٢٢٨.

وارتمض، ورفع صوته وخفض، وكأنه تجرع نقوع الحضض، ثم قال: أو يخوفني بهذه الترهات، ويستفزني بهذه الخزعبلات، أويحسب أنني مثل ملوك الأعجام، أو تتار الدشت الأغتام، أو في جمع الجنود، كجيش الهنود، أو جندي في الشقاق، كجمع العراق، أو ما عندي من غزاة الإسلام، كعساكر الشام، أو أن قفله المجمع كجندي، أو ما يعلم أن أخباره عندي، وكيف ختل الملوك وختر، وكيف تولى وكفر، وما صدر عنه وعنهم، وكيف كان كل وقت يستضعف طائفة منهم، وأنا أفصل جمل هذه الأمور، وأكشف ما خزنه في التامور(١)، أما أول أمره فحرامي سفاك الدم، هتاك الحرم نقاض العهود والذمم، طرف منحرف عن الصواب في الخطا، فصال وجال وجار وصار وسطا، ثم طال واستطال، واتسع له المجال، وغفل عنه الرجال، ومن حين نبغ، استصبى حتى شاب الشيب بالعيب، فأدرك ما أدرك وما بلغ، فالتهبت فتيلته بعد ان كانت شراره، وانتشرت فروع جبته فصارت غراره، أما ملوك العجم فإنه استنزلهم بدخله وختله، ثم استفزهم بخيله ورجله، وبادر إلى قتلهم بعد أن أمكنتهم فرصة قتله، وأما توقتاميش خان، فإن غالب عسكره خان، ومن أين للتتار الطغام، الضرب بالبتار الحسام، وما لهم سوى رشق السهام، بخلاف ضراغم الأروام، وأما جنود الهنود فإنه ختلهم في أمرهم، ورد كيدهم في نحرهم، فوهت أركانهم، لاسيما وقد مات سلطانهم.

وأما عساكر الشام، فأمرهم مشهور، وما جرى عليهم فظاهر غير مستور، ولما مات سلطانهم، وتضعضعت أركانهم، وانفض أمرهم وانقض، وبغى بعضهم على بعض، فقطعت منهم الرؤوس الكبار، ولم يبق فيهم إلا رؤوس صغار، فنثر الزمان نظامهم، وسام التبدد ملكهم وشامهم، مع أنهم في الصور ربيع وفي المعاني جمادى، يرمون أيادي

---

١ — أراد هنا: دخيلة نفسه.

بواحـدة، وهي أنهم يبيتـون جميعـا، ويقـومـون مثنى وفـرادى، لاجـرم تفـرقت أيادي سبأ أحزاب تلـك الزمر، فـاشتغل جيشـه فيها بالمحـرم، فبـاض لما خلاله الجو وصفـر، ولو كان بينهم اتفـاق لفتوه فتـا، وبددوا شمله وبتـوه بتـا، ولكنهم تحسبهم جميعـا وقلوبهم شتـى، ومع اتسـاق نظامهم، وتسـديد سهـامهم، وقـوة نطاحهم، وشـدة كفـاحهم، وشـدة رماحهم، وكـونهم ظهر الحاج، وأسـود الهياج، أنى لهم نظام عسـاكرنا، وقـوة القيـام بتظافـرنا وتناصرنا، وكم فـرق بين من تكفل بأمـر الحفـاة العـراة، وبين من تحمل إصر الكماة الغـزاة، فإن الحرب دأبنا، والضرب طلابنا، والجهـاد صنعتنا، وشرعة الغواة في سبيل اللـه تعالى شرعتنا، ان قاتل أحد تكالبا على الدنيا، فنحن المقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا، رجالنا باعـوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة، وكم لضرباتهم في آذان الكفار من طنه، ولسيوفهم في قلانس القوامس(١) من رنه، ولنون قسيهم في خيـاشيم بني الصليب مـن غنه، لو سمناهم خـوض البحـار خـاضوهـا، أو كلفناهم إفاضـة دمـاء الكفـار أفاضـوها، قـد أطلوا من صيـاصيهم على قلع قـلاع الكفـار، وأخنوا عليهـا، وأمسكوا بعنان أفراسهم فكلما سمعـوا هيعة طاروا إليها، لا يقـولون لملكهم اذا غمرهم في البلاء والإبتلاء﴿ إنا هاهنا قاعدون﴾(٢) فاذهب أنت وربك فقاتلا، ومعنا من الغـزاة مشـاة، أفـرس من فـوارس الكماة، أطبـارهم باتره، وأظفـارهم ظافـره، كـالأسـود الكاسره، والنمـور الجاسره، والذئـاب الهاصره، قلوبهم بودادنا عـامـره، لا تخامـر بواطنهم علينـا مخامـره، بل وجوههم في الحرب ناضره، ﴿إلى ربها ناظره﴾(٣).

وحاصل الأمـر أن كل أشغالنا، وجـل أحوالنا وأفعالنـا، لجم الكفار والأسرى وضم الغنائم، فنحن المجاهدون في سبيل الله الذين لايخافون

١— القوامس: الكونتات

٢— سورة المائدة— الآية: ٢٤.

٣— سورة القيامة— الآية: ٢٣.

لومة لائم، وأنا أعلم أن هذا الكلام يبعثك إلى بلادنا انبعاثا، فان لم تأت تكن زوجـــاتك طوالق ثلاثـا، وإن قصـدت بلادي وفــررت عنك ولم أقابلك البته، فزوجاتي إذ ذاك طوالق ثلاثا بته، ثم انهى خطابه، ورد على هذا الطريق جوابه.

فلما وقف تيمـور على جـوابه القلق، قـال ابن عثمان مجنون حمق، لأنه أطال وأسـاء، وختم مـا قرأه من كتـابه بذكـر النسـاء، لان ذكر النسـاء عندهم من العيــوب وأكبر الذنوب، حتى أنهم لا يلفظون بلفـظ امـرأة ولا بأنثى، وإنما يعبرون عن كل أنثـى بلفظ آخـر ويحثـون على الإحتراز عنه حثـا، ولو ولد لأحـدهم بنت يقـولـون ولد له مخدرة، أو من ربات الحجال أو مسترة، أو نحو ذلك.

ذكر طيران ذلك البوم وقصده خراب ممالك الروم

فوجد تيمور إلى التوجه على ابن عثمان السبيل، وطلب الرفيق والطريق ورام الدليل، وعــرض جنده فإذا الوحـوش حشرت، وانبشــوا على وجـه الأرض فـاذا الكواكـب انتشـرت، ومـاج فإذا الجبــال سيرت، وهاج فإذا القبـور بعثرت، وسـار فـزلزلت الأرض زلزالها، ومـار فأظهـرت القيامـة أهوالها، وأرسل إلى ولي عهده، ووصيه من بعـده، حفيده محمد سلطان بن جهانكير، أن يتـوجه إليه من سمـرقند صحبة سيف الدين الأمير، وركب إلى الروم الطريق، وسـاعـده الاتفـاق لا التــوفيق، وجـرى بذلك البحـر المطلخم(١) والليل المدلهم، فـدار وداخ، وعلى قلعـة كماخ أناخ(٢)، فـاذا هي في الوثاقة كيقين موحد، وفي الرصانة والمناعة كاعتقاد متعبد، لا يقطع خندق مناعتها سهم وهم ولا يهتدي الى طريق التوصل إليها صائب فهم، مؤسس أركـان هضابها معمار القـدرة ومهندس بنيان فنائهـا نجار الفطرة، ليست بالعـاليـة الشـاهقــة، ولا بالقصيرة اللاصقـة، غير أنها في مناعتهـا

١ — اطلخم السحاب: تراكب وأظلم. العين.

٢— وقعت كماخ على مسيرة يوم من أرزنجان. معجم البلدان.

وحصانتها فائقة، من إحدى جهاتها نهر الفرات يقبل أقدامها، ومن الجهة الأخرى واد متسع يحفظ أعلامها، لا يمكن للأقدام فيه الثبات، وهو مسيل ماء يصب في نهر الفرات، ومن الجهتين الأخر بين هضاب، يتلو لسان البصيرة عند وقوع البصر عليها﴿إن هذا لشيء عجاب﴾(١).

فأخذها من غير كلفه، وولج حرمها من غير طواف بها ولا وقفه، وذلك بعد أن قدم محمد سلطان عليه، ووكل أمر حصارها وقتالها إليه، وسبب ذلك ان الوادي الذي وراءها، كان يرد بالخيبة لوعورته من جاءها، لكونه مزلة الأقدام، واسع الأفعام، بعيد مهوى المرام، لا يثلب لسان السهم له عِرض عَرض، ولا يثبت له تحت قدم غواص البصر قرار أرض، فبمجرد ما وقع نظره عليها، نظر بعين الفراسة إليها، ثم أمر بقطع الأخشاب، ونقل الأحطاب، فلم يكن إلا كلمح البصر، حتى هدموا البيوت وقطعوا الشجر، ونقلوا جميع ذلك الخشب والأعواد، وطرحوها في قعر ذلك الواد، فساووا به الأرض، وملأوا طوله والعرض، وحين شعر أهل القلعة بهذه الأفعال، ألقوا النار والبارود على تلك الأخشاب، فأخذت في الاشتعال، وأما أساس القلعة فلا ينال، لأنه راكب على قلل الجبال، فلم يبدد ذلك من أمره، ولم يشرد من فكره، بل أمر في الحال، كل واحد من الرجال، أن يأتي من تلك القفار، بعدل من الأحجار، فانبثوا كالنمل والجراد، في تلك المهامه والأطواد، والبراري والمهاد، وجابوا الصخر بالواد، ففي الحال ملأوا تلك الداره، من الحصباء والحجاره، ثم أمر أن يفعل بتلك الحجارة في ذلك المهوى البعيد، ما يفعل بهم في جهنم، يوم يقال لها: ﴿هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾(٢) فألقوا في ذلك الوادي بعض ما لموه، من أكداس تلك الحجارة فطموه، وبقي في بيادر ذلك الحجر، أضعاف ما رمي من

١— سورة ص— الآية: ٥.

٢— سورة ق — الآية: ٣٠.

البصر، ولما امتلأ الوادي من الأحجار، مشوا عليها وقربوا من الأسوار، ونصبوا السلالم وتسلقوا، وبناصية مراميها تعلقوا، فأقلع أهل القلعة عن الكلام، وطلبوا الأمان وقالوا: ﴿ادخلوها بسلام﴾(١) وكان هذا الحصار والتلجئة، في شوال سنة أربع وثمانمائه.

ولما استقر فيها، أمر بتلك الاحجار أن تنقل من واديها، ففي الحال سفوها، وفي مكان أخذوها منه رموها، ثم ولى بها شخصا يدعى الشمس، وولى عنها كما ولى أمس، وهذه القلعة نحو من نصف يوم عن أرزنجان، ومن القلاع المشهورة في الدنيا بالمناعة والعصيان، فلا جرم حين استولى عليها، وأفضى بصارمه الذكر إليها، وفتحها قهرا، ومنحها جبرا، أبرد بهذا المغنم البارد، إلى كل صادر في ممالكه ووارد، بكتب ترجم فيها من الأخبار، كل شامخ وشارد، وعنوان هذه الترجمة، بلفظها من غير ترجمه، شعر:

بحد سيوف داميات لدى الوغى فتحنا بحمد الله حصن كماخ

وذكر فيها ابن عثمان وخطابه إليه، وكيف رد جوابه الحمق عليه، ومن جملته، وبعض ترجمته: إنا ما جفوناه ولا تعدينا عليه، ولكن رققنا له القول وتلطفنا إليه، وقلنا له يخرج من قروح مملكته مادة الفساد، وهي أحمد الجلائري وقرايوسف التركماني، اللذان أخربا البلاد، وأهلكا العباد، والرضى بالمعصية معصية، والإقرار على الكفر كفر، والفاسق المحروم البائس، شر من الفاجر الظلوم الملابس، فصاروا في الفساد وزيريه، وهو الأمير، وفي العناد صغيرين، وهو الكبير، وعاشراه على ذلك ووالياه، فلبئس المولى، ولبئس العشير، فأفسداه، وما انصلحا، وخسراه وما ربحا، فكأنه عنى شأنهم، من أظهر قولهم وشأنهم، بقوله شعراً:

ولا ينفع الجرباء قرب صحيحة إليها ولكن الصحيحة تجرب

١— سورة الحجر— الآية: ٤٦.

ولم يزل على طريقته العـوجـاء، فأشبـه لما أجـارهـم مجير أم عـامـر العرجـاء، فنهياه فما انتهى، ونبهـاه فما أرعوى، وأريناه العبر، في غيره فما اعتبر، وناداه لسـان انتقـامنا من المخـالفين: الحذر الحذر، وكنا وضعنا اسمـه مـع اسمنا، على عـادة حشمتنا وأدبنا في المراسـلات ورسمنا، فتعدى طوره، وأبدى جـوره، وكان في بعض مـراسلاته ومـا وضعه في مكاتبـاته، كتب اسمـه تحت اسم طهـرتن، وهذا هو الواجب عليـه والحسن، ولا شك ان طهـرتن بالنسبـة إلينا، كبعض خـدمنا وأقل حشمنا، ثم إنه—أعنـي— بايزيد لما طالع كتـابنا، ورد جـوابنا، وضع اسمه فوق اسمنا بالذهب، وهذا لما فيه من كثرة الحماقة وقلة الأدب، ثم ذكر أنه توجه يروم، استخـلاص ممالك الروم، وتشدق في هذا الكتاب، وتفيهق في هذا الخطاب، فهو أحد دسـاتير الكتاب، والأساطير المستعان بها في الخطاب والجواب.

ذكر ما عزم ابن عثمان عليه عند انصباب ذلك الطوفان اليه

فلما بلغ ابن عثمان ما قصده، وأنـه جعل طالعه في سماء الحرب رصده، توجـه لقتـاله، واستعـد لاستقبـاله، وكـان على مـدينة استنبـول محاصرا آثمها(١) وكفـارها، وقد قارب أن يفتحهـا، وتضع الحرب عنها أوزارها، وأن جنده، كـان عنده، ولكن أمر بطارقـة الغزاة، والشواهين مـن كواسر جيشـه والبزاة، وسراة السرايا وكـرام كرميـان، وأحلاس خيل السـواحل وقروم قرمـان، وأجناد ولايات منتشا وأساورة صاروخـان، وجميع أمراء التومانات والصناجق، وأصحاب الرايات ورؤوس الفيالق، ونواب جميع الثغـور والأمكنة، مما هو جـار تحت تختـي بروسـا(٢)، وأدرنه، وكل من دبج البحـر الأخضر، من بني الأصفـر، عن رايتـه البيضـاء بالدم الأحمر،

١— لعله أراد بآثمها: الامبراطور البيزنطي مانويل باليـولوغ الثاني، وكان وقت قدوم تيمور إلى آسية الصغـرى في ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢ م في جولة في أوربا يطلب المسـاعدة ضـد بايزيد، الذي دأب منذ ٧٩٤ هـ/ ١٣٩٦ م على حصار القسطنطينية من وقت لآخر.

٢— بروسا: هي بورصة.

وفلق سويداء كل عدو أزرق، بسهامه السود على جواده الأبلق، أن يعملوا مصلحتهم، ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم، واستعان في ذلك بكل بطريق وعلج مارجي، داخل في أمان المسلمين على قتال كل باغ وخارجي، واستدعى التتار، وهم قوم ذو يمين ويسار، ناس سواذج، لهم مواش نواتج، ملأوا الأقطار بمواشيهم، وعلوا الشواهق والبوادي برؤوسهم وحواشيهم، ربما يكون لواحد منهم عشرة آلاف جمل، ما منها واحد حمل، ومثل ذلك أفراس، ما أسرج لها ظهر ولا ألجم رأس، وأما الغنم والبقر، فلا يحصى عددها ولا يحصر، وما يعلم جنود ربك إلا هو، وما هي إلا ذكرى للبشر، هم في ممالك الروم وقرمان إلى ضواحي سيواس مشات ومصائف، وللملوك والسلاطين عليهم اعتماد كما لهم في أنواع المبرات وظائف، لو قصدهم فقير أو غريب، أو طالب علم أو أديب، جمعوا له من الغنم والبقر، والصوف والشعر والسمن والأقط والوبر، ما يكفيه وذويه إلى آخر العمر، وكانوا يسمون لكثرتهم وما معهم من الأمم، ثمانية عشر ألف عالم.

فلبى كل من صدى هؤلاء الجبال مدى صوته بالإجابه، وبادر إلى امتثال أوامره بالإطاعة والإنابة، وانبعث إليه التتار بقضهم وقضيضهم بعثا، وقثت(١) إليه أطواد عساكرها وبحار جنودها قثا، وحث على ملاقاة تيمور عساكر الغزاة والمجاهدين حثا.

ذكر ما فعله ذلك الخداع المكار ونمقه في تفخيذه(٢) عن ابن عثمان جنود التتار

وتلبث تيمور في أمره، واستورى زناد فكره، فأورى زناده ناره، أن يفخذ عن ابن عثمان تتاره، فأرسل إلى زعمائهم، والكبار من أمرائهم ورؤسائهم، وأميرهم يدعى بالفاضل، وكان في المكرمات من الأفاضل،

١ — جاء فلان يقث: أي يجر معه. العين.

٢ — تفخيذه: تنفيره

غير انه مـا مـارس الأيام، ولا اطلع على مكائـد اللئام: إن حسبكم حسبي، ونسبكم متصل بنسبي، وان بلادنا بلادكم، وأجدادنا أجدادكم، فكلنا فروع نبعـه، وأغصان دوحـه، وإن آباءنا من قديم العصر، وغـابر الدهر، نشأوا في عش متـوحـد، ودرجـوا في وكـر غير متعـدد، فأنتم في الحقيقة شعبـة من شعبي، وغصن من أغصاني، وجارحـة من جوارحي، وخالصتي وخلاني، وأنتم لي شعـار، وباقي الناس دثار، وإن كان الناس ملوكاً بالاكتساب، فأنتم ملوك بالانتساب، وان آباءكم من قديم الزمان، كـانوا ملوك ممالك توران، فانتقـل منهم طائفة من غير اختيـار، إلى هذه الديار، فـاستـوطنوها وهم مـا هـم عليه من الكرامـه، وشعـار السلطنة وأسباب الزعامه، ولم يزالوا على هذا النشاط والهزه(١)، إلى أن إندرجوا إلى رحمة الله تعالى في الأكفان، وهم على هذه العزة، وكان المرحوم أرتنا آخـر ملوككم، وأكبر مـالـك في بلاد الروم وأصغـر مماليككم، وليس بحمد الله في شـوكتكم فله، ولا في كثرتكم قله، فأنى رضيتم لأنفسكم بهذه الذلة؟ وأن تصيروا مسخرين كأنكم من المستخزين، وبعد أن كنتم أكـابر مكبرين، كيف صرتم أصـاغـر مصغـرين، ولستم بدار هوان ولا مضيعـة، وأرض الله واسعـه، ولم صرتم مـرقـوقـي، رجل من أولاد معتـوقي علي السلجـوقي؟ ولا أدرى مـا العلة لهذا والسبب؟ ومن أين هذا الإخاء والنسب؟ سـوى عدم الإتفاق، وانتقـاء الاتساق، وعلى كل حـال فأنا أولى بكم، وأحق بعمل مصـالحكم وتهيئة أسبابكم، وإن كـان لابد من استيطانكم هذه التخـوم، وبيع تلك البـلاد الفسيحـة بمضـائق ممالك الروم، فلا أقل من أن تكونوا كأسلافكم حكامها، مالكي نواصي صياصيها راقين سنامها، باسطي أياديكم فيها، قابضين زمامها.

وهذا المهـم إنما يتم، اذا كفينـا هذه المنازلـة، وقضينا الأرب مـن هذه المناضله، وتمهـد لنا الميـدان، وارتفع من البين ابن عثمان، فإذا خـلا الجو

١ — الهزة: الأريحية.

من المنازع، وصفت لي في هـذه البـلاد المشـارع، وظفـرت بهذه المهالك وسلكت فيهـا الطرق والمسـالك، أعطيت القـوس باريها، وأنزلت الدار بانيهـا، ورددت الميـاه الى مجاريها، وجعلتكم ملوك قـراها وصيـاصيهـا، ومدنها وضواحيهـا، وقررت كل واحد منكم، على قدر استحقـاقه فيها، وإن رأيتم أن لا تعينوا علينـا، وأمكنكم أن تنحـازوا إلينـا، فـاغتنمـوا فـرصتكم، وخـذوا من انتهـازها حصتكم، فإنكم قـريبـون منا، صـورة ومعنى، وأما الآن فكونوا بظاهركـم مع ابن عثمان وبباطنكم معنا، حتى إذا التقينا امتازوا، وإلى عساكرنا إنحازوا.

ولا زال فحل كلامه ينزو على حجر حجـرهم ولا يجفر(١)، مزخرفاً بتمـويهات تزري فصاحتهـا بكلام الأسود بن يعفـر(٢)، غائصـا في در دور أفكارهم ليردها عـن أن تتبع ابن عثمان وتقفـر ﴿كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر﴾(٣)حتى خلبهم بهذا المقال، واستجنهم إلى معنى ما قـال، واستهـواهم حب الرئـاسة الذي طالما استرق احـرار الصـديقين، واستعبـد كبـار الأوليـاء والصـالحين، وكبكب في النار على الرؤوس رؤوس العلماء العاملين، فوافقوه على الانخزال، عند الموافقة للنزال.

ذكر ما صنعه ابن عثمان من الفكر الوبيل وتوجهه إلى ملاقاة تيمور بعسكره الثقيل

فأمـا ابن عثمان فإنه خـاف منه الهجـوم، على بلاد الروم، لأن الزروع كـانت قـد استحصـدت، وصـدور الفـواكـه والثمار قـد استنهـدت، وخضروات الأرض قد اسـودت، والرعايا في ظل الأمن والرفاهيـة قد امتـدت، فخشي ابـن عثمان أن يصيب العبـاد منـه ضرر، أو يتطاير إلى

١— جفور الفحل: فتوره وانقطاع مائه من كثرة الضراب. العين

٢— من مشاهير شعراء ما قبل الاسلام.

٣— سورة الحشر— الآية: ١٦.

قبائل بلاده من لهيب ناره شرر، فبادر الى ملاقـاته، وساقته سوائق المنون إلى شرب كأسهـا في مسـاقـاته، وأراد أن يكون مصطدم الناس، خـارج بلاده على ضواحي سيواس، فأجرى من عساكره السيول الهامره، وأخذ بهم على قفـا غامـره، حذراً على رعـاياه، من مواطىء مطاياه، فإنه كـان على الضعيف من رعيته شفيقاً، وبالفقير من حشمه وخدمه رفيقا.

يحكى أنه كان في بعض مغازيه، فعطش بعض حواشيه، فأتى في قرية بعض النساء، فطلب منها شربة ماء، وكانت أشأم من البسوس، يضرب بها المثل في اللؤم والبـؤس، فقـالت ما عندي مـا تشرب، فخـذ طريقك ولا تتعب، وكان العطش قد غلبـه، ورأى عندها في بعض القبعة، شربة لبن فشربها، فقـالت هذا قـوت الصبيـان، واشتكت عليـه لابن عثمان، فطلبـه واستفسره، فخـاف شـدة نقمتـه، فأنكره، فقـال للمـرأة أنا أبعج قبقبـه، ليتبين صدقـه وكـذبه، فإن ظهـر في بطنه اللبن، أعطيتك الثمن، وإن تبينت بالصـدق قـوله، جعلتك مثلة مثلـه، فقـالت والله إنه شربه، ومـا فهت في حقه بكذبـه، ولكن فرجت كـربتـه، وأبرأت ذمته، فقـال: لابد من إجـراء العدل، وإنهاء هذه الحكومـة بالفصل، ثم دعـا بالسيف ووسَّطه، وأجرى على بطنه ما شرطه، فـانفجر بطنه وهو منعقر، وجرى اللبن وهو بدمـه ممذقـر، فأشهره في الوثاق، ونـادى عليه هذا جـزاء من يتناول في دولة الملك العـادل ابن عثمان شيئا بغير استحقـاق، ثم إن ابن عثمان تابع الترحال، وسلك في رمضان السفر صوم الوصال.

ذكر ما فعله ذلك الساقطة مع ابن عثمان وعسكره من المغالطة

ولما بلغ تيمور أن ابن عثمان أخذ على الطريق الغامره، نبذه نبذ اليهود كتـاب اللـه وراء ظهـورهم، وأخـذ على الجادة العـامـرة، فـدخل هو وعسكره على ظلال وعيـون، وفـواكـه مما يشتهـون، ولسـان حـالهم الفصيح، بنشد في الآفاق ويصيح شعراً:

ولستُ أبـالي بعـــــد إدراكـي العلى ... أكـــان تراثاً مـــاتناولت أم كسبـــا

فلم يزالوا في مـراح وزروع، ومـراع وضروع، بين سـدر مخضـود، وطلح منضود، وظـل ممدود، وماء مسكوب، وهواء بالراحـة مصبوب، ونعيم بالسـلامـة مصحـوب، في أمن ودعـه، وخصب وسعـه، آمناً من الوجل، سائـراً على غير عجل، مستيقناً بالنصر والظفر، مستبشراً بالملك والوزر، مستتبعـاً تدبيره القضـاء والقدر، لا تبرد حـرارة حميتـه لتسخين عين عـدوه وإحـراز المغنم البارد فتره، ولا في إكليـل كواكب عسـاكـره المنتظمـة نثـره، ولا بين أسود جيشـه مكاشره ولا نفـره، ولا في قـراهم الأعادي اللهذميات(١) على موائد طعام طعانهم جبن ولا كسره.

فلم يفق ابن عثمان مـن رقـاده، إلا وتيمـور قـد دمّـر على بلاده، فقامت عليـه القيامـه، وأكل يديه حسرة وندامه، وزأر وزقـا، والتهب حنقا، وكاد أن يموت خنقـا، وسلب القرار والهجوع، وعزم في الحال على الرجوع، فتـلاطمت من بحر عسـاكر أمـواجه، وتصـادمت اثباج أطواده وأبراجــه، فـرجع عـوده على بدئـه، وأغـري بـوصـال السير وخجئه(٢)، فنهكهم السير بسرعـة، والمكان بقفره، والزمـان بهجيره، والسلطان بزئيره، فلم يدركــوه إلا وقـد ذاب كل منهم وصبـا، وتلا لسان حاله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾(٣).

فصل: وكان تيمور قد وصل إلى مدينة أنقره، وخيله ورجله مستريحة موقـره، للقتال منتظره، وللنزال متشمـره، بل لم يكونوا به مكترثين، ولا به محتفلين، وقـد سبقـوا كصناديد قـريش الى الماء، وتركـوا عسـاكـره كمشركي بدر في جـانب الظماء، فهلكوا كـربا وأواما، وذابوا عطشـا بلا ماء، وكأنه إلى ذلك المنزل هو أرشدهم، وبلسان حاله أنشدهم، شعراً:

يـا ضيفنـا لـو زرتنا لـوجـــــدتنـا نحـن الضيــــوف وأنت رب المنـزل

١ــ اللهذم: كل شيء حاد من سنان وسيف قاطع. العين
٢ــ اختج الجمل والناشط في سيره وعدوه إذا لم يستقم. العين
٣ــ سورة الكهف ــ الآية: ٦٢

وانقرة هذه هي التي ذكرها الأسود بن يعفر في قصيدته الطنانة وهي شعر:

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من أطواد

فإذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوماً يصير إلى بلى ونفاد(١)

فلما تدانت الجيوش من الجيوش، وضريت الوحوش على الوحوش، وامتلأت منهم الصحارى والقفار، وتقابلت اليسار باليمين واليمين باليسار، اندفعت من عساكر ابن عثمان التتار، واتصلت بعسكر تيمور كما رسم أولاً وأشار، وكانوا هم صلب العسكر، والأوفر من عساكر ابن عثمان والأكثر، حتى قيل إن جماعة التتار، كانوا نحواً من ثلثي ذلك العسكر الجرار، بل قيل إن ذلك الجمهور، كان نحواً من ثلثي جند تيمور، وكان مع ابن عثمان، من أولاده أكبرهم أمير سليمان، فلما رأى ما فعلته التتار، علم أنه حل بأبيه البوار، فأخذ باقي العسكر، وقهقر عن ميدان المصاف وتأخر، وترك أباه في شدة البأس، وانخزل بمن معه الى جهة بروسا، فلم يبق مع ابن عثمان إلا المشاة ومن داناهم، وبعض من الكماة وقليل ما هم، فثبت للمجادلة بمن معه من الرفاق، وخاف إن فر أن يقع عليه الطلاق وكأنه في تلك المعركة والمعكره، كان متمثلا بما قاله عنتره، شعراً:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تسفك في دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم(٢)

فصبر لحادث الدهر ومالزم، وأراد أن يفي على مذهب الامام مالك بما به التزم، فأحاطت به أساورة الجنود، إحاطة الأساور بالزنود، وحين تيقنت الأسرة العثمانية بالكسرة، وعلمت أنها تورطت في جيش العسره، وثبت المشاة، على الكماة، واستعملت الأطبار، وكل صارم بتار، وكانوا

١— ديوان الأسود بن يعفر— ط. بغداد ١٩٦٨— ص ٢٧-٢٨.

٢— ليسا في ديوان عنترة المطبوع.

في ذلك المصــــاف، نحــواً من خمســـة آلاف، فندوا أندادهــم، وأبادوا أعـدادهم، ولكن كـانوا كسـافي الرمـال بالكربال(١)، أو كـائل البحـار بالغـربـال، أو محرر أوزان الجبـال، بقـراريط المثقــال، فأمطروا على قلل أولئك الأطواد وحقـول ذويات تلك الأسـود، من غمام القتام صـواعق ديم المدميـات، وأمطار السهـام الســود، ونادى محرش القـدر، وصيـاد القضــاء الكلاب على البقــر، فلم يزالوا بين وقيــذ وواقـذ، ومضروب بحكم سهم مـاض في القضاء نافـذ، حتى صاروا كـالشياهم والقنافـذ، واستمــرت دروس القتــال بين تلك الـزمــر، من الضحى إلى العصر، وانتقلت أحزاب الحديد إلى الفتح، فتلت على الروم سورة النصر.

ثم لما كلّت منهم الســواعـد، وقـل المؤاصر والمسـاعـد، وتحكم فيهم الأباعد والمباعـد، دققوهم بالسيوف والرماح، ومـلأوا بدمائهم الغدران وبأشـلائهم البطاح، ووقع ابن عثمان في قنص، وصـار مقيداً كـالطير في القفص، وكــانت هذه المعكره، على نحـو ميـل من مـدينة أنقــره، يوم الأربعـاء سـابع عشر ذي الحجـه، سنة أربع وثمانمائـه حجـه، وقـد قتل غالب العسكر العطش والضموز(٢)، لانه كان ثامن عشري تموز.

فصل: ووصل أمير سليمان، إلى بروسا معقل ابن عثمان، فاحتاط على مـا فيهـا من الخزائن والأمــوال، والحريم والأولاد ونفـائس الأثقـال، واشتغل بنقل ذلك إلى بر أدرنـه، وراء البحـر المحيط بكثير من الأمكنه، المنشعب من بحـر مصر الآخـذ بعد مـا يتـدربس(٣)، إلى بلاد الدشت والكرج الفاصل بينه وبين بحر القلزم(٤)جبل الجركس.

١— الكربال: الغربال.

٢— ضمز البعير: أي لم يجتر، وناقة ضموز: لا يسمع لها رغاء. العين.

٣— الدرابس: الضخم. العين.

٤— القلزم هنا بحر الخزر.

ذكر ما وقع من الخباط بعد وقعة ابن عثمان في كل ثغر ورباط

ولما حصل لـرأس مملكة الـروم هذه الـوعكه، واندعكـت أجســام عسكرها الجسـام أقـوى دعكه، وأخنى عليهم الجند المشـؤوم، ونعق في صبـاحها غـراب البين، وزعق في رواحهـا البوم، وتلا في محراب أنسهـا على جماعتهـا إمـام القضـاء والقـدر: ﴿ألم● غلبت الروم﴾(١)خضعت رؤوسهـا ونواصيهـا، وتزلزلت حصـونها وصيـاصيها، وتزعـزع دانيهـا وقاصيها، وانبهر طائعها وعاصيهـا، فحاصوا حيصة الحمر، وأيسوا من الأهل والأوطان والمال والعمر، إذ قد ذهب منهم الرأس، ولم يبق فيهم من يقيم البأس، فلما سمعوا أن أمير سليمان ضم الناس إلى نحـره،وعزم على العبور الى بر أدرنه بقطع بحره، سـالت بهم الأودية والشعاب إليه، وعولوا في خـلاصهم من ذلك البلاء الطام عليه، فصـالح أهل استنبول ووادهم، وعـاهدهم على ان لا يغـدر كل منهـم بالآخـر ومـدهم، ثم قصـدهم ان يعينوه على الـوصـول، بقطع البحـر من ثغـري كـاليبـولي واستنبـول، إذ ليـس لهذين البحـرين، مـن هذين البرين، طريق قـريب ومعبر سـوى هذين الثغـرين، فإن بحر اسكندريه، يـأخذ على أنطاكيـه، وعـلاية(٢) ثـم يروم، بلاد الروم، فتحصره الجبـال، قبل وصــوله بلاد الشمال، فـلا يزال في حصره يدق، وشفتـا جـانبيـه ترق، حتى تترآى حافتاه، ويكاد تنطبق شفتـاه، ومسيرة هذا الانضمام، نحو من ثلاثة أيام، ثم يأخذ في المد والانبساط، والجريان على وجه النشاط، ثم تدور كتائب أمواجـه وتتكردس، وتأخذ نحـو بلاد الدشت والكرج، حتى تصل كما ذكر إلى بلاد الجركس.

وما أمكن أحد من سواحر الحكمة، ومهندسي النوافث(٣)، أن يعزز

١— سورة الروم— الأيتان: ١— ٢.

٢— علاية أو العلايا على البحر المتوسط إلى الجنوب من أنطاليا—تقويم البلدان ص ٣٨١

٣— النوافث: السحرة

هذين المعبرين في مدى هذا الانضمام بثالث، فثغر كاليبولي بيد ملاحي المسلمين، وثغرا استنبول بيد النصارى أعداء الدين، وهو أعظم الثغرين، وأجسم المعبرين، وكانت النصارى ملاحيه، فصار غالب الناس يقصده وينتحيه، فاستطارت الفرنج فرحا واستطالت، وخاضت في دماء المسلمين وحريمهم وأموالهم وجالت، فإن ابن عثمان كان بالحصار قد انهكها، وأباد قراها وضواحيها وأهلكها، وضيق على أهلها في مجاري أرواحهم مسلكها، فبينما هم وقد بلغ السيل الزبا، وجاوز الحزام الطبا، وأنشب كل شر فيهم حده، وإذا بتيمور جاءهم بالفرج بعد الشده، فاندفع عنهم بالضرورة ابن عثمان، وحصل لهم بذلك الفرج والأمان، وزاد ذلك بأن احتاج المسلمون إليهم، وترامـوا في طلب الخلاص من العدو عليهم، فبعد أن زالت عنهم الغصص، اغتنموا في درك الثارات من المسلمين الفرص، فجعلوا يوسقون المراكب من الناس والحمول، ويتوجهون بذلك إلى صوب استنبول، وان استنبول وراء ذروة جبل، ومنحرفة خلف قلة من القلل، وهي من أكبر مدن الدنيا، حتى قيل إنها قسطنطينية الدنيا الكبرى، فكانوا إذا عطفوا وراء تلك الذروة بالمراكب، واستتروا بالهضبة الناتئة عن عين من هو في هذا الجانب، يصيرون كالأموات النازلين إلى الحفائر، الملقين في قعر اللحود والمقابر، لا يدرى إلى أين يتوجهون، وإلى أي ناد يصيرون، إلى بر السلامة والاسلام، أم إلى دار الحرب وأسر الكفرة الطغام، فيذهب منهم الذاهبون، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون، فإذا جاءت المراكب وهي فوارغ، تعلق كل من الخلائق فيها بجهد كامل وجد بالغ، ولم يدر ماذا يجري عليه، وإلى ماذا يصير أمره إليه، وأشبهوا في أبصارهم الكليلة، وخطوبهم الجليله، مالكاً الحزين والسمك المذكورين في كتاب كليله، وحاصل الأمر انه لم يسلم، من ذلك السواد الاعظم، في كل غراب أدهم، إلا مثل الغراب الأعصم، واستطالت أعداء الدين، كيف شاءت على المسلمين.

وقطع أمير سليمان البحـــر واستـــولى على ذلك البر، وضبـط ممالكه، وربط مسالكه، وهـو أوسع من هذا الجانب وأفسح مرجـا، وأدر ريعاً، وأكثـر خراجـاً وخـرجـا، وأعظم حصونا وأمكنه، وتحتـه مـدينة أدرنه، فاجتمع الناس على أمير سليمان، وسهل الأمر في الجملة شيئاً ما وهان.

ذكر أولاد ابن عثمان وكيف شتتهم وأبادهم الزمان

وكان للسلطان بايزيد المذكـور، من الأولاد الذكور: أمير سليمان هذا وهو أكبرهـم، وعيسى، ومصطفى، ومحمـد، ومـوسى، وهو أصغـرهـم، وكل طلب لنفسه مهـرباً، وانحاز إليـه من أبيه طائفـة نجبا، فكان منهم محمد، ومـوسى في قلعة أمـاسيه، وهي خرشنة الشـاهقة العـاصية، التي قال فيها أبو الطيب، شعراً:

حتى أقـــام على أرباض خــــرشنة ... تشقى به الـروم والصلبـــــان والبيـع

للسبي مـــا نكحـــوا للأسر مـــا ولدوا ... للنار مـــا زرعـوا للنهب مـــا جمعـوا(١)

وقلة قلعتها شـاهقة، كأنها بقبـة الفلك عالقـة، تعيي النازل عنها، في نزوله منها، أكثر مما يعيي الصاعد إلى غيرها، يسميها أهلها بغداد الروم، لأن قـرار أرضهـا بنهـر كبير من الوسط مقسـوم، وبينهـا وبين توقـات مسيرة يوم للمجـد، وأما عيسى فـانه لجأ الى بعض الحصـون واستكان، إلى ان قتله أخوه أمير سليمان، وموسى فيما بعد قتل أمير سليمان بعيسى، ثم إن محمداً قتل بعد الكل موسى، ونسخت الأحكام المحمدية، شرائع الملة الموسـوية والعيسـوية، إلى أن مـــات حتف أنفـه في أوائل سنة أربع وعشرين وثمانمائـة او مـات بشيء دس إليـــه على يد قـوجقـار في الهدايا الملكيـة المؤيدية(٢)، وانتقل الملك من يده إلى مـراد ولده، وهو في يومنا هذا، أعني سنة أربعين وثمانمائـة مستقل به، وأما مصطفى فإنه قـد فقد، وقتل نحو من ثلاثين مصطفى بسببه.

١— ديوان المتنبي — ط. بيروت ١٩٦٩ — ص ١٥٨، البيت الأول فقط

٢— أراد السلطان المملوكي المؤيد شيخ المحمودي

عوداً إلى ما كنا فيه من أمور تيمور ودواهيه

ثم إن تيمور لما قبض على ابن عثمان، جرد إلى بروسا طائفة من الجنود والأعوان، وأضافهم إلى شيخ نور الدين، ثم اتبعهم بوقار مكين وجأش مستكين، فوصل إليها ونزل نزول القضاء المبرم عليها، وضبط ما وصلت إليه يده من جماعة ابن عثمان وحرمه، وأمواله وخزائنه وحشمه وخدمه، وخلع على أمراء التتار ورؤوسهم، واستعطف خواطرهم بتطييب نفوسهم، ووزع أمراءهم على أمرائه، وأضاف كل ظهر منهم إلى رأس من رؤسائه، ووصاهم بهم وعليهم، وبالغ في آن يصلوا ما أمكنهم من البر إليهم، ومشى على مشيه القديم، في استخلاص النفائس واقتناص النفوس وسبي الحريم، وجعل يحضر ابن عثمان كل يوم بين يديه، ويلاطفه ويباسطه ويترقق إليه، ويسخر منه ويضحك عليه.

ذكر ما فعله مع ابن عثمان من نكاية غدت بأوصافه القبيحة على مر الزمان حكاية

ثم إنه في بعض الأيام جلس في مجلس عام، وخفض جناح النشاط للخاص والعام، وطوى بساط النهي والأمر، ومد سماط الخمر والزمر، وحين غص بالناس المكان، استدعى سريعاً ابن عثمان، فجاء وفؤاده يرجف، وهو في قيوده يرسف، فسكن قلبه، وأزال رعبه، ثم أحسن جلوسه، وأزال بالاهتشاش إليه عبوسه، ثم أمر بأفلاك السرور فدارت، وبشموس الراح ان تسير من مشرق أكواب السقاة إلى مغرب الشفاه فسارت، وحين تقشعت عن شموس السقاة سحب الخدور، ودار في سماء العشرة نجوم يحثها من مراسيمه بروز وبدور، نظر ابن عثمان فإذا السقاة جواريه، وعامتهم حرمه وسراريه، فاسودت الدنيا في عينيه، واستحلى مرارة سكرات حينه، وتصدع قلبه، وتضرم لبه، وتزايد كمده، وتفتت كبده، وتصاعدت زفراته، وتضاعفت حسراته، ونكي جرحه وأغذ قرحه، ونثر على جرح مصابه من قصبات الأسى ملحه، وكانت هذه نكاية لابن عثمان بما أسلفه، في مكاتباته بذكره النساء وحلفه، لأنه

سبق أن ذكر الحرم عند الجغتاي وقبائل الترك من أكبر الجرم، وأعظم من الخيانة في الحرم، وأيضا مكافأة لما فعله ابن عثمان، مع حريم طهرتن في أرزنجان، ومن تمام اساءته لابن عثمان، إحسانه لأولاد ابن قرمان، وكان قبل ذلك ابن عثمان، قد استولى على ممالك قرمان، وقتل متوليها السلطان علاء الدين بعد ان حاصره وقبض عليه، ونقل الى حبس بروسا محمدا وعليا ولديه، فلم يزالا عنده في ضيق وضنك، حتى أفرج عنهما بالحبس عليه تمرلنك، فأخرجهما وخلع عليهما، وأبرهما وأحسن إليهما، وأولاهما مأواهما، وليس ذلك لحب علي -كرم الله وجهه- ولكن لبغض معاوية قلت:

ولم يرفض معاوية محب عليا بل لأن ربي بزيدا

وقيل:

وليس لحبه بجنو عليه ولكن بغض قوم آخرينا

وقلت بديها:

أصادق ضد اعدائي وإن لم يكن بيني وبينهم ولاء
وأبغض من يعادي لي صديقا وإن أثني على بها أشاء
وذاك لينتكي ضدي وبهنا فتى قد سرني منه الاخاء

والأمير محمد هذا، هو الذي قبض عليه الأمير ناصر الدين، محمد بن دلغار أمير التراكمة المفسدين، وقتل ولده مصطفى في البلا، وجهزه إلى الملك المؤيد مكبلاً، وذلك في شهر رجب سنة إحدى وعشرين وثمانمائة.

ذكر وفود أسفنديار عليه ومثوله سامعاً مطيعاً بين يديه

ثم ان الأمير اسفنديار(١) بن بايزيد، وهو أحد ملوك الروم وله في السلطنة قصر مشيد، ورث الملك عن أبيه وكان مستقلا بالإمره، وبينه

١- كان الأمير مبارز الدين أسفندريار بن بايزيد الحاكم الثامن من أسرة أسفنديار، وقد حكمت هذه الأسرة في قسطموني في شمالي آسية الصغرى فيما بين ٦٩٠-٨٦٦ هـ/ ١٢٩١ ١٤٦٢م. زامباور ج٢ ص ٢٢٤.

وبين الملوك العثمانية عداوة موروثة ونفره، وتحت حكمه بعض مدن وقلاع، وأوهد وبقاع، منها مدينة سينوب الملقبة بجزيرة العشاق، يضرب بظرافتها المثل في الآفاق، وهي في النحر من البحر في جزيرة كبيرة، سبيل الدخول إليها عسيرة، بها جبل أحسن من أرداف الحور، متصل بمعبر أدق من رقيق الخصور، وهي معقل أسفنديار ومعاذه، وحرز خزائنه وملاذه، أعصى من ابليس، وأوثق من كف بخيل يخاف التفليس، ومنها قسطمونية تحت ملكه، وبحر فلكه، ومنها سام سون وهي قلعة على جانب البحر للمسلمين، مقابلتها نظيرتها للنصارى المجرمين، بينهما دون رمية حجر، وكل منهما آخذة من الأخرى الحذر، وغير ذلك من القلاع والقرى، والقصبات في الوهد والذرى.

ولما بلغه ما فعله تيمور الغدار، مع أولاد ابن قرمان والتتار، ومع قرايلوك وطهرتن حاكم أرزنجان، والامير يعقوب بن علي شاه متولي كرميان، ومن توجه إليه من حكام منتشا وصاروخان، وأنه لايهيج من أطاعه، وتلبس لأوامره بالسمع والطاعه، سارع إلى المثول بين يديه، وتهيأ للوفود عليه، فأقبل بالتحف العاليه، والنتف الغاليه، فقابله بالبشرى، وعامله بالسرا، وأقره في مكانه نكاية لابن عثمان، ثم أمره وأولاد قرمان، ومن اتسم له بميسم الطاعة والاذعان، من أمراء تلك الأكناف والاكنان، أن يخطبوا ويضربوا السكة باسم محمود خان، والأمير الكبير تيمور كوركان، فامتثلوا أوامره، وحذروا زواجره، وآمنوا بذلك الغارة والمصادره، وتوفي اسفنديار المذكور، في شهور سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة، وهو طاعن في السن وهو من أواخر الملوك الذين وفدوا على تيمور، واستولى بعده على ممالكه ولده ابراهيم بك، ووقع بينه وبين أخيه قاسم بك مشاجرات، وانحاز قاسم الى الملك مراد بن عثمان، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فصل: ثم إن تيمور أخرج ما لابن عثمان وغيره من الذخائر،

واستصفى لخزائنه ما كان إرثا وكسبا لملوك الأروام من النفائس والأخائر، وشتى في ولايات منتشا، وألقى لدروسها مباحث تصريفه كيف شا، وانتهى الى أقصاها، وحرر البحث في مسائل الخمس والمغانم فاستقصاها، وانبثت جنوده في آفاقها، وغاصت في بحار ممالكها من أشباح أطوادها إلى قرار أعماقها، فمن فازع إلى جبال جباهها وقمم صياصيها، ومن متعلق بآذان مراميها ومتسلق بأذيال نواصيها، ومن راكب أكناف أكنافها نازل في سواحلها، دائس بأرجل سعيه خدود روضها الأنف، جائس بكاهل مناهلها، ومن دامغ دماغها بأهداب رماحه لأجل العين، بالغ من غير حاجب له منها ما رام باليد واليدين، ومن حال على نهد صدرها، تال رؤوسها ووجوهها للجبين على ظهرها، ومن ماد أنامل تعديه من غير كف إلى معاصمها ومرافقها، كاد بأقدام الفساد في بطون مغاربها وأفخاذ مشارقها، فجزوا الرؤوس وحزوا الرقاب، وفتوا الأعضاد، وبتوا الاكناد وحرقوا الاكباد، وشوهوا الوجوه وأسالوا العيون، وأشخصوا الأبصار وبطوا البطون، وأخرسوا الألسنة، وصكوا المسامع، وأرغموا الأنوف، وأذلوا العرانين، وهشموا الثغور، وحطموا الصدور، وقصموا الظهور، ودقوا الفقر، وشقوا السرر، وأذابوا القلوب، وفطروا المرائر، وأراقوا الدماء، واستحلوا الفروج، واحروا الأنفاس، وأبادوا النفوس، وسبكوا الأشباح، وسلبوا الأرواح، ولم يخلص من شرهم من رعايا الروم الثلث ولا الربع، وصارت جماعاتهم فيهم ما بين مخنقة، وموقوذة، ومتردية، ونطيحة وما أكل السبع.

ذكر فتح قلعة إزمير وحتفها ونبذة من عجيب وضعها ووصفها

وحاصر قلعة إزمير، وهي حصن في وسط البحر مناله عسير- بهمزة مكسورة وزاي معجمة وميم مكسورة وياء ساكنة وراء مهملة- قلعة قد أقلعت في البحار، وأضرمت في قلب خاطبها بتمنعها وعصيانها النار، أعصى من قلاع الجبال، وأقصى في المنال، أن تنال بخيل ورجال،

فأعد لها أنواعا من آلات المحـاصره، وأخذها يوم الأربعاء عاشر جمادى الآخـره، سنة خمس وثمانمائه، سـادس كانون الأول من السنين الروميـه، فقتل كبـارها، وأسر نساءها وصغـارها، وبنى من أبدان القتلى جـوامع، وشيـد من رؤوسهـا منـارها، ثم سلب من القلعــة غناءها وأفقــرها، وأقـواها من ذخـائرها وأقفـرها، وأخـلاها وقـد استصفى منها أبيضهـا وأصفـرها، وطير بهذه الأمور أجنحـة البشـائر، وأطارها على زعمـه في الآفاق بأسعد فأل وأسرع طائر.

ذكر ما صنعه من أمر مروم وهو في بلاد الروم من قصده بلاد الخطا واستخلاص ممالك الترك والجتا وافتكاره وهو في الغرب مشغول في استصفائه سائر ولايات الشرق والموغول وكيف عانده القضاء المبرم بنازل ألهب فؤاده وأضرم فصاده فصادمه الزمان وعكس غرضه، وهذه كالجملة المعترضه

ثم ان تيمـور كـان قـد استـدعى من سمـرقند سبطه، محمـد سلطان والأمير سيف الدين ورهطـه كما ذكـر أولا، وكــان محمـــد سلطان هذا للفضلاء ملاذا، وللعلماء معاذا، مخائل السعادة في غصون جبهته لائحه، وبشائر النجابة من أسارير طلعته واضحـه، شعر:

في المهـــد ينطق عن نجـــابة جـــدّه أثـر السعــــــــــادة لائـح البرهـان

وسيف الدين هذا هو أحـد رفقـاء تيمـور في مبـداه، وأس أركـان دولتـه في منتهاه، وهما اللذان كـانا بنيـا أشباره، وأسسـا فيهـا قواعـد النهب والغاره، وهي في نحـر بلاد الموغول والجتا، وأقصى حـدود ما ينتهي إليه حكم تيمور ومبدأ بلاد الخطا، ووليا بها أميرا يدعى أرغون شاه، وأمداه بطوائف من العساكر وفي ثغر الموغول أرصداه، كل هذه الأمور، بأوامر تيمور.

ولما شرعــا في ذلك، لم يرض الموغـــول بهذا الفعل الحالك، لأنهم

كانوا يعلمون أن ذلك الأفعى، إذا جاورهم لابد أنه في الفساد يسعى، فلا يأمنون غائلته، ولا يطيقون مجاورته، فتشوشت خواطرهم، وتكدرت ضمائرهم، فاستوفزوا للفرار، وإخلاء الديار، فزاد الجغتاي فيهم طمعا، ومد كل من أشرار الطائفتين إلى الإضرار يد التطاول، ورجل الفساد وسعى، وشرب كاسات التحرم فأكل ما حل بيده وما تزهد في تعففه ورعا.

وفرح الجغتاي بذلك، ووقعت العداوة بين الجانبين فسد كل على الآخر طرق المسالك، وجعلوا يرسلون إليهم السرايا، ويحلون بها تصل يدهم إليه من متعلقاتهم البلايا، وجعل الموغول أيضا يفعلون مع الجغتاي ذلك، وتربصوا بتيمور لبعده عنهم ريب المنون، وتشبثوا بعشويات(١) المهالك، واتصل الخبر بتيمور، فسر بذلك أشد السرور.

ثم انهما حصناها بالأهبة الكاملة، والعدة الشاملة، والرجال المقاتلة، منهم طائفة من عساكر الهنود وملتان، وقوم من جند عراق العرب وأذربيجان، وفرقة من فوارس فارس وخراسان، وشرذمة من أناس تدعى جاني قرمان، وأضافوا هؤلاء الكماه، مع تومان من ياساق الجغتاي إلى الأمير أرغون شاه، ووصلا إلى خجند، وقطعا سيحون وقدما سمرقند، ووليا بها أميرا يدعى خواجه يوسف، فكان في قيد الطاعة والاخلاص يرسف.

ثم خرجا من سمرقند قاصدين ذلك الغشوم ثم إنهما ماتا جميعاً: سيف الدين في خراسان، ومحمد سلطان في بلاد الروم، فوقع تيمور في الأحزان، على حفيده محمد سلطان، ولبس عسكره السواد، وأقاموا شرائط الحداد، ولم يكن بهم حاجة إلى السواد المعلم، فإنهم كانوا هم السواد الأعظم، ثم جهز عظامه في تابوت، إلى سمرقند مع عظموت

---

١ — يقال ركب فلان عشوة من الأمر، أي حمل على أمر غير رشيد. العين.

وجبروت، ورسم أن يتلقـاه اهل المدينة بالنوح والبكاء، ويقيمون عليـه شرائط العـزاء، وأن لا يبقى أحـد من العبـاد، إلا ويلبس من فـرقـه إلى قدمه السواد، فخرج أهل سمرقند عند موافاته، وقد انغمسوا في السواد لملاقاته، وصـار الشريف والوضيع والدني والرفيع بالسواد معلما، فكأنما أغشي وجـه الكون قطعـا من الليل مظلما، فدفنوه بمـدرستـه الحصينة، المعروفـة بإنشائه، داخل المدينـة وذلك في سنة خمس وثمانمائه، ولما أهلك الله تعالى جده، دفنوه كما سيأتي ذكر ذلك عنده.

ذكر حلول غضب ذلك الصياد على الله داد ونفيه إياه إلى أقصى البلاد

ولما توجه الثقل من مـاردين صحبة الله داد، وفـارقه تيمور متـوجها الى استخلاص بغداد، وكان الله داد، لـه أنداد، وأكفاء وحساد، وأعداء وأضداد، والحسـد في عنق صاحبـه غل قمل، وتحاسد الأكفـاء جرح لا يندمل، وجـد أعداؤه للطعـن فيه مجالا، وفي مقـام ثلب عـرضه مقـالا، فانتهزوا فـرصة غيبته، وأكلوا بلا ملح لحمه، وتنقلـوا بغيبته، ووشوا به الى تيمـور، وذكـروا مـا فعلـه في الشـام من الأمـور، وأنه التمس من ذخـائـرها مـا لا يحصى، واختلس لنفسـه مـن نفـائسهـا، وتعلق به من أعلاقها ما لا يستقصى.

وكـان كما قالوا، ومـا أهملوا أكثر ممـا نالوا، فبدد أمـره، وأوغر عليـه صدره، لا سيما وقـد قص جناحه بمـوت سيف الدين أخيه، وكـان من الأبهة والمهابة بحيث أن تيمور كان يخافه ويرتجيه، وله في ممالك ما وراء النهر مـآثر مشهودة، ونتـايج فكر باقية معهـوده، فلما وصل الله داد إلى سمـرقنده، أعقبـه تيمـور مرسـومـا من عنده، بأن يتـوجـه الى اشبـاره، ويستعد هناك للنهب والغـاره، وذلك كالنفي لله داد، وإلقـائه في أقصى البـلاد، وطرحه في نحـر المخـالفين، وثغر ذوي العناد، وانتقل منهـا إلى سمرقند أرغـون شاه، ولم يزل بها الله داد إلى أن انتقل تيمـور لعنه الله، فجعلت الموغول تجهز إلى اشبارة الفيالق، وتنهب ما تصل إليه يدها من

صامت وناطق، وتغتنم الفرصة لبعد تيمور عنها، وكان الله داد يحترز أشد الاحتراز منها، وهو مع ذلك يجهز لهم التجاريد، ويحفر لهم بالمكر الآبار والأخاديد، ويقتل ويأسر، ويطحن، ويكسر، حتى أقواها بعد تيمور، وسيأتي ذكر هذه الأمور.

نموذج يدل على عمق ذلك البحر المحيط
وما كان يصل إليه غواص فكره النشيط

ثم لما كان تيمور الشؤوم، مخيما ببلاد الروم، أبرد إلى الله داد مراسلة، فيها أمور مجملة ومفصلة، أمره بامتثالها، وارسال الجواب بكيفية حالها، منها أن يبين له أوضاع تلك الممالك، ويوضح له كيفية الطرق بها والمسالك، ويذكر كيفية مدنها وقراها، ووهدها وذراها، وقلاعها وصياصيها، وأدانيها، وأقاصيها، ومفاوزها وأوعارها، وصحاريها وقفارها، وأعلامها ومنارها، ومياهها وأنهارها، وقبائلها وشعابها، ومضائق طرقها ورحابها، ومعالمها ومجاهلها ومراحلها، ومنازلها وخاليها وأهلها، بحيث يسلك في ذلك طريق الأطناب الممل، ويتجنب مأخذ الايجاز وخصوصا المخل، ويذكر مسافة ما بين كل منزلتين، وكيفية السير بين كل مرحلتين، من حيث تنتهي إليه طاقته، ويصل إلى علمه ودرايته، من جهة الشرق وممالك الخطا وتلك الثغور، وإلى حيث ينتهي إليه من جهة سمرقند علم تيمور، وليعلم أن مقام البلاغة في معاني هذا الجواب، هو أن يصرف فيه ما استطاع من حشو وتطويل واطناب، وليسلك في بيانه الطريق الأوضح من الدلاله، وليعدل عن الطريق الخفي في هذه الرسالة، إلى أن يفوق في وصف الأطلال وحدود الرسوم، وتعريف الدمن مضغة الشيح والقيصوم.

فامتثل الله داد ذلك المثال، وصور له ذلك على أحسن هيئة وآنق تمثال، وهو أنه استدعى بعدة أطباق، من نقي الأوراق، وأحكمها

بالالصاق، وجعلهـا مربعة الأشكال، ووضع عليها ذلك المثـال، وصور جميع تلك الأمـاكن، ومـا فيها مـن متحرك وسـاكن، وأوضح فيهـا كل الأمور، حسبها رسم به تيمـور، شرقاً وغربا، بعـداً وقربا، يميناً وشمالا، مهـاداً وجبـالاً، طولاً وعـرضاً، سماء وأرضـا، مـرداء وشجـراء، غبراء وخضراء، منهـلاً منهلا، ومنزلاً منزلا، وذكـر اسم كل مكان ورسمـه، وعين طريقـه ووسمـه، بحيث أنه بين لـه فضله وعيبـه، وأبرز إلى عـالم الشهـادة غيبـه، حتى كأنه مشاهـده، ودليله ورائده، وجهـز ذلك إليـه، حسبها اقترح عليه، كل ذلك وتيمور، في بلاد الروم يمور.

ذكر ما فعله ذلك المكار عند تنجيزه أمر الروم من الغدر بالتتار

ولما صفـا لتيمـور شرب ممالك الروم من الكـدر، وقضى الكون من أفعاله العجب، وأهـل الروم النحب، وجيشه من الغارة الـوطر، وامتلأ من المغانم وادي سيله العـرم، وكان فتى الربيع قـد أدرك وشيخ الشتاء قد هرم، واندرج إلى رحمة الله المجيد، السلطان السعيـد، الغازي الشهيد ايلدريم بايزيد، وكـان معه مكبـلاً في قفص من حـديد، وإنما فعل ذلك تيمور، قصاصا كما فعله قيصر مع شابـور، وكان قصد استصحابه الى ما وراء النهر، فتـوفي معه في بلاد الروم في آق شهـر، وفي هذا المكان، توفي حفيده محمد سلطان.

وعـزم على الرحيل، وحـزم أحمال التحميل، ثم جمع رؤوس التتـار، وقـد أضمر لهم الدمـار والبوار، وقـال: قد آن أن أكـافيكم بما صنعتم، وأجازيكم بما فعلتم، ولكن قد أضر بنا المقـام، ومللنا الإقامة في مضائق الأورام، فهلم نخـرج إلى الفضـاء الفسيـح، ونشرح صـدورنا من ضيق الزمان والمكان في المهامه الفيح، ضواحي سيواس، وتنزه الناس، ومثوى الأكياس، فهنالك نضبط أحوال هذا الإقليـم الوريف، ونقرر كلا منكم فيـه حسبما يقتضيـه رأينا الشريف، فإنـه لابد من تفصيل جمله، وإمعـان النظر في كيفيـة تدبيره وعمله، وحصر مـدنه وقـلاعـه، وضبـط قـراه

وضياعه، وحسبان توامينه، وإقطاعاته، والإحاطة بأفراده وجماعاته، فاذا فصل لنا ما أجمل، ووضح عندنا ما منه استشكل، فحصنا عن رؤوسكم وجماجمكم، وتوصلنا إلى معرفة أخباركم وتراجمكم، وجمعنا رؤساءكم وحصرنا زعماءكم، وأحصينا أعداءكم، واستقصينا آباءكم وأجدادكم واعتبرنا إخوانكم وأولادكم، ونظرنا متعلقيكم وأحفادكم، وتحققنا شعار الروم ودثارهم، وأورثناكم أرضهم وديارهم، ثم فرضنا هذه المسألة على أعداد الرؤوس، وقسمنا نفائس هذه الممالك على النفوس، ثم رددناكم إليها مكرمين، وكفيناكم وعيالكم العيلة إذ كنتم علينا معولين، وعلى كل حال فإنا نفعل مع كل منكم ما يجب فعله، وتبقى عليكم من أفعالنا ما يتخلد في بطون الدفاتر والتواريخ نقله.

فكل منهم إرتاح لهذا القول، وعول في هذه المسألة على موافقة الرد، ولم يعلم ما فيها من الغول، فلما توافقوا على هذه الحركة بنفس ساكنه، لم يقع منهم في هذه الموافقة على كثرة عدد رؤوسهم المتماثلة مباينه فسار بالناس، حتى بلغ سيواس.

فصل: ولما برق ركام ركابه المتراكم في آفاق سيواس ورعد، وحان له أن يفي لطائفة التتار بها وعد، جلس جلسة عامه، وأقام من زبانية الجند طائفة طامه، ثم دعا من التتار الوجوه والرؤوس، والظهور والضروس، ومن تخشى مضرته، وتتقى معرته، والمردة من شياطينهم، والعندة من أساطينهم، فاستقبلهم بوجه طلق ولسان بالحلاوة ذلق، وأجلسهم مكرمين في مكانهم، وزاد في تمكينهم وامكانهم، ثم قال: قد كشفت بلاد الروم ونواحيها، وتبينت جميع قراها وضواحيها، وقد أهلك الله عدوكم فاستخلفكم فيها، وأنا أيضا أفوض ذلك إليكم، وأذهب عنكم واستخلف الله عليكم، ولكن أولاد بايزيد غير تاركيكم، ولا يرضون بأن يكونوا فيها مشاركيكم، وأما صلحهم فقد سدت فعالكم مع أبيهم طريقه، فلا مجاز لكم إلى شريعته على الحقيقة، ولاشك أنهم يرأبون

صـــدعهــم، ويندبون جمعهم، ويستصرخـــون عليكم أهل المدر والـوبر، ويلبيهم بالإجـابة كل مـن يبلغـه دعــوتهم لأنكم في زعمهم آل غــدر، فيلبسون لكم جلد النمر، ويصلونكم الجمر بكل آمر ومؤتمر، فيقرضونكم من كل جـانب ويختطفـونكم من الأطراف والجوانب، لاسيما وبيــدهم غـالب الحصون والدسـاكـر، وتحت أوامـرهم من بقي من طوائف الجنود والعساكر، فإن كنتم كما أنتم في الناس فـوضى، فإنهم يخوضون في دمائكم خوضا، فعوا واسمعوا، ان كنتم لم تعقلوا ولم تسمعوا، شعر:

لا يصلح النـاس فــــوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهــــــالهم ســـــــادوا

وأما أنا فلست منكم بدان، ولا لي في المدافعة عنكم يدان، فلا بد لعقد أمركم من نظام، ولصلاة جماعتكم من إمام، بشرائط وأركان، يجب القيام بها أولا والسـلام، وأول شرائط ذلك الإمام، يرجـع إلى الاقتداء بأفعـاله الخواص والعـوام، ثم بعــد ذلك ترتيب الجماعـه، وتنزيـل كل واحـد في صف السمع والطـاعـه، ثم وضـع الأشيـاء في محلهــا، وزمــام المناصب والوظائف في يد أهلها، وإيصـال كل مستحق إلى إستحقاقه، وجمع الرأي على أمر واحـد باتفاقـه، فإذا اتفقت آراؤكم وائتلفت أهواؤكم، وعظمت أبناؤكم، وكبتت أعداؤكم، وكنتم يـداً واحدة على من ناوأكم، وانتصرتم على من خالفكم وعاداكم، كان ذلك أحرى أن لا تمتد إليكم بمكروه يد، ولا ينالكم من مخالفيكم كيد ولا كد، وهذا إنما يتمم بالنظر في أحوالكم، والتفحص عن أمر خيلكم ورجالكم، وضبط الأهبة والسلاح، فإن ذلك آلة الظفر والفلاح، فليذكر كل منكم ولده وأهله، وليحضر خيله، ورجله وليأت بعـــدده وعــدده، وجنده وولده، وليعــرض ضرورته إن كـــانت ولايستصعبها فقـد هانت، فمن كان محتـاجاً إلى إكمال شيء أكملناه، ومن كان معتـازا إلى ايصال شيء أوصلناه، وأضفنـاه إلى كل ما تجب إضـافته، فيحصل أمنه، وتذهب مخافته، فاعـرضوا أول شيء علينا سلاحكم، حتى نكمله، ونعمل صلاحكم.

فأحضر كل منهم أهبته، وعـرض عليه عـدته، وطرحوه في ذلك الجمع النظيم، فتراكم فكان كـالطود العظيم، كما فعل أول الزمـان، بأهل مـدينة سجستـــان، فلما سلب تلك الأسـود بـراثنهم وأنيـابهم بهذه الأســاليب، وخلب أولئك الكواسر الجواسر على مناقيرهم والمخاليب، وأولجح صارم فكره الذكر في أحشـاء عقولهم، وأنزل، وصـار سماك سماء عزهم الرامح، وقد نحره سعد الذابح، أعزل، أمر كل من عنده أحد من التتار، أن يقبض عليه ويوثقه بقيد الإسار، ثم أمـر برفع تلك الأسلحة إلى الزردخانه، وقد اشعل قبائل التتار بجمر البوار، وأصعد إلى العيوق(١) دخانه، ففت ذلك من أعضـــادهم، وبت من أكبـــادهم، وقصم ظهـورهـم، وأشعل نارهم، وأطفأ نورهم، ثم تلافى خـواطرهـم بالمواعيـد الكاذبه، واستعطف قلوبهم بالأماني الخائبه، واستصحبهم بالأقوال الممـوهه، والأفعال المشوهه، وحال بهم الحال، وأمر في الحال بالمسير والترحال.

قيل إن السلطان بايزيد، قـال لذلك العنيـد: إني قـد وقعت في مخالبك، واعلم أني غير ناج مـن معـــاطبك، وأنك غير مقيـم، في هذا الإقليم، ولي إليك ثلاث نصـــائـح، هن بخير الدارين لوائـح، أولاهن لاتقتل رجـــال الأروام، فإنهم ردء الاســـلام، وأنت أولى بنصرة الدين، لأنك تـزعـم أنك من المسلمين، وقـد وليت اليـوم أمـر الناس، وصرت لبـدن الكون بمنزلة الرأس، فإن حصل لوفق اتفاقهـم من تعدي يدك بسط وتكسير، تكن فتنة في الأرض وفســاد كبير، ثـانيهن لاتترك التتـار، بهذه الديار، فـإنهم مـواد الفسق والفســاد فـلا تهمـل أمـرهم، ولا تـأمن إن تذرهم يمـــلأوها من قبائلهم نارا، ويجروا من دموع رعاياها ودمائهم بحارا، وهم على المسلمين وبلادهم أضر من النصارى، وأنت حين فخذتهم عني، زعمت أنهم أولاد إخوتك، وبنو عمك، وذوو قرابتك، والأولى بجماعتك وناسك أن تتبعك، وبكل من أولاد أخيك أن يقـول لك: عـم خـذني معك، فـاعمل أفكارك

١ــ العيوق: نجم في السماء مكانه بعد الثريا لا يتقدمها.

المصيبة في إخراجهم، وإذا أدخلتهم حبسا فلا تطمعهم في إفراجهم، ثالثهن لا تمد يد التخريب إلى قلاع المسلمين وحصونهم، ولا تجلهم عن مواطن حركتهم وسكونهم، فإنها معاقل الدين، وملجأ الغزاة والمجاهدين، وهذه أمانة حملتكها، وولاية قلدتكها، فتقبلها منه بأحسن قبول، وحمل هذه الأمانات ذلك الانسان الظلوم الجهول، واستكثرها على عقل ابن عثمان، ووفى بها بقدر الطاقة والإمكان.

ذكر ارتفاع ذلك الغمام بصواعق بلائه عن ممالك الأروام

وسار فثار غبار، أخذ عين الشمس منه الإنبهار، وفار بحار التتار، فكأن البحر أمده الله بسبعة بحار، فمر لايدخل قرية إلا أفسدها، ولاينزل على مدينة إلا محاها وبددها، ولايمر على مكان إلا دمره، ولاينجذب عن ربقة طاعته جند إلا كسره، ولا يتمنع عليه شمراخ حصن شامخ إلا هصره، فخلع على عثمان قرايلوك حين وصل إلى أرزنجان، وقرره في ولاياته وزاده بعض معان ومغان، ووصاه بشمس الدين الذي ولاه قلعة كماخ، وأن يكون كل منهما للآخر قوة وطباخ(١).

ذكر انصباب ذلك العذاب ماء ونارا على ممالك الكرج وبلاد النصارى

ثم لم يزل يلجج بذلك البحر اللج، حتى أرسى على بلاد الكرج، وهم قوم يعبدون المسيح، ملكهم غير فسيح، ولكنه مصون، بواسطة قلاع وحصون، ومغائر وكهوف، وجبال وجروف، وقلاع وحروف، وكل من ذلك أعصى في المنال، من نفس كريم سيم شيم الانذال، ومن مدنهم تفليس، وكان أخذها ذلك الابليس، وطرابزون وأب خاص(٢)، وهي التخت بالاختصاص.

١ــ يقال ليس به طِباخ: أي لاقوة ولا سمن. العين.

٢ــ أب خاص: الأبخاز

فتمنعت هذه الأماكن عليه، ولم تسلم قيادها إليه، فأقام يحاصرها، وقعد يناقرها وينافرها، فمن ذلك مغارة بابها في وسط جرف شاهق، آمنة من البوائق، سالمة من الطوارق، وسقفها آمن من صواعق المجانق، وذيلها أرفع من أن يتشبث به علائق المسالق، مدخلها أخفى من ليلة القدر، وعدم التوصل إليها أجلى من القمر ليلة البدر، فأولع بمحاصرتها، والتزم بمضاجرتها، واستعمل من فكره مهندسه، وجعل لا يقر من الأفكار والوسوسة، ثم انتج رأية المتين، وفكره الرصين، أن يرسل عليها عذاباً من فوقها، وأن يصطاد تلك الحمامة الصاعدة في الجو بأرجلها من طوقها.

فأمر أن يصنعوا له توابيت على هيئة الدبابات، كأنهن شياطين النساء للرجل غلابات، وأوثقهن بالسلاسل الحكيمة، وأوسقهن بالرجال ذوي الشكيمة، وأدلاهن من تلك القلاع، وأهواهن من شواهق الجبال، فتدلين في الهواء، تدلية مبرم القضاء، فملأن النفانف، وأرجفن من الجبال والرجال الروانف، وصار لسان حال تلك الصقور والشواهين ينادي كل من رآه: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله﴾(١)، فحين وازوا باب تلك المغارة، كبتوهم بالنبال السحاره، وكفوهم بالمكاحل الطيارة، وهاوشوهم بأنواع الأسلحة، وناوشوهم بالأوهاق والكلاليب المفلطحة، فلا زالت الجوارح في الهواء﴿صافات ويقبضن﴾(٢)، ويقبلن إلى ذلك الوكر حائمات عليه ولا يعرضن، ينقرن أسرة أهله بمناقير المناقيب، وينشبن فيهم مخاليب الكلاليب، ويكره الناشز تمانعهم على الولوج، وتستعين في مدافعتهم بمن فيها من العلوج، فلم ينشب أحد من اولئك الجوارح، أن أنشب في الباب كلوبه الجارح، ثم استعضد الفتح واستنهض الظفر، واعتمد على الله، ومن دبابته إلى الوكر طفر(٣)فاحتضنه ساعد المساعدة، واكتنفه عضد المعاضدة، وقبض

١— سورة النحل— الآية: ٧٩.
٢— سورة الملك— الآية: ١٩.
٣— طفر: قفز

على رسغه كـف السلامه، فنكصت النصـارى على عقبهم أمامـه، ولم يزل وحـده مبيـدهم، حتى قتل أوباشهم وصنـاديدهم، ثم ادخل رفقتـه فيهـا وأخرجوا ما كان في مخابئها، واسم هذا الرجل لهراسب، ستة أحرف ليس فيها غير متحركين اللام مضمومة والهاء، والراء مفتوحة، والألف والسين والباء، واجتماع ثلاث سواكن في الفارسي كثير، وفي التركي أيضا موجود ولكنه عزيز غير غزير.

ومن جملة هذه القـلاع قلعة شاهقـة، حروف ذاتها كحـروف اسمها، بمناعتها ناطقـة، لا يعمل في فتحها لارتفاعهـا العل وليت، لأن اسمها كما زعموا كل كورتين، أي تعـال انظر وارجع بمعنى أنه لا ينال الوافد عليها، سوى النظر إليها، ثلاثة أطرافها مبنية على قلل آكام شمخت على ما حواليهـا من الهضاب، فهي على الأعلام أعلام، وطريقهـا من الوجه الرابع-هو دقيق في سلـوكـه عسر- ينتهي بعـد أنواع المشقـة إلى جـرف مقطوع، بينه وبين باب ذلك الحصن جسر، إذا ارتفع ذلك الجسر سدت دون الوصول إلى الحصن الحيل، وأعاذ كل من لاذ بقلته من بنيه، فصح أن يقـال له معـاذ بن جبل، فلما اطلع على حقيقـة أمـرها وانكشف له مستـور خبرها، أبى أن يرحل عنهـا، إلا أن يصل إلى غـرضه منهـا، ولم يكن بالقـرب منهـا مكان ينزل فيـه، ولا بـر يحمل ذلك البحـر الطاغي ويحويه، بل إنما كـان حـواليها جـروف وهضـاب، غضون جبينهـا كأنها وجه عجـوز شوهاء ناشز عن زوج محب عقاب في عقـاب، فطمع منها في غير مطمع، ونصب سرادقه بحيث كان منهـا بمرأى ومسمع، وصار من عسـاكره الأسود الحوادر، يتناوبـون حصارها مـا بين وارد وصادر، وهم يرفعـون الجسر بالنهار، فيأمنون مكـائد القتـال والحصار، لأنه قـد تقـدم أنه لم يكن حـواليها مكان للقتـال، ولا مفحص قطاة يتمكن فيـه النضال، فكانوا يرمونها بالنهار على بعد بسهام الأحداق، ويرضون منها بنظرة من بعيـد كقـانع العشـاق، فإذا أجنهم الليل، شمـروا إلى جهـة

مخيمهم الـذيل، لأنهم لم يمكنهم حـــواليهـــا مبيت ولا مقيـل، فتضع النصارى الجسر ويرمون إلى حاجـاتهم السبيل، فلما لاح له منها أمارات الحرمان، وبان له أن أمل ظنه من فتحها قد مان، كما قلت:

وأعظـم شيء في الوجـــــود تمنعـــــا   نتـــــاج مـــــرام من عقيـم زمـــــان

صمم العـزيمة على الرحيل، ولكـن خاف العـار، فطلب لهذه المسألة الدليل والتعليل.

ذكر سبب أخذه لهذه الحصن المنيع وبيان معاني ما جرى في ذلك من صنع بديع

وكان في عسكره شـابان نديدان، أسدان حـديدان، يتشابهان في الخلق والخلق لم يكن بينهما في الرجولية والشجاعة كثير فرق، يتحاربان في كل وقت في ميـدان المناقب لإحـراز قصب السبق، فكانا كفتي ميـزان، وفي مضمارها فـرسي رهان، فاتفق ان أحـدهما صادف علجـاً من الكرج، في الجراءة كـالأسد، وفي الجثـة كـالبرج، فنازله ثم قتله، وقطع رأسـه وإلى تيمور حمله، ففخم شأنه، وأعلى على الأقران مكانه.

فـأثر ذلـك في نديـده، فكأنـه قطـع حبل وريـده، ثم افتكـر في شيء يصنعه، يضع من ند يده ويرفعـه، وكان اسمه بيرمحمـد، ولقبه قنبر، فلم ير أكبر من مـراقبـة ذلك الجسر ولا أشهـر، فـاعتمـد على الله سبحـانه وحده، واستكمل مـاله من أهبة وعـده، ورصد نجمـه في بعض الليالي، ولطاقي مكان خـــالي، ولا زال يترقب النجـوم، ويترصـــد عليهم طوالع الانقضاض والهجـوم، ويشبر تلك القنن بيديه ويذرع، ويمشي تارة على بطنه وأخـرى على أربع، إلى أن طرح الضـوء نقـــابه، وسلخ الجو إهابه، ورجع النصارى إلى كسرهم، وتعاونـوا على رفع جسـرهم، طفر بيرمحمد الى الجسر فقطع حبـاله، وتابع عليهـم من حنيتـه نبـاله، ولم يمكنهم من رفعه، ولا غير موضوعه عن وضعـه، فتراكموا عليه بالنبال والأحجار،

وأرسلوا عليه من ذلك السماء المدرار، وهو لايرد عما هو بصدده ولا يلتفت إلى حينه، ويتلقى ما يصدر من مراسيم نباهم وأحجارهم بالقبول على رأسه وعينه، ولم يزل على المكافحة والمناضحة، والمكاشحة والمكالحة، حتى تعالى النهار، وعض الكون من فعاله أنملة التعجب، وأخذ عين المكان الانبهار، وكان المحاصرون لها كفوا عن القتال، وتيمور قد عزم كما ذكر على الترحال، وكان سرادقه منصوباً بمكان عال، فناداه لسان الفتح، وخاطبه منادي النجح شعر:

لاتيأس من مطلب قطع الورى أسبابه
إن أغلقوا أبوابهم فالله يفتح بابه

فتراآى على باب القلعة من بعد كأن ناساً يتواثبون، وأشباح طائفة يتكالبون ويتضاربون، فقال لقبيله أي أولي النجدة والعون: إني أرى ما لا ترون، فانعموا معي النظر، ثم أسرعوا نحو المعتكر، واتوني بحقيقة الخبر، فاندفعوا يستشرفون لذلك خبراً، ويستكشفون لسرائره ستراً، وهم ما بين عاد من النمر أعدى، وجار من الأسد أجرى، وكل منهم في عدوه وعداوته تأبط شراً، ولما نزلوا يتجاورون على ذلك أرسالا وتترى، كأنهم الشياطين نهاض ووثاب وعداء وهلم جرا، حتى أدركت مقدمتهم بيرمحمد، وهو في غمرات الموت بناره يتوقد، وقد صار لسهامهم غرضاً، وكاد جوهره أن يصير عرضا، فلما رآهم من بعيد عاش، وحصل له الانتعاش، وزال عنه الارتعاش، وتلاحقت بهم الصناديد، فكعت عنهم تلك الأفسال الرعاديد، وحين عجزوا عن رفع الجسر وولوا الأعقاب، عزموا أن يدخلوا الحصن، ويوصدوا الباب، فاختلط بير محمد معهم، ودخل الحصن ومن إيصاده منعهم، فدقوه بالسيوف، ورضوه بأحجار الحتوف، وهو يأبى إلا المدافعة، ويجتهد في مراجعة الممانعة، لا يشعر بما يناله من رض الحجر وجراح الحديد، كأنه متأله عراه الفناء في الغناء في التوحيد، إلى أن غشيتهم تلك الليوث،

واندفقت عليهم بصواعق الغضب من سماء النجدة سيول الغيوث، فتشبثت أسود المنايا بتلابيبهم، وخلصوا بيرمحمد من مخاليبهم، ثم قضوا على النصارى، وأخرجوا مالهم فيئاً وحريمهم سبايا، وأولادهم أسارى، وحملوا إلى تيمور بيرمحمد، وأخبروه بما قصده في ذلك وتعمد، وتفقدوا ما به من جراح ادمى، فاذا هي ثمانية عشر جرحا كل منها يصمى، فشكر له فعله، ووعده مواعيد جزله، وأحله المحل العزيز، وجهزه إلى تبريز، وأمر بعد الوصية به الأمراء من النواب والرؤساء، أن يجمعوا عليه كل نطيس من الأطباء وخريت من الإساء، بحيث أن يبذلوا في معالجته جهدهم، ويستوعبوا في أساه كدهم، ويستوفوا في المعالجة قسمي العلم والعمل، فامتثلوا مراسيمه وعالجوه بما أمكنهم وأزاحوا العلل، فاندملت جروحه، وبرئت أحسن مما كانت قروحه، فلما نصل وإلى تيمور وصل، جعله أحد قواده، ورئيس طائفة من أجناده، وقدمه على كثيرين بعد أن كان خلف، وصيره أمير مائة مقدم ألف.

تتمة ما جرى للكرج مع تيمور شيخ العرج

وهذه القلعة والمغارة كانتا عيني قلاع الكرج، ونار أعلامهم والبواقي سرج، فحين قلعت من وجوههم عيناهم، تيقنوا أن قد نزل بهم عناؤهم، وأحاط بهم عزاؤهم، فانحلت قواهم وانخزمت عراهم، وقعدت بهم الحيلة وقامت عليهم القيامه، وتجهمت بهم إلى جهنم الزبانية وأسلمتهم السلامه، وتفاءل تيمور بحصول الفلج، وانثنى عزمه الى استخلاص ممالك الكرج، وانبثت شياطينه فيها فهزتهم هزاً، وقدت ثوب حياتهم وقد أوجزتهم جزا، وخاطت لهم أكفان المنايا بالسلاح فأوسقهم سلا وكفا ودرزا، وتلا عليهم لسان الانتقام: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزهم أزا﴾(١).

---

١ — سورة مريم — الآية: ٨٣.

ذكر طلب الكرج الأمان واستشفاعهم إلى ذلك الجاني بجارهم الشيخ إبراهيم حاكم شروان

فاستدركوا تقصيرهم، واستنهضوا تدبيرهم، ورقعوا خرقهم قبل الاتساع، ووصلوا حبل حياتهم قبل الانقطاع، واستغاثوا: الأمان الأمان، واستعانوا في خلاصهم بالشيخ إبراهيم حاكم شروان، وألقوا إلى أيادي تدبيره الزمام، ورضوا أن يكون لجماعتهم، وإن كان على غير ملتهم الإمام، وجعلوه خطيب ذلك الخطب، واستحلوا ما تثمر لهم سعايته من يابس ورطب، وكان إذ ذاك جيوش المصيف كجمع الكرج قد ولت، وجنود الخريف والشتاء كجيش تيمور قد أطلت، وسلطان الأجرد، قد صقل فرند المياه وجرد، ورفع من الأغصان الأعلام السلطانية، ونصب على قلل الجبال الصيوانات البلورية، وألبس متن الغدير من نسيج نسيم الأصيل الدروع الداوديه، فكان ما في الكون من جوامد ونوام، من جملة عساكر تيمور حام له أو محام، قلت شعراً:

وإذا أراد الله نصرة عبده ... كانت له أعداؤه أنصارا
وإذا أراد خلاصه من هُلكة ... أجرى له من نارها الأنهارا
فترى العقول تقاصرت عن كنهه ... وترى له في شوكه أزهارا

فدخل الشيخ إبراهيم عليه، وقبل الأرض بين يديه، وحياه بتحية الأكاسرة من الملوك، ووقف في مقام أصغر مملوك، ثم استأذن في الخطاب، واستلطف في رد الجواب، فأذن له فقال: إن عموم شفقة مولانا الأمير، وحسن حنوه على المسكين والفقير، وشمول عاطفته الكريمة ورحمته المنيفه، حملت المملوك على عرض ما عن له على الآراء الشريفة، وهو أنه بحمد الله المرام حاصل، والمراد على وفق الاختيار متواصل، وهيبة مولانا الأمير في الشرق والغرب، أغنته عن الاستعداد للضرب والحرب، ثم إن العساكر المنصورة أكثر من أن تحصى، وفيهم

من الأسرى والمرمق الحال ما فات عن الاحصاء، خصوصا جماعات التتار، الذين ولى سعدهم الأدبار، وأحلوا قومهم دار البوار، قد أضر بهم البرد، وتردد نفس حظهم بين العكس والطرد، فإن استمرت الأمور، على هذا الدستور، رق الجليل، وهلك الرقيق، ودق العظيم، وانطحن الدقيق، وهذه البلاد بل وسائر الأقاليم، محال إلا بأمرك أن تستقيم، وإن رؤساءها من الفجرة والفسقه، علموا ما لمولانا الأمير على مملوكه من الحنو والشفقة، فتراموا لعلة المجاورة على المملوك، ورجوا من الصدقات الشريفة ما يرجوه من الغني الكريم المحتاج الصعلوك، ومهما برزت به المراسيم المطاعه، تلقاه بالقبول كل من المملوك وهؤلاء الجماعه، وقابلوا الأوامر الشريفة بالسمع والطاعه، وإن كان المقصود جمع مال، فالمملوك يقوم به على كل حال، وأنى للمملوك مال إلا من صدقات مولانا الأمير، وما قصد المملوك بذلك إلا دفع الكلفة عن الجانبين وتيسير الأمر العسير، ورعاية لحق الجوار، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : «ما زال جبريل يوصيني بالجار»، والرأي الشريف أعلى وأحرى، أن لايخيب رجاء المملوك وأولى، فأجابه إلى سؤاله، وطلب منه مالاً عريضاً سواء كان من مالهم أو من ماله، فقال الشيخ إبراهيم: أنا زعيم، وأبلغ ذلك إلى خزانته أتم إبلاغ، ثم رحل وأكمل شتويته في قراباغ، وذلك في سنة ست وثمانمائة.

ذكر ثني عنانه إلى أوطانه وقصده بلاده بعد استكماله فساده

ولما زينت ما شطة الكون عروس المكان، وأقام مزين الجمادات قوام الزمان، وتهيجت القوى النامية، وتبرجت مخدرات الذرى السامية، وشبت الجمرات، ودبت الحشرات، تحرك للرحيل ذلك الأفعى، ونفث على هوام أموات الزمهرير من أحياء عساكره ﴿فإذا هي حية تسعى﴾(١) فدق الكوس، فجاوب صداه الرعد القاصف، ولمعت مرايا اللبوس، فانعكس

١— سورة طه— الآية ٢٠.

منها إيماض البرق الخاطف، وعرض فيوله في التروس، فأحاط بالأطواد قوس قزح، وسير خيوله في اللبوس، فتجللت كتائب الكثبان بشفوف الورد والريحان خائلة في ذلك البر المنتزح، ومارت الجبال، فمرت الجبال ﴿مر السحاب﴾(١) وسارت الرعال(٢)، فصعد العنان من النقع الضباب، وشرعت الذوابل، فإذا رطيب الأغصان متمائل، وهزهزت القواصل(٣)، فانساب في القصيل مرهف الجداول، ونضنضت(٤) ألسنة الخناجر والنيازك، فبرزت عذبات العذبات، ونشرت أعلام الكتائب، فانبثت أشاهير الأزاهير على عقبات العقبات، وعلى الجملة فإن الربيع حاكى ببروقه بوارقه، وبرعوده صواعقه، وبخمائله وروابيه زرابيه ونمارقه، وبركامه قتامه، وبشقائقه أعلامه، وبأشجاره المزهرة خيامه، وبأغصانه رماحه، وبعواصف أمره ونهيه رياحه، وبكتائبه السود كتبه الخضر، وبأزهاره الزرق مزارقه الزهر، وبسيوله الحجافة مسير جحافله، وباضطراب بحر فيالقه، تموج خمائله عند هبوب أصائله، واستمر بين ذلك العرار والرند، قافلا بالبال الفارغ إلى سمرقند، فسار والسرور نديمه، والحبور خديمه، والأشر معاقره، والنشاط مسامره، وبين التفريط والافراط موارده، ومصادره، حتى قطع ولايات أذربيجان، وحل ركابه بممالك خراسان، وفي خدمته ملوك الأقاليم وأرباب التيجان.

ذكر نهوض ملوك الأطراف لاستقباله ووفودها عليه مهنئة له بحسن مآله

ولما تسامعت أقطار البلدان، أنه قفل قاصدا الأوطان، أقبلت إليه الملوك من أطرافها، والمرازبة من أكنافها، وسارع إلى استقباله المداره، والحجاجيح، وتبادر مما وراء النهر وغيرها السراة والمراجيح، وتطاير

١— سورة النمل— الآية ٨٨.

٢— الرعال: جماعة الخيل. العين

٣— القواصل: السيوف

٤— النضنضة: صوت الحية ونحوه من تحريك الحنكين.

إليه من الأقاليم أساطينها، ومن الـولايات والثغور ملوكها وسلاطينها، ومن كان مرابطاً في ثغر، ومواظباً عـن أكيد أمر، أرسل نائبه أو قاصده، أو حاجبـه أو رائده، يتباشرون بقـدوم أقدامه، ويهنـونه بما فتح عليه من هنده، وعراقه، ورومه، وكرجه، وشـامه، ويقدمون التقادم والحمولات، ويهيؤون الضيـافات والإقامات، ثم أردفهم السـادات والعلماء والمشايخ والكبراء، ورؤساء الموابذة وموابذة الرؤسـاء، فجعل يسمت لكل واحد منهم سمتا، ويأمره فيخضع بالسمع والطاعة إجلالا وصمتا، ويمهد له فيها ولاه قواعـد ومباني، فلا ترى فيها عـرجا ولاأمتا(١)، ثم جهـز كلا منهم بما اقتضاه رأيه وأجـازه ووصل إلى جيحون وقـد أعدت له السفن والمراكب فجازه، فخرج أهل المدينة للاستقبال، وكل منهم منشرح البال ملتئم الحال، فدخل سمرقند أوائل سنة سبع وثمانمائه، ومعه من طوائف الأمم الاثنان والسبعـون فـرقـة وأكثـرهم قـدرية ومـرجئه، ثم أذن لمن اختاره من العساكر فتفرقت، ولطوائف جند ما وراء النهر فتمزقت.

ذكر توزيعه التتار أرسالا شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً

فلما استقرت به الدار، أخذ في توزيع التتار، فكانوا ذوي عدة وعِدة، ونجـدة وشـدة، فحين سلبهم عـدتهم، كسر شـوكتهم وشـدتهم، ولكن أبقى الله عـدتهم، فخـاف لذلـك نجـدتهم، فشتت جمعهم، وأقـوى من اجتماعهم ربعهم، فبـذرهم في فياف وبطاح، ووزعهم في قفـار وضواح، وبددهم في أشطار عنـاء وبراح، ونددهم في أقطار بكاء ونواح، فسـدد برؤوسهم أفواه الثغور، وأوصد بظهورهم أبواب النحور، فجهز طائفة إلى كـاشغر، وهـو بين حدي الخطا والهند أحـد الثغـر، ووجـه فرقـة الى دويرة في وسط بحيرة تدعى أسى كول(٢) ، وهو ثغـر بين ممالك تيمور والموغـول، فصادفهم بعـض السغدة فـانقطعـوا عمن أضيفوا إليـه، كما

١— الأمت: الشك والارتياب.

٢— أشهر بحيرات تركستان وأكبرها، واسمها الآن ايسق كول Issiq-Kul

ينقطع عما يضاف إليه بعد، فانضموا منهزمين ولم يلووا، وأخذوا من صوب الشمال، وخرجوا على الدشت إلى أيدكو، ثم أضاف سائرهم، وقبائلهم وعشائرهم، من كل حزين أواه، إلى أرغون شاه، وجهزه بعزم وحزم، إلى ثغور الدشت وحدود خوارزم.

وهذا كان هجيره، وما بنى عليه أوامره وأموره، فإنه كان من الشياطين النقاله، وفي المكر واللعب بالناس كدلة(١) المحتالة، كلما بنى في قطر قلعه أو استولى في نحر من نحور المخالفين على بقعه، أنزل بها من العساكر، من هو في أقصى جهات تقابلها من الحصون والدساكر، ونقل إليها من لها من الرجال، إن كان في الشمال إلى اليمين، وإن كان في الجنوب إلى الشمال، فإنه لما استولى على ملك تبريز وما والاه، استناب فيه ولده لصلبه أميرانشاه، وأمده من الجغتاي بطائفة غلاظ شداد، منهم خدايداد أخو الله داد، ونقل إلى أطراف الخطا وتركستان، طوائف من عسكر العراقين والهند وخراسان، وولى سماقة بن التكريتي الذي أخذه من الشام، نيابة مدينة سيرام، وهي من سمرقند إلى جهة الشرق نحو من عشرة أيام، وولى يلبغا المجنون نيابة ينكى بلاس، وراء سيرام بنحو أربعة أيام، وهما كورتان مختصرتان، وراء سيحون من معاملات تركستان، وهما كانا أقل من أن يذكرا، فضلاً أن يصيرا حكاماً وأمرا، وإنما فعل ذلك، لينتشر في أطراف المالك، ان عنده من رؤساء الشام، جماعة من أعيان الأعلام، وأن في ممالكه من الخدم، رؤساء الأمم، حكام العرب والعجم، وأن ذلك الطرف جال وسطا، وملك ما بين الشام والخطا.

فصل: ثم أخذ يتفقد ما حدث في غيبته، من أمور بلاده ورعيته، ويتفحص عن قضايا المالك، ويسلك لملوكها المسالك، ويدبر مصالح الأطراف والثغور، والأكناف والبحور، ويراعي أحوال الكبير والصغير، ويتعاطى مصلحة الغني والفقير، ويضع الأشياء في محلها، وزمام الوظائف والمناصب في يد أهلها، ويبادر، بما قال الشاعر شعراً :

---

١ - لعله أراد دلة المحتالة، إحدى شخصيات قصص ألف ليلة وليلة.

لله در أنوشروان من رجل ما كان أعرفه بالوغد والسّفل
نهاهم أن يمسوا عنده قلما وأن يذل بنو الأحرار بالعمل

وأخذ يربي السادات، ويكرم الأولياء ذوي الكرامات، ويبجل العلم وأهله، ويعلي الفضل ويعز محله، ويقلع المفسد ويقمع المارق، ويخنق الزاني، ويصلب السارق، حتى استقامت في زعمه أمور السياسه، وتمت على توراة جنكيزخان قواعد الرياسه.

ذكر ما ابتدعه من منكراته وطبع بخاتمه خواتيم سيآته ووافى باستيفائه رائد وفاته

ثم شرع في تزويج حفيده، أي ولد الولد أولوغ بيك بن شاه رخ النبيه، الذي هو في يومنا هذا أعني سنة أربعين وثمانمائة حاكم سمرقند من قبل أبيه، فأمر أهل المدينة، أن يشرعوا في الزينة، وأن يرفع عنهم الكلف والمظالم، ويعفى عن الطروحات والمغارم، ويبسط لهم بساط الأمان، ويعامل الكبير والصغير والرفيع والوضيع منهم بالفضل والإحسان، وأن لا يشهر في ممالكه سيف، ولا يجري فيها ظلم ولا حيف، وأن يخرجوا زينتهم إلى مكان نحو ميل من ضواحي سمرقند، يدعى كان كل، هواؤه أذكى من المسك وماؤه أحلى من القند(١)، كأنه قطعة من روض الجنان، غفل عنها خازنها رضوان، قلت شعراً:

رعى فيه غزال الترك شيحا فصار المسك بعض دم الغزال

روائح هوائه ألطف من نسيم السحر، ورواشح مائه أعذب من ماء الحياة، صفاء بلاكدر، وتغاريد طيوره ألذ في السماع من ثناء الناي على الوتر، قلت :

بساط زمرد نثرت عليه من الياقوت ألوان الفصوص

---

١ — القند: السكر.

وقلت شعراً:

كـأنّ مـــدوّر الأزهـار فيـــه ... ورد في محاسنـه تنضـــد
صحـــساف من لجين أو عقيـق ... ومـرجـان وياقــوت وعسجـد
فهـــذي حشــوها مسك فتيت ... وهـذي ضمنهـــا تبر مبـــدّد
أراد الـروض يجلــوهـا علينـا ... فصـاغ لها أكفـا مـن زبرجـد

صباغ القوة الخياليـة يتعلم خلط أصباغ النقوش من تشاهير أزاهيره، ومواشط عـرائس الجمال تزين عوانق الكمال من تحاريـر تصاويره، قلت شعراً:

كـأنّ زُباه سيّما وقــت هبـــة ... خضمٌ بـأنـواع الحُلي مـــرصعُ

أفسح من أمل حريص طامع، في جاه غني كريم نافع، وأنزه للأبصار والبصائـر، من غض شباب زاه زاهر، ساعـده الدهر بوجه بسيط وأدب كامل، وعمر طويل ومال وافر، وهو أحد الأماكن المذكورة، والمتنزهات التي هي بالنزاهة والرفاهة في الدنيا مشهـوره، ومبدأ السعد الذي جهاته بالنعم موقره موفوره قلت:

شقـــائقـه خـــدود نـاضرات ... تمشت من ســــواد المقلتين

عساكر تيمور مع أنها البحـر المتلاطم فيه، تضاهي بني إسرائيل في قطر من أقطار التيه، ثم أمر الملوك والسلاطين، وأرباب التيجان من الأساطين، أن يخرجوا إليه، وينبثوا عليه، وفـرز لكل منهم في ذلك المرج مقاماً، ورتبه ميمنة وميسرة، ووراء وأماما، وأمـر أن يظهر ما أمكنه من تجمل وتحسين، ويضرب ماله من خيـام وقباب متكلفة بأنواع النقـوش والتزين، ثم رتب من دونهم من الكبراء والأعيـان، ورؤسـاء الأمـراء والأعـوان، في ذلك الروض الأريض، والمرج الطويل العـريض، فأخـرج كل منهم مـا حـواه، وكـاثر نظراءه لينظروا ما قـدمت يداه، وفـاخر ذوو الفخـار منهم وباهى،

واستقصى في المباهاة والمفاخرة وتناهى، فنشروا مما طوت صحائف أيامهم، على جمعهم إياه سجلات آثامهم، من طرف أطراف الأقاليم والأمصار، وتحف جواهر المعادن والبحار، ونفائس ذخائر نهبوا عليها النفوس، وألهبوا الأنفاس، وعرائس أخاثر سقوا عليها الكؤوس وخرقوا الأكياس، ما أزرى على زهر تلك الروضة الخضراء بالأنجم الزواهر، وأسرى منظره البهيج سرايات المسرات إلى سر السرائر، فزاد حسن حديث ذلك المكان ونما، وعلا قدره بهجة على كل أرض وسما.

ثم أمر بسرادقاته، فجعلت مركز تلك الداره، ونقطة دائرة تلك الأفلاك المداره، وهي سور محيط مضروب، على ماله من خيام وقباب منصوب، له باب واسع، يدخل فيه من دهليز شاسع، على ما به من معان ومغان، وله قرنان شامخان، تنكسر لهما الرؤوس، وتذهل مشاهدتهما النفوس، ولأجل هذين، كان يلقب ذا القرنين، ونصبوا له داخل هذا الجناب، عدة من الخيام والأخبية والقباب، ومن جملتها قبة أعلاها وأسفلها بالذهب مزركش، وظاهرها وباطنها بلب الريش مريش، وأخرى كلها بالحرير محبوكة، وبأنواع النقوش وألوان الأصباغ مبنية مشبوكة، وأخرى من فرقها إلى قدمها مكللة باللآلي الكبار، التي لا يعلم قيمة أحدها إلا عالم الأسرار، وأخرى مرصعة بأنواع الجواهر، على صفائح الذهب مدهشة للأبصار والبصائر، وجعلوا لما بين ذلك سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون، وبين ذلك الأرواق المنقشة، ورواقات الأخبية المزركشة، والفساطيط والأبنية المدهشة، وفيها مراوح الخيش، الجالبات لبرد العَيش، والمنافع والمرافق، والمفاتح والمغالق.

وأظهروا الذخائر الغريبة، وأرخوا على ذلك الستائر العجيبة، ومن جملتها ستارة جوخ كان أخذها من خزانة السلطان بايزيد، قطعة واحدة عرضها نحو من عشرة أذرع بالذراع الحديد، منقشة بأنواع النقوش، من

صور النباتات والبنيان والعـروش، وأشكال الهوام والطيور والوحوش، وأشخـاص الشيـوخ والشبـان، والنســاء والصبيـان، ونقـوش الكتـابة وعجائب البلدان والعـروق اللاعبة وغرائب الحيـوان، بألوان الأصباغ، المبـالغ في إحكـامهـا وإجـادتها، أحسن بـلاغ، كأن صـورها متحـركـة تناجيك، وثمارها الـدانيـة لاقتطافهـا تناديك، وهـذه الستـارة إحــدى عجائب الدنيا، وليس المستمع كالرائي(١).

ونصبـوا أمامـه سرادقاته بمقـدار شـوط فرس الصيـوان، الذي يجتمع المباشرون فيـه وأرباب الديوان، وهو جتر عالي الذرا، شـامخ في الهوا، له نحو من أربعين أسطوانه، وعواميد وسـوار شيدوا عليها أركانه، وسددوا بنيـانه، يتسلق الفراشـون إلى أعـلاه كالقـردة، كأنهم مسترقـو السمع من الشياطين والمرده، ويتعادون على سطحه، حين يرفعونه بعد شطحه.

فصل: وأخرج أهل المدينة ما عبوه، من تجمل وزينة ونصبوه، تجاه تلك السرادقات على مد البصر ، وتأنق كل واحـد من أهل البلد بما وصلت إليه القـوى والقدر، واجتهـد كل ذي حـرفة بما يتعلق بحـرفتـه، وبالغ كل من أرباب الصنائع فيما يليق بصنعتـه، حتـى أن ناسج القصب أخـرج فـارسـا مكمل الأهبـة، واستقصى في إكمال هيئتـه حتـى أظافيره وهدبه، واستـوفى دقائـق ما يتعلق به من الآلات، كقـوسه وسيفـه وسائر الاستعـدادت، كل ذلـك من القصــب، ورفع ذلـك في مكانـه من غير تعـب ونصب، وصنـع القطانون من القطن مئذنة رفيعـة، محكمـة بديعـة، ذات قـد رشيق، وصنع وثيق، ومنظر أنيق، ببيـاض جسم يسمو على الحور، وكمال قـوام يعلو على القصور، ونصبوها فصارت بحسنها تستـوقف النظارة، وبعلو قامتها ترشد في ذلك المهمه المارة، حتى غـدت علما للسيارة، وعلى جـوامع تلك الأبنية منارة، وكــذلك أهـل الحروف من الصــواغين، والحدادين والخفــافين والقواسين، وسائر الطوائف، وأرباب الملاعب واللطائف.

١- بالأصل «كالمرأي» وهو تصحيف لعل صوابه ماأثبتناه.

ولقد كانت سمرقند مجمع الأفاضل، ومحط رجال أهل الفضائل، فرتبت كل طائفة ما أخرجته على حدة في مكانه، أمام سرادقاته وصيوان ديوانه، ونصبت وراء ذلك كله الأسواق، وضربت بين الناس بوقات الأبواق، وزينت الفيول وجياد الخيول بأفخر لباس، وأطلق عنان الرخص والتمتع بأنواع الملاهي والملاذ للناس، فسارع كل طالب إلى مطلوبه، واجتمع كل محب منهم مع محبوبه، من غير أن يتعدى أحد على أحد، أو يستطيل أعلى من يكون على أدنى من يكون من الجند وأهل البلد، أو يجري تعد ما، من شريف ما على وضيع ما.

فصل: ولما استتبت الأمور على مراد تسويل قرينته، وأخذت الأرض زخرفها، وأزينت من جنده وأهل مدينته، توجه إلى ذلك المرج على وقاره وسكينته، وخرج على قومه في زينته، ثم أمر أن تجري يواقيت الصهباء، على زبرجد ذلك المرج الأحوى، وسبلها لكل ناظر وعام، فسبح في تيارها كل خاص وعام، فدارت في سماء تلك الأرض للسرور أفلاك، وهبطت في أفقها بوحي اللذات من أفلاك الملاحة أملاك، فأصبحت تلك الأسود الخوادر، وهي ظباء جواذر، وتنزلوا من جحيم المنازله، إلى نعيم المغازله، وتبدلت تلك الغلاظة والكثافة، باللطافة والظرافه، وأصبحوا بعد جورهم يتجاورون، وبمعنى ما قلته يتحاورون، شعر :

محا الظلم من بين الورى سيف عدلنا　　　فلم يتشبث مستغيث بمعتدي
سوى قلبُ صبٌ صادَه طرفُ أحورُ　　　وخصرٌ نحيل آده ردفُ أغيد

فما صار يصول سيف إلا أن كان صارم لحظ وهو ذلك مكسور، ولا يجول ذابل إلا إن كان رمح قد وهو مع ذلك بالعناق مهصور، وصرت لا ترى إلا عوداً يحرك أو يحرق، أو قدحاً يروب أو يروق، أو شاربا يعربد، أو جارية تسقي، أو ساقية تجري، أو خد ورد يعشق، أو ورد خد ينشق، أو كاس ثغر يرشف، أو غصن خصر للعناق يقصف، أو فرص عيش تغتنم، أو لسان حال ينشد ويترنم شعراً:

في ربيـــع الـــوصـــل لما   أن وفى الظبـــي الشرود
وسرت بشرى الصبـــا   للـــروض تنبـــي بـــالـــورود
خـــرّت الأنهار والأ   غصـــان مـــالـت للسجـــود
واجتمعنـــا في ريـــاضٍ   حسنهـــا يسبي الـوجـــود
فـــالسحـــاب الصب فيهـــا   بـــالحشـــا أمســى يجود
نثـــر الـدر علينـــا   منـــه بلـــور الغمام
فـــوق صحن سنـدمي   فيـــه مليـــاقـــوت جـــام
وثغـــور مـــن عقيـــق   زانها حســن إبتســـام
وعيـــون مـــن لجين   نـــاظـــرات لا تنـــام .
وغصـــون الدوح خَفَّتْـــ   ـنأبـا نـواع النقـــود
طيرهـــا غنى عليهـــا   إذ عـــلا عـــوداً وطـار
وشـــذاها ضـــاع فيـــه الـــ   مســك لما منه غـــار
والصبـــا أمسى عليـــلا   في ربـــاهـــا حين
جنة الفـــردوس فيهـــا   وجـــه بدري حين نـــار
أصبحت جنـات عـــدن   تشتهـــي فيهـــا الخلـود
يـــا لها مـــن عشرة   جـــاءت بـأنـواع الهنـا
ليـس فيهـــا غير لثم   وارتشـــاف واعتنـا
وكـــؤوس دائـــرات   وغنـــاء وغنـــى
لـــو رآهـــا زاهـــد مـــن   ريحهـــا كـــان انثنى
لم يسعـــه عنـدهـا مـن   زهـده إلا الجحـــود
قم نـديمي عـــاطني   فـــالدهـر لا يســـوى الحَزَن
كـــأس عيـــش ينمحـــي   في مـــزجهـــا صرف الزمن
الطـلا و الماء والخضـــ   ـرة والـوجـــه الحسن
لاتطـع في ذا عـــذولاً   إنـــه خـــب كَمَـــن
في حشـــاه غليـــان   لاتقـــل خـــل ودود

فحصل الأمن والدعه، والفراغة والسعه، ورخص الأسعار، وقضاء الأوطار، واعتدال الزمان، وعدل السلطان، وصحة الأبدان، وصفاء الوقت، وذهاب المقت، وحصول المطلوب، ووصال المحبوب.

مصراع:

وعند التناهي يقصر المتطاول.

واتفق له في ذلك العرس من الأبهة والعظموت، والسطوة والجبروت، شيء لم أظنه حصل لأحد من الخلفاء المتقدمين، ولا يقع فيما بعد لأحد من المتأخرين، وإن كان المأمون فرش تحته ليلة عرسه حصيراً من الذهب، ونشر على رأسه اللؤلؤ المنتخب، ولم يلتفت إليه، ولم يلتقط من ورائه ولا من بين يديه، حتى قال: قاتل الله أبا نواس كأنه كان حاضراً حيث قال:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء در على أرض من الذهب(١)

لكن تيمور كان في عرسه ذاك بنات الملوك وصائف، وبنوها عبيداً، كل منهم في مقام العبودية واقف، واجتمع عنده قصاد الملك الناصر فرج من مصر والشام، ومعهم الحمولات والتقادم، ومن جملته الزرافي والنعام، ورسل الخطا، والهند، والعراق، والدشت، والسند، وبريدي الفرنج ومن سواهم، وقصاد كل الأقاليم أقصاهم وأدناهم، ومن كل مخالف وموافق، ومعاد ومصادق، فأخر الجميع حتى شاهدوا عظمته، وعاينوا جبروته في ذلك العرس وأبهته، فباشر ذلك على تلك الحال، لايخاف النكال ولا يخشى الوبال، قلت شعراً:

قرير العين لايرجو إلها ... خلي البال لايخشى معادا

يتناول المحرمات ويبيحها، ويروج عنده مستهجنها وقبيحها، مهما

١— لم يرد هذا البيت في ديوان أبي نواس المطبوع.

أمــــر به جماعتـــــه في ذلـك امتثلوه، يتبـــــاهون في كل قبيـح عملوه، و﴿لايتناهون عن منكر فعلوه﴾(١)، قلت شعراً:

تبـــدّل من سفـك وهتك جـــريمـــة أحل بها مـــا حـــــرّمتـــه الشرائع

وجعل يدعـو الملوك والأمـــراء، وسـلاطين الآفـاق والكبراء، وقـواد التوامين، وزعماء الجيوش والمقدمين، ويسقيهم الكـاسات بيده، ويحل كلا منهم محل أخيـه وولده، ويخلع عليهـم الخلع السنيـة، ويجزل لهم المواهب والعطيـة، ويجلس كـلا منهم بجنبـه ذات اليمين، وأمـا ذات الشمال فإنها للنساء والخواتين، فإن النساء لا يستترن من الرجـال، خصوصاً في مجالس الاجتماع والاحتفال، واستمر في ذلك بين جنك وقانون، وعود وأرغون، وناي مـرقص مطرب، وشاد معجب مغـرب، وسـاق فاتن ودهر مـوات وهوى متبع، وأمر مستمع، وشمس تدور، على نجوم وبدور، وكأس تملأ وكيس يفـرغ، وأمـــر يمضى وأمل يبلغ، حتى استخفــه الطرب والبطر، واستفـزه النشاط والأشر، فضبع إلى من استعضـده، ومـد للنهوض إليـه يده، فتعاضدوا لمعـاونته، وتعاونوا على معاضدته، وحين استـوى قالصا، تهادى بينهم بشيبته وعرجته راقصا، قلت:

ومـن عجب الـدنيــــــا أشل مصفـق وأبكـم قـــــوال وأعـــــرج راقـص

فنثـــر عليـه الملوك والكبراء، ونســـاء السـلاطين والأمـــراء، الجواهر واللآلي، والفضـــة والذهب وكل نفيـس غـالي، ولم يـزل على ذلك حتى استـوفى من اللهـــو حصتـه، ودخل العـروس منصتـــه، وانقضت تلك الأمنية، وتفرقت هاتيك الجمعية، شعر:

مـــــا كــــــان ذاك العيش إلاّ سكـرة لـــذّاتها رَحَلـــت وحـــلَّ خُمارُهـــا

فصل: ولما بلغ من دنياه المرام، وانتهى ليله إلى الكمال والتمام، وعرج فيما يرومه إلى ما عرج، وصعـد في سلم ارتقائه إلى أعلى الدرج، وقارب

١— سورة المائدة— الآية: ٧٩.

بدر عمره الأفول، وشمس حياته أن تزول، رشقه الزمان بسهم أصماه فما أمهله، وناداه بلسان فصيح: فرغ العروس يا بيت الاحماء لو سمع لكان يصيح، قلت شعراً:

وما الدهر إلا سلم فبقدر ما	يكون صعود المرء فيه هبوطه
وهيهات ما فيه نزول وإنما	شروط الذي يرقى إليه سقوطه
فمن صار أعلى كان أوفى تهشما	وفاء بها قامت عليه شروطه

فأفاق من سكره، وعاد إلى عسكره، وارعوى عما اعتدى، وعلم أنه أضل قومه وما هدى، ورأى أنه قد فرط في أمر الرئاسة، وحط من جانب الإيالة والسياسه، وأنه سام الملك خسفا، وسائس السلطنة وجد عليه مائة طريق في التقصير وألفا، فأخذ يتدارك ما كان فرط، ويطلب التفصي(١) عما فيه تورط.

ذكر بعض حوادث متقدمة لمتعلقات ذلك العابث

وكان تيمور قد رأى في الهند جامعاً، للبصيرة مرتعاً وللبصر رائعا، عرشه في حسن بنائه ونقشه، من الرخام الأبيض كبساط فرشه، فأعجبه شكله، وأراد أن يبنى له في سمرقند مثله، ففرز لذلك مكانا في فرز، ورسم أن يبنى له جامع(٢) على ذلك الطرز، وأن يقطع له أحجار من المرمر الصلد، وفوض أمره إلى رجل يقال له محمد جلد، أحد أعوانه ومباشري ديوانه، فاجتهد في بنيانه، وتشييد أركانه، واستقصى جهده في تحسينه، من تأسيسه وتركيبه وترتيبه وتزيينه، وأعلى له أربع مياذين، وباهى فيه أئمة البنائين والأستاذين، وظن أن لو كان على ذلك أحد غيره، لما قدر أن يصنع صنعه، ويسير سيره، وأن تيمور سيشكر له صنيعه، وينزله عنده بذلك منزلة رفيعة، فلما آب من سفرته، وتفقد ما

١— تفصيت: إذا تخلصت من بلية

٢— بقايا هذا المسجد الجامع ما تزال ماثلة في سمرقند إلى اليوم.

حدث في غيبته، توجه إلى الجامع لينظر إليه، فبمجرد ما وقع نظره عليه، أمر بمحمد جلد فألقوه على وجهه وربطوا رجليه، ولا زالوا يجرونه، وعلى وجهه يسحبونه، حتى بضعوه(١) على تلك الحال، واستولى على ماله من أهل وولد ومال.

وأسباب ذلك متعددة ومعظمها أن الملكة الكبرى، امرأة تيمور العظمى(٢)أمرت ببناء مدرسه، واتفق المعمارية وأهل الهندسة، أن تكون في مواضع، مقابلة لبناء هذا الجامع، فشيدوا أركانها، وشدوا بنيانها، وعلوا على الجامع طبقاتها وحيطانها، فكانت أرسخ منه تمكينا، وأشمخ منه عرينا، وتيمور كان نمري الطبع، أسدي الوضع، ما تكبر عليه رأس إلا شدخه، ولا تجبر عليه ظهر إلا فضحه، وكذلك كلما أضيف إليه، أو عول في النسبة عليه، فلما رأى قامة تلك المدرسة طالت، وعلى قد جامعه الجبير ترفعت واستطالت، نغل صدره غيظا واشتعل، وفعل مع مباشر ذلك ما فعل فلم يصادفه فيما أمله سعد، وهذه الحكاية متقدمة لما ذكره بعد.

نكتة: كان هذا الجامع كصاحبه، أحاطت أوزار الأحجار بجوانبه، وتثاقلت على غواربه ومناكبه، ودقت عنق طاقته عن حملها ورقت، وتلا لسان سقفه﴿إذا السماء انشقت﴾(٣)وما أمكن تيمور الاشتغال بهدمه ثم إحكامه، ونقض بنائه واستيفاء إبرامه، فطوى ثوب عمارته على غره، واستبقى خشب أخشبه على وهنه وكسره، لكن أمر خاصته وذويه، أن يجتمعوا ويجمعوا فيه، واستمر ذلك في حياته وبعد وفاته، فكان إذا اجتمع الناس فيه للصلاه، يرتقبون من تلك الحجارة ما يهبط من خشية الله، وصار ملك الجبال في تلك المحله، يتلو﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم

١— أي قطعوه.

٢— كانت دلشاد آغا التي تقدم ذكرها وسوف يرد ذكرها أيضاً هي الزوجه الملكة الكبرى، ولكنها توفيت سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م، لذلك يرجح أن التي قصدت هي سراي ملك خانوم، وكان تيمور قد تزوجها بعد مقتل زوجها في ٧٧١هـ/ ١٣٧٠ م.

٣— سورة الرحمن— الآية: ١.

كأنه ظله﴾(١)، ففي بعض الأحيان، وقد غص بالناس ذلك المكان، وأخذ كل منهم حذره، سقط من حجارته من أعلاه شذره، ففر كل من كان جاثيا، وانفضوا إلى الأبواب، وتركوا الإمام قائما، وكان من جملتهم الله داد، أحد الأكفاء والأنداد، فلما اطلعوا على حقيقة الخبر، تراجعوا وزال عنهم الخور، فلما قضوا الفرض، وانتشروا في الأرض، قال لي الله داد، وكان من الدهاة ذوي الكياد والأذكياء النقاد، له حوالى كعبة المخازي مائة شوط وألف طوق: ينبغي أن يلقب هذا الجامع بمسجد الحرام والصلاة فيه بصلاة الخوف، وقال لي الله داد وقد فهم معنى هذا الإنشاد: وينبغي أن ينشد، في شأن هذا المعبد، ويكون رقم طرازه ونقش صدره ومجازه، قول الشاعر:

سمعتك تبني مسجدا من جناية ... وأنت بحمد اللّه غير موفق

كمطعمة الأيتام من كدّ فرجها ... لك الويل لا تزني ولا تتصدّقي

فصل: ولما كان تيمور ببلاد الروم يصول، كان استخلاص ممالك الشرق في فكره يجول، وقد ذكر أنه أرسل إلى الله داد، يستوصفه أوضاع تلك البلاد، ولما انكشفت له أحوالها، وتبينت له قراها ومضافاتها وأعمالها، حتى شاهدتها عين بصيرته، واستقرت كيفيتها في سر سريرته، جهز لتلك النواحي، رؤوس هاتيك الضواحي، ومن جملتهم بيردي بيك، وتنكرى بيردي، وسعادات، والياس خواجه ودولة تيمور مع زيادات، وأضاف إليهم طوائف من الأجناد، ورسم أن يتوجهوا كلهم إلى الله داد، وأن يجهز الله داد أمره، ويتوجهوا فيبنوا قلعة تدعى باش خمره(٢) وهي عن أشباره نحو من عشرة أيام، ومن متعلقات الموغول الطغام، وكانت أمورها اضطربت، ولكونها متنازعة بين مملكتين خربت.

١— سورة الأعراف— الآية: ١٧١.

٢— وقعت: باش خمره فيها بين سميرتشه الحالية والمجرى الأعلى لنهر سيحون، انظر بارثولد: Four Studies, p 61.

فتــوجهــوا إلى تلك الداره، بــالعســاكــر الجراره، واشتغلوا على غير عادتهم بالعماره، وكان توجه هذه الفئه، في أواخر سنة ست وأوائل سبع وثمانمائـه، وقصـد بذلك أن تكون لهم معقــلا، وعند توجههم إلى الخطا وإيابهم ملجأ موئلا.

فلما أحكموا أساسها، وصنفـوا أنواع بيوتها وأجناسها، ووضعوا من أحجار الأساسات أقدامها، ورفعـوا على أعلام الأسوار أعلامها، أرسل إليهم مـرسومـا أنهم يرجئون أمـرها، ويتناسـون ذكرها، ويـأمرهم فيـه بالرجـوع، والاشتغال بتعليق البلاد بالـزروع، بحيث أن فقهاء المدارس والديار، من أهل القرى والأمصـار، والمشتغلين بفقه المزارعه والمسـاقاة من فـلاحي الأنجـاد والأغـوار، وأهـل الرزداقـات والأكـاره(١)، من حدود سمرقند إلى إشبـاره، يتركون مسائل المعاملة والمبـايعه، ويكررون البحث قولا وعمـلا في درس المساقـاة والمزارعه، ويؤذن في جماعتهم أن يقيم كـلا منهم في الزرع صلاحـه، وإن اضطر أحدهم أن يترك صـلاته فـالحذر أن يترك فلاحتـه، ورام بذلك أن يكون لهم في سفـرهم عتـاداً، وان نقص لهم في الدرب قضيم وخصيم زادا،فتركوا العماره، وقصد كل من الأمـراء دياره، واشتغلوا بـاستخـراج البقـر والبـذار، واجتهـدوا في إحياء جميع الموات، كما رسم وأشـار، فما فرغـوا من ذلك إلا وقد طوى الصيف بساطه، ونشر رائد الخريف على العالم أعلامه وأنماطه.

ذكر عزمه كما كان على الخطا ومجيئه سكرة الموت بالحق وكشفه عنه الغطا ثم انتقاله من سفره إلى سقره

فلما أفاق، أخذ فيما كان عليه مـن التوجه إلى الآفاق، وقصد الحواشي والأطراف، واستخـــلاص الممالـك والأكناف، وصرف عنان الـذهاب، نحـــو الخطا على عـــادته، وكـــان ذلك عين الصـواب، فـأرسل إلى أمم عساكره أن يستوفزوا، ويأخذوا أهبة أربع سنين أو أكثر ويتجهزوا.

---

١ — الزداقات: القرى وما يتعلق بها من الأراضي، والأكار هم حراث الأرض.

فلبت كل آمة دعوة رسولها، وشنفت بأقراط مراسيمه آذان قبولها، وحمل كل أسد جوزاء عتاده، وامتطى جدي بغيه، وعتد كل ثور سنبلة زاده، ودلو سقيه، ودب كل عقرب منهم دبيب السرطان، وانسابوا انسياب الحوت في بحار العدوان، مجازفين مظالم العباد بلا كيل ولا ميزان.

فأبرد هلال القوس سهم برده بمرسومه إلى كل صماخ، يخبر أن جند الشتاء على عالم الكون والفساد أناخ، فليستعد له الكفاءة، وليحذره العراة والحفاة، ولا يكتفوا في كفه بكافاته فما كل كاف له كفوا، لأنه في هذه المرة آية من آيات الله فلا تتخذوا آيات الله هزوا، وإن قصده بقدومه تبريد الانفاس، وتشويظ(١) الأنوف والآذان، وإسقاط الأكارع وقلع الرأس، وأن فصل الخريف رائد جنوده، وقائد بنوده، ونموذج طلعته، ومرأى عين غلته، وعنوان مكاتبته، ومقدمة كتيبته، ثم زمجر بعواصف رياحه الباردة، وخيم على العالم بخيام غيومه الصادرة والوارده، فارتعدت الفرائص من زئيره، ولاذ كل من الحشرات بقعر جهنمه خوفا من زمهريره، وخمدت النيران، وجمدت الغدران، وارتجفت الأوراق ساقطة من الأغصان، وخرت على وجهها الأنهار، جارية من الأنجاد إلى الأغوار، وتخيست(٢) الاسود في أخياسها، وتكنست الظباء في كنانها، وتعوذ الكون من آفته، واصفر وجه المكان من مخافته، واغبرت خدود الرياض، وذبلت قدود الغياض، وراح ما كان بها من النضرة والارتياح، وأصبح نبات الأرض هشيما تذروه الرياح.

فاستسمج تيمور لفظات هذه النسمات، واستبرد نفثات هذه النفحات، وأمر باعداد لبوس القباب، واستعداد بركستوانات الجباب، واتخذ لصفاح الجمد وسهام البرد، من المبطنات الدرق، ومن الفراء الزرد، ثم ضاعف لملاقاة الشتاء مضاعفات اللباس، وأفرغها على قامة

١- الشواظ: اللهب الذي لا دخان فيه. العين

٢- تخيس الأسد: قبع في غابته.

عزمـه الثاقـب، وأمدها من كـافات كفايتـه بأتراس، ولم يلتفت إلى كلام وملام، واستكفى من الشتـاء ما لبسـه وأعده من كل كـاف ولام، وقال لعسكره لا تكترثوا بأمـر الشتـاء فـإنما هو برد وسـلام، وحين اجتمعت عساكـره، والتأمت أموره وأوامـره، أمر أن يصنع له خمس مـائة عجله، وتضبب بالحديد ليحمل عليهـا ثقله، فبادر الشتـاء خـروجه بالدخـول، وأورد بانقطاع جـراية عمـره مـن ديوان الفناء الوصـول، فبرز في شهـر رجـب، وقـد أصبح البرد عجبـاً وأي عجب، وسـار لا يرق لمرق، ولا يرثي لجسد من البرد محترق، فوصل في سياحتـه إلى سيحون وقد تجمد، وبنى عليه رائق النسيم الصرح الممرد قلت قديماً شعراً:

على البحـر قـد عـاينت جسرا ممدّدا بنـاه إله العـرش صرحـا ممـرّدا
بكيت فخلت الـدمع في جنبـاتـه رفيـق رحيق في زجـاج تجمـدا

فعبره ومر، ومضى على ذلك واستمر، وتمادى على لجاجه وأصر، قد مر الشتاء عليه بالدمـار، وانحط عليه من الجوانب بكل إعصار فيه نار، وحطم جيشـه بكل نكبـاء صرصر، وضرب أثبـات عسكره بصرة طول فيهـا ومـا قصر، وهو بذلك الجمع الكثير يسير، لا يرثي لأسير ولا يجبر وهن كسير، يسـابق البرد ببروده، ويجاري الجرد بجـرده ومـرده، فجـال فيهم الشتاء بحرا جـف عواصفه، وبث فيهم حواصب قـواصفه، وأقام عليهم نائحـات صراصره، وحكم فيهم زعـازع صنابـره، وحل بناديه، وطفق يناديه: مهـلا يا شـؤوم، ورويداً أيها الظلوم الغشـوم، فإلى متى تحرق القلوب بنارك، وتلهب الأكبـاد بـأوامك وأوارك، فإن كنت أحـد نفسي جهنم فإني ثاني النفسين، ونحن شيخان اقترنا في استئصـال البلاد والعبـاد فأنحس بقـران النحسين، وإن كنت بردت النفـوس وبردت الأنفاس، فنفحـات زمهريري منك أبرد، أو كـان في جرائـدك من جرد المسلمين بالعذاب فأصماهم وأصمهم ففي أيامي بعـون الله ما هو أصم وأجرد، فوالله لا حابيتك، فخذ ما آتيتك، ووالله لا يحميك يا شيخ من

برد ريب المنون، لواعج جمر مجمرة ولا واهج لهيب في كانون، ثم كال عليه من حواصل الثلوج ما يقطع الحديد، ويفك الزرد، وأنزل عليه وعلى عساكره من سماء الزمهرير من الجبال ما فيها من برد، وأرسل عقيبها زوابع سوافيه فحشتها في آذانهم ومآقيهم، ودستها في خياشيمهم فاستقبلت بها نزع أرواحهم إلى تراقيهم، وجعلت تلك الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وأصبحت مشارق الأرض ومغاربها من الثلوج المنقضة، كأنها بر عرصات القيامة، أو بحر صاغه الله من فضه، فكانت إذا بزغت الصقعاء ولمع الصقيع تراآى شيء عجيب، سماء من فيروزج وأرض من بلور ملأ ما بينهما شذور الذهب، فإذا هبت فيما بين ذلك والعياذ بالله نسمة ريح، على نسمة ذي روح، أخمدت نفسه، وجمدته وفرسه، وكذلك الجمل والجمال، حتى أتت على كل مرمق الحال، وانتهى الشأن إلى أن طابت النار وردا، وصارت لواردها سلاما وبردا، وأما الشمس فإنها ارتجفت، وجمدت عينها من البرد ونشفت، وصارت كما قيل شعراً:

يوم تودُّ الشمس من برده ... لو جرّت النار إلى قرصها

وكان الرجل اذا تنفس جمدت أنفاسه على سباله(١)ولحيته، فيصير كانه فرعون وقد رصع لحيته بحليته، وان لفظ من فيه نخامه عاقده، لا تصل إلى الارض مع ما فيها من الحراره إلا وهي بندقة جامده، فانكشف ستر الحياة عنهم، وأنشد لسان حال كل منهم، شعر:

فيا رب إن البرد أصبح كالحاً ... وأنت بحالي عالم لا تُعلَم

فان كنت يوماً مُدخلي في جهنم ... ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

فهلك من عسكره الجم الغفير، وأتى الشتاء على كثير من كبير منهم وصغير، وشاظ منهم أنوف وآذان وسقط، وانحل عقد نظامهم

---

١ — أي على شعر الشاربين.

وانفرط، ولازال الشتاء يهب ويصب عليهم ريحا وبحارا، حتى أغرقهم فيها وهم عاجزون حيارى، ونودي عليهم﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾(١) وهو مع ذلك لايلتفت إلى من مات، ولا يتأسف على ما فات.

ذكر مرسوم أرسله الى الله داد بت منه الكباد وفت القلوب والأعضاد وزاد ما خبله من هموم بأنكاد

وكان تيمور حين مخرجه من سمرقند، أرسل إلى الله داد بأشباره، مرسوماً أذهب فيه قراره، ونفر طائر نومه عن وكر أجفانه وأطاره، وفهم من فحواه بالإشاره، أنه طالب دماره، وميتم أولاده ومخرب دياره، شد عليه في المضائق، وسد في وجهه الطرق والطرائق، واقترح عليه فيه بأمور، يسهل عندها قطع الجبال ونقل الصخور، ويعذب عند أدناها شرب البحور، من أقلها أن يهيء له بمفرده، إقامة ليوم قدومه دون غده، خضيما يأكله ليله، وقضيما يطعمه خيله، ومن عرض ذلك مائة ألف حمل جمل طحينا خاصه، وهو مخصوص به لليلة واحدة خاصه، وأنه مع عساكره الجراره، لا يبيت سوى ليلة واحده بأشباره، إلى غير ذلك، فلما اطلع الله داد على هذا الكتاب، وفهم ما تضمنه فحوى هذا الخطاب، علم أنه قد حل به العذاب فسلب وعيه، وتبدل سعيه، وأخذ في إعداد الطحين، واجتهد في إدارة الطواحين، وكانت الطواحين أوقف من حال أديب، في هذا الزمن العجيب، ومجاري مياهها أيبس من كف شحيح، كلف زمن القحط تذريه الدقيق في الريح، ودماء الأنهار في مجاري عروق الجبال ناضبة، ودموع العيون في آماق الغروب غاربه، فبدل ما كان أعده، لكل نائبة وشده، وأهان نفائس الأموال، واستعان على إجراء الماء بالمال، واستغاث لأولي النجدة من الرجال، واستمد المدد، من كل عد

---

١ — سورة نوح— الآية: ٢٥.

وثمد(١)، واستنهض آراء المشفقين من الأصحاب، واستدفع بهم ما نزل به من مخلب البلايا وناب، وقرع لفتح ما أرتج عليه مما لا طاقة له به كل باب، فاستجابوا دعاءه، وأجابوا صداه ونداءه، وتأوهوا لمضضه، واستطبوا لمرضه، وجمعوا من العملة والفعلة الأسود والسراحين(٢)، فعلموا في سوق الأنهار من الأعمال ما يدير الطواحين، وجعلوا يعاندون البرد، ويقطعون في طريق الماء الجمد، فكانوا كالضارب في حديد بارد، والمكابد بتزويق وعظه تليين قلب الجاحد، حتى سهلت حزونه، ورق لمكابدتهم فدمعت عيونه، وصاروا لايقطعون من الجليد، مقدار ذراع بالحديد، إلا وتهب نسيمة يابسة، على تلك الوجوه العابسه، فإذا هب بارد النسيم، قابله الماء بوجه بسيم، فيبرد قلبه عن نارهم، ويصرد(٣) لبه عن أوارهم، فيجمد ما فوق ذلك، فتضيق عليهم المسالك، فيرجعون القهقرى، ويمشون كالحبالى إلى ورا، والله داد مع ذلك يبذل الأموال، وينادي مستغيثا: يا للماء يا للرجال، قلت شعراً:

فكان كل منهم كالحمار | يخرج ما أمكنه بالمدار

يوقفه الماء لإجرائه | وكلما أوقفه البرد دار

إلى أن وقع الاتفاق بين الرفاق، أن هذه مسألة تكليف مالا يطاق، وحين تبين له أمرهم، وتعين عنده عذرهم، قارنه الحظ الحالك، وتيقن أنه لا محالة هالك، وأنه قد وقع في البلاء العريض الطويل، وأن مخدومه ما طلب منه في ذلك المحل الدقيق إلا لأمر جليل، وكان بلغه ما وشاه به أضداده، ونقل إلى تيمور عنه أعداؤه وحساده، وعلم أن خاطره تغير عليه، وفعله مع محمد جلد مشيد جامعه قد نقل إليه، وكيف قتله شر قتله، ونهب أمواله، وأسر أولاده وأهله، وكان متوقعا من تيمور،

١— العد: الماء الجاري الذي لا ينقطع، والثمد: الماء القليل الذي يجتمع في الشتاء وينضب في الصيف.

٢— السراحين هنا : الذئاب.

٣— يصرد: يسقي الماء قليلاً دون إرواء

أضعاف هذه الشرور، لا يقر له قرار، ولايسكن لـه ليل ولا نهار، وقد غسل من الحياة يده، وودع حياته وأهله وماله وولده، وقد قـرب شهر الصيام، وصار بينه وبين تيمور نحو من عشرة أيام، وقد انقطعت الدروب، وضعف الطالب والمطلوب.

مفـــــرد

اذا تضـايق أمـر فـانتظر فـرجـا فـأضيق الأمـر أدناه إلى الفـرج

ذكر سبب انكسار ذلك الجبار وانتقاله الى دار البوار واستقراره في الدرك الأسفل من النار

وجعل تيمور يواصل التسيار، حتى وصـل كورة تدعى أترار، ولما كان بظاهره من البرد آمنا، أراد أن يصنع له مـا يرد الأبردة عنه باطناً، فأمـر أن يستقطر له من عـرق الخمـر المعمول فيهـا الأدوية الحاره، والأفـاويه والبهـارات النافعة غير الضـارة، وأبى الله أن تخرج تلك الروح النجسـة، إلا على صفـات مـا اخترعـه من الظلم وأسســه، فجعل يتناول من ذلك العرق، ويتفـوق أفاويقه من غير فرق، لا يسأل أخبـار عسكره وأنباءهم، ولا يعبأ بهم ولا يسمع دعـاءهم، حتى سقته يـد المنية كأسـا ﴿وسقوا مـاء حميا فقطع أمعـاءهم﴾(١) فإنه لم يزل للقضـاء معـانداً، وللزمـان مجاهداً، ولنعم الله تعـالى جاحـداً، ولا شك أنه جـاء ناقضاً أو تحمل مظالم فـراح زائـداً، فأثر ذلك العرق في أمعـائه وكبـده، فترنح بنيان جسمـه ورنح(٢) أركان جسده، فطلب الأطباء، وعرض عليهم هذا الداء، فعالجوه في ذلك البرد، بأن وضعـوا على بطنه وجبينه الجمـد، فـانقطع ثلاث ليـال، وعكم أحمال الانتقــال، إلى دار الخزي والنكال، وتفتت كبــده، ولم ينفعـه مـاله وولده، وصار يتقيأ دما، ويأكل يديه حسرة وندما.

١— سورة محمد— الآية: ١٥.

٢— رنح فلان ترنيحا: إذا اعتراه وهن في عظامه وضعف في جسده. العين.

مفـــــــرد

واذا المنيــــــة أنشبت أظفـــــارهـا ألفيت كـل تميمــــــــــــة لا تنفـع

وجرّعـه ساقي المنيـة كأس، وآمن حينئذ بها كـان جاحده، فلـم ينفعه إيمانه لما رأى البأس، فـاستغـاث، فلم يوجـد له مغيـث، ونودي عليـه أخرجي أيتهـا النفس الخبيثة كـانت في الجسد الخبيث، أخـرجي ذميمه، ظالمة أثيمـه، وأبشري بحميم وغسـاق، ومجاورة الفسـاق، فلو تراه وهو يغط غطيط الثور المخنوق، ويكمـد لونه ويزبد شدقـاه كالبعير المشنوق، ولو ترى ملائكة العذاب وقـد أظهروا استبشارهـم، وأخنوا على الظالمين ليخربـوا ديارهم، ويطفئوا نارهم، ويهدموا منارهم ﴿ولو ترى إذ يتـوفى الذين كفـروا الملائكـة يضربون وجـوههم وأدبارهـم﴾(١)، ولو ترى نساءه وحـاشيته وهم حواليه يجأرون، وأعـوانه وجنده، وقد ضل عنهم ما كانوا يفترون﴿لو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليـوم تجزون عذاب الهون بها كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتـم عن آيـاته تستكبرون﴾(٢)، ثـم انهم أحضروا من جهنم المسوح، وسلوا سل السفود(٣) من الصوف المبلول تلك الروح، فـانتقل إلى لعنة الله وعقـابه، واستقر في أليم زجـره وعـذابه، وذلك في ليلة الاربعاء سـابع عشر شعبان ذي الأنوار، سنة سبع وثمانمائـة بنواحي أترار، ورفع الله تعالى برحمته عن العباد العذاب المهين﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾(٤)قلت شعراً:

الـــــدهـــــر دولاب يـــــدور فيـــــــــه السرور مـع الشرور
بينـا الفتـى فـــــــــوق السما واذا بـــه تحت الصخـــــــــــور

---

١ - سورة الأنفال— الآية: ٥٠.

٢— سورة الأنعام— الآية: ٩٣.

٣— السفود قضيب من حديد يشوي عليه اللحم.

٤— سورة الأنعام— الآية: ٤٥.

كم من شموس في سما ... فلك العلاء لها بدور
لما استوت في عزها ... زالت وأكسفها الفتور
وملوك دنيا أضرمت ... من نار عدواها البحور
ملكوا البلاد أهلها ... ماضي الأوامر والأمور
أغراهم الدهر الخؤ ... ن وغَرّ بالله الغرور
ضحك الزمان بثغره ... لهم وقد ملكوا الثغور
فغدوا ذئابا في الأذى ... وغدوا أسوداً في الشرور
غنّى لهم فتراقصوا ... مثل الشخوص بلا شعور
وحكوا على باباتهم ... طيف الخيال اذا يدور
وتوهموا أن الزمان ... مطاوع غير النَفور
أو أن ما نالوه من ... دنيا يغور ولا يغور
فتوثبوا وتضاربوا ... وتكالبوا شبه النمور
وتلاكزوا وتلاحزوا(١) ... وتناجزوا الضرب الهصور
وتناخزوا وتلابزوا(٢) ... وتنافروا نفر النسور
هذا وان يتصالحوا ... يتصافحوا مينا(٣) وزور
فتهافتوا في نارها ... متصورين النار نور
بينا هُمُ في عزهم ... والدهر مكار غيور
انقض فيهم صرفه ... كالصقر في دقل(٤) الطيور
أمسوا وكل منهم ... كاللحم يُلقى للصقور
لاملكَ ردّ يد الردى ... عنهم ولا مِلك ودور
كلا ولا جيش ولا ... ولد ولا مدد نصور
ثم انمحت آثارهم ... محو الحيا نقش السطور

١ــ تلاكزوا: تضاربوا، وتلاحزوا: تعارضوا الكلام فيما بينهم

٢ــتلابزوا: تضاربوا بشدة.

٣ــ ميناً: كذباً وخداعاً.

٤ــ الدقل من الطير: الصغير الضعيف

لم يُبـــقِ منهـــم دهـــرُهُـــم شيئاً ســـوى ذكـــر يـدور
نـــاهيـــك منهـــم فتنـــة كـــالأبحـــر الظلما تمور
الأعـــرج الدجـــال مَنْ قصم الجماجـم والظهـــور
داخ البــــلاد ودارهـا ونـوائـب الـدنيـــا تـدور
أملى لـــه اللـــه الحليـــم فـــزاد عـــدوى في فجـــور
وأمـــدّه مستـــدرجـــا إيــاه في شيء يبــــور
ليراه في إمضـــائـــه حكما أيعـــدل أم يجور
فــاجتـــاح كـل الخلق مـن عـــرب ومن عجم القطـور
ومحا الهدى وغـــدا الـردى بحســامــه البــاغي يمــور
أفنـــى الملـــوك وكـــل ذي شرف وذي علـم وفـــور
وسعـى على اطفـــاء نـو ر اللّه والـدين الطهـــور
بفـــروع جنكـزخـــان ذا ك الظالم النجس الكفـــور
فـأبـاح إهـراق الـدمـــا من كـل صبـــار شكـور
وأحـــل سبـــي المحصنـــات المؤمنـــات مـــن الخدور
ورمـى على النـار الصغـــار كـأنهم فيهـــا بُخُـــور
وأضـــاف في هـذا إلى فعـل الـزنـا شرب الخمـــور
طـورا يـرى نكث العهـــو د تـــارة نقـــض النـــذور
وعـــدا على الســـادات من أهـل الصيـــانة والـوُقـــور
مـن كـل ذئـب صـــائـل منهـم ومـن كلـب عقـــور
فتكـوا وقـــد بتكـوا القلـو ب ويعـــدمـــا هتكوا الستـــور
وشـــووا جبـــاها طـالما سجـــدت لذي الـرب الغفـــور
وكـــووا جنـوبا قـــد جفت طيب المضـــاجـع والظهـــور
واستخلصـــوا الأمـــوال من أيـدي البرايـا بـالفجـــور
وسقـــوهـم كـأس السمـــوم وجَـــرّعـــوا كـأس الحرور
واستـــأسروا آل النبـــي المصطفـى الطهـــر الطهـــور

باعـــــوهـم مـن مشركـي الأ	تـراك في أقصـى الكفـــور(١)
وكـــذاك واحـــد أمِـــهِ	مـــن كـل مقـــلاة نـذور
وجـــــروا على هـذى الجرا	ئـم واستمـــرّ لهم مـــرور
مــــا بين إيـران وتــو	ران البـــلاد لهم عبـــور
وامتــــدّ ذاك مـن الخطــا	آخــــذا إلى أقصـى القطـور
لما انتهـى إفســـاده	وتكـــاملـــت تلـــك الشرور
هجـم القضـــاء لأخـــذه	ولكـــل تكميـل قصـــور
حــذفتــه أيدي الموت مـن	تلـك القصـــور إلى القبـــور
وتبــــدّلـت منه الكـر	امـــة بالمذلـة والعثـــور
ومضــــى إلى دار النكـــا	ل بما تحمـل مـن وُفـــور(٢)
وتفــــرّقت تلـك الجمـــو	ع وهـدّ مـــا شـــاد الـدثـور
أبقـت عليـــه فعـــالـه	لعنـا على مـــر العصـــور
وتخلـدت آثـار مــــا	آذى على كـــرّ الـدهـور
فــــانظر أخـي ثـم افتكر	في ذا المســـاء وذا البكـور
لافــــرق عنـد الموت بين	شكـور فضـل أو كفـــور
أيـن الـذيـن وجـــوههـم	كـــانـت تلألأ كـــالـزبـور
أهـل السعــــادة والحجـى	وذوو السيـــادة والـوفـــور
المطفئــــو بـــدر السما	والمخجلـو فيـض البحـــور
كـــانوا عظـامـــا في الصـــدور	وهـم صـــدور في البـــدور
طحـــن الـــردى تلـك العظــام	·وفـت هـانيـك الصـــدور
وسفتهـــم ريـــح الفنـــا	سفـي الـرمـــال يـد الـدبـور
أيـن البنـون ومـن غـــدا	للقلـب أفـــراحـــا ونـور
كـــانوا اذا رُفـع الحجـــا	ب وزحـــزحـت عنهـم ستـــور

١ــ الكفر: جمع كفر، والكفر القرية أو البلدة.

٢ــ أي من أحقاد.

تلقى الدنا قد أشرقت ... كالشمس من سجف الخدور
من كل ظبي أحور ... أو ظبية تزري بحور
نشر الجهال عليهم ... ثوب الدلال على حبور
وفدتهم مهج الورى ... من شر أحداث الدهور
كانوا إذا سكنوا مكا ... نا حرّكوه من السرور
كانوا على وجه الدنا ... حدقا وللأحداق نور
وحدائقا لرياضها ... وعلى حدائقها زهور
بينا همُ في سُكرهم ... قد مازج الغمر الغرور
والعمر غض والزما ... ن مسلّم لهم الأمور
واذا بساقي الموت فا ... جأهم بكاسات الثُبور
فسقى رياض حياتهم ... قدحا أعاد الكل بور
تركوا فسيح قصورهم ... رغماً إلى ضيق القبور
وسقوا كؤوس فراقهم ... صبراً لكل شج غيور
من شق حزنا جيبه ... ولفقدهم دق الصدور
لو كان ينفعه الرشى ... أو كان تجديه النذور
لفداهم ووقاهم ... ورعاهم رعي الخدور
سكنوا الثرى فتغيرت ... تلك المحاسن والشعور
ورعاهم دود البلى ... وفراهم فري الجزور(١)
أمسوا رميا في الثرى ... وثووا إلى يوم النشور
يسعى المحب مخاطبا ... أجداثهم يوما يزور
ينعي ويندب نائحا ... قبرا تناوشه الدثور
ويمرّغ الخدّين في ... ترب يراها كالذرور
يدعو فليس يجيبه ... إلاّ صدى صم الصخور
بينا تراه زائرا ... واذا به أمسى زور

---

١ — أي قطعهم تقطيع الدابة المذبوحة.

هـذا بتقـــديـر الإلـه … وحكـم فعـــال صبــور
دنيـــاك جسر فـــاعتبر … واحـــرص على زاد العبـــور
واطمــح إلى اللــب المنـي … فجميـع مـــا فيهــا قشــور
لـو لم تـك الـدنيـــا ومـــا … فيهـــا هبـــاء خيتعــور(١)
مـــا كـــان يـزوي بـرُهـا … عـن كـل صبـــار شكـور
كــلا ولا انقـــادت لمن … قـــد صـــار مختـــالا فخـــور
هـذا وغـــالـب مـن عنـــا … في أرضهـــا عـــرج وعـــور
خُلقــوا الحق فـــانثنوا … عنـــــه إلى مَين وزور
يـــا رب ثبتنـــا على … مـــا ترتضيـــه من الأمـــور
واغفـــر لنا مـــا قـــد علمـ … لـت مـن الخطـايا يـاغفـــور
واختـم لنـا بسعـــادة … نكفــى بها شر الغـــرور
وامنـــن لنـــا بتجـــارة … مـن بـاب فضلـك لـن تبـــور
وأدم سحـــائـب رحمة … تهمـي على بـدر البـــدور
خير الأنـام محمـــد … الشـــافـع الـزاكـي الطهـــور
والآل وا لصحـــب الكـ … رام وتـــابعهـــم يـــاشكـــور

فصل في ذكر ما وقع بعد وفاة تيمور من حوادث وأمور وما ظهر من سرور وشرور

وكان لألله داد أحد الخلان، يدعى سعادات نائب مدينة أندكان، من ذوي النباهة والشهرة، وهو أحد الأمراء الذين توجهوا لعمارة باش خمره، فأرسل قاصداً إلى الله داد، أنه ارتفعت مادة الفساد، وأن تيمور ترك تبعة الممالك، وتوجه بتبعاته إلى درك مالك، فوصل القاصد بهذا السرور، رابع عشر شهر رمضان من العام المذكور، ففرج عن الله داد همه، وأزاح عنه غمه، وكأنه استأنف له الحياة، أو رد راحلته التي عليها

١ـ الخيتعور: السراب وكل ما لايدوم على حاله ويضمحل. القاموس.

طعامه وشرابه بعد أن أضلها في فلاه، وستأتي حكاية الله داد وأمره، وما جرى له بعد ذلك إلى آخر عمره.

ذكر من ساعده البخت واستولى بعد تيمور على التخت

فلما قضى تيمور نحبه، وأزال الله عن العالم كربه، لم يكن معه في أجناده، من أقاربه وأولاده، سوى خليل سلطان بن أميران شاه حفيده، وسوى سلطان حسين ابن ابنته، الذي هرب إلى السلطان في الشام عند وروده، فأرادوا كتم هذه القضية، وأن لا يشعر بها أحد من البريه، فشاعت وراعت، وعلى رغمهم ذاعت، فاضطربوا واضطرموا واصطدموا واصطلموا، فاطلع الناس كلهم على ذلك وفهموا وعلموا، أنه قطع دابر القوم الذين ظلموا، فجفلت العساكر وأجفلوا، وحملوا عظامه وإلى سمرقند قفلوا.

وساعد خليل سلطان البخت، وخلا له الجو فاستولى على التخت، وكان أبوه أميران شاه، متولي ملك أذربيجان، وما والاه، وعنده ولداه عمر، وأبو بكر، وبينهم وبين ما وراء النهر، من الأطواد والاشجار، مائة سياج وألف سكر، وكان أبو بكر هذا في الجغتاي من الفوارس، والضاربين بالبيض الهام والقوانس، يذكر أنه كان يوقف بقرة، أو ينيخ بكره، ويضربها بالسيف ضربة لا ضربتين، فيجعلها قطعتين مفصولتين، وأميران شاه هذا قتله قرايوسف بعد تيمور، واستخلص منه ممالك أذربيجان، وولده عمر قتله أخوه أبو بكر، وأبو بكر قتله ايدكو متولي كرمان، ومصافاتهم مذكوره، وحكاياتهم مشهوره، وشاه رخ كان في هراة وممالك خراسان، وبير عمر كان في ولايات فارس وتلك البلدان.

وتيمور كان جعل ولي عهده محمد سلطان، وهو وإن كان من أحفاده، لكنه قدمه على أولاده، لما لاح له من فلاحه، وظهور رشده وصلاحه، فعانده القضاء فيما يروم، ومات كما ذكر في آق شهر من بلاد الروم.

وكان له أخ يدعى بير محمـد، فجعله تيمور ولي عهـده من بعده، فلما هجم عليـه رائـد الموت، وأهاب روحـه الخبيثـة بأزعج صـوت، كـان مستغرقا في بحـار غفلته، مسترجيا إرجاء مهلته، فذبحـه اعتباطا، وسام عسكره اختبـاطا، وكان إذ ذاك من أولاده وأحفـاده بعيد الدار، مستقـر القرار، آمنا من البـوار، فارغـاً عن الدمار، وهم: كتيمـور غافلون، وبير محمـد في قندهار، وهي بين حدي خـراسان والهند، وبينه وبين مـا وراء النهر سبـاسب وقفار، فلم يكن أقـرب إلى دار الملك الذي أنشأه، وهي سمـر قند، ســوى خليل سلطان بن أميران شـاه، مـع أن قطان الشتـاء وندافه، كـان قد بسط على فراش الأرض لحافـه، وندف عليه من أقطان الثلوج ما غطى وجه العالم وأطرافه، وطم ظهره وأكتافه، فلم يقدر أحد من أولئك الحشرات أن يخرج رأسه عن اللحاف، أو يضحك ثغر زهرة أنملة في كم كميـم خـوفـا من جـاني النسيم، أن يبـادرهـا باختطاف الاقتطاف، فضلا عن أنه يتمطى في فراش أهبة إلى حركة سفر فيمد يده نحو بطش، أو رجله نحو طواف.

فاستولى خليل سلطان على ذلك المغنـم البارد من غير منازع وعديل، واستبـدل الملك بل العـالم مـن جهنم الكوثر السلسبيل، ونادى لســان السلطنة في رقعتهـا نعم البـديل، بدلت عن بغيض بحبيب، وعن عـدو بخليل، وتمكن من العساكر والأمراء، وخلاصة الجند وأساطين الزعماء، واحتــوى على تلك الأمـم، وطوائف الرؤوس مـن العـرب والعجم، وادخل عنق الجميع في ربقـة المتـابعـة، وفتح لهم في أسـواق الصـداقـة حوانيت الصـلاة فعاملوه بعقـود المبايعـة، ولم يمكن أحد منهم الخروج عن الدخول في الطاعه، والتخلف عن المبـادرة إلى مبايعته في ذلك اليوم ولا ساعه، فأطلق لهم البشره، وأحسن معهم العشره.

وكـان يوسفي الخَلْق محمدي الخُلُق، خليلي الرفق، اسماعيلي الصـدق، جمع حروف الملاحه، وحاز صنوف الصباحه، نقش محاسنه كاتب الصنع

بقلم الكاف والنـون، على أحسن مـا يكون، من الحركـات والسكون، فأول ما مشق على لوح الجمال ألف قده القـويم، فباء له كل من فاء عن لام عذاره متقوسا في خدمته كالدال والجيم، وحسن لكل راء ما فيه من زين، ومـاشين سين ثغـره ميم فمه مـذ فـاها بخلف ولامين، فـاستقفى بوباله كل قـاف، واستكفى بنائله كل كاف، وأمطر من عين كفـه العين، فصـاد من الجنـد كل ذي لام وباء، ودأل بذلـك على كل من بـاء عن وعده، ورجع عن عهده وفاء، ففـدت الواقيات مهجته، ورقت من عين الحوادث بهجته، وعـوذت منه الأرداف، بالطور والأحقاف، وحمت نون حاجبـه وفاه وطرفه وطرته وردفـه بحم عسق، وفتحت له الملوك بالثناء فاها، وخفضت لارتفاعه خدودها معوذه له وقالت ياسين وطه.

ذكر خلاص العساكر من البند وقفولهم مع عظامه الى سمرقند

ولما ذبح قصـاب الفناء تيمـور ونحره، جـزره كـالجزور فجعل يخور كالثور وبقره، ثم أراد أن يصليه من نار الجحيم حفره، فاستغاث بخليله فأجاره وأخره، وقال لا تعجل عليـه وحمله في محفة بعد العجلة وصبره، وألوى راجعـا إلى سمرقند، وكـان قد انحل نهر خجند، وطالب الشتـاء قد أدرك ثأره، وبرد قلبه وسكنت الحراره، قلت شعراً:

ورق للعـالم قلـب النسيـم ... وأقبـل الـدهـر بـوجـه بسيـم

ثم هجم جيش الربيع المنصور، فانهزم جند البرد فولى وهو مكسور.

ذكر ما أضمره وزراء تيمور وأخفاه كل منهم في التامور(١)

وكـان في أفـلاك ذلك العسكر، سيـارات نجـوم بهم سماؤه تزهر، وبأرائهم يقتدى، وبرؤيتهم يستضاء، قلت:

مـن كل منتجب لـلأمـر منتخـب ... كـالشمس رأيا وكـالضرغـام إقـدامـا

---

١ — التامور: القلب.

قد هذبتهم الأمور، وشذبتهم بلايا تيمور، واستفتح بهم المغالق، واستوسع بصدماتهم المضائق، وتخلص بحملاتهم من شدة ما مارق، وتوصل بعزمهم إلى نيل المآرب، وتوسل بعزيمتهم إلى كنوز المطالب، وكان هو البدر، وهم الهاله، وهو الفاعل وهم الآله، وهو الروح وهم الحواس، وهم الأعضاء وهو الرأس، فلما كورت شمس مواكبهم، وانتثرت كنس كواكبهم(١)، ورحل زحلهم، وخاب أملهم، قلت:

وعرض الكون الدجا بالضحى وبدّل المريخ بالمشتري

أجال كل منهم قداح فكره، وتدبر في ذلك الحادث وعاقبة أمره، واستصغر خليل سلطان، وعلم أن موج المنازعة سيأتيه من كل مكان، وأنه لا يصفو له ورد الملك من مكدر، ولا هواه من مغبر، وأقل الأشياء أن يقول له رسول أكابر أقاربه كبر كبر، فأعد لكل شدة شَدّه، ولكل عُدة عده، ولكل خَزّة فَزّه، ولكل حَزّة حزه، ولكل بؤساً لبسا، ولكل منهم ترسا، ولكل نائبة نابا، ولكل بائقة بابا، ولكل خطبة خطابا، ولكل خطاب جوابا، ولكل حرب حرابا، ولكل أمر أمراً، ولكل غدر غدرا، ولكل أزمة حزما، ولكل نصب نصبه، ولكل كسرة جزمه، ولكن شكيمة البرد كانت ردت جماح كل جموح، وصفيحة الجمد قدت جناح كل سبوح، فما وسع كلا منهم إلا الإطاعة، والانقياد لأمر خليل سلطان بالسمع والطاعه، واستمروا معه على القفول، مضمرين لخليل ما أضمره للحبيب عبد الله بن أبي بن سلول، وكان أحدهم يدعى بزندق، فرام الى التحصن بقلعة المخالفة التسلق، فقال لخليل سلطان، إن اقتضت الآراء أن أتقدم، وأمهد لك الأمور الى حين تقدم، وأكون رائد دولتك، وقائد سلطنتك، فأشيد القواعد، وأبشر الصادر والوارد، فيكون كل مستعداً للملاقاة، ومهيأ أسباب الموافاة، فأذن له، وأمامه أرسله، فوصل إلى سيحون وقد عقد عليه جسر

١— أي النجوم المحتجبة.

بالمراكب، وهيئت أسبــاب عبــوره لكل راجل وراكــب، فعبره بزندق بجماعته، ثــم أمر بقطعه مــن ساعته، وأعلــن العصيان، وقصد سمــرقند مجاهراً بالطغيان، نظم اتفاقي:

فكثرت أســــــــــــــوارهـــا | في وجهـــــــــــه أنيـــــــــــابها
وأسبلــت عصمتهـــــــــــــــا | بيـــــــــــــابها حجـــــــــــابها
وأســــــــــــــدلت على جبيـ | ـن منعـــــــــــة نقـــــــــابها

فــاستدرك فــارطه، وسلك في مسألة منطقــه بحث المغــالطه، ووصل خليل سلطان إلى الجسر، فوجــد عقده قد انحل، ونظامــه قد اختل، فلم يكترث بزندق ومــا فعل، بل عقـــده مــرة ثانيــة، ودخل، وولى مــا وراء سيحون من البــلاد، متوليها أولاً، وكــان يدعى خدايداد، وهو من أكبر أعدائــه، ومن رفقاء تيمور ونظرائــه، ومنسوبا إلى السلطان حسين، وهو في تلك البــــلاد بمنزلــة الرأس والعين، فلــم يسع خليــل سلطان إلا مسالمته، وإقــراره في بلاده ومهادنته، إذ أموره كــانت في أوائلها، ففوض إليه أمرها والقلوب في غوائلها.

ذكر وصول خليل سلطان بما ناله من سلطان إلى الاوطان

ثـم توجه الى سمــرقند، فاستقبله، وخرج إليه نائبهــا وزعماؤها، ووفد عليــه نواب البــلاد، منغمسين في الســواد، لابسين أثواب الحداد، وجــاء الأكــــــابــر والعظام، معظمين هــاتيك العظــام، ومهنين خليل سلطــان بالسلامة، ونيل سرير الزعامة، قلت:

ووجـــــــه كل فـــــــد غـــــــدا | مثـــل الربيـــع القــــــــــــــادم
بعين سحب فــــــــــــــد بكـــت | وثغـــــــــــــــــــر زهـر بــاســم

وجعلوا يقدمــون التقادم السنيه، والحمولات البهية، وهو يقــابل كلا منهم بما يليق بحشمتـــه، وينزله في منزلتـــه، وقــال لزندق :لا تثــريب، وقــابله مقــابلة الخليل الحبيــب، ومهــد له بســاط المبــاسطه، وسلم إليـه

المغـالطه، وحين ثبتت أوتاده اقتلعـه، وألقاه على غفلة في فـم أسد المنيـة فابتلعـه، ثم أشلى على دياره كلاب النهـاب، وشهاب الالتهـاب، فمزق أديمها، وهتك حريمها، ومحا حديثها وقديمها.

ذكر مواراة ذلك الخبث والقائه في قعر الجدث

ثم انه أول مـا اشتغل بمواراة جـده، وتنجيز أمـره وإلقائـه في حفرة لحده، فـوضعــه في تابوت من أبنوس، وحملـه الرؤوس على الرؤوس، ومشى في تشييـع جنازتـه الملوك والجنود، حـــاسري الرؤوس لابسي الثيـاب السود، ومعهـم طوائف الأمراء والأعيـان، وأنزلوه على حفيـده محمد سلطان، في مدرسة حفيده المذكور، بالقرب من مكان يسمى روح أباد وهو موضع مشهـور، فكان هناك على أثاف، في سرداب معلوم غير خاف، وأقام عليه شرائط الحداد، من إقـراء الختمات والربعات والدعاء، وتفـريق الصدقـات، وإطعـام الأطعمة والحلاوات، وسنّم قبره، ونجـز أمره، ونشر على قبره أقمشته، وعلق على الجدران أسلحتـه وأمتعته، كل ذلك مـا بين مكلل ومـرصع، ومـزركـش ومصنع، أدنى شيء من ذلك يقـوم بخـراج الإقليم، وحبة من كـدس تلك الجواهر تفـوت التقـويم، وعلق نجـوم قنـاديل الذهب والفضـة في سماء غــواشيهـا، وبسط على مهادها فـروش الحرير والديباج إلى أطرافها وحـواشيها، ومن جملة هذه القناديل، قنـديل من ذهب زنتــه أربعـــة آلاف مثقـــال، رطل واحـــد بالسمـرقنـدي، وبالدمشقي عشرة أرطال، ثم رتب على حفــرته القـراء والخدمه، وأرصد على المدرسة البـوابين والقومه، وقدر لهم الإدرارات ، من المسانهات والميـاومـات والمشـاهـرات، ثم نقله بعـد ذلك بمـدة إلى تابوت من فولاذ، صنعه رجل من شيراز، مـاهر في صنعته استاذ، وقبره في مكانه المشهـور، تنقل إليـه النـذور، وتطلب عنده الحاجـات، وتبتهل عنده الدعــوات، وتخضع الملوك إذا مـرت به إعظامـــا، وربما تنزل عن مراكيبها إجلالاً له وإكراما.

فصل في اعتدال الزمان وأخبار خليل سلطان: ولما أخذت تيمور الصيحة بالحق فصار غثا، وقعد خليل سلطان على التخت، وقام الشتاء بعد أن كان جثا، مد الشعراء ألسنتهم للزمان بالمدح ولخليل سلطان بالتهنئة ولتيمور بالرثا، فسمع الشتاء وغنى صوته وأجاز، ورفع عن العالم في نهوضه الكلاكل والأعجاز، فابتهج الكون بورود الربيع، وشكر الروض للسحاب ما أسداه اليه من حسن الصنيع، ورفع على الروابي من الشقائق أعلامه، ونصب مما أظهره خيام الصنع من أزهار الأشجار خيامه، ونور الحدق بأنوار الحدائق، واستنطق بتسبيح الخالق، من خطباء الأطيار على منابر الأغصان في جوامع الرياض، ما استنصب بلغاته كل ناطق، من كل معرب في ديوان الفصاحة رائق، ومعجب بأسرار البلاغة فائق، فرقصت الأشجار، لغناء الأطيار، وصفقت الأنهار، واعتدل الليل والنهار، واكتسى البسيط الأغبر، خلع السندس المزهر، وتبدلت الأغصان من قطني الثلوج، كل ثوب بأصباغ القدرة مزهر، وبدمقس الأزهار منسوج، وكل قباء صار مزهراً في كل دف أغن لكل طائر وفروج، وبسط الكون الكون على المكان لاقدام قدوم خليل سلطان شقق الورود والريحان.

فصل: ولما فرغ خليل سلطان من ذلك، شرع في تمهيد الممالك، وتسليك المسالك، وعلم أنه لا يتقيد به إنسان، إلا بقيد الاحسان، ولا يجتمع له البال، إلا بتفريق المال، فعقد القلب على فك طلسمات الختوم وحل الرموز، وصرف الموانع والتوابع عن تلك المطالب والكنوز، وقوى العزيمة على فتح الخبايا، وصيد عصافير القلوب ببذر حبات الهبات تحت شباك العطايا، ففرق ما كان شتت جده في جمعه شمل البرايا، وثقل الكواهل بتخفيف ما أثقل ظهر غيره بالمآثم والخطايا، وأوسق أحمال الآمال، وربوع الأطماع بالأموال، وأمطر أيادي يمينه بالنوال، ففاض الخير من صوب الشمال، وملأ الأفواه والمسامع والمقل من الناس، بما

أفـرغ من حواصـل الكنوز والصناديق على أغتام الجنـد والأكياس، فنثـر أغصان الدوح عند ورود الربيع أصناف أزهاره، فكأنه أنامل كفه المنتظمة في نثـار درهمه وديناره، وجاد السحـاب بدر دره وأمطاره، فضاهى جـود جـوده الهامي على العـالم وأقطاره، فقيـد الناس كلهم بهذا القيـد، ونحـو اصراف بذله معربين له بالإطاعة، فترك عمرو وزيد.

ذكر من أظهر العناد والمراء وتشبث بذيل المخالفة والعصيان من الأمراء والوزراء

غير أن بعض تلك القـواد، وزعماء الوزراء والأجناد، أعلن مـا كـان أسر، ووضع المضمر من العصيـان موضع المظهـر، فأول من شهر سيف العصيـان، وفـوق سهام العـدوان، وشرع بالمخـالفـة الرديني، خـدايداد الحسيني، متولي مـا وراء نهر سيحان(١)، وأطراف تركستان، فـوجد من كـان عـزم على نفض يده من عقـد الطاعـه، إمـامـا يقتـدى به في البغي ومفـارقـة الجماعـه، لاسيما وقد كـان صـواغ الربيع قـد أذاب بجمـراته سبـائك الجمـد والثلوج، ورصع بها أخـرجه من ذلك ديبـاجـة الأرض وروضات الجنات وأرياض المروج، واستمعت أموات الحشرات صيحة الرعود بالحق، فقـالـت ذلك يوم الخروج، فاقتفى خـدايداد، في العصيان والعناد، شيخ نور الدين، وكان عند تيمـور من المتقدمين، وذوي الآراء والتمكين، فـانخـزل جهاراً، وسـار ليـلاً ونهارا، فـوصل إلى خـدايداد، وقوى منه الظهر والأعضاد، وشاركه في التمرد والفساد.

ثم بعـده فرط نظام الطاعـة شاه ملك(٢)، وأخـذ في طريق المخالفـة وهو منهمك، وخرج من سمرقند وهو يصرخ، وقطع جيحون ووصل إلى شـاهـرخ(٣)، وكـان نظير شيخ نور الـدين، ذا رأي مكين، وفكر

---

١ — أراد هنا نهر سيحون لكن الصنعة فرضت كتابته سيحان

٢— كان شاه ملك من كبار قادة تيمور، وقد سلمه الحكم العسكري لمدينة دمشق

٣— كان شاه رخ بن تيمور حاكما في هراة آنذاك

رصين، فلم يكترث خليل سلطان بالعـاصي وأكـرم من لم يعص، وعمم بتاج إنعامه كل رأس وما خص.

ذكر أخبار الله داد صاحب أشبارة واخلائه إياها وقصده دياره وما صنعه في تدبير الملك وأثاره قولا وفعلا وإشاره إلى أن أدرك في ذلك دماره وبواره

ثم أن الله داد جمع أخصـاءه ليلة ورود الخبر إليـه، وشـاورهم فيما يصنع وما يبنى أموره عليه، فاتفقت كلمتهم، واجتمعت مشورتهم، على قصده دياره، واخـلائه أشباره، فإنهم كـانوا في ذلك المكان، كالفسيق في شهر رمضان، والزنديق بين قراء القرآن.

فلما طوى الجو مـلاءته المسكيـة، ونشر على المكان مـروطه(١) الكافـورية، وألقى ثعبان الفجـر من فيـه على هذا السقف المرفوع خـرزته المضيـة، حضر إلى خـدمـة اللـه داد، أمـراء الجيش على عـادتهم ورؤوس الأجناد، من الترك والخراسـانيين، والهنود والعراقيين، فاختلى بـأفاضلهم، ومداره(٢) مقاولهم، ونشر لهم من هذه القضيـة طيها، وطلب من أرائهم فيها رشدها وغيها، واستكتمهم أمرها، لئلا يستثني الموغول نشرها، وأنى لعين الشمس في الصحـو الاستتـار، وكيف يخفى على ذي عينين النهـار، فكل منهم فوض الأمـر إلى مرسومه، وطرح قصـة هذه القضية في جيب مكتومـه، فاستدعى من اولئك الرفـاق، أن يكونوا معه فيما يراه على طبق الوفـاق، فأجابوه إلى سـؤاله، وربطوا أفعـالهم بأقواله، فأكـد ذلك بطلب أيمانهم، وإن أسرارهم في ذلك كإعلانهم، فشرع كل في المخـالفة، أنه ليس في موافقته مخالفه، وأنه مهما رآه الله داد مثله، وما أمر به فعله.

١ــ المروط: جمع مرط، وهو ثوب مخطط غير مخيط.

٢ــ أي سادتهم ومقدميهم

وحين أمن مخالفتهم وعصيـــانهم، وحصل له اليســـار بربـط أعناقهم بأيمانهم، قـــال: أي جماعــة الخير، وقيتـم الضر وكفيتم الضير، أرى أن أكون في صلاة هذا الأمر إمامكم، فأتقدم بجماعتي إلى سمرقند أمامكم، فأمهد الأمـور لكم، وأرسل إلى بلدكم هذا بدلكم، وأيم الله لا يأخذني قرار ولا هدو، ولا أترككم مضغة لضـاغم في ثغر العدو، فإن رأيتم أن تضبطوا بحسن الاتفاق أموركم، وتحموا قـريحة ورد قلعتكم من سورة شـارب العـدو وسـوركم، فلن أمهلكم إلا بقـدر مـا أقطع نهر خجند، وأصل إلى سمرقند، فأمهلوني ريثما أصل، وبخليل سلطان اتصل، فتبعوا مراده، واقتفوا ما أراده، وعاهدوه أن لا يختلفوا من بعده، ولا يحلوا بعد ارتحاله من رقـابهم حبل عهده، فأمـر عليهم رأس جنود العراق، وكـان هو أكبر الرفاق بالاتفاق، وقرر لكل مسلحـة في أسوارها من كل سالح جزء مقسوما، وصار زعيم اولئك السـالحين كالنبي في أمته، مع أنه كان يدعى معصوما.

فصل: ثم أمـر الله داد بتنجيز الأمـور، وخـرج سابع عشر شهـر رمضان المذكـور، ولم يلتفت إلى برد وحر، وكان قد استـوطن اشبارة واستقر، ونقل إليهـا حريمه وأولاده، وبذلك أمر حـاشيته وأجناده، فـاقتلع الكل معه كبيراً أو صغيراً، ولم يدع بها مما يتعلق به فتيـلا ولا نقيرا، فسـاروا تارة دبيباً وحينا زحفـاً، وطورا تسـومهم الأرض من ثلجهـا خسفـــا، وآونة تسقط السماء عليهم كسفـا، فـأدركهم العيـد الموموق، في مكان يدعى قونجـوق(١)، من أبرد البلاد، كأنه ينبـوع ريح عاد، قلت شعراً:

إذا احتـــــاجت جهنم زمهـــــريـرا　　　تنشـق منـه أنفـــــــــــاس المجير

١ — حاول بارتولد تحديد هذا الموقع، انظر Four Studies p 142

ذكر ورود مكتوبين إلى الله داد من خليل سلطان وخدايداد تخالفت معانيهما وتصارمت فحاويهما

فورد عليه مرسوم من خليل سلطان، يذكر فيه ما حصل لجده من حادث الزمان، وأنه استولى على سريره، وأطاعه من الملوك كل كبير القدر وصغيره، وأن الأمور بحمد الله مستقيمه، وقواعد الملك على عاداتها القديمة مقيمه، فلا يحدث أمراً، ولا يخرج من بحر مدينته برا، وليسدك بمكانه، وليتثبت بأشباره مع طوائف جنده وأعوانه، وليطيب خاطر الجزء والكل، فإنه عقيب ذلك يرسل إليهم بدل الكل من الكل.

فتحير الله داد وتفكر، وحاسب نفسه، هل يربح في سفره ذلك أو يخسر، و﴿فكر وقدر● فقتل كيف قدر﴾(١) فبينا هو في أمره يعيد ويبدي، ويلحم في شقة أفكاره ويسدي، وإذا بقاصد خدايداد الحسيني ورد عليه، يستحثه على الخروج من أشبارة والوصول سريعاً إليه، فوجد لخروجه من اشبارة عند خليل سلطان مندوحه، وعاش فنام وهو مغمض العينين، بعد أن مات وعيناه مفتوحه، فطوى بساط تردده، وتوجه ببسيط أمله نحو مقصده، ولكن كان بينه وبين المراد، خرط القتاد، والموانع التي ذكرها صاحب الوصول إلى سعاد(٢)، مع زيادة نهر سيحون وخدايداد، فواصل التأويب والآساد، حتى وصل إلى خدايداد فابتهج برؤيته، واستنجح مقصوده بطلعته.

ثم قطعا نهر خجند، وقصدا ضواحي سمرقند، ووصلا على حين غفلة وفترة إلى مكان يسمى تيزك(٣)، وقد شهرا للعدوان الحسام وشرعا للفتك النيزك، فاحتاطا على جشار تيمور فنهباه، وتغلبا على ما

١— سورة المدثر— الآيتان: ١٨— ١٩.

٢—هنا الاشارة إلى قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

٣— رجح بارثولد في كتابه تركستان (ص ٢٧٨)أنها هي الآن ديزك أو جيزك على الطريق بين سمرقند وخجند

وصلا إليه من نقد وجنس فسلباه، وأكثرا هنالك شراً وفساداً، وأشبها في ذلك تسعة رهط ثمودا وعادا، وكانت هذه أول شرارة وبدعة سقطت من سقط الزند(١)، وبسطت يدها بالفتن بعد قبض تيمور في ممالك سمرقند، لأن أهلها كانوا قد أمنوا الشرور، ووقوع الفتن في حياة تيمور، فحين دهمهم أولئك المفترون، أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، وذلك في شوال سنة سبع، وهو العام الذي خلا فيه من تيمور الربع، وما أمكن السلطان خليل، تدارك هذا الخطب الجليل.

ذكر من خلفه الله داد باشبارة من الطوائف وما وقع بعده بينهم من التناكر والتخالف

وأما أمر من خلفه الله داد، في أشبارة من طوائف الأجناد، فإنهم خافوا من الموغول حلول حينهم، فتحزبوا الأحزاب من بينهم، فمنهم فرقة قال قائلهم: أنا على عهدي قوي، فلا أخون وأمين، وقد استمسكت يدي بعروة عهد مكين، وارتبطت بحبل حلف فلا أصير من أهل الشمال باليمين، وأدنى ذلك أن نصبر حتى يصل من الله داد رسول أو كتاب، وننظر ما يبين فيه من سلوك سنة، فنميز بصائب نظرنا الخطأ في ذلك من الصواب، فإن وافق ذلك مرادنا امتثلنا ما يقول، واتبعنا في ذلك الكتاب والرسول، وتوجهنا في تلك الساعه، سالكين السنة مع الجماعة، وإن جالحنا في كلامه بخطاب أجلح، عدلنا إلى الاعتزال، ومال كل منا في مصلحة نفسه الى القول بوجوب رعاية الأصلح.

ومنهم شيعة مالت الى رفض تلك الداره، والمبادرة إلى الخروج من أشبارة، وانتقلوا من تكرار هذه المجادلة إلى القتال، وقطع رأس أحد رؤوس الخراسانيين في مصاف النزال.

ومنهم طائفة أهمتهم أنفسهم، فلم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها، ثم

١ — سقط الزند من دواوين أبي العلاء المعري.

تحملوا وخرجوا من المدينة، وتركوا الدار تنعي على من بناها، فلم يسع الباقين إلا اتباعهم في الخروج، لأن مقاماتهم من أول الزمان هناك كانت كبنيان القصور على الثلوج، فتحملوا بقضهم وقضيضهم، وتجهزوا بصحيحهم ومريضهم، وتركوا البلد بما فيه من غلات، ومستغلات ونعم وخيرات، وأموال وأقمشة، ونفائس مدهشه، ولم يبق فيه من تلك الأمم المسجونه، سوى ما عجزوا عن حمله من أموال مشحونه، وسوى امرأة واحدة مجنونه، ولحقوا بالله داد— وهو عند خدايداد— فلم يعنف واحداً منهم بما فعل، واعتذر إليهم بأن خدايداد منعه أن يتوجه إلى سمرقند، ويجهز لهم البدل، وأمرهم بالإقامة معه مستوفزين، وأن يكونوا لفرصة التوجه إلى سمرقند -اذا لاحت- منتهزين.

ذكر ما تم لالله داد مع خدايداد وكيف ختله وخبله واسترق عقله وسلبه

ثم إن خدايداد تحقق بوقوع هذا الفساد، تأكد العداوة بين خليل سلطان والله داد، فركن إليه بعض الركون، وجعل يستشيره فيما يصير من أمره وما يكون، وكان عند خدايداد، طائفة من مماليك الأجناد، تخلفوا من العساكر في تلك البلاد، وقد ضيق عليهم المسالك، وأراد أن ينقلهم من مالك إلى مالك، فلم ينعم له الله داد بذلك وقال: إن عادة الأكياس، استجلاب خواطر الناس، خصوصاً في مبادىء الأمور، وحدوث أوائل الشرور، فلا تنفر عنك الخلق، وعاملهم أولاً بالإحسان والملق، وأي فائدة في قتل هؤلاء وتمزيق أديمهم، سوى نفي الصداقة وتأكد العداوة بيننا وبين مخاديمهم، وربما يكون في خاطر أحد من مخاديمهم نفرة من خليل سلطان، ويروم لذلك ظهراً وملجأ يلوذ به من رفيق ومكان، فتلجئه الضرورة إلى أن يقصد ممالك تركستان، فإذا آذيته في متعلقيه أني يبقى له إليك ركون واطمئنان؟ وأقل ما تفعل مع هؤلاء

يا إنسان، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ومخاديم هؤلاء لنا رفقاء، ولخليل سلطان أصدقاء، فإن زرعت معهم الجميل، ملكت كل رقيق وجليل، وألقيت العداوة من عاداك من صديق وخليل، فلما سمع كلامه، ألقى إلى يده من ذلك الأمر زمامه، فأشار عليه بسراحهم، وإحسان إليهم في غدوهم ورواحهم، فزاد في نجاحهم، وراش مقصوص جناحهم، وصرفهم بالعز في طريق مراحهم، فدارت بالسعد أفلاكهم، واجتمعت بهم أملاكهم وملاكهم.

ذكر ورود كتاب من خليل فيه لفظ رقيق لحل أمر جليل

ثم إن وافد خليل سلطان وفد على الله داد، يطلب منه السعي في لم الشعث فيما وقع بينه وبين خدايداد، وأن يستعطف خاطره إلى الرضى، ويستقبل المودة في الحال، ويعفو عما مضى، ومهما طلبه يتكفل به، ويعد قربه من أفضل قربه، ويكون هو السفير بينهما، ويقر بالصلح عينهما، فتوجه الله داد إلى خدايداد وأبلغه هذه الرساله، وبين له ما في هذا القول من رقة وجلاله.

وسبب العداوة التي كانت بين خليل سلطان وخدايداد—على ما ذكر— أن خليل سلطان كان في أوائل الزمان، مجاوراً لخدايداد في تلك البلاد، وكان جده جعله ناظراً عليه، وفوض أمور تربيته إليه، وكان كزاجافيا(١)، وجلفاً جاسياً، فكان يعامله بالفظاظه، ويقابله بالكثافة والغلاظه، وكان خليل سلطان لطيف الذات، ظريف الصفات، نسيم أخلاقه لا يحتمل من خدايداد زعازعه، وبرد مزاجه اللطيف لرقة حاشيته لا يثبت لمجاذبة المشاقة والمنازعه، فتولد من تلك القساوه، بينهما العداوة، وسعت بينهما الوشاه، إلى أن دس له مهلكا فسقاه، فكأنه أحسه، فتدارك نفسه، وتعاطى علاجه، وما يصلح مزاجه، فقضى الزمان أن نصل من تلك الداهية، فنجا منها وليتها كانت القاضيه،

١— أي كان صلباً قاسياً.

وبقي فيه من ذلك أرج(١)، وأورثه العرج، فصارت العداوة الخاصة عامة، وغدت هذه الفعلة لهذا المعلول علة تامه.

فصل: ثم إن الله داد حلف لخدايداد، الأيمان الغلاظ الشداد، وأكد هذه الأيمان، بأن استصحب معه القرآن، وأشار إليه، ووضع يده عليه، وزاد تأكيداً بأيمان الطلاق، وبالالتزامات والنذور والعتاق، أنه لا يقبض عن طاعته يدا، ولا يستحيل عليه أبدا، وأنه توجه إلى سمرقند يجهد في رأب ما إنصدع، ورد ما انفدع، ورتق ما بين الجانبين انفتق، ورقع ما في خواطرهما من الشحناء والعداوة إنخرق، وأن يجهز له تومان إحدى نساء تيمور(٢)، وحاصل الأمر أنه تكفل بحسم مواد الشرور، واصلاح الأمور، وإن عجز عن رفع الشنآن، ومحو سطور العدوان، فإنه لا يستحيل عن مصادقة خدايداد في السر والإعلان، وصار يتملق ويترقق، ويتوصل بتمويهات زخارفه إلى مجاري فكره ويتسلق، ويشدد أيمانا ترجف القلوب وتصدع، بالله الواحد ويثني بالطلاق الثلاث من زوجاته الأربع، وكان مخيمهم على ساحل سيحون ممتدا، وهو عن شاه رخيه نحو من بريدين بعدا، فعبر سهم ختله إلى سويداء قلبه بمكر ودخل، وغربله إذ طحن معه ناعما ما زرعه بيمينه في ساحله ونخل، إلى أن سمح بإطلاقه، بعد تأكيد عهده وميثاقه، فرجع الله داد إلى وثاقه، واجتمع بحاشيته ورفاقه، وكانوا في شاه رخيه، وأخبرهم بهذه القضيه، وكان قد هيأ قبل ذلك أمره، وأخذ من كل جهة أسلحته وحذره، ثم إنه شمر الذيل، وقطع سيحون بالمراكب تحت جنح الليل.

ذكر لحوق الله داد بخليل سلطان وحلوله مكرما معززا في الأوطان

وحين حصل على هذا الجانب، ولم يبق له في ذلك الجانب حاضر ولا غائب، أمر في الحال، بعكم الأحمال وشد الأثقال، وأخذ الأهبة، قبل

١— التأريج شبه التأريش في الحرب. العين.

٢— هي تومان ملك آغا بنت موسى، كان والدها من قادة الجغتائيين، واقترن تيمور بها سنة ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م، وكانت وقتها في الحادية عشرة من عمرها.

النهبه، فأفرغوا عليهم سوابغ السلاح، وأذن بصلاة الرحيل قبل الصباح، وقدم ضعفة أهله والأثقال أمامه، ونقض بهذا الاذان شروط الإقامه، وطير الى خليل سلطان مخبراً بهذه الأخبار، وما جرى بينه وبين خدايداد وكان وصار، ويستمده باستقبال المدد، وإرسال العدد والعدد، لاحتمال أن خدايداد الأبله، يتفطن لغاية هذه الفعله، فيخطر بباله ردهم، ويرسل وراءهم من يصدهم.

ثم ساروا كالسهم الصائب، وصاروا كالنجم الثاقب، فما أصبح لهم الصباح، إلا وقد ظهر لهم من السعد فرح، وجازوا كل قاتم الأعماق خاوي المخترق، وقطعوا على أنوال المسير مما أسدته مطاياهم من مزهر الرياض ألوان الشفق، فواصلوا بالسير سراهم، فساروا نهارهم أجمع حتى غشيهم مساهم.

وحين أخذ منهم اللغوب، وكل الراكب والمركوب، وسدلت عليهم عنقاء الظلام الجناح، عدل بهم إلى بعض البطاح، وحط عنه واستراح، ورسم أن لاتوقد نار، ولا يطمح أحد في طعم النوم بغرار، ولا يشام في جفن طرف سيف ولا سيف طرف، ثم التهموا ما يسد الرمق وصلوا صلاة الخوف فعبدوا الله على حرف، وأمهلوا ريثما قطعت الدواب العليق، ثم أمر فحملوا وركبوا متن الطريق.

ذكر تنبه خدايداد بأن الله داد خلب عقله بإنكال وأنكاد

ثم أن خدايداد، تنبه من رقدته، وارعوى من ليلته، وعلم أن الله داد خلبه نهاره ذلك وسحره، وكشف شمس عقله ولعب به في دست حلفه وقمره، فعض كما يعض الظالم على يديه، وعبى في الحال عسكراً جراراً وأنفذه إليه، فأسرعوا وراءه، والتمسوا لقاءه، فلم يروا له عيناً ولا أثراً، ولا رووا عنه من أحد حديثاً ولا خبراً، فلم يزالوا في طلبه حائرين دائرين، ثم غلبوا هنالك، وانقلبوا صاغرين.

ووصل الله داد إلى مقصده، فوجد وظيفة الوزارة شاغرة، فاستولى عليها بمفرده، إذ قبل دخوله كان شيخ نور الدين قد خرج، وشاه ملك وكل من رام العصيان كان قد دب ودرج، فابتهج بقدومه خليل سلطان، وقدمه كما كان على سائر الوزراء والأركان، فتمكن الله داد كيف شاء، وتصرف في معاني الملك ببديع بيانه إخباراً وإنشاء، وتعاطى في الحال تمهيد الأمور، وتجهيز السرايا وحفظ الثغور، فتراجع أمر الناس وانضبط، وانتظم عقد الملك بعد ما انفرط، واستقر حال الناس، وتمكنت القواعد على الأساس، وكان هو وبزندق وأرغون شاه وآخر يدعى كجوك يدبرون مصالح المملكه، ويسلكون بكل أحد مسلكه، ولكن الله داد هو الدستور الأعظم، والمشار إليه المفخم، وعليه مدار القبض والبسط، ونظام عقود الحل والربط.

واستمر شيخ نور الدين وخدايداد، يغيران على البلاد، ويزيدان في الشرور والفساد، واستوليا على أطراف تركستان، وممالك تلك البلدان، منها سيرام وتاشكند(١)، واندكان وخجند، وشاه رخيه وأترار وسغناق، وغير ذلك مما في تلك الأكناف والآفاق، فكانوا يقطعون سيحون، ويتوجهون إلى ممالك ما وراء النهر ويغيرون، فتارة يتوجه اليهم خليل سلطان، وتارة يجهز لهم طوائف من الجند والأعوان، وعلى كل تقدير فإنهما كانا لا يثبتان وينهزمان، وسيأتي ذكر ذلك كما كان.

ذكر ما وقع في توران بعد موته من حوادث الزمان

وأما الموغول، فإنه لما اتصل بهم خبر وفاة ذلك المخذول، وكان بلغهم أنه قد صوب أحجار كيده الى هشم تلك الثغور، وفوق نبال قصده إلى خرق تلك البطون والنحور، ولم يشكوا في أن ذلك شرك مكيده، وأحبولة مصيده، فلم يقر لهم قرار، وتنادوا: الفرار الفرار،

---

١ - هي طشقند.

وتشتتوا في البـلاد، وتشبثوا بأذيال القـلاع ورؤوس الأطواد، ولجأوا إلى الحصـون والجروف، وتماوتوا في قعر المغـارات والكهوف، وكـذلك كل ذي يمين من أهل الدشت والشمال، وتـوزعـوا في الأحقـاف والرمـال، وصـــار أهل المشرق والخطا إلى حـــدود الصين، ومـن ذلك الوجـــه يسرحـون، لـو يجدون ملجأ أو مغـارات أو مـــدخـلاً لولوا إليــه وهم يجمحون، والحق انه كـان في هيبته وعتـوه قد عـرج، إلى أن أهلك العالم شرقا وغربا بالأرج وصار كما قيل شعراً:

تكـاد قسيـــــــــه مـن غير رام ... تُمكِّـن في قلـوبهم النبـــــــالا

تكـاد سيــــوفـــــه من غير سـل ... تجدُّ إلى رقـــــابهم استـــــلالا

تكـاد ســــوابق حملتـــــه تغنـي ... عن الأقـــدار صـــونا وابتـــذالا

فلما ترادف هذا الخبر، وتكرر بسمـرقند هذا السكر، واشتهـر اسناده حتى ترقى من الآحـاد إلى التواتـر، وتقرر هذا الحق عند كل أحـد، فلم يسع فيه جحـود ولا تناكر، تراجع فـؤاد كل إلى جوفـه، وتبدل أمنا من بعد خـوفه، وتنادوا يا للثـارات، وشرعوا في شن الغـارات، وقصد كل مستحق استرجاع حقه، وكل مسترق لمسترق استفكاك رقه.

فأول من نهض من الشرق الموغـول، وقصـدوا اشبـارة وآسى كـول، وامتـدوا في تلك البلاد، حتى جـاوروا خـدايداد، فهـادنهم وصافـاهم، وشرط لهم رد ما أخـذه تيمور من مأواهم، وأن يكونـوا يداً واحدة على من ناوأهم، وأحسن كل منهم مع الآخر الجوار، واطمأنت بواسطة هذا الصلح تلك الديار.

ذكر نهوض ايدكو بالتتار وقصده ما وراء النهر وتلك الديار

ثم نهض من جهـة الشمال، أيدكـو بعسـاكـر كـالرمـال، وتوجه بحـزم وجـزم، إلى ممالك خـــوارزم، وكـان نائبهـا يدعـى «مـوسيكا» فلما أحس بالتتار، وخاف على نفسه البوار، أخذ أهله ومتعلقيه وسار، وذلك بعد أن

هجمت التتار الرومية المضافة إلى أرغون شاه، وعبروا جيحون وهو جمد ورجع أرغون شاه إلى مأواه، فوصل أيدكو إلى خوارزم واستولى عليها، واستطرد بخيله إلى بخارى فنهب ما حواليها، ثم رجع إلى خوارزم وقد أذكى، في الجغتاي اللهيب وأنكى، وولى من جهته في خوارزم وولاياتها شخصا يدعى آنكا، فتمهدت أيضا تلك الأماكن، واطمأنت الظواعن والسواكن، بواسطة أن خليل سلطان، قابل كل من أساء إليه بالإحسان، وصار يسترضي كل ساخط، ويستدني بمكارمه كل شاحط، ويصطاد النفوس بالنفائس، ويفترس الأسود بالفرائس، وأحبه الأجانب والأباعد، ورغب فيه كل صادر ووارد، غير أن شيخ نور الدين وخدايداد، تماديا في الفساد، ولجا في العناد، فخرب ما تجوذب بين الطرفين من البلاد.

ذكر بير محمد حفيد تيمور ووصيه وما جرى بينه وبين خليل ووليه

ثم ان بير محمد ابن عم خليل سلطان، وهو الذي عهد إليه تيمور كان بعد موت أخيه محمد سلطان، خرج من قندهار، وقصد سمرقند بعسكر جرار، وأرسل إلى خليل سلطان، وسائر الأكابر من الوزراء والأعيان، بأنه هو ولي عهده، وخليفة جده تيمور من بعده، فالسرير حقه فأنى يغصبه، والملك ملكه فكيف يسلبه، فكل منهم جاوبه، بما يليق بما خاطبه.

وأما خليل سلطان فتصدى للمعارضه، وقابل كل مسألة من الخطاب بما ينافيها من المعاكسة والمناقضه، وقال: لا تخلو مسألتنا يا فلان، من أن الملك في هذا الزمان، إما أن يكون بالانتساب، أو يظفر به بطريق الاكتساب، فإن كانت الأولى، فثم من هو أحق به مني ومنك وأولى، وذلك أبي أميرانشاه، وعمي شاه رخ، أعني أخاه، يكون بينهما بالسوية نصفين، فمالك كلام مع وجود هذين، وأنا أولى أن أكون صاحبه، فأرعى جوانبه وأسلك مذاهبه، إما ان يقطع كل منهما عني المشاغبه، ويترك لي ماله فيه من ولاية المطالبه، ويقنع بما هو فيه من مملكته، ويحفظ

جانبـه، وإما بأن يجعلني خليفتـه في سلطانه فأصون نصيبـه ونائبه، وإن كانت الثانية فكلامك لا يستقيم، لأن الملك كما زعموا عقيم، ومن قبلي وقبلك قيل، في الأقاويل شعر:

صـونوا جيـادكم واجلوا سـلاحكم   وشمـــروا إنها أيام مـن غلبــا

وإن زعمت أن جدك عهد إليك، أو عول في وصيته لك عليك، فهو من أين استـولى إلا بطريق التغلـب، وأنى حصل له ملـك، وملك إلا بالاغتصـاب والتألب، وعلى تقـدير التسليم، وأن أمـر وصيتـه مستقيم، فإنه كان في حياته قسم بلاده، ووزع عليها أولاده وأحفاده، فولى والدي ممالك أذربيجان، وقـرر عمي في ولايات خراسـان، وابن عمي بير عمر في عـراق العجم وتلـك الديار، وولاك أنت مـن جملة ذلك قنـدهار، وجعلك وصيه كما رسم وأشـار، وتحمل هو المظالم وانتقل، فأين نصيبي أنا من هذا الثقل؟ فاجعلوا حصتي من ذلك، ما استوليت عليه، وليقنع كل منكم بما تقـرر فيـه وفـوض إليـه، ومع هـذا إن تابعك أبي وعمي تابعتك، أو صادقـاك على الوصية وبايعـاك بايعتك، وإن سلكنا في ذلك طريق الحق، فالملك صيد والأولى به من حاز فيه قصب السبق، وإن الله أزاح علله إذ شبثني بأسبابه، وأباحه لي مباحاً ومن سبقت يداه إلى مباح فهـو أولى به، هذا وإن كـلاً من مـدرسي فقـه الملـك تابعني، ومن له في عقود السلطنة شركة ترك المضاربة وطاوعني، وعد عقد توليتي مرابحة، ولما وقف على سيري ألقى إلى السلم وبايعني.

وأمـا الوزارء والأعيان فأجـابوه بما لا طائل فيه، سـوى ما تمجـه أذن مستمعيــه، غير أن الخواجـا عبــد الأول وهو صـدر صــدور العلماء، والمتصرف في رؤساء مـا وراء النهر من السادات والكبراء، المنفذ سهام أحكامـه في جميع الأمــراء والزعماء، أجـاب فأجـاد، وأصــاب وأفـاد، واختصر واقتصر، وهصر(١) من بير محمد، ولخليل سلطان انتصر، فقال

١ — الهصر: أن تأخذ برأس الشيء، ثم تكسره إليك من غير بينونة. العين

في جوابه، مجاريه في خطابه: نعم أنت ولي العهد، وخليفة الأمير تيمور من بعد، ولكن ما صادف طالعك سعد، ولو ساعدك البخت، كنت قريباً من التخت، والأولى بحالك، أن تقنع بمالك ومالك، وتبقي على خيلك ورجالك، وتضبط ما في يدك من ممالك، وإن أبيت إلا طلب النما، ولم تقنع بما قسم الله لك وقضى، وخرجت من مملكتك إلى هذا الفضاء، فإنك تقع في العناء، وتخرج ولايتك من يدك، فتصير مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ذكر تجهيز خليل سلطان سلطان حسين لمناصرته وخروجه عن خليل سلطان وقبضه على أمرائه ومخالفته

ثم إن خليل سلطان لم يقنع بدقائق هذا الأقوال، وأردفها بحقائق الأفعال، وأمربتجهيز جند مجند، إلى استقبال بير محمد، وأضافهم إلى ابن عمه والد السلطان حسين، وعين فيهم من أمراء الجغتاي كل رأس وعين، وضم إليه الظهور والأعضاء، ومنهم كجوك وأرغون شاه، والله داد، فساروا سابغي العدة، كاملي العدة، وذلك في سنة سبع منتصف ذي القعدة، فعبروا جيحون إلى بلخ وخيموا في ضواحيها، وانبثوا في أقطارها ونواحيها، وبينا هم مرفهوا الحال، فارغوا البال، قريروا العين، تمارض السلطان حسين، ثم إنه دعا الأمراء، ليقرر معهم فيما هو بصدده الآراء، وقد كمن لهم كميناً، وأرصد لهم الرجال شمالاً ويميناً، وحين ولجوا خيسه، ودخلوا كيسه، وثب عليهم وثوب الليث على الفريسه، وأغرى بهم أسوده، فوقعوا فيهم وقوع الجياع على الهريسه، ثم نادى من معه من الرفاق: ضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم، فشدوا الوثاق، وكان كما ذكر ذا طيش وشجاعه،، وتهور ورقاعه، وصولة وجوله، يسبق فعله قوله، فأهريق في تلك الساعه، دم واحد من تلك الجماعه، يدعى خواجا يوسف، وكان في حياة تيمور نائب الغيبة بسمرقند، وهو أمير مشهور، ففي الحال قتل، وإلى الدار الآخرة نقل، ثم استقل لنفسه

بدعـوى السلطنـه، ودعـا الخلائق من ههنا ومن هنا، فـدهشت اولئك الرؤوس، وعلموا أنه قد حل بهم النقم والبؤس.

ذكر خداع الله داد سلطان حسين وتلافيه تلافه بالمكر والمين

غير أن الله داد ثبت جاشه المزؤود(١)، واستحضر تلـك الساعة عقله المفقود، فابتدر سلطان حسين منادياً، واستثبتـه في أمرهم مناجياً، وقال له بعبارة فصيحـه، إن لي إليك نصيحه، ثم استخـلاه وقال: أنا كنـت مترقباً منك هذه الفعال، ومترصداً منك إظهـار ما أنت بصدده، ومن أين لخليل سلطان أن يحتوي على الملك بمفرده، غير أن هيبة مولانا السلطان باسطه، ولم يكن بينه وبين الملوك واسطه مباسطه، ولـو كان عندي من ذلك أدنى شعور، لرتبت المصـالح على ما تقتضيـه الأوامر الكريمـة والأمور، ثم إن الخاطر الكريم، يشهـد بصدق هذا الحديـث، وأنا عبدك من قـديم، وسل من كـان من المماليك والأجناد، الذين كـانوا محصورين في أسر خـدايداد، من خلصهم من حبـائل أسره، وأنقذهم من ضرام ضره، وأطفأ عنهم مـا التهب مـن شرار شره؟ إذ لولا أنا لكان أبـادهم وأيتم أولادهـم، وفجع بهم طريفهم وتـلادهم، فإنك إن تسلهـم يخبروك، وعلى حقيقـة الأمـر وجليـة الحال يظهـروك، وربما أخبروك بذلـك لما أتوك، ومع هذا استفت قلبك وإن أفتوك وأفتـوك، ولا زال يطفيء بماء خزعبلاته شـواظ تفرعنه ولهيبه، ويذكي في خيـاشيم رعونته عنبر احتيـاله متمسكا بمسكه وطيبه، ويرمي عن قوس ختله إلى سويداء اختبالاته نبال مكر، أنفذت فيه نصال القضـاء والقدر لأنها كـانت مصيبـة، فأشرب مكره، وتبع أمـره، وجعله ظهره، واستقدح في أمور فكره.

ثم إنه بعد أن إمتن عليـه باستبقائه، استشاره في قتل رفقـائه، فقال له: لا شك أن خليل سلطان، ملك الناس بالإنعام والإحسان، وهو وإن كان في الشجـاعه، قـاصر اليد، قليل البضـاعـه، لكن استعبد أبطال الرجـال،

١ــ المزؤود: الخائف المرعوب.

بحسن الخلق وبذل الأموال، غير أن المال، بمعرض الفناء والزوال، وأنت بحمد الله مآثرك مشهورة، ومنازل منازلاتك الأبطال معمورة، ورايات كسرك قرون الأقران على جبين الكبائش منشوره، ورؤوس مناطحاتك ثيران الوغى على قرون الزمان أبداً منصوره، قلت:

فكم لززت شجاعا في البراز فمذ رأى محياك ولى ضارطا وجرى
مذكنت رأسا وعينا في الحروب أرى في رأسك الفتح بل في عينك الظفرا

وأنا أعلم أن عامة الجند سيبتهج بطلعتك، ويرقص فؤاده لحصول سكونه فرحا بحركتك، فإنه لا بد من رأس يسوسهم، وضابط همام يصون بتدبيره نفائسهم ونفوسهم، وقرم كالليث الخادر، والسيل الهامر، بل كالبحر الغامر، منصور إن دعا وإن دعي فناصر، موصوف بما قال الشاعر:

أضاف إلى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاعُ المدبر

وبما قال شعراً

ولا يكشف الغماءَ إلاّ ابن حُرة يرى غمرات الموت ثم يزورُها

وهل ثم في هذا العصر موصوف بهذه الصفات إلا أنت؟ وما النجدة والكرم والحسب والنسب إلا راحل حيثما رحلت، وساكن أينما سكنت، ولو حدث شاه ملك وشيخ نور الدين، أن وراءهما منك الحصن الحصين، لأسند إليك رواية هذا السند السديد ولاء، ويأمن جنابك العالي إلى ركن شديد، وحاصل الأمر أنك مولى الكل، وجميعهم لك عبيد، وإذا كان الأمر كذلك فقد ملكتهم، فسواء عندك أبقيت عليهم أو أبدتهم، ولكن الإبقاء أولى، ولازالت العبيد تترقب مراحم المولى، فإن اقتضى الرأي السعيد، أن نكون كلنا موثقين في الحديد، مع زيادة قيد إيمان أكيد، فرأيه أعلى، واتباع ما يقتضيه أحرى وأولى، فاقتضى رأيه، واتخذه علماً لأموره ورأيه، فاستتبعه لحينه وقال: أسلك ورائه.

ذكر أخذ سلطان حسين على الأمراء الميثاق ومشيه على خليل سلطان وهم معه في الإيثاق

ثم إنه أحضر الأمراء، وهم في قبضة سطوته أسراء، وقد ناوح كل من متعلقيهم مهب ناحيه، وتوجه إلى دار كل المخبرون، فقامت عليهم النائحة والناعية، وأوثقهم بقيدي الحديد والأيمان، بأن يكونوا معه في السراء والضراء على خليل سلطان، فمد كل منهم إلى القيد رجله وإلى اليمين يده، وعاهده على ما يختار، وأن يقدم له نفسه وأهله وماله وولده، فحين استوثق منهم، أزاح بالأماني السوء عنهم، وتركهم موثقين في البند، ونكص قاصداً سمر قند، وأرسل إلى خليل سلطان بما دب من أمره ودرج، فليستعد لمبارزته فها هو وقد عبر جيحون وخرج، وأنه هو أيضاً طالب من ملك خاله حصته، ومنازع خليل سلطان في السرير منصته.

ذكر تبريز خليل سلطان من سمرقند، لملاقاة سلطان حسين بطوائف جنده ورجوع سلطان حسين مما يرومه بخفي حنين

فاستعد له خليل سلطان، وخرج من سمرقند لاستقباله في أسرع زمان، ثم إن السلطان حسين أحضر الله داد، ومن معه من الشياطين المقرنين في الأصفاد، واستأنف عليهم العهود، وأكد عليهم قيود العقود، وأحل كلا منهم محله، وأجاز عقده وحله، وخلع عليه وأجازه، واحترم حرم حقيقته ومجازه، وبش بإنعامه إلى متعلقيهم وهش، وسار بهم حتى وصل إلى مدينة الكش.

والله داد كان قبل ذلك بزمان، أرسل إلى خليل سلطان يخبره بوقوع هذا الهم، وما جرى عليهم من شرور وما تم، ثم قال له: إن فألك سعيد، وأمرك حميد، فانهض برأي رشيد، وعزم سديد، وجنان حديد، فإن ضدك مصيد، والله تعالى ناصرك قريباً غير بعيد، فلا تخف من كيد

مكيـد، وإن كنت طفـلاً، فإنك شبت أهـواء القلوب بنسمات محبتك، فصرت شيخ السلطنة، وكل الأنام لك مريد، فوصل خليل سلطان، إلى ذلك المكان، فعبى السلطان حسين جيشـه، واستعمل تهوره وطيشـه، وجعل الله داد على الميمنـة، ورفيقـه على الميسره، ولما تراآى الجمعـان وتداني الزحفـان، وحقت الحقائق، وسـدت المضائق، وتعـادت الأسود والغـرانق، وبادر كل منهم من مكـانه، وقصـد كل من الله داد وأقـرانه عساكر خليل سلطانه، فتخبطـت عساكر السلطان حسين، وسُلب ثوب عزه، فنبذ بالعراء ملتحفـاً من ظنونه ثوبي خيبة وحين، ودهمه من البلاء ما أنساه سلبـه، فرجع بخفي حنين، ومر على وجهه قـاطع الفلاة، حتى وصل إلى خاله شاه رخ صاحب هراة، فلم تطل له عنده مدة، فإما سقاه مهلكاً وإمـا مـات حتف أنفـه عنده، فكان ذلك آخـر العهـد بسلطان حسين، ورجع خليل سلطان إلى دار ملكه قرير العين.

بقية ما جرى لبير محمد مما قصده من فرح وهم وكيف آل ذلك إلى وبال وحزن فنقض ما تم

ثم إن بير محمـد تمادى في خـروجـه، واستمـر يرتع في روض الطلب ومـروجـه، وتكررت بينهما دروس المراسلة، وتحررت مسـائلهـا بعـد مطاولة المقاولة، أن ينزلوا منازل المنازلة، ويحلوا بروج المقابلة والمقاتلة.

وكـان متـولي أمور ديوانـه، ومشيد قـواعـد ملكه وسلطانه، شخصـاً يدعى بير علي تاز، حـامي حقيقـة باب الملك وحـارس المجـاز، سرة بطحـاء مملكته، وقطب سماء دائـرته، وقدوة علماء عـوالمه، وقوة خـوافي عسكره وقـوادمـه، فجـرد من عسـاكـر قنـدهار، كل طود لو مـال على قندهار هار، وتوجـه بعـزم أمضى من البتـار، وحـزم أنفـذ من الخطار، قائـداً ذلك الخضـم الهدار، والسيل والثرثار، والغمام المدرار، حتى وصل إلى جيحون فوقف منه التيار، ثم أمر ذلك البحر العجاج، أن يركب من جيحون الأثبـاج، ويصادم منه تلاطـم الأمواج، فمرج الله ﴿ البحـرين

هذا عـذب فـرات﴾ سـائغ شرابه﴿وهذا ملح أجـاج﴾(١) فمخـروا منه بسفنهم النحــر، وجـاوزوه مجاوزة بني إسرائيـل البحـر، وســار بذلك الأخشب، حتى أرسى على ضواحي نخشب.

ذكر مقابلة العساكر الخليلية جنود قندهار بصدق نية والقائهم بهزيمتهم إياهم في أشر بلية

وكان قبل ذلك خليل سلطان، قـد نجز أمـره كما كان، ونفث أعطار مندل الإيثــار، وقـوى العــزائم على الملوك بالاستحضـــار، ليجنوا من أشجار الجرايات وثمار الإدرار، ما يستعـدون به لملاقاة شياطين قندهار، فلبى دعـوته العـام والخاص، وكل بناء من عفـاريت الجنود وغـواص، واجتمع من أعيـان، أولئك الأعـوان، كل مطيع مقتطف ثمـراً حسـان، ذلك البستان، من أنس وجان، وجاء ذلك البحـر أفواج أمواج العساكر من كل مكان، وهــم مـا بين رؤوس الجغتــاي، وكل فـرعــون من بلاد تركستــان قد عــلا وعتا، وفـوارس فارس والعـراق ورستمدار، وجـان قربانية خراسان والهنود والتتار، ومـن كان تيمور، أعده لمضائق الأمور، ولم يفارقه في سفر ولا حضر، وأرصد لكل نائبة من خير وشر، شعر:

فـــــــــوارس لا يملـــون المنـايا إذا دارت رحـــى الحرب الـــزبـــون

فـاستأنف عليهم فواتح الفتـوح، واستنجب منهم لما دهاه كل نصيح صـديق نصوح، وأسبـغ عليهم من دروع عطاياه السـابغات، وضـاعف على قـامة أملهم من خلع إنعـامـه المضاعفـات، ففتحت عليهم الأرض خـزائنها، وصبت عليهم من معـادنها وفلزاتها ظاهرها وكـامنها، فصـار كل راجل منهم وفارس، وقـد تجلى فيما تحلى به من تلك النفائس، يزري بحسن هيئته على مخدرات العرائس، فساروا ونسمات النصر من أنفسهم فائحـة، ولمعات الفتح من بوارق بيارقهم لائحـه، والسبع المثاني لأبواب

---

١ — سورة الفرقان — الآية: ٥٣.

النجح والفتـوح في وجههم فـاتحه، ولا زالَ ذلك الرأس يرسي ويمشي، حتى حط على ضـواحي قرشي، وهي المدينة المذكـورة، فاستقـرت تلك العساكر المنصورة، وذلك يوم الأحـد مستهل شهر رمضان، سنة ثمانمائة وثمان، فبـات كل من ذينك البحـرين وقـد ضم ذيله، وكف عن التبـذر والتبـــدد سيله، وحفـظ من الأغبــار رجله وخيلـه، وأحيى في معتكف المراقبة إلى الصباح ليله، قلت:

إلى أن بدا لمع الضيـــــا في ظـلامـــــه يلوح كمــــوج الماء من سجف طحلب

ولما سل الفجـر صارمـه الفضي، وأبرز إبريز ترسـه، ومسح على لوح الجو ما طرسه مسـود الليل من دخان نقشه، تهيأ كل من أولئك الأطواد للاصطدام، واشتعلـت في قلوب تلك القبـــائل نـار الحميــة للاصطلاء والاصطلام، فعبى كل عسكره ما بين ميمنة وميسرة، ومقدمة ومؤخرة، ثم تدانوا وتكانوا، وتعـاونوا وتعـانوا، وتراجـزوا وتغـانوا، وتعـانقـوا وتهانوا، وتناجـزوا وتفـانوا، والتقت الرجـال بـالرجـال والخيل بالخيل، وارتفع ظلام القتـام إلى رؤوس الأسنة، فـرأوا في صـلاة الظهـر نجـوم الليل، وجرى في ذلك القسطل من كل قناة عيون السيل.

ثم عند منتصـف النهـار، انكشف الغبـــار عن أن طود قنـدهار هار، وسعد أولئك الكبـار بار، وعليهم غبار العثـار ثار، وخبرهم بالانكسار سـار، وصيـت خليل سلطان إلى الأقطار طار، وإلى الآفـاق بـالانتصـار صار، فـولى بير محمد وعلى رأسه بحـر الدمار مار، وفي قلبـه زناد البوار وار، حتى كأن في قلبـــه جمر الغضـا والغـار غـار، وفي كبـده نار لهيب المرخ(١) والعفار فار، وجندلت رجاله، وأبطلت أبطاله، ونهبت أثقاله، وتحولت أحواله، وسبي حريمه وعبيـده، وسلب طريفه وتليده، وتشبث هو بأذيال الهزيمة، وعلم أن إيابه سالماً نصف الغنيمة، كما قيل شعراً:

١ــ المرخ: شجر سريع الاشتعال.

إيابُك سالماً نصف الغنيمة　　　وكل الغنم في النفس السليمة

ورجع خليل سلطان، وقد استنار به الكون والمكان، وإستقرت دولته، واستطارت صولته، وشكر الله المليك، وأتم صيام رمضان في مكان يسمى جكداليك(١).

ذكر خروج عسكر العراق على خليل سلطان ومجاهرتهم بالخروج وقصدهم الأوطان

ثم في ليلة الاثنين غرة شوال، خرج من العراقيين الرؤوس والأبطال، ومعهم حريمهم وأتباعهم، وأولادهم وأشياعهم، وكبيرهم شخص يدعى حاجي باشا، وهم جارون تحت أمره كيفما شاء، وكانوا ذوي صولة وجوله، وصحبتهم السلطان علاء الدولة، ابن السلطان أحمد البغدادي(٢) لصلبه، وكان قد وقع في أسر تيمور فسجنه في سجن محنته وكربه، فأفرج عنه خليل سلطان، وجعله عنده ذا مكانة ومكان، فبينما الناس مشغولون بأمور العيد، رفع أيديهم أولئك الصناديد، وكأنه كان تقدم لهم بذلك مواعيد، فخرجوا تحت جنح الليل، وشمروا نحو عرائس العراق الذيل، وطلقوا مخدرات ما وراء النهر ومالوا عنها كل الميل، لأنهم كانوا قد سمعوا أن دار العراق أنزلت بانيها(٣) ومياه أنهر سلطنتها عادت إلى مجاريها، فلم يقف أحد أمامهم ولا مشى خلفهم، ولا قدر على أن يربط السير رجلهم وكفهم، فقطعوا جيحون ووصلوا إلى خراسان، فتصدى لهم كل من سمع بهم من كل مكان، فانفرط نظامهم لعدم اتفاق، فتقطعوا في البلاد قبل وصولهم إلى عراقهم، وأين إيران من توران، ودجلة من جيحان، فعيد خليل سلطان في ذلك المكان، ثم ألوى راجعاً إلى الأوطان.

١— جكداليك: سهل صغير إلى جوار كش، يجري فيه نهر صغير. بارثولد— تركستان ص ٢٤٣.

٢— أي أحمد الجلائري.

٣— المقصود هنا أيضاً أحمد الجلائري، وكان قد عاد إلى بغداد سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥ م، ثم غادرها مكرهاً من حليفه القديم قرايوسف، ثم تصالح معه وعاد.

ذكر ما فعله بير محمد بعد انكساره وما صنعه بعد وصوله إلى قندهار

ولما وصل بيرمحمد إلى قندهار، واستقرت به الدار، تلملمت أموره، وحامت حول قصوره صقوره، ودارت من سيارات عسكره بدَوْرِهِ بُدُوره، وتسعرت سمومه وحروره، وتطاير شراره وشروره، فتأرق وتمرق، وتحرق أسفاً قلبه وتخرق، وتمزق غيظاً أديمه وتفرق، وكان ذا حماقه، وقلة لياقه، فطير أجنحة مراسيمه، إلى سكان أقاليمه، واستنهض على خليل سلطان كل حبيب صحيح الود وكليمه، واستطب لجريح قلبه كل قريح الطعن والضرب وكل لديغ القلب وسليمه، فلبوا دعواته بالإطاعه، وأجابوا نداءه بالسمع والطاعه، ثم سالت الأودية والجبال، بالخيل والرجال، وأرسل إلى خليل يقول، ضمن كتاب مع رسول: إن أول مصافنا كان فلتة فتمت، وشرارة تسوهل في إطفائها، فالتهبت وطمت، ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت، وتحذرت ما استحقرت، واستكبرت ما استصغرت، لإنتصرت وما انكسرت، ولعثرت على مرادي وما عثرت، ولكن أضعت الحزامه، فحرمت السلامه، وتناولت أمرك برؤوس الأنامل، فأكلت يدي ندامه، مع أن صليبة جندك، وقوة ظهرك وعضدك، ونبال نبالتك وساعد سعدك، وعضب غضبك ورمح رشدك، وحد صارمك وصرامة حدك، إنما كان رؤوس العراق، وما حصل لك منهم من الإتفاق، وأما الآن فقد وقع منهم نفاق، واتفق لك منهم عدم اتفاق، وظهر تباعد وشقاق، ففت لذلك كبدك، واختل فكرك وجندك، وها أنا قد جئتك بجد جديد، وبالحد والحديد، فاستعد للقاء، وتيقن عدم البقاء، فإن الحرب كما علمت سجال، وكما أديل لك علينا بالأمس، فإن غداً لنا عليك يدال.

ذكر توجه بير محمد لمقابلة خليل سلطان ثاني كرة وما حصل عليه في ذلك من كرة وفرة وتوليته الدبر كما بدا أول مرة

ثم توجـه بتلك الجنـود والأعـوان، وقطع جيحـون ووصل إلى مكان يسمى حصار شادمـان(١)، فتوجه إليه خليل سلطان، ومعـه من عساكر الرجال والفـرسان، وجـراد الجيش وقمله وضفادعـه، ما يجري من الدم الطوفان، فمـر بتلك الأطواد والبحار، وسرى وهو مـا بين رأس وسار، حتى وافى جنود قندهار، وكـان كما ذكـر من قبل، قـد قـدح في حـراق أحشـاء العسـاكر القندهـارية، من خـوف نار الخليل، زناد النبل، فكانوا ملسوعين والملسوع يخاف من جر الحبل، فقبل أن يزعق النفير، ويضرب الطبل، نفر من كل فرقة منهم طائفة، وتنادوا: ﴿أزفت الآزفة● ليس لها من دون الله كاشفة﴾(٢)، فألبـس بير محمد خلعة الخلع، ولم يكن له بها طوق، فـاقلع إلى القلعـة القلع، وأرصـد الأبواب وأحكم الأسـوار، واستعد في حصـار شادمان لحصـار، فأحاط به من العساكـر، كل جارح وكـاسر، ودار عليـه من بني يافث كل سـام وحام، وجـد في المحـاصرة منهم كل طاعن وضـارب ورام، فتندم بير محمـد، على ما قصـد في ذلك وتعمد، وتذكر ما قال له أول، الخواجا عبد الأول، لكنه اعتذر، بالقضاء والقدر، فرماه القضاء بسهم جواب، أجاد فيه وأصاب، وقال:

وعـاجـز الـرأي مضيـاع لفـرصتـه   حتى إذا فـات أمـرٌ عـاتـب القـدرا

فانعكس منه كل رأي وفأل، وتغير عليـه كل أمر وحال، وذهب عنه منعطفاً مـا بيده من ملك ومـال، ونفر عنه كل أسـد أصلى للحرب ناراً حامية، لما سطا على حام وصال، ورجع عنه لسوء تدبيره كل ذي قرابة، حين لمع له بالأمـاني الكاذبة كل سراب وآل، وتمزقت شقق تدبيره، على منوال تفكيره، سدى ولحمة فلم يبق له من دون الله من وال.

١— حصار شادمان: مدينة في منطقة الصغانيان، إلى الجنوب الشرقي من سمرقند. لى سترانج ص٤٨٣.
٢— سورة النجم— الآيتان: ٥٧—٥٨.

ذكر ما صنعه بير محمد من حيلة عادت عليه بأفكاره الوبيلة لأن جدواها كانت قليلة

ولما عدم حوله، أخذ في إعمال الحيلة، فاستدعى عدة مضبوطة، من الجلود المخطوطه، الجيدة الدباغ، المصبوغة بألوان الاصباغ، ثم فصلها لبوساً، لكل بوسا، وسمر عليها المرايا المصقولة، وبعض صفاح معمولة، وموهها وأحكمها بالمسامير، وأحضر من سوقة بلده رؤوس الجماهير، واستكثر من الرعاع والهمج الجموع، ثم أحضر تلك الدلاص والدروع، ووزع على تلك الرؤوس والظهور هاتيك النطوع، فصار كلما صارت الشمس بازغة، أصعد إلى الاسوار وخارج البلد تلك الأسود، وعليهم تلك الدروع السابغة، فإذا رآهم الناظر من بعيد، توهم رجالاً ولم يعلم أنهم بندق العيد، وإذا ترآى ذلك الهباء، والخيثعور(١) الذي ملأ الفضاء كان ﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾ (٢)واستمر على ذلك مدة، يقاسي المعاناة ويعاني الشده، وكان الذي تعاطى هذا المكر الجلي، دستور مملكته أعني بير علي، ومع ذلك كله لم تنفعه هذه الحيلة، وعادت عليه أفكاره الوخيمة ووساوسه الوبيلة، وانكشف سره، وانهتك ستره، فضاق ذرعاً وقصر منه باع المجال، ومد بنقص عدده وعدده، وزاده الدهر النكال.

ذكر اعتراف بير محمد أنه ظلم وطلبه الصلح وإلقائه السلم

فبسط بساط التضرع، وطلب وسائط التشفع، وعلم أنه ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله● إلاّ من رحم﴾(٣)فناشد خليل سلطان الله والرحم، وقال معنى ما قلت شعراً:

يعطي الكريم ولا يمل من العطا والعفو شيمته إذا وقع الخطا

١ــ لم أقف لها على معنى.

٢ــ سورة النور ــ الآية: ٣٩.

٣ــ سورة هود ــ الآية: ٤٣.

فأجـاب خليل سلطـان مقـاصـده، وتأكـدت من الطـرفين معـاقـدة المعـاهدة، بأن لا يقصـد أحـد منهم بلاد صـاحبه، وإذا كـان الله تعـالى رفعـه، لا يضـع من جـانبـه، ويسلم إليـه مـا في يده، ويبقى على الود والصداقة في يومـه وغده، ثم تحالفا، أن لا يتخالفا، وتواثقـا أن يتوافقا، وتصـادقا أن يتصـادقا، وتفـارقا على أن يترافقـا، وتوافقا أن لا يتنافقـا، وراقبا الآل والذمة، وراعيا القرابة والحرمـه، وانشمر كل عن صاحبه بما معه من فئة، وذلك في سنة تسع وثمانمائة.

ذكر مخالفة ونكد وقعت بين بير علي وبير محمد أزاحت ثوب الحياة عنهما وأراحت مخالفيهما منهما

ولما وصل بير محمد إلى وطنه، واستقر بين خـدمه وسكنه، خرج عليه بير علي تاز، واستقل بدعوى الملك وامتاز، ثم قبض عليه وكبله، ثم أنه خذله وجدله، وشرع يقول، وهو يصول ويجول: أمور الدنيا اضطربت، وأشراط السـاعة اقتربت، وهذه دولة الدجـالين، وأوان تغلب الكذابين والمحتـالين، مضى تيمـور وهو الدجـال الأعـرج، وهذا زمـان الدجـال الأقرع، وسيأتي بعـد هذا الدجال الأعور، وإن كـان يجزع من قرع باب السلطنة فأنا أقـرع، فلم يجب أحـد من الرؤوس والأذناب سـؤاله، ولا أنعم له بها أقر عينه وأنعم باله، إذ لم يوجـد في تناول هذا الأمر المحظور من مبيح، ولم يكن لذلك الوغد في سهام الملك غير المنيح الفسيح، فدعا أرباب ممالكها تضرعـاً وخيفه، فكشر كل في وجهه أنيـابه، وجاذبه هذه الجيفه، فلم يبق له قرار ولا ثبات، فسـل يده ومد رجله صوب صاحب هراة، فبمجرد وقوعه عنده في شرك الاقتناص، قبض عليه وأجرى عليه أحكام القصـاص، وصفـت له ممالك قندهـار، من غير مضـارب ولا مضار، واستراح خليل سلطان أيضاً من الإنكار والمضار.

ذكر ما وقع من حوادث الزمان في غيبة خليل سلطان

وفي هذه السنة بادرت بالهجوم تتـار الروم، ووصلوا بالعزم، وقطعوا جيحون بالـرجل وهو جمد من خوارزم، وقصدوا بـلادهم، فتصدى لهم

من كل جـانب من شتتهم وأبادهم، وحصل لهم من عـدم الاتفاق، مـا حصل لعسـاكر العراق، وأيضـاً في غيبة السلطان خليل، واشتغـاله بهذا السفر الطويل، اغتنم الفـرصة خدايداد وشيخ نور الدين، فتـوجهوا إلى سمرقند مطمئنين، وأخنوا عليهـا، ونهبوا ما حـواليها، فتحصنت منهم، وترفعت عنهم، فنهبوا خارجها ورجعوا، ونحو بلادهم انقلعوا.

ذكر تجريد خليل سلطان الاجناد وتوجهه إلى شيخ نور الدين وخدايداد

ولما رجع خليل إلى سمرقنده، أراح طوائـف عسكره وجنده، ثم دعا أصحـابـه، ووجـه نحــوهما ركـابه، وجعل دأبهما ودأبه، وهيـأ أنصـاره وأطلابه، وسـار بتلك القبـائل المضطرمـه، والأسود الحوادر والفحـول المغتلمه، واستمـر ذلك الطود الركون، بين حـركة وسكون، حتى وصل إلى سيحـــون، وحين شرع في ذلك الطور، والنـار ذات النور، على نهر سيحون في العبور، رأيت البحر المسجور، فأذعن له شاه رخية وخجند، وتحصنت منه تاش كند، فتـوجه لحصـارها، وعزم على هدم أحجـارها، فبعـد أن حاصر هامـده، وأذاقها كأس الجوع والشـدة، لجأت الى طلب الأمان، وسلمت إليه قايد الإذعـان، فأجاب سؤالها، ورقح(١) بالصلح حالها، ثم قفا آثارهما طالبا دمارهما.

ذكر ايقاد شيخ نور الدين وخدايداد ناراً للخليل ليحرقاه فأطفأها الله تعالى ووقاه

وكان خـدايداد وشيخ نور الدين يحومان حـول الحمى، ويترقبان من فـرص النهب والسلب معـاني عسـى ولعل مـا، فتـوجـه وراءهما، ورام لقـاءهما، فجعـلا يرحـلان بمــرأى منه ومسمع، وينزلان بمأمـل فيـه ومطمع، وجعل يقتفيهما في كل منـزل، فإذا رحـلا يتبع قفـاهما وينزل، وكان خليل سلطان معتمداً على عسكره، مستيقنا بحلول نصره وظفره،

١— رقح: أصلح.

فكأنه في بعض الليالي غفل عن التحرس، وكان لهم في جيشه من دأبه التجسس والتحسس، فخيبه الظن وخانه، وحط على مكان يسمى شرابخانه، وكان قد تقدم على الثقل، فطار جاسوسهما إليهما بما فعل، فأقبلا كالسيل، وبيناه بالليل، فخرج من عسكره جماعه، وكأنما قامت القيامة في تلك الساعه، ثم تركا وردا، وفرا عنه وندا(١)، وتشتتا في المهامه والموماي(٢)، ومن أين للسلطان اقتناص الحرامي، فكف عنهما عنان الطلب وقصد بالسلامة دياره وانقلب.

ذكر مفارقة شيخ نور الدين خدايداد وتقاسمهما تلك البلاد

ولما كانت مودة خدايداد وشيخ نور الدين كالفخار، وأساس ما بينهما من الصداقةكمن أسس بنيانه على شفا جرف هار، اختلفا، وما ائتلفا، وتجاذبا شقة الشقاق، ونفق في تبايعهما بضائع النفاق، ولم يعلم أحد من راق﴿وظن أنه الفراق﴾(٣) فقهقر شيخ نور الدين نحو سغناق، واستولى على تلك الأطراف والآفاق.

ذكر رجوع شيخ نور الدين إلى الاعتذار والتنصل عند خليله مما كان منه وصار

ثم راسل شيخ نور الدين خليل سلطان، واعتذر عما صدر منه من العصيان، وطلب منه أن يقابل إساءته بالإحسان، ويرجع إليه عوائد صدقاته كما كان، فأجابه إلى سؤاله وأسبل على سوءة جرمه ذيل النسيان، وأرسل إليه امرأة جده تومان.

فصل: ولم يزل على الوفاق، وشق شقة الشقاق، مرتبقا ربقة الرفاق، حتى وقع خليل سلطان في الرباق، وصفا لشاه رخ ملك سمرقند وراق،

١ــ ندّ: نفر.

٢ــ الموامي جمع موماء، والموماء هي الفلاة التي لا ماء فيها.

٣ــ سورة القيامة ــ الآية: ٢٨.

توجه إليـه شاه ملك مظهـراً لصلح ومضمراً النفـاق، واستنزله بالمكر من قلعـة سغناق، بعـد أن أحكما العهـد والميثـاق، ووقع بينهما الاتفـاق، وأن يتلاقيا ركبانا، ويتباثا الأشواق، بعد السلام والاستسلام والعناق، وكان في جماعـة شـاه ملك شخص يدعى أرغـوداق، ثم أقبل شـاه ملك بجماعتـه، ونزل شيخ نور الدين من قلعتـه، وسـار شاه ملـك وحده، من غير عـدة وعده، وتعـانق هو وذلك المغرور، وبثه ما نابه في غيبتـه من أمور وسرور وشرور، فأكد عليـه الميثاق والعهد، ووصى كل منهما مـا يفعله الآخر من بعد، ثم ودعه وانصرف، واتصل بجماعتـه ووقف، وسارع كل من جماعته بمفرده، إلى مصـافحة شيـخ نور الدين وتقبيل يده، حتى أفضت النوبة إلى أرغوداق، فتوجـه بما أضمر من الخداع والنفاق، وكان في الشجـاعة أسداً، وكالفيل قوة وجسـداً، فوصل إليه، وقبل يديه، ثم التزمـه عناقا، وأحكمه اعتناقا، فاقتلعه من سرجـه، وأهبط نجمه من برجه، وقطع رأيه، وفجع به أناسـه، ولما سمع بذلك شــاه رخ، طفق يندب ويصرخ، ولعن شـاه ملك ونهره، وضرب أرغـوداق وشهـره، لكن مـا أمكنه وصل مـا قطعـاه، ولا غرس ما قلعاه، كما قيل مصراع.

وليس لما تطوي المنيـة ناشر واستمر مدة لا ينظر إليهما، ثـم بعد ذلك رضي عليهما، واستمـر خـدايداد، متشبثـاً بتـلابيب العناد، مشركـا بين العتـود والفساد، غير مسلم إلى الصلح القيـاد، إلى أن أباره الدهر وأباد، وسنذكر كيف جاد بإعدامه وأجاد.

ذكر أمر خليل سلطان ببناء ترمذ التي خربها جنكيز خان وتجهيزه العساكر لهذا الشأن

ثم في شهـر صفر سنة عشر وثمانمائـه، أرسل خليل سلطان من الجنود فئة، وأضـــافهـم إلى الله داد، وضم إليهم مـن رؤوس الأجناد، اليـــاس خـواجا وابن قماري منصـور، وتوكل قـرقراو دولـة تيمور، إلى ترمـذ مع

آخرين، ليعمروها، فاستمروا سائرين، حتى وصلوا إلى ترمذ، فجمعوا في الحال احتياجاتهم من الأحجار والأخشاب والقرمد، ثم تقاسمت تلك الرؤوس أبدانها، وعلوا عن أن يتسوروا قلة أسوارها وحيطانها، وجعلوا يعملون ولا يلبثون،ويبنون بكل ريع منها آية يعبثون(١)، وتركوا بالنهار أكلاً وبالليل نوماً، فأتموا بنيانها في نحو من خمسة عشر يوما.

وحين ميزوا محلاتها، وفرزوا دروبها وطرقاتها، ورفعوا أعلام مساجدها ومناراتها، وبنوا مواضع أسواقها وأبياتها، أمروا الباقين، من ذرية النازحين عنها من أهلها، وكل من رحل من خراب وعرها إلى عمران سهلها، أن يرجعوا إليها، ويخيموا عليها.

وكان اولئك المساكين، قد استوطنوا منها البساتين، وبنوا فيها أسواقهم وبيوتهم، وجمعوا فيها أسباب معائشهم وقوتهم، واستمروا على ذلك من وقت جنكيز خان، إلى وقت تيمور كوركان، فكانوا في وطنهم آمنين، وعن حركات الانزعاج والتقلقل ساكنين، فلما مات تيمور، وحدثت شرور وأمور، أراد خليل سلطان أن يصونهم، فأرسل من شيد حصونهم.

وكانت الجديدة عن العتيقة نحواً من فرسخ، فصارت العتيقة أحصن من الجديدة وأرسخ، لاسيما وقد علّى البانون منارها، ونهر جيحون يصافح أقدام طود جبل أسوارها، بخلاف الجديدة، فإن قصور مساكنها غير مشيدة، وهي عن النهر بعيدة.

فلما نادوا الناس أن ادخلوا إلى دار قراركم، فكأنهم كتبوا ﴿عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾(٢) فلم يثقل الله داد عليهم، ولا اكترث في ذلك ولا التفت إليهم، ولم يظهر في ذلك عنادا، ولكنه حشر فنادى، أن كل من سبقت يده من أهل البلد، إلى شيء من هذه

١— انظر سورة الشعراء—الآية: ١٢٨.

٢— سورة النساء— الآية: ٦٦.

الأماكن والعمائر الجدد، فهو له من غير منازع، ولا ممانع ولا مدافع، ثم أمر بانتقال الخبازين، والقصابين، والطباخين، والسمانين، وميز لهم منزلهم ومأواهم، ولم يتعرض لمن سواهم، فجعلوا يبيعون على العساكر ويشترون، ويربحون في ذلك ولا يخسرون، فاختل نظام سائر الجمع، إذ الانسان مدني بالطبع، فألجأهم الاضطرار، أن يتبعوهم بالاختيار، فتفقد ما يليق به أحوال كل من كبيرهم وصغيرهم، وقرر على ما اقتضته أوامره قواعد أمورهم، ثم جمع رؤوس جنده، وقفل إلى سمرقند.

ذكر ما فعله شاه رخ من جهة خراسان في مقابلة ما فعله خليل سلطان

ولما سمع شاه رخ بما فعله خليل سلطان، جهز طائفة من عساكر خراسان، وجعل يمد ذلك السحاب المنجاب، من بحر أمر أمير يدعى مزراب، وهو أخو جهان شاه، الذي كان تيمور على محاصرة قلعة دمشق ولاه، وأمر رؤوس تلك الجنود، أن يبنوا قلعة تسمى حصن الهنود، وهي من أقصى بلاد خراسان، يفصل بينها وبين ترمذ نهر جيحان، ففعلت من البناء العساكر الخراسانية، نحو ما أعربت عنه العساكر الخليلية السلطانية، وفي أثناء مدة البناء تراسل الله داد ومزراب وتصافيا، وتواصلا بالاحتشام والاحترام وتهاديا.

إشارة إلى ما حدث في أقاليم إيران وما جرى من سيول الدماء عند نضوب ذلك الطوفان

ثم إن السلطان أحمد وقرايوسف رجعا إلى العراق، ووقع بينهما على سياسة الملك الاتفاق، واستقر السلطان أحمد في بغداد، ووثب قرايوسف على الجغتاي بالعناد، ليستخلص منهم ما استولوا عليه من بلاد، وكتب الفتح على راياته آيات نصر من الله، فاستخلص أذربيجان، بعد أن أباد طوائفهم وقتل أميرانشاه، ومد عنان الكلام، في استيفاء هذا المقام، يخرجنا عما نحن بصدده من المرام، إلى أن وقع بينهما الشقاق،

وتخبطت أذربيجـان والعراق، ثم قتل قـرايوسف السلطان أحمد بإشـارة بسطام، وذلك في شهـور سنة ثلاثة عشر وثمانمائة من هجـرة النبي عليه السلام، وأمـا عراق العجم، فإنها كـانت أحصن أجم، فاستقـل بدعوى الملك متـوليها بير عمـر، فنهض عليـه ذو قـرابة له يدعى اسكندر(١)، فقاتله وكسره، ثم قبض عليه وهصره، واستقل بدعواه، فتوجه إليه شاه رخ صـــاحب هراة، فقبـض عليـــه وأباده، وفجع بـه أهله وأولاده، واستصفى بلاده، فخلصت لشـاه رخ ممالك العجم كلهـا، وانثـال إلى خـزانته من أمـوالها وابلها وطلهـا، من غير أن يعاني في ذلك نصبـا، أو يقاسي في تحصيله تعبـاً ووصبا، مع أن مملكته كـانت أوسط الممالك، فلم يتطرق إليه أحد بسوء لذلك، وأنه كان حسن الجوار قليل الحركه، وأبوه قـد حسم عنه بقتله ملوك العجم مـادة كـل شر وهلكه، فثبت في مكانه بين أسـود شمخت ونبت، وكبت مـاله من الأعـداء بماله من أصـدقـاء وثبت، فاهتـزت أراضي دولته بنبات الثبات وربت، وكأن عيـون السعد كانت تراقبه، وعرائس الملك تناجيه وتخاطبه، بقوله شعراً:

نـزه فـــؤادك عن ســـوانا والقنـا	فجنـــابنـــا حـــل لكـــل منـــزه
والصبر طلسـم لكنـز وصــــالنـا	مـن حـل ذا الطلسم فــــاز بكنـزه

ذكر خروج الناس من الحصر وطلبهم أوطانهم من ما وراء النهر

وفي أثناء هذه الحالات، قصـد الناس من سمـرقند التبدد والشتـات، وطلب كل غريب وطنه، وتحرك يبغي سكنه وقطنه، إما بإجازة واحتماء، وإمـا بهزيمـة وإختفـاء، فأول من استجـاز من أهل الشـام ورام المسير، شهاب الدين أحمد بن الشهيد الوزير، ثم تفرقت الطوائف عجماً وعرباً،

١— اسكندر هو حفيد تيمـور، فقد كان ثالث أبنـاء عمر شيخ بن تيـمور، عينه جـده حاكما على فرغانة قبل خروجه إلى حملته الغربية، واختلف مع ابن عمه محمد سلطان نائب تيمور آنذاك على سمرقند، فعـزل عن منصبه، وحمل إلى سمرقند حيـث اعتقل وضرب فيها بأمر من جـده، وكان وقتها في السادسة عشرة من عمره، ثم رضي تيمور عنه وعينه حاكماً على همذان:

Barthold, Four Studies, vol P pp35-37.

وتبددوا في الآفاق شرقاً وغرباً، ووقع في سمرقند القحط وغلاء الأسعار، ولم يرخص بين الناس سوى الدرهم والدينار، ثم حصل بعد ذلك الرفاهية، واجتمع للناس الرجاء والأمنية، وطاب الزمان، وحصل الأمان، وذهب المقت، وصفا الوقت مصراع:

وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ.....

ذكر ما أثار الزمان الغدار من دمار وبوار ألقى به الخليل في النار

وكان خليل سلطان تزوج بشاد ملك، زوج سيف الدين الأمير، وملكه سلطان هواها، فكان فيه كالأسير، فمال بكل جوانحه إليها، بحيث أنه قصر نظره عليها، وصارت محبته كل يوم تزداد، وأنست قصته قصة قيس وليلى وشيرين وفرهاد، فكان كما قيل شعراً:

أعانقها والنفس بعد مشوقة ... إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كي تزول صبابتي ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
وكأنّ فؤادي ليس يهدأ الذي به ... إلى أن يرى الروحين يجتمعان

واستمر ذلك إلى أن ران هواها على قلبه، وأخذ بمجامع لبه، وربط جوارحه، وحل جوانحه، وفصل قميصاً واسعاً فكانا يلبسانه، واتحدا فصار ينطق بلسانها، وتنطق بلسانه، وصارا ينشدان وإلى حالهما يرشدان، شعراً:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

بل كانت القضية بالعكس، قلت:

إنها كانا بروح نُفخت ... مذ براها ربها في بدنين

وكان لا يصدر أمراً إلا عن رأيها، ولا يستضيء في سياسة الملك الابنور ذكائها، فسلمها قياده، وأتبع مرادها مراده، وهذا من غاية البله والعته، وكيف يفلح من ملك قياده امرأته.

وكان لها خادم قـديم، ليس من بني الأحرار ولا بكريم، بل كان من أطراف الناس، يبيع في أول أمـره البـز والكرباس، يدعى بـابا ترمش، بطرف معمش، ووجه منمش، وصورة قبيحة، وسيرة غير مليحه، وكان يتقاضي حوائجها ويدخل عليها، قبل وصول خليل سلطان إليها.

فلما وصلت مخدومته إلى مـا وصلت، وحصلت لها المرتبة التي لغيرها ما حصلت، ارتفعت درجـة خدمهـا، وزادت حشمة حشمهـا، واستفاد بابا ترمش من إضـافته إليهـا التعظيم، وبحسب كـرامة المخـدوم يحصل للخـادم التكريم، فصـار يرأس جماعتهـا ويسوسهم، وبمجـالستهـا تجلى بخلعة القوم لا يشقى جليسهم، ثم ترقى، حتى صـار عليه مدار أمرها، ثم تخطت قدمـه إلى التكلم في أسباب الملك وغيرها، ثم تدرج إلى فصل المحـاكمات الديوانية، وإجـراء القضـايا السلطانيـة، ثم ترفع إلى التوليـة والعزل، وتعاطى ذلك على سبيل الجد والهزل، ثم انتهى في ذلك، فصار دستور الممالك، ولم يقدر أحد على رد كلمته، لحدة شوكته بقوة مخدومته، فبسط يده ولسانه كما اختار وامتثل كل أحد ما أمر به وأشار.

واستطال على الله داد وأرغون شاه، فصـار يبرم ما ينقضانه، وينقض مـا أبرمـاه، وبلغ في قلـة الأدب إلى كـان أن يمـد رجله بحضرتهما، ولا يقـوم بذرة من واجـب حـرمتهما، ثم حجـر أن لا تفصل قضيـة إلا بمشورته، وإن كـان غائبـاً فينتظر حضوره أو يتـوجه إلى حضرته، ومن حين نبغ إلى أن بلغ مـا بلغ، كـان نحـواً من ثلاث سنين، وعفـاريت الجغتـاي وجنهم لابثـون معـه في العـذاب المهين، فحصل لالله داد وأرغـون شـاه من هذا التـدرج، غـاية الضرر، ونهاية التحـرج، وبلغـا الغـاية، في الاهانة والنكاية، وأعضل داؤهما، وأعجـز دواؤهما، واستلذا ذهاب العيش وزواله، على البقاء في هذه الحاله.

. ذكر ما افتكره الله داد ودبره في مراسلة خدايداد

ثم ان الله داد استعمل فكره، ولكن أخطت استه الحفره، فطبخ قدراً فانقلبت عليه، ونسج كدود القز شبكة حتفه بيديه، قلت:

اذا انعكس الـزمـــــــــان على لبيـب يُحَسِّنُ رأيـه مـــــا كـــــان قبحـــــا
بعـــــــاني كل امـــــــر ليس يعنـى ويفســـــد مـــا رآه النـاس صلحـــا

فلم يجدا لتبريد الأكبـاد، إلا مراسلة خـدايداد، فجليا عليـه صورة هذه القضية، وأخبراه بها عن وضـوح وجليه، وأشارا عليه أن يتـوجه بأمل فسيح، ويقصد بعساكره سمرقند، وخاطره مستريح، فنهض من ساعتـه، وتوجه بجيشه وجماعتـه، ودب دبيب الدبا، فوصل إلى مكان يدعى أوراتبا(١).

فلما سمع بذلك خليـل سلطان، أرسل الى الجنود والأعـوان، وتعجب من وقـاحتـه، وتعـوذ من كـلاحتـه، وجهـز الله داد و أرغـون شـاه، مع العساكر الجرارة للملاقاه، فسارا حتى دانياه، فقابلاه وما قاتلاه، ثم أرسلا إلى خليل سلطان، يستــدعيـان المدود، ويقـولان: إن هذا الـرجل بلغ من مُلاحاته، وشـدة دعارته وقلة مبالاته، انه لم يتزعـزع من مناخه، ولا دخل ريح هيبتنا في صماخـه، فأمـدهما ببـاقي العسكر، وجعل يتشـوف لما يكون من الخبر، فأرسـلا أيضاً إن هذا قـد آذى وزاد فساداً، وجارى في عـداوته ثمـوداً وعـاداً، فـأمـدنا بنفسك، وأدركنا بحـدسـك وحسك، فإن هيبتك أقـوى، وطلعتك أضـــوى، ومـا ارتكب هذه الجرأة، ولا أقـدم على هذه الجيئة، إلا وقـــد أضمـر شراً كبيراً، وطوى في باطنه قـاراً وقيراً، فأدركنا بـاقي المقاتله، فإن هذه المرة تكـون الفاصله، فخـرج خليل سلطان بقلب مطمئن، وخـــاطـر على حلول الحوادث مستكن، وأمـل فسح، وصـــدر منشرح، معجباً بشبـابه، مغرمـاً بأصحابه، متمايلاً بين أحبـابه، متهادياً بين أترابه، في شرذمة قليله، وطائفـة نبيله، أبعد مـا عنده نزول هم، وأشرد ما لديه حلول نكد وغم، يفديه الكمال، ويناديه لسان الجمال، بقوله شعراً:

تـه دلالاً فـأنـت أهـل لـذاكـــــــــا وتحكم فـــالحسن قـــد أعطـاكـــا

---

١ — مدينة في منطقة أشروسنة إلى الشمال الشرقي من سمرقند— تركستان ص ٢٧٩

فـوصل بتلك العصـابة السلطـانيـة، إلى قصبـة تسمى سلطانيـة(١)، فأرسل الله داد إلى خدايداد أن الركاب السلطاني، خرج من سمرقند في اليوم الفلاني، وفي الساعة الفلانية، يحل كورة سلطانية.

ذكر ما قصده خدايداد من الكيد ووقوع خليل سلطان في قنص الصيد

فقصد خدايداد المخاتله، وترك ثقله مقـابل المقاتله، ونبذا العساكر وراء ظهـــره، وتأبط شر شراره وهراوة هـره، واستصحب من أبطال القتـــال ورجال النضال والنزال طائفة، جاسرة غير خائفة، بمعنى ما قيل شعراً:

و زان إذا لاقــوا خفـــافــاً اذ أدعـــوا   كثيرٌ اذا شـــــدّوا قليل اذا عُـــــــدّوا

والتحف ذيل الليل، وواطأ بظهر الخيل، واستطرق إلى مطلوبه طريقا عوجاً، واستقود إلى مقصوده قواد الدجى، كما قيل شعراً:

لا تلـــقَ إلاّ بليـــل مـــــن تـــواصلـــه   فـــالشمس غـــامـــة والليل قـــواد

حتى وصل إلى سلطانية، وهي قصبة أنشأها تيمور، ولم يكن لأحد به شعـور، فلم يفجأ خليل سلطان، إلا وقـد جاءه مـوج البـلاء من كل مكان، فنهض كل من معـه من الأصحاب، وأخـذوا في الحرب والطعن والضراب، وقـاتلوا قتال الموت، وأيقنوا حلول الفـوت، فعضت عليهم الحرب العضوض، وطرحتهم ما بين مهشوم وموقوذ ومرضوض، فقتل حقيرهم وجليلهم، ووقـع في نار عـــدوهم حبيبهم وخليلهـم، ثم رجع خدايداد إلى معسكره، فائزاً بنحجه مستبشراً بظفره.

فصل: ثم إن خـدايداد حلف لخليل سلطان، بأشـد مـا يكون وأبلغ من أنواع الأيمان، أنه لا يقصده بأذى، ولا يرمى في عين معيشتـه بخيال قــذى، ولا يؤذيه بقــول ولا عمل، ولا يسلط عليــه من يـؤذيه بمكر وذحل، وسيرى نتيجة ما حلف، وإن الله تعالى عفا عما سلف.

---

١ — سلطانية هنا: قرية وقعت إلى الشمال من سمرقند . Barthold frour studies, p41

فصل: ثم التمس منه أن يرسل إلى الله داد، فمن دونه من الأجناد، أن يستسلموا لخدايداد، وأرسل خدايداد أيضاً إلى الناس، بأني قد استوليت منكم على الرأس، فإن أطعتموني أطعته، وإن لم تصلوني قطعته، ولما وقع خليل سلطان في هذا الكرب، تصور أن هذا سهم غرب، ثم ظهر له مكان ذلك المكمن، وتحقق كيف أخذ في المأمن، وعلم من أين صبَّ ذلك البلاء عليه، وأنى أخذ من ذلك الجانب الذي يأمن إليه، فقال بلسان الحال:

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا	ولا بينه ودّ ولا نتعارف
فما سامنا خسفاً ولا شفّنا أذى	من الناس إلا من نودّ ونعرف

ثم أرسل إلى سائر الأمراء، ورؤساء الجيش والوزراء، أن يستسلموا لخدايداد ولا ينازعوه، ولا يدافعوه فيما يريد ولا يمانعوه، فاستسلم الكل إليه، واستقبل ذراه وسلم عليه، فاستولى على تلك الجنود المجندة، وتحصن من غوائل المخاتلة بالرماح المسدده، والسيوف المهندة، وقدم جنود جند وخجند، وأغتام تركستان وطغام أوزجند(١)، وأخر من سوى أولئك، وتقدم إلى سمرقند، ولم يلتفت إلى الله داد فمن دونه، وتحقق الله داد أن صفقته في ذلك مغبونه، فسلخ الزمان عنه ما كان ألبسه من ثوب عز وسلب، وفر من بين يديه ما كان فيه من جاه ومال وذهب، وكان قيام ذلك الحشر، في سنة ثمانمائة واثنتي عشر.

ذكر ما جرى من الفساد بسمر قند عند قدوم خدايداد

فوصل خدايداد إلى سمرقند ودخل، فتغيرت تلك الرسوم والدول، وكأنه ظهر اختلاف الملل والنحل، وكان له ابن عم يدعى الله داد، فدعاه بالسلطان على رؤوس الأشهاد، وتفحص عن مكامن الخزائن، ونقب في أطوادها عن الفلزات والمعادن، ونقر عن مضمرات الضمار،

١ — أوزجند أو أوكند: آخر مدن فرغانة شرقاً. لي سترانج ص ٥٢٢.

وبحث عن الخبايا والدفائن، وتغيرت الأوضاع، وتبدلت بالفظاظة رقاق الطباع، وصار كما قيل شعراً:

أما الخيام كخيامهم   وأرى نساء الحي غير نسائها

وتنكرت الصفات، حتى كأنما تحولت الذوات، أو بدلت الأرض غير الأرض والسموات، شعر:

وتنكرت أرض الغوير فلم يكن   ذاك الغوير ولا النقا ذاك النقا

ذكر بلوغ هذه الأمور شاه رخ بن تيمور وتلافيه تلك الحوادث وحسمه مادة هذه العوابث

ولما اتصل بشاه رخ هذا الخبر، عبس وبسر، وتضجر وزمجر، وإزور، وإزبأر، وكشر واكفهر، وتغير وجهه وتمعر، واستغاث وتقلق، وولول واسترجع وحوقل، وتحرق وتنكد، وتأوه وأنشد شعراً:

لقد هزلت حتى بدا هُزالها   كلاها(١)وحتى سامها كل مفلس

ثم طير بطائق مراسيمه كل مطير، إلى أطراف ممالكه بجمع العسكر، وأمر شاه ملك، أن يسير غير مرتبك، ويستديم السير، ويسابق بعتاقه عتاق الطير، فيتدارك ما انفرط من النظام، ويطارد عن ورد المملكة الأغتام الطغام، فلا يدع رائدهم أن يحل، ويعاجل مستعجل قدرهم أن يمل، فسار شاه ملك في الحال، بعساكر في المدد كالجبال، وفي العدد كالرمال، ثم اتبعه شاه رخ بسائر الأساوره، وكواسر الأكاسره، وسار لايلوي على أحد، ولا يسكن في حركته إلى طالع ولا رصد، فحين وصلوا جيحون وعبروه، غطوا وجهه وستروه، فانبسط ذلك السيد على وجه الماء، فكأن البحر غطى بالغمام المتراكب، وغرق في بحر الحياء.

---

١ — كلاها: جانباها.

فصل: ولما قطع البحر تلك الأطواد، واتصل الخبر بخدايداد، تيقن أنه لا طاقة لذبابه وقروده، بذئاب جنود شاه رخ وأسوده، وأن جل عساكره يفر عنه ويسلمه، ويقبض عليه ولشاه رخ يسلمه، فأسرع في تنجيز مآربه، وبادر إلى تجهيز مطالبه، وأخذ ما وصلت يده إليه من أموال، وأوسق ما بلغت طاقته من نفائس وأحمال، واستصحب خليل سلطان، وتوجه إلى أنديكان(١)، وأودع الله داد ، وأرغون شاه، وبابا ترمش في القلعه، وأنف أن يستصحب أحداً منهم معه، وترك شاد ملك أيضاً في المدينة، بفراق خليلها رهينه، وبسلب ما كانت فيه من العز مهينه.

ذكر ما جرى بسمرقند بعد خروج الجنود الجندية وقبل وصول الشواهين الشاهرخية

ثم لما رحل خدايداد وانفصل، ولم يكن أحد من جهة شاه رخ وصل، وكان للناس، ظهر ولا رأس، أراد الله داد، وأرغون شاه، أن يتوجها إلى شاه رخ ويستقبلاه، فرفع خواجا عبد الأول عليهما يده، وأقام لمنعهما عن الخروج من القلعة رصده، واستعان بشطار المدينة، وكان الله داد قبل ذلك أنكاه نكاية أورثته ضغينه، كما قيل مصراع:

من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً

فلم يختلف في رئاسته اثنان، ولا انتطح فيها يأمرهم به عنزان، وصارت إشارته الآمرةالناهية، وجداول مراسيمه فيها بين الناس جارية، وأوامره المطاعة في تلك الايام الخالية مصراع:

والعلم يرفع بيتاً لا عماد له

ولم يزل خواجا عبد الأول يسوس الرعية، ويوصي على الله داد ورفيقه ومن معهم، ويشدد مضائق القضيه، إلى أن طلعت طلائع شاه ملك وأعقبتها العساكر الشاهرخية.

---

١ — أنديكان أو أنديجان، قصبة اقليم فرغانة. لى سترانج ص ٥٢٠—٥٢١

ذكر بدور بدور الدولة الشاهرخية في سماء ممالك ما وراء النهر بعد غروب شمس النوبة الخليلية

فخرج أهل المدينة لا ستقباله، مستبشرين برؤية جبين هلاله، فنزل كل أحد في منزلته، ووضع كلاً من الناس في مرتبته، ثم قبض على الله داد ورفيقه، وعاقبهم بأنواع العقاب، وصنف في تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم أنواع العذاب، ثم قتلهم صبرا، ونقلهم من الدنيا إلى الآخره، إلا بابا ترمش فإنهم عاقبوه، وبأنواع العذاب أهبوه، ففي بعض الأيام، وقد أنكت فيه من العذاب الآلام، أخذ الموكلين عليه ليطلعهم على قضيه، أو يذهب بهم إلى خبيه، فمروا به وهو في قيد وثيق، على حوض ماء عريض عميق، فاستل من قراب أيديهم عضب يده الدلق، ورمى بنفسه وزخ في ذلك الماء على غفلة فغرق.

فصل: ثم إن شاه رخ زار أباه، وأقام شرائط عزاه، وجدد ترتيب القراء على تربته والقومه، واستأنف معاليم المرتبين في ذلك والخدمه، ونقل إلى خزائنه جل ما كان على حفرته، من أقمشته وأمتعته وأسلحته، وعفر بيادر الخزائن، وحفر تخوم تلك الكمائن، وشرع في تمهيد القواعد، وترتيب مراتب الأقارب والأباعد.

فصل: وقبضوا على شاه ملك وأهانوها، وشانوها ابتذالا لمن صانوها، وعصبوها بالعذاب عصب السلمه، وهزوها لاستخراج الأموال منها هزات أعوان الظلمة، ثم بعد ذلك الابتذال، واستخلاصهم منها أنواع الأموال، حزموها وشدوا منها الوثاق، وشهروها منادين عليها في الأسواق، واستقرت على شاه رخ الأمور، وارتفعت صدور وانقصمت ظهور، وعلا إنسان، وانحط إنسان، فسبحان من هو كل يوم في شأن، عز شأنه، وتعالى سلطانه، يغير الدول، ويقلب الأحوال، ولا يعتري سلطانه تغير ولا انتقال.

ذكر ما قصده خدايداد من اتمام النكد والفساد وكيف آل ذلك النكال إلى أن جرى عليه الوبال

وأما خدايداد فحين حل في مكانه، وخلا بخليل سلطانه في أنديكانه، جدد معه عهوده ومواثقه، أنه أمنه مكره وبوائقه، وذكر أن ذلك النكال والنكاد، إنما فعله معه أرغون شاه، والله داد، مع احسانه إليهم، وإسبال ذيل إنعامه عليهم، وأنهم كافأوه مكافأة التمساح، وقابلوا بإفسادهم منه الاصلاح، ثم قال له: أذكر صنيعك معي أولاً وظاهراً، وانظر ما أفعله معك باطناً وآخراً، وسأفعل معك ما يتحقق به خلوص الوطية، وصدق النية، بحيث يذهب الكدر ويبقى الصفاء، وينمحي الجفاء ويثبت الوفاء، ونعيش باقي عمرنا متصافين، وفي رياض الهناء متوافين متكافيين، فنمحو بها نكتب في ألواح صدورنا من المحبة والشفقة، مساطير الأساطير المكتبة، في باب الحمامه المطوقه(١)، وسأردك إن شاء الله تعالى إلى دار عزتك، وأجتهد في تحصيل ما يعيدك إلى نشاطك وهزتك، ثم خطب باسمه في أنديكان، وأمر بذلك في أطراف تركستان.

تتمة ما جرى من خليل وخدايداد من المعاقدات وتأكيد العهود والمودات الى أن أدركهما هادم اللذات

ثم أكدا بينهما وثائق الأيمان، وذهب خدايداد يستمد المغول لخليل سلطان، وترك خليل سلطان بأنديكان، وكان المغول، لما بلغهم موت تيمور المخذول، سلبوا قرارهم، وأخلوا ديارهم، ولجأوا إلى الحصون، وتشبثوا بأذيال كل كهف مصون، كما ذكر أولا، فلما تحققوا موته، واستثبتوا فوته، تنادوا بالأمن والأمان، وجاوروا خدايداد في ذلك المكان، وأرسلوا يهنئون خليل سلطان، وبعثوا إليه هدايا سنية، وتحفاً

١- من قصص كليلة ودمنة، وقعت مع بعض رفيقاتها بشبكة صياد، فأقنعتهن بالتعاون للخلاص من الشبكة.

فاخـرة ملوكية، مـن جملتها كرسي مـن ذهب، وأفرغـه صائغه في قـالب العجب، فـأكـــرم خليل سلطـان رسلهم، وأعظم نـزلهم، وأجمل معهم جواراً وأجراً، وجازاهم بكل حسنة عشرا، قلت:

الخير أبقـى وإن طـال الزمـــــــان بـه　　　والشر أخبـث مـــــــا أوعيت مـن زاد

ولا زالت خلع المودة بينهم تنتسج، ووجوه المكارمة والمحاشمة يوماً فيـوماً تبتهج، حتى عـرى له مـا عرى، وجـرى عليـه من بحر القضـاء والقدر ما جـرى، فساعة وصول خـدايداد إليهم قبضوا عليه، وأرسلوا إلى خليل سلطان ينهون صـورة الحال إليه، وقالـوا: تعلم ما بيننا وبينك من خـالص الوداد، وإنا عالمون بما وقـع بينك وبين خدايداد، وإنه كـان السبب في تبـددك وخـروج ملكك من يـدك، وقـد جـاء يستمـدنا لك، فـارسم لنا مـا بـدا لك، فإن رسمت قتلناه، وإن أشرت أمـــددناه، وفي الجملة مهما أمـرتنا به امتثلناه، فأرسل يقول: علمتم كيف آذاني، ومـزق عـرضي وأخـزاني، وأخـرجني من ملكـي وسلطاني، وغـربني عن أهلي وإخـواني، وأذلني وآذاني بمفـــارقـة حبي وأوطاني، والآن فقـــد جعلني ترسـا، يتقي بي الحوادث والبأساء، وقـد عـرفتم كيف يريد أن يتصرف، وعلى كل حـال فـالعـارف لا يعـرف، ومـع هذا مهما رأيتم في ذلك من المصلحة فافعلوه، ففي الحال قطعوا رأسه وإليه أرسلوه.

ذكر عود خليل سلطان من ممالك أنديكان وقصده عمه شاه رخ ولعبه بالنفس مع ذلك بالرخ

واستمـــر خليل سلطان، في ذلك المكان وأطـراف تركستـــان، يرسل بالفـارسي الأشعـــار الفـراتيـة، وينـشـىء في حبيبتـه مـا ينسي القصـــائـد الزيدونيـة، ويذكر مـا هو فيـه من الغربه، ومـا جـرى عليه من الفـراق والكربة، فيصـــدع بذلك القلوب ويفتت الأكبـــاد، إلى أن مل المقـام في تلك البلاد، فنفض منها ذيله، وضـم رجله وخيله، وقصد عمه، وركب

الطريق وأمه، فأكرم عمه مثواه، ولم يـذكر له أخبار ما أنشأه، وضم إليه حبيبته، ولم إلى خليـل خليلته، وقرر قـاعدة ذلك الإقليـم وشيده، وولى فيه أولوغ بيك ولده، وقفل إلى خراسان، مستصحباً معه خليل سلطان، ثم ولاه ممالـك الري، فلم يقم بها إلا أدنـى شيء، وانتقل إلى رحمة الله، وكـان عمه دس له شيئـاً فسقاه، فـدفن بمـدينة الري، وطوى نشر ذلك الخاتم طي، وحين وقعت شـاد ملـك في هذا الخطب الجليل، واشتعلت أحشـاؤها بنار الخليل، قالـت: لاذقت فقدك، ولا عشت بعـدك، وأنّت ورنّت، وأنشدت وغنت، شعراً:

كنـت السـواد لمقلتـي | فبكـى عليـك النـاظـر
مـن عـاش بعـدك فليمت | فعليـك كنت أحـاذر

ثم أخذت خنجـراً فوضعته في لبتها، واتكأت عليه بقـوتها، فنفذ من قفاها، وأحرقت بنارها كل من رآها، فـدفنا في قبر واحد، وأمسى لسان حالهما ينشد، شعراً:

أجـارتنا إنّـا غـريبـان ههنا | وكـل غـريب للغـريب نسيب

وصفا لشاه رخ ممالك ما وراء النهر وخراسان، وخوارزم، وجرجان، وعـراق العجـم ومـازندران، وقندهـار، والهند، وكـرمـان، وجميع بلاد العجم إلى حـدود أذربيجان، إلى يومنا هذا، أعني سنة ثمانمائـة وأربعين، ونسأل الله تعـالى المنان حسن العـاقبـة بمنه ولطفـه والحمـد لله رب العالمين على مدى الأزمان.

فصل في صفات تيمور البديعه وما جبل عليه من سجية وطبيعه

وكان تيمور طويل النجاد، رفيع العماد، ذا قامـة شاهقة، كأنه من بقايا العمالقـة، عظيم الجبهـة والرأس، شـديد القـوة والبأس، عجيب الكون، أبيض اللون، مشربـاً بحمـره، غير مشـوب بسمـره، فخيم الأطراف، عـريض الأكتـاف، غليظ الأصـابـع، سميك الأكـارع، مستكمل البنيـة،

مسترسل اللحيـة، أشل أعـرج اليمناوين، عيناه كشمعتين غير زهراوين، جهير الصـوت، لا يهاب الموت، قـد ناهز الثمانين(١)، وهـو مع ذلك بجأش مكين، وبدن مستمسك متين، صلبـاً شهماً، كأنه صخرة صماء، لا يحب المزاح والكذب، ولا يستميله اللهـو واللعب، يعجبـه الصـدق ولو كان فيه ما يسوءه، لا يأسى على مـا فات ولا يفرح بما يجيئه، وكان نقش خاتمه راستي رستي، يعني صدقـت نجوت، وميسم دوابه ورسيم سكته على الدرهم والدنيا ثلاث حلق هكذا:

لا يجري غالباً في مجلسه شيء من الكلام الفاحش ولا سفك دم(٢)، ولا من سبى ونهب وغارة وهتك حـرم، مقداما شجاعا، مهـابا مطاعا، يحب الشجعـان والأبطال، ويستفتح بهم أقفال الأهوال، ويستفـرس بهم أسود الرجـال، ويستهدم بهم وبصدماتهم قلل الجبـال، ذا أفكار مصيبة، وفراسات عجيبة، وسعد فائق، وجد موافق، وعزم بالثبات ناطق، ولدى الخطاب صادق، قلت:

فكـم فـــــدحت آراؤه زنـد فتنة   حمتـه لدى البـاسـا وأردت قبـائـلا

محجاجاً داركاً للمحة وللمـزة، مرتاضا مستيقظاً لرمزه، لا يخفى عليه تلبيس ملبس، ولا يتمشى عليه تدليس مدلس، يفرق بين المحق والمبطل بفـراستـه، ويدرك الناصح والغـاش بـدربة درايتـه، يكاد يهدي بأفكاره النجم الثاقب، ويستتبع بآراء فراسته سهم كل كوكب صائب، قلت:

يشـــاهد أعقـــاب الأمـــور بعقله   كما شـــاهـد المحســوس بالعين نـاظر

إذا أمـر أو أشـار بشيء لايرد عنه، ولا يثني عنان عـزيمتـه عن شيء منه، لئلا ينسب إلى قلة الثبات، وركاكة الرأي والحركات، قلت:

وفـــد ينبـت المرعى على دمـن الثـــرى   ترى أمـــره في ذاك كـــالنص قـــاطعـــاً

١— كـذا، و كان الأصح القـول السبعين، فقد ولد تيمـور عام ٧٣٦ هـ/ ١٣٣٦ م، وتوفي عـام ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥ م، وعلى هذا يكون عمره احدى وسبعين سنة هجرية.

٢— يتعارض هذا مع أخبار تيمور التي تقدم لابن عربشاه عرضها

وكان يقال له في ألقابه: صاحب قـران الأقاليم السبعة، وقهرمان الماء والطين، وقـاهر الملوك والسلاطين، يحكـى أن قاضي القضـاة ولي الدين عبـد الرحمن بن خلدون المالكـي، قـاضي القضـاة بمصركـان، صـاحب التاريخ العجيـب، والسالك فيه الأسلـوب الغريب، على ما ذكـر لي من رآه، واطلع على لفظه ومعناه، من الأذكيـاء المهـره، والأدباء البرره، مع أني لم أره، وكـان قـد قـدم الشـام، مـع عسـاكـر الإسـلام، وحين ولت العسـاكـر الأدبار، أنشبتـه في مخاليب تيمـور الأقـدار، قـال له في بعض مجالسه، وقـد أنس بتوانسه: بالله يا مـولانا الأمير ناولني يدك التي هي مفتـاح فتـوح الدنيـا حتـى أتشرف بتقبيلهـا، وقـال له أيضـاً لما أراد أن يستصحبـه معه، وقـد سرد عليه شيئـاً من تواريخ ملوك الغرب، وكـان تيمور مغرماً باقراء التواريخ واستماعها، فأعجبـه ذلك غاية الإعجاب، ورغب منه في الاستصحــاب: يا مـولانا الأمير مصر حــرجت عن أن يتولى فيها نائب غيرك، أو أن يجري فيها غير أمرك، ولي فيك عوض من طريفي وتلادي، وأهلي وأولادي، ووطني وبلادي، وأصحابي وأخداني، وأقـاربي وخـلاني، وملوك الناس، وعن كل ظهـر ورأس، بل وعن كل الورى، إذ كل الصيد في جوف الفرا، وما أتأسف، ولا أتلهف، إلا على مـا مضى من عمـري، وانقضـى من عصري، كيف تقضى ذلك في غير خـــدمتك، ولم تكتحـل عيني بنور طلعتـك، ولكن القضـــاء جـــاز، وسأستبدل الحقيقة بالمجاز، وما أولاني، أن أكرر على لساني، قوله:

جـــــزاك الله عـن ذلك السـعي خيراً ولكـــن جئـت في الـــزمــــن الأخير

فلاستأنفن في ذراك عمراً ثانياً، ولأعـدن الزمان بإبعادي عن عدوتك عـاديا، ولأتداركـن مـا مضى من عمـري بصرف مــا بقي في خـدمتك والتشبث بغرزك، ولأحسبن ذلك أعـز أوقاتي، وأعلى مقـاماتي، وأشرف حـالاتي، ولكن مـا يقصم ظهـري، إلا كتبـي التي أفنيت فيهـا عمـري، وصرفت جواهر علومي في تصنيفهـا، وأظمئت نهاري وأسهرت ليلي في

ترصيفهـا، وذكـرت فيهـا تاريخ الـدنيـا من بدئهـا، وسير ملوك شرقهـا وغربها، ولئـن ظفرت بها لأجعلنك واسطة عقـدهم، وخلاصة نقـدهم، ولأطرزن بسيرك خلع دهرهـم، ولأصيرن دولتك هلال جبين عصرهم، إذ أنت أبو المقـاحم، والبـازغ بدر نصره في شرق الغــرب من دياجير الملاحم، والمكاشف به على لسـان كل ولي، والمشـار إليـه في الزوايج(١) والجفر المنسـوب إلى أمير المؤمنين علي، وصاحب القـران، المنتظر في آخر الزمـان، وهي في القـاهرة فلو حصلت عليهـا مـا فـارقت ركـابك، ولا هجـرت أعتــابك، والحمـد لله الذي رزقني مـن يعـرف قيمتي، ويحرز خـدمتي ولا يضيع حرمتـي، مع كلام فصيح ضـارع، بديع بليغ خـالب خادع، فاهتـزت فرحاً أعطافه، وتراقصت مرحـاً أطرافه، وأعجبه ذلك، وأغـراه ميله إلى كتب التـواريخ والسير، واستهـواه حبـه معرفـة أحـوال الملوك الذي ذكر، حتى شد عما خلبه، بسحر هذا البيان البديع وسلبه.

ثم إنه استـوصفـه بلاد الغــرب وممالكهـا واستـوضحـه أوضـاعهـا ومسـالكهـا، وقراها ودروبها، وقبـائلهـا وشعـوبها، كما هو دأبه وشأنه، والقصد في ذلك امتحانه، لأنه لم يكن محتاجاً ذلك، اذ في خزائن تصوره صـور جميع الممالك، وإنما أراد بذلك معرفـة مقـدار علمه، وكيفيـة إبداء نصحـه له وكتمـه، فأملى كل ذلك من طرف لسـانه كأنه يشـاهده، وهو جالس في مكانه، وشرح تلك الأمور، كما في خاطر تيمور.

ثم قـال له: كيف تذكـرني وبخت نصر مع الملوك الأكـابر، ولم نزل في ذلك النسب بعيـدين عن تلك المفـاخر، ومـا نحن من يعـاسيب النحل، فأنى تعبينا مع الفحل؟ فقال: افعـالكما البديعه، أوصلتكما إلى تلك المنزلة الرفيعه، فأعجبـه هذا الكلام، وقال لجماعته: اقتدوا به فإنه إمـام، ثم أخذ تيمـــور يخبر القـاضي بما وقـع في بلاده، ومـا جــرى بين ملوك الغــرب وأجناده، ولازال يذكـر له أخبـار الناس حتى سرد عليـه أخبـار متعلقيـه

---

١ — جمع زيج، والزيج جدول تحدد فيه حركات النجوم في السماء.

وأولاده، فتحير القاضي من إملائه، وقال: إن الشيطان ليوحي إلى أوليائه، ثم إن تيمور عـاهد القاضي أن يتـوجه إلى القاهـره، ويأخذ أهله وأولاده وكتبه الزاهره، ولا يلبث أكثر من مسافة الطريق، ويرجع إليه بأمل فسيح وعهد نبيل الأماني وثيق، فتجهز إلى صفد، واستراح من ذلك النكد.

فصل: وكـان تيمـور محبـاً للعلماء، مقرباً للسـادات والشرفـاء، يعـز العلماء والفضلاء إعزازاً تاماً، ويقدمهم كل أحد تقديماً عاماً، وينزل كلا منهم منزلتـه، ويعرف له إكـرامه وحـرمته، وينبسط إليهم إنبسـاط رحمة ممزوجاً بهيبـة، ويبحث معهم بحثاً مندرجـاً الانصاف، والحشمـه، لطفه مندمج في قهره، وعنفه مندرج في بره، شعر:

متفـــــرّق الطعمين مجتمـع القـــــوى	فكــــــأنـــــــــه السراء والضراء

وقيل:

مـــــر المذاق على أعـــــدائـــــه بشع	حلو الفكـاهة للأصحــاب كــالعسل

وكان مغـرماً بأرباب الصناعات والحرف، أي صناعة كـانت إذا كان لها خطر وشرف، يبغض بطبعـه المضحكين والشعراء، ويقـرب المنجمين والأطباء، ويأخذ بقولهم، ويصغي إلى كلامهم، ملازماً للعب بالشطرنج لكونه منقحـاً للفكر، وكـانت علـت همتـه عن الشطرنج الصغير، فكان يلاعب بـالشطرنج الكبير، ورقعتـه عشرة في إحـدى عشر، وفيــه من الزوائد جملان وزرافتان وطليعتـان ودبابتان ووزير، وأشياء هذه وسيأتي وضعه والشطـرنج الصغير بالنسبة إلى الكبير كـلا شيء، مواظبـاً لإقراء التواريخ وقصص الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام، وسير الملوك وأخبار من مضى من الأنـام، سفـراً وحضراً كل ذلك بالفـارسي، ومما تكررت قـراءتها عليـه، وطنت نغماتها على أذنيـه، قبض ذمـام ذلك وملكه، حتى صارت له ملكه، بحيث أن قـارىء ذلك إذا خبط، رده إلى الصواب من الغلط، وذلك لأن التكرار، يفقـه الحمار، وكـان أمياً لا يقـرأ شيئاً ولا

يكتب، ولا يعرف شيئاً من العربية، ويعرف من اللغات الفارسية والتركية والموغولية، حسب لا غير، وكان معتقداً للقواعد الجنكيزخانية، وهي كفروع الفقه من الملة الاسلامية، وممشياً لها على الطريقة المحمدية، وكذلك كل الجغتاي وأهل الدشت، والخطا وتركستان، وأولئك الطغام، كلهم يمشون قواعد الملعون جنكيزخان على قواعد الاسلام، ومن هذه الجهة أفتى كل من مولانا وشيخنا حافظ الدين محمد البزاري رحمه الله، ومولانا وسيدنا وشيخنا علاء الدين محمد البخاري أبقاه الله وغيرهما من العلماء الأعلام وأئمة الاسلام، بكفر تيمور وبكفر من يقدم القواعد الجنكيزية، على الشريعة الإسلامية، ومن جهات أخر أيضاً.

وقيل إن شاه رخ أبطل التوراه والقواعد الجنكيزخانية، وأمر أن تجري سياستهم على جدول الشريعة الاسلامية، وما أظن لذلك صحة، فإن ذلك عندهم قد صار كالملة الصريحه، والاعتقادات الصحيحة، ولو إتفق أنه يجمع مرازبه وموابذه في دسكرة، ويغلق أبوابها ويطلع عليهم من منظره، ويفتح عليهم شيئاً من هذا الباب، لحاصوا حيصة الحمر إلى الأبواب.

فصل: وكان فريد الطور بعيد الغور، لا يدرك لبحر تفكيره قعر، ولا يسلك في طود تدبيره سهل ولا وعر، قد أقعد في ممالكه نواميسه، وأقام في سائر الممالك جواسيسه، وهم ما بين أمير كأطلاميش أحد أعوانه، وفقيه فقير كمسعود الكججاني(١) عين أصحاب ديوانه، وكان ذلك في القاهرة المعزية، وهذا بدمشق أحد الصوفية بالشميصائية، وما بين متسبب وتاجر، ومصارع شرير، وبهلوان فاجر، ومكد صنائعي،

---

١ — الخواجا نظام الدين محمد الكججاني، كان أولاً من أتباع أحمد الجلائري حاكم بغداد، ثم التحق بخدمة تيمور، ورأس بعثتين أرسلهما تيمور إلى القاهرة لمفاوضة السلطان الناصر فرج بن برقوق. انظر السلوك للمقريزي ج ٣، ق ٢ ص ٨٣٢ و ق ٣ ص ١٠٩٨ — ١٠٩٩.

ومنجم وطبائعي، وقلندري قوال، وحيدري جوال، وبحري سباح، وبري سياح، وسقاء ظريف، وحذاء لطيف، وسعلاة دلاله، وشيخه محتاله، كدلة المحتاله، ومن مرت به التجارب، وضرب أكباد الإبل مشارق ومغارب، وبلغ فيما هو بصدده من المكر والاحتيال منزلة الكمال، وألف بلطيف ختله ودهاه، بين الماء والنار والهدى والضلال، وجاوز في الحيل والكيد، ساسان وأبازيد، وأبكم في حكمته وجدله ابن سينا، وأسكت في منطقه اليونانيين إذ عكس عليهم القضايا، فجمع بين المتنافيين، وألف بين المتعاديين، قلت:

فاق من قاد للعدى كل جيش	بكلام ثنى البعيد قريبا
مزج النقل في القياد بعقل	فهدى عاشقا وأهدى حبيبا

فكانوا ينهون إليه حوادث الأطراف وأخبارهم، ويكتبون إليه ما قدموا وآثارهم، ويذكرون لديه أوزانهم وأسعارهم، ويصفون منازلهم وأمصارهم، ويصورون سهولهم وأوعارهم، ويخطون بيوتهم وديارهم، ويبنون مدى ذلك بعداً وقرباً، وما في ذلك ضيقاً ورحبا، وجهات وأقطاراً شرقاً وغرباً، وأسامي الأمصار والقرى، وألقاب المنازل والذرى، وأهل كل مكان ورؤساءه، وأمراءه وكبراءه، وفضلاءه وشرفاءه، وأغنياءه وفقراءه، واسم كل ولقبه، وشهرته، ونسبه، وحرفته، وسببه، فكان يطالع بفكره ذلك، ويتصرف بتفكيره في سائر الممالك، وكان إذا حل ببلد، واجتمع به من أعيانها أحد، شرع يسأله عن فلان وفلان، وما جرى لفلان في الوقت الفلاني مما زانه من أمر وشأن، وإلام آلت تلك الواقعة، وكيف فعل فلان وفلان، فيما كان بينهما من المنازعه، فيبهت ذلك الرجل ناظراً، ويظن أن تيمور كان في تلك الحالة حاضراً، وكان كثيراً ما يطرح عليهم من أغاليط المسائل، ويحكي صور مباحثات جرت لهم ورسائل، فيتصورون أن له في ذلك العلم قدمه، أو كان للعلماء خدمه، ولذلك تصور بعض

الناس، أن ذلك الوسواس الخناس، كـان مقيما بالسلارية(١)، وبعض بالغ حتى قال إنه رآه في فقراء الشميصاتيه.

فصل: ومما يحكى عن فراسته أنه لما نزل عن سيواس، وقـد حصنها منه أولوا النجدة والبأس، قال لعسكره: اعملوا الحيله، إنا فاتحو هذه في ثماني عشرة ليلة، فكان كذلك، فـلا شك أن ذلك الأعرج، كان ملهماً أو مستدرج، وكان ذا مغـالطات، وحـركـات لها مغاورات، إذا دهمه أمر يتعاطى دفعـه، وهو مظهر أنه راغب فيه، وربما يظهـر الرغبة عن شيء، وهو مريد حصوله ومشتهيه، وقد مرّ نظائر هذا كله.

فمن مغـالطاته أنـه إذا كـان في مكان رَوْم، أو أراد أن ينزل بسـاحـة قوم، قصد الإخفاء والتعمية، وطلب الإيهام والتوريه، وبحر عسكره لا يخلو من تمســاح متجسس أو سرطان متحسس، ولو لم يكـن لأحـد في عسكره عين، فإن بزوغ العين لا يخفى على ذي عين، فـإنه يجمع أركـان دولتـه، وأعيـان مملكتـه، وذوي آرائـه ومشـورته، بحيث أنه لا يتخلف منهم أحـد، ولا يجزي مولود عن والد ولا والد عن ولد، ثم يظهـر لهم خفيـة أمـوره، ويطلب منهم المشـورة في جهـة مسيره، ويطلق لهم عنان الكلام، ويقـول لا تثـريب على من خــاض في ذلك من خـاص الأنام، ناظر في أعقاب الأمور ما بين يوم وعام، فليتكلم كل ولا حرج، فسواء هوى إلى حضيض الخطـأ أو الى أوج الصـواب عــرج، فإن أخطأ فــلا نقصان، وإن أصاب فله أجران.

فيبـذل كل جهده، ويعـاني في ذلك وكده وكـده، ويبدي في ذلك مـا أدى إليـه اجتهـاده، ويتصـور أن ذلـك يوافق مـراده، فتتفق الآراء، على ناحية من الأنحـاء، ثم يفض ذلك المجلس، ويجتمع بأخصـائه ويجلس، كسليمان شاه وقماري، وسيف الدين، والله داد، وشاه ملك، وشيخ نور

١— من مـدارس دمشق وقعـت في الموقع الذي عـرف باسم الشرف القبلي. انظر تـاريخ ابن قاضي شهبه— ج ١، ط . دمشق ١٩٧٧ ص ١٩٣، ٢٤٤.

الدين، ويمحضون القضية محضاً غير ذلك، ويبحثون فيها بحثاً دقيق المسالك، فيقع آخر الأمر الاتفاق، على التوجه إلى بعض الآفاق، ثم يدعو رائدهم وسائقهم في ذلك وقائدهم، ويأمرهم بالتوجه إليه فيتصدعون على ما عول في ذلك عليه.

وحين يقوض الظلام خيامه، وينشر رائد الصبح أعلامه، ويضرب الكوس للرحيل، ويأخذ الناس في التحميل، ويتوجه الناس إلى الجهة التي أمرهم بالمسير إليها، ووقع الاتفاق عليها، دعا حاشيته بعدما حملوا وأخذوا في المسرى، وأمرهم أن يمتازوا ويرحلوا إلى جهة أخرى، لم يكن أبداها لأحد من الجماعة، إلا في تلك الساعه، ولولا الضرورة لما أفشاها، ولا أعاد سريرتها لأحد ولا أبداها، فيضرب الناس ضرباً ويضرب ضرباً، ويأخذ العساكر شرقاً، ويأخذ غرباً، فتضطرب تلك الأطواد وتختبط، وتنفرط عقود نظامهم فلا تكاد تنضبط، وتنحل قوائم مواشيها عن المسير وترتبط، ويموج بعض الناس في بعض، وينعكسون سماء في أرض، وطولاً في عرض، ويتوله كل أحد ويتدله، ولا يدري إلى أين يتوجه، فإن كان في عسكره ربيئه، أو من يراقب ذهابه ومجيئه، فبمجرد ما رأى تحميلهم، وشاهد تحويلهم ورحيلهم، طار إلى مخدومه، وأظهر له ما في معلومه، من توجه العساكر إلى الجهة التي اتفقوا عليها، وأنه شاهدهم بعينه وقد توجهوا إليها، فيأخذ حذره أهل ذلك الجانب، وتطمئن سائر الجوانب من النوائب، فلم يشعر إلا وقد دمر على الجانب الذي قصده وحطمه، ونبذه من نار العذاب الموقده في السعير والحطمه.

وكم كان له من دهاء، ومكر خفي وذكاء، ومن جملة ذلك أنه لما كان بالشام، وقد قابلته عساكر الاسلام، أشاع أن سوار أساورته تخلخل، وتأخر قليلاً إلى وراء وتحلحل، وأذاع أنه أعوز خيله ورجله الزاد، وأنه صائب صوب بغداد، ثم أسفرت القضية، عن أن انهزمت العساكر المصرية، وكان قصده بذلك تثبيت جأشهم، واستقرار رؤسائهم،

وأوباشهـم، وأن يكن كـل منهم على مـــــا أزم(١)، فيربض في مكـانه ولاينهزم، فيحيط بالكل كيده، ويصير الجموع صيده.

ومما يحكى من شـدة عزمـه، وثباته على مـا يقصده وحزمـه، وحلول نقمته ممن يعـارضه، ويعاكسه فيما يرسم ويناقضـه، أنه لما توجه بالجنود، إلى بلاد الهنود، بلغ إلى قلعـة شـاهقـة، أقـراط الدراري بآذان مـراميهـا عـالقـه، ورجوم النجـوم الخارقـة تتعلم الإصـابة من رشـاقة سهـامهـا الراشقة، كأن بهرام(٢)في مهـواه أحد سـواطيرها، وكيوان(٣) في مسراه خادم نواطيرها، والشمس في استـوائها غرة جبينهـا، وقطرات السحاب في الانسكاب تترشح من قعـر معينهـا، وشقـة الشفق الحمـراء على آذان مـراميها، وأنوف أبدانها سرادق، وكـريات نجـوم القبة الخضراء لعيـون مكاحلهـا وأفواه مـدافعها طابات وبنادق، فيهـا من الهنود طائفة، ثابتـة الجنان غير خائفـة، جهزت أهلها ومـا تخاف عليه إلى الأمـاكن المعجزه، وتثبتت هي في تلك القلعـة حـافظة لها متحـرزه، مع أنها شرذمـة قليلة، وطائفة ذليلة، لا خير عندهم ولا مير، ولا فـائدة سوى الضرر والضير، ولا للقتـال عليها سبيـل، ولا حواليهـا لأحـد مبيت ولا مقيل، بل هي مطلة على المقـاتله، مستمسكة من المقـاتله، فـأبى أن يجاوزها، دون أن يناحـزها بالحصار ويناجـزها، واللبيب العـاقل، ما يترك لخصمـه وراءه معاقل، فجعلت المقاتلة تناوشهـا من بعيد، ونصبب كل من أهلها عليهم من أسباب المنايا ما يريد كما يريد، فكان كل يوم يقتل من عسكره ما لا يحصى، والقلعـة تزداد بذلك إباء واستعصـاء، وهو يأبى الرحيل عنهـا، إلا أن يصل إلى غرضه منها.

١— أزم: ألزم، وأخبر.

٢— كان بهرام كما يقال فيلسوفا هنديا أشار على الاسكندر المقدوني عندما غزا الهند ألا يحاول الدخول إلى قصر أبيض شـاهق كان هناك، لأن من دخل هذا القصر لازمـه الندم والغثيان، ولا يستطيع الخروج منه

٣— كيوان هو كوكب زحل بالفارسية.

ففي بعض أيام المحاصرة مطروا، وبواسطة المطر انحصروا، وصار يحثهم على القتال، وركب لينظر ماذا يصنعون في تلك الحال، فلم يرتض أفعالهم، لما عكست أوحالهم أحوالهم، فدعا منهم رؤوس الأمراء، وزعماء العسكر والكبراء، وأخذ يمزق أديم عصمتهم بشفار شتمه، ويشقق ستر حرمتهم بمخاليب لعنه وذمه، ونفخ الشيطان في خيشومه، فألهب فيهم نيران غضبه وشؤمه، وقال: يا لئام، وأكلة الحرام، تتقلبون في نعمائي، وتتوانون عن أعدائي، جعل الله نعمتي عليكم وبالاً، وألبسكم بكفرانها خيبة ونكالاً، يا فاجري الذمم، وكافري النعم، وساقطي الهمم، ومستوجبي النقم، ألم تطأوا أعناق الملوك بأقدام أقدامي، وتطيروا إلى آفاق الدنيا بأجنحة إحساني وإكرامي، وتفتحوا مغلقات الفتوح بحسام صولتي، وتسرحوا في متنزهات الأقاليم سوائم تحكمكم بترعية دولتي، بي ملكتم مشارق الأرض ومغاربها، وأذبتم جامدها وأجمدتم ذائبها، شعر:

ألم أك ناراً يصطليها عدوّكم ... وحرزاً لما ألجأتم من ورائيا

وباسط خير فيكم بيمينه ... وقابض شر عنكم بشماليا

ولا زال يهمهم ويغمغم، ويهذرم ويبرطم(١)، وهم مطرقون لايحيرون جواباً، ولا يملكون منه خطاباً، ثم ازداد حنقاً، وكاد أن يموت خنقاً، فاخترط السيف بيده اليسرى، وهمز به على قمم أولئك الأسرى، وهم أن يجعل رقابهم قرابه، ويسقيّ دمائهم غل فرنده، وذبابه، وهم على تلك الحال، في الخزي والإذلال، باذلوا نفوسهم، ناكسوا رؤوسهم، ثم تراجع وتماسك، وملك نفسه نفسه قليلاً وتمالك، فأغمد عن تشريقهم حسامه، ولم يلق لأمره قبلة ولا دبرة، فغلف غربه وشامه(٢)، ثم نزل عن مركبه، واستدعى الشطرنج الكبير ليلعب به،

١— يهذرم: يكثر من الكلام، ويبرطم: يدلي بشفته من الغضب.

٢— أي غير معالم وجهه بعد أن كان غاضبا.

وكـان عنده شخـص يدعى محمـد قـاوجين، وهـو لديه ذو مكان مكين ومقام أمين، مقدم على كل الوزراء، ومبجل دون سائر الأمراء، مسموع القـول، مقبـول الرأي ميمـون النقيبة، محبـوب الشكل، فتشفعـوا إليـه، وعولوا في حل هذا الإشكال عليه، وقالوا: ساعدنا ولو بلفظه، وراقبنا ولو بلحظه، واعمل معنا بهذا المعنى، قلت شعراً:

ساعد بجاهك من يغشاك مفتقراً ... فالجود بالجاه فوق الجود بالمال

وبما قيل:

وإنّ امرأ قد ضنّ عني بمنطق ... يسدّ به من خلتي لضنين

فأجابهم والتزم، أن يرده عما تأزم به وأزم، وراقب محال المقال، وراعى فرص المجال، وأخذت أفكار تيمور، تفور في أمور القلعة وتغور، وجعل يستضوي أضـواءهم، ويستوري آراءهم، ولا يسع كـلا منهم إلا القبول، لما يستضـوئـه رأيه ويقـول، ففي بعـض الأحـايين اتفق أن قـال محمـد قاوجين— وقـد نزل به القضاء، وأحاطـت به نوازل البلاء—: أطال الله بقاء مولانا الأمير، وفتح بمفاتيح آرائه وراياته حصن كل أمر عسير، هب أنا فتحنا هذه القلعـة بعد أن أصيب منا جـانب من أهل النجدة والمنعـه، هل يفي هذا بذا، أو يوازن هذا النفع بهذا الأذى، فما احتفل بخطابه، ولا اشتغل بجوابه، بـل استدعى شخصاً من المرقـدارية(١)، فظاً قبيح المنظر، ذا حـالة زرية، يدعى هرا ملك، ذا عـرق سهك، ووجـه بالسواد سـدك، أوسخ من في المطبخ، وأسنـخ من في المسلخ، لعـاب الكلب طهـور عند عرقه، وعصارة القير حليب بالنسبة إلى مرقه، فحين ما حضر لديه، ووقع نظره عليه، أمر بثياب محمد قاوجين فنزعت، وبخلقان هراملك فخلعت، ثم ألبس كلا ثيـاب صاحبه، وشـد وسطه بحياصته، ودعـا دواوين محمد ومبـاشريه، وضـابطي ناطقـه وصامتـه وكـاتبيـه، ثم نظر مـاله من ناطق

١— المرقدارية: العاملون في المطبخ، المهتمون بالمرق.

وصامت، وذائب وجامد، وملك وعقار، وأهل وديار، وحشم وخدم، من عرب وعجم، وأوقاف وإقطاع، وبساتين وضياع، ومماليك وأتباع، وخيل وجمال، وأحمال وأثقال، حتى زوجاته وسراريه، وعبيده وجواريه، فأنعم بذلك على ذلك الوسخ، وأمسى نهار وجود محمد قاوجين، وهو من ليل تلك النعمة منسلخ.

ثم قال تيمور: أقسم بالله وآياته، وكلماته وصفاته، وأرضه وسمواته، وكل نبي ومعجزاته، وولي وكراماته، وبرأس نفسه وذاته، لئن آكل محمد قاوجين أحد أو شاربه أو ماشاه، أو صادقه أو صافاه، أو أوى إليه أو آواه، أو راجعني في أمره، أو شفع عندي فيه، أو اشتغل بعذره، لأجعلنه مثله، ولأصيرنه مثله، ثم طرده وأخرجه، وقد سلبه نعمته وأحرجه، فصار مسلوب النعم، قد حلت به نوائب النقم، وسحبوه بالحلق، ورأى نعمته على أقل الخلق، واتصل غيره بالحلق، وقطع منه الحلق، ففلقت حبة قلبه أي فلق، واستمر على ذلك، في عيش مر وعمر حالك، وحاشى أن تشبه قصته قضية كعب بن مالك(١)، فكان يستحلي مرارة الموت، ويستبطيء إشارة الفوت، وكل لحظة من هذا الحيف، أشد عليه من ألف ضربة بالسيف، فلما مات تيمور أحياه، ورد عليه خليل سلطان ما سلبه جده إياه.

فصل: وكان من أبهته وعظمته، وشدة شكيمته وعتوه وحرمته، أن ملوك الأطراف، وسلاطين الأكناف، مع استقلالهم بالخطبة، واستبدادهم بالسكه، وانفرادهم بالزعامة والرئاسة، وقيامهم بأمور الإيالة والسياسه، كالشيخ إبراهيم، ملك ممالك شروان، وخواجا علي ابن المؤيد الطوسي سلطان ولايات خراسان، واسفنديار الرومي، وابن قرمان، ويعقوب بن علي شاه حاكم كرميان، وحاكم منتشا، وطهرتن أمير أرزنجان، وسلاطين فارس وأذربيجان، وملوك الدشت والخطا

---

١ — من الصحابة الذين تخلفوا عن حملة تبوك.

وتركستــان، ومـرازبـة بلخشـان، ومـــراجيح مـــازندران، وعلى الجملة فـالمطيعون من ملـوك إيران، وتوران كانوا إذا قـدمـوا عليـه، وتقدمـوا بالهدايا والتقادم إليـه، يجلسون على أعتاب العبودية والخدمـه، نحواً من مد البصر من سرادقـاته قائمين بشرائط الأدب والحرمـه، فاذا أراد منهم واحد، أرسل إليه من الفراشين أو نحوهـم قاصداً، فيهب ذلك القاصد وهو يعدو كالبريد، وينادي ذلك الواحد باسمه يا فلان من مكان بعيد، فينهض في الحال من مجثاه، مجيباً :بلبيك، لبيك ،دعـواه، ويعدو نحـوه متعثراً في أذياله، متلقياً ما برزت به مراسيمه بقبوله وإقباله، مطرقاً رأس التذلل والخضـوع، مصغياً بآذان الخنوع والخشـوع، مفتخراً على أضرابه، لكونه أهله ودعاه واعتنى به.

وقيل كان أناس من جماعته يلعبون بالنرد فافترقوا فرقتين، واختلفوا في نقش الكعبتين، فقـال أحد اللاعبين ورأس الأمير تيمـور كذا وكـذا كان نقش الكعبتين، فرفع يده خصمـه ولطمه، وسبـه ولعنه وشتمه، كأنه ذبح يحيى أو زكـريا نشر(١)، أو كفر بمحمـد، أو قدم مـوسى على أبي البشر، وقـال يا بن الفاعلـه، والغاسل بن الغـاسله، بلغ من انتهـاكك الحرم، أن تذكر الأمير تيمـور بفم، وأنى لك أن تجعل خدك موطىء مداسـه، فضلاً أن تحلف برأسـه، إنه لأجلّ من أن يتفـوه مثلي ومثلك باسمـه، أو يتلفظ بشيء من حدوده ورسمه، وإنه لأعظم من كيخسرو، وكيكاوس وكيقباذ، الذين ملكوا المشارق والمغارب وأفخم من بخت نصر وشداد.

وقيل إنه قصد في بعض الأوقات الإصطياد، وأرسل يمنة ويسرة على العـادة طوائـف الجيش والأجناد، ورسم أن يخرج مشـاة تلـك الرقـاع، ورجالة هاتيك القرى والصقاع، فيمتدوا في الوهد والبقاع، وحين تلتئم على الوحـوش حلقة الكبـد، ويصح أن يتنازع فعلا رمي وأصمي، كـلا

١—في الأخبار اللاهوتية المسيحية أن زكريا فرّ من اليهود فلجأ إلى شجره، فانفلقت وأدخلته في جوفها، فجاء اليهودإلى الشجرة بعدما دلهم ابليس عليها فنشروها وهو فيها إلى نصفين.

من عمرو وزيد، لا يشير أحد بضربة ولا طعنة ولا رمية إلى صيد، بيد أنهم يردون أوابد بتلك البيداء إلى بهرة ذلك البيد(١)، فامتثل كل ما به أمر، وحين صار كالبنيان المرصوص، صف تلك الأحزاب والزمر، وأحاطت صافات تلك الكواسر بالوحوش إحاطة الهالة بالقمر، ماجت بحار الوحوش في ذلك البر، ولم تجد لها من در دور تلك السيول الهامرة من مخرج ولا معبر، فدارت ومارت، وخارت وحارت، وثارت وبارت، واستجأرت بعد ما جأرت، واستكانت بعد ما زأرت، وانطوت أرضها التي طالما عليها انتشرت، وطرزت خلع أعلامها بأعلام، وإذا الوحوش حشرت، فبينما هي على تلك الحال، في أشد ما يكون من الأهوال، أمر بأن تضرب بالطبول من كل الجهات، وينفخ في صور المزامير، والبوقات، فدق الكوس وزعق النفير، وامتلأت الدنيا من الشهيق والزفير، ورجت الأرض رجا، ومارت الاقطار هرجاً ومرجاً، وحين سمعت السباع صوت الطبول، ورأت الوحوش هذا الأمر المهول، سقطت قواها، وتقطعت كلاها، وجثت وما انبعثت، ثم تقاربت وتلاّمت وتقارنت وتضامنت، وتصورت أن القيامة قد قامت، فأخذ بعضها بعنق بعض ونامت، فعانق الثور منها اللبوة، وضاجع الأسد فيها الظبيه، واختفى السرحان، بين الغزلان، واستجار الثعلب، ببنات الأرنب، ولاذ بالأروى النعام، والأرنب بالعقاب، وعاذ الضب بالنون واليربوع بالغراب، فعند ذلك أمر الأطفال من أولاده، وأولاد الأمراء وأحفاده، أن يرموا ويصموا ويفنوا، مهما أرادوا ولا يطنوا، وجعل ينظر إليهم، ويتفرج عليهم، ويزهزه(٢) لأفعالهم، ويقهقه على أحوالهم، ويجرئهم على الإقدام والنضال، ويشجعهم بذلك على صيد الأبطال، وجعلت حواشي الجيش تنجز على ما أصموا، وتجهز على ما أنموا، وصار ذلك المفسد، يترنم وينشد شعراً:

---

١ — البهرة من الزمان والمكان: الوسط، والبيد الهلاك.

٢— الزهزاه: المختال. المعجم الوسيط.

صيـــــــد الملوك أرانـب وثعـــــالـب　　　　فــــاذا ركبت فصيــــــدي الأبطـالُ

فصل: وكــان يحمل إليــه البلخـش من بلخشــان، والفيروزج من نيسابور وكـازرون ومعادن خراسـان، والياقـوت من الهند، والماس منها ومن السند، واللؤلؤ من هرمز والقطيف والحسا، واليشم والمسك وغيره من الخطا، ومن سائر الاقطار، خالص الفضة ومصفى النضار.

فصل: وأنشأ في سمـرقند بساتين عديـدة، وقصوراً شوامـخ مشيده، كل له ترتيـب غـريب، ووضع أنيـق عجيب، أحكم أسـاسهـا، وطعم بأفخر الفـواكه غـراسها، سمى أحـدها بستان إرم، والآخرزينـة الدنيا، والآخر جنة الفـردوس، والآخر بستان الشمال، والآخـر الجنة العليا، ثم إنه هدم مصرا، وبنى في كل بستــان منهـا قصرا، وصـور في بعض هذه القصور مجالسه، وأشكال صورته تارة ضـاحكة وأخرى عابسه، وهيآت مـواقعــاته وصــور محاصراته، ومجالس صحبتـه مع الملـوك والأمـراء، والسـادات والعلماء والكبراء، ومثـول السـلاطين بين يديه، ووفـودها بالخدمـات من سـائـر الأقطار إليه، وحلق مصـائـده، وكمائن مكائـده، ووقائع، الهند والدشت، والعجم، وصورة انتصاره، وكيف انكسر عدوه وانهزم، وصـورة أولاده وأحفـاده، وأمـرائـه وأجناده، ومجالس عشرته، وكـاسات خمرته، وسقـاة كأسـه، ومطربي إيناسـه، وتغـزلات مقامـاته، ومقامات تغنزلاته، وحظايا حضرته، وخواتين عصمته، إلى غير ذلك مما وقع له من صورة حـادثة في الممالك، مدى عمره المتقـارب المتدارك، كل ذلك كما وقع ووجـد، ولم ينقص من ذلك شيئاً ولو يزد، وقصـد بذلك الإفـادة، لمن كان عـالم الغيب عن أحـواله بالشهاده، فكان إذا توجـه إلى مكان، وخلت سمـــرقند من الظلمــه وأعــوان الشيطـان، تخلو تلك البسـاتين، ويتـوجـه إليها أهل المدينـة الأغنياء، والمسـاكين، فـلا يوجـد أعجب متنزهاً منهـا ولا أحسن، ولا أوفق مرتفقاً ولا آمـن، وأما ثمارها الطيبـة فـإنها مسبله، بحيث انه لايبـاع منهـا قنطار بخـردله، وأنشأ في

ضـواحي سمر قند ومعـاملاتها وأطرافهـا قصبات، سماهن بأسماء كبـار البلدان والأمهات، كمصر، ودمشق وبغداد، وسلطانية، وشيراز عرائس البـلاد، وأنشأ بستـاناً في ضـواحي سمـرقند على طريق الكش، وبنى به قصراً سماه تخت قراجـا يحكى أن بعض مشيدي عمارته، ضـاع له فرس، واستمرت ترعى في البستان ستة أشهر حتى وجدها.

فصل: نساؤه: الملكة الكبرى، وهي أقـدم وأكمل، والملكة الصغرى، وهي أحسـن وأجمل، وهما بنات ملـوك الخطا، وتـومـــان بنت الأمير موسى، أمير نخشب المار ذكـره في أول الكتاب، وجلبان كانت كـالبدر عند الكمال، وكـالشمس قبل الزوال، قتلهـا في حياتـه لشيء بلغه عنهـا، وكـان غير واقع وإنما فعل ذلك معهـا لأنه قيل: إن صـدقـاً وإن كـذباً، وأظنها كانت من الخطايا، وأما السراري والخطايا، فأكثر من أن يحصين، فالملكتان المذكورتان سمتهما شاد ملك، خوفاً منهما على خليلها، وتومان أرسلها خليل سلطان إلى شيخ نور الدين بسغناق كما مر، وبعده جاءت إلى سمـرقنـد، وسمعت أنها عـزمت في يومنـا هذا —أعني سنة أربعين وثمانمائة—على الحج والله تعالى أعلم.

فصل: أولاده لصلبــه المتخلفـــون من بعــده: أميران شـــاه، قتله قرايوسف، كما ذكـر، وشاه رخ وهو المتملك في يومنا هذا، وبنت تدعى سلطان بخت زوج سليمان شاه، كـانت مترجله لا تحب الرجال، وذلك لما أفسـدها النسـاء البغـداديات لما قـدمن سمـرقند، ولها تواريخ سـوء، أحفاده غـالبهم انقرض، إلا أولاد شاه رخ، وأمثلهـم أولوغ بيك حاكم سمرقند، وإبراهيم سلطان حاكم شيراز، وباي سنقر حاكم كرمان، ماتا كـلاهما في سنة ثمان وثلاثين وثمانمائـة، وجـــوكي، وهو الذي مشى على اسكندر بن قـرايوسف، وشتـت شمله بعـد مـوت قـرايلوك، وذلك في شهور سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، ثم مات في أواخرها.

فصل: أمـــراؤه ووزراؤه لا يحصـون، وأشهــرهم من ذكــر في هذا

الكتاب وما مات إلا عن الطبقة الثالثة من الأمراء والوزراء كذا أخبرني شيخي الشيخ علاء الدين البخاري رحمه الله تعالى.

دواوينه: الخواجا محمود بن الشهاب السهروي، ومسعود الاسمناني، ومحمد الشاغرجي، وتاج الدين السلماني، وعلاء الدولة، وأحمد الطوسي وغيرهم.

منشيء ديوانه: وهو عبارة عن كاتب السر، مولانا شمس الدين قاضي زمانه، وفاضل إبانه، فارسياً وعربياً، يصرف أخبار الإنشاء، كيف شاء، كان قلمه في فتح أقاليمه، أنفذ من سنان مخدومه، ولما مات تيمور احتجب، وطوى بساط الأدب، فقيل له ضحكت البشرة ألا تباشر، وصفت العشرة فهلا تعاشر، فقال: ذهب الذي كان يعرف قيمتي، فأنا لا أذهب في خدمة الأحداث حرمتي.

إمامه: عبد الجبار بن النعمان المعتزلي.

صدور مملكته: مولانا قطب الدين والخواجا عبد الملك، وابن عمه الخواجا عبد الأول وغيرهم.

قاريء قصصه وتواريخه: مولانا عبيد.

أطباؤه: فضل الله وجمال الدين رئيس الطب بالشام كان، وغيرهما، وكان دائماً يستعمل معاجين الأحجار، وفي سنه ذلك يجتني باكورة الأبكار.

منجموه: لا يحضرني أسماؤهم.

فصل: حصل في أيام استيلائه بسمر قند، من الفقهاء مولانا عبد الملك، وهو من أولاد صاحب الهداية، كان يلقي الدرس، ويعلم الشطرنج والنرد، وينظم الشعر في حالة واحدة، ونعمان الدين الخوارزمي، أبو عبد الجبار المذكور، كان يقال له النعمان الثاني، وكان أعمى والخواجا عبد الأول ابن عم مولانا عبد الملك، انتهت إليه الرئاسه في ما وراء النهر بعد

ابن عمه، ومولانا عصام الدين بن عبد الملك انتهت إليه الرئاسة في يومنا هذا، بعد ابن عمه عبد الأول، ومن المحققين مولانا سعد الدين التفتازاني، توفي في محرم الحرام سنة إحدى وتسعين وسبعمائة بسمرقند، والسيد الشريف محمد الجرجاني، توفي بشيزار.

ومن المحدثين: الشيخ شمس الدين محمد ابن الجوزي، كان أخذه من الروم، وكان قد هرب إليها من مصر، بعد توجهه من بلاد الشام قبل الفتنة، توفي بشيراز، والخواجا الكبير المفسر الحافظ المحدث محمد الزاهد البخاري، فسر القرآن الكريم في مائة مجلد، توفي بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة، ومن القراء هما، ومولانا فخر الدين، ومن حفاظ القرآن المجودين قراءة وصوتاً، عبد اللطيف الدامغاني، ومولانا أسد الدين الشريف الحافظ الحسيني، ومحمود الخوارزمي، وجمال الدين أحمد الخوارزمي، وعبد القادر المراغي الاستاذ في علم الأدوار.

ومن الوعاظ والمتكلمين مولانا أحمد بن شمس الأئمة السراي، كان يقال له ملك الكلام عربياً فارسياً وتركياً، وكان أعجوبة الزمان، ومولانا أحمد الترمذي، ومولانا منصور القاغاني.

ومن الكتاب المجودين السيد الخطاط ابن بندكير، وعبد القادر المذكور، وتاج الدين السلماني وغيرهم.

ومن المنجمين أناس برعوا لا أعرف من أسمائهم غير مولانا أحمد الطيب النحاس، المستخرج قال لي: استخرجت من زايجة الطالع إلى مئتي سنة، وكان هذا الكلام في سنة ثمان وثمانمائة.

ومن الصواغين الحاج علي الشيرازي، والحاج محمد الحافظ الشيرازي وغيرهما.

ومن الحكاكين طائفة جمة وأمثلهم التون، وكان آية في فنه ينقش الفصوص، ويحفر اليشم والعقيق بخط أحسن من ياقوت.

ومن الشطرنجيين: محمد بن عقيل الخيمي، وزين اليزدي وغيرهما، وعلامة ذلك علاء الدين التبريزي الفقيه المحدث، كان يحط لزين اليزدي بيذقاً ويغلبه، ولابن عقيل فرساً ويركبه، ولقد دوخ تيمور الأقاليم شرقاً وغرباً، وقهر في دست مصافاته كل سلطان، وكل شاه مات عنده جدا أو لعبا، وكان يقول له: أنت في ملك الشطرنج فريد، كما أني في سياسة الملك وحيد، وكل مني ومن مولانا عليّ شيخ في فنه ذو كرامات، لم يوجد له نديد، وله في لعب الشطرنج وعلم مناصيبه شرح، وما كان أحد يقدر أن ينتج أولاد فكره في لعبه معه من غير طرح، وكان فقيهاً شافعياً، محدثاً أريحياً، حسن البهجه صادق اللهجه، حكى لي أنه رأى أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه في المنام، وأنه ناوله الشطرنج في كيس، فلم يغلبه أحد بعد ذلك من الأنام، ومن أوصافه في لعبه أنه كان لا يتفكر، وبمجرد ما يلعب خصمه بعد التفكر، والتأمل الطويل، ينقل من غير أن يتدبر، وكان يلعب على الغائب مع خصمين، ويعلم مع الطرح لمن هو في جهته على الجهتين، وكان يلعب هو والأمير، بالشطرنج الكبير، ورأيت عنده شطرنجاً مدوراً، وشطرنجاً طويلاً، والشطرنج الكبير فيه من الزوائد ما مر ذكره، وهذه صورته التي في الصفحة اليسرى فافهم.

وطريقة تعلمه بالفعل أقوى، وليس في شرحه بالقول كثير جدوى.

ومن المطربين: عبد القادر المراغي المذكور، وولده صفي الدين، وختنه نسرين، وقطب الموصلي، وأزدشير الجنكي وغيرهم.

ومن النقاشين كثير، وأعلاهم عبد الحي البغدادي، وكان ماهراً في فنه.

ومن التجرية شهاب الدين أحمد الزردكاش، ومن نقاشي الزجاج والنحاس وغيرهم مالا يحصى، وهؤلاء كل منهم كان علامة دهره، وأعجوبة عصره، ولو رصعت حلى الألفاظ بجواهر أوصاف هؤلاء الأعيان، لملأت الأكوان من فرائد الجمان، وقلائد العقيان، وهؤلاء من

حضرني ذكره ممن أعرفه، وأما من لا أعرفه، أو أعرفه ولا يحضرني ذكره، فأكثر من أن يحصى:

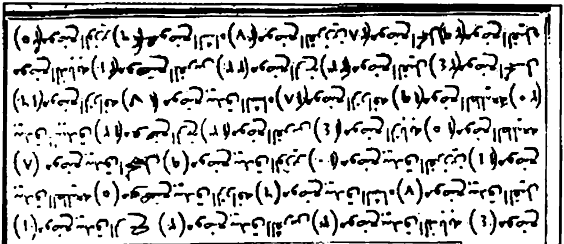

[illegible]		[illegible]		[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]		[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
		٣			٢			١		
١٤	٣	١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤
٢٥	٤	٢٣	٢٢	٢١	٢٠	١٩	١٨	١٧	١٦	١٥
٣٦	٥	٣٤	٣٣	٣٢	٣١	٣٠	٢٩	٢٨	٢٧	٢٦

(١) موضع بيدق الفيل (٢) موضع بيدق الكشف (٣) موضع بيدق الثور (٤) موضع
بيدق الرخ (٥) موضع بيدق الأسد (٦) موضع بيدق الزرافه (٧) موضع بيدق الطليعه
(٨) موضع بيدق الوزير (٩) موضع بيدق الشاه (١٠) موضع بيدق الفرزين (١١) موضع
بيدق الذبابه (١٢) موضع بيدق الجمل (١٣) موضع بيدق الفرس (١٤) موضع بيدق البيدق
(١٥) موضع الرخ (١٦) موضع الفرس (١٧) موضع الذبابه (١٨) موضع الطليعه (١٩) موضع
الزرافه (٢٠) موضع الكشف (٢١) موضع الزرافه (٢٢) موضع الطليعه (٢٣) موضع الذبابة
(٢٤) موضع الفرس (٢٥) موضع الرخ (٢٦) موضع الفيل (٢٧) موضع الاسد (٢٨) موضع
الجمل (٢٩) موضع الثور (٣٠) موضع الفرزين (٣١) موضع الشاه (٣٢) موضع الفرزين
(٣٣) موضع الثور (٣٤) موضع الجمل (٣٥) موضع الاسد (٣٦) موضع الفيل

وأغزر من أن يستقصى، وحاصل الأمر أن تيمور كان جنى على كل حي، وجبى إلى سمـــرقند ثمرات كل شيء، فكان بها مـن أهل كل فن عجيب، وأسلوب من الصنائع غريب، من هو على جبين الفضل شامه، وبرز على أقرانه فصار في فنه علامه.

فصل: وكان في سمرقند إنسـان، يسمى بالشيخ العريان، فقير أدهمي، بشكل بهي وعـزم سمـي، قيل إن عمـره على مـا هو فيهـم شـائع، وبين أكابرهم وأصاغرهم ذائع، ثلاث مائه وخمسين سنة. مع أن قامته مستوية، وهيئته حسنه، كان المشايخ الهرمون، والأكـابر المعمرون، يقولون: لقد كنا ونحن أطفـال، نرى هذا الرجل على هذا الحال، وكـذلك نروي عن آبائنا الأكرمين، ومشايخنا الأقـدمين، ناقلين ذلك كذلك عن آبائهم، والمعمرين من كبرائهم، وكان أطلس، وله قـوة ناهضة وحـده، من رآه يتصور أنه لم يبلغ أشده، لم يكن للكبر، بوجهه تجعيـد ولا أثر، وكان الأمراء والكبراء، والأعيان والصلحاء، والفضلاء والرؤساء، يترددون إلى زاويته، ويتبركون بطلعته، ويلتمسون بركة دعوته.

وفي سمرقند مسجد يسمى مسجد الرباط، يهب لمن يدخله الانشراح والانبسـاط، والروح والنشـاط، وقيل أن أحـد فعلته كـان ملياً، يسمى الشيخ زكريا، هو معتقد تلك البـلاد، ومزاره في مكان مشهور على طود من الأطواد، وقبره يستجاب عنـده الدعاء، وهو عن سمرقـند نحو يوم في المدى، وهو بالكرامات مـوصوف، وفي كرخ هذه المقامـات معروف، وهو في ربوة ذات قـرار، فيهـا جنات تجري من تحتهـا الأنهار، محفـوف باليمن والأنس، كأنه اقتطع من حظيرة القدس، يحكى أنه لما كـان فاعلاً في ذلك البنيـان، وقع في جبهتـه نقطـة من الطين، فـرأى ذلك أحـد المباشرين، واستمر ذلك الطين على هذه الحال، نحو من ثلاث ليال، فلما أرادوا وضع المحـراب، وقع الاختـلاف في الخطأ والصـواب، وكثـر في ذلك الصخب والاضطراب، فقـال الشيخ زكـريا: ضعوا المحـراب على هذه الفقرة، ولا تعـدلوا عنها يمنة ولا يسرة، فقـال ذلك المباشر: لمن في

ذلك المكان حاضر يا للعجيبـة، والقضية الغريبـة، رجل لم يغسل وجهه ثلاثة أيام، يرشد الناس إلى معالم الإسـلام؟ فقال ذلك العابد الزاهد: أو رجل هو من لم يتم ثلاثة أيام بوضـوء واحد؟ ولكن تعـال أيها الجاحد، قـف مكانـك، وثبـت جنـانك، ولا تكـن ممـن أنكـر وتولى، وانظـر إلى عـروس الكعبة كيف تجلى، فنظر ذلك الـذي أنكر، فإذا الكعبة المعظمـة أمـامه تتبختر، ثم التفتـوا إلى الشيخ ففقـدوه، وطلبوه أرضـاً وسماء فلم يجدوه، وهذا المسجد فيـه شيء عجب، عدة أسطوانات من خشب، من جملتهـا سـارية شمخت ارتفـاعاً، نحـوا من خمسـة عشر ذراعـاً، وغلظ جسمها وبدنها، فلا يقدر الرجل على أن يحتضنها وباقي السواري بها قد حطن، قيل إنها شجرة قطن، ولها خاصية عجيبة، طريفة غريبه، من كان به وجع الضرس، يضع عليـه مقدار حبـة من خشب ذلك البرس، فإنه ينفعه، ويسكن في الحال وجعه، جربته فصح.

ويسأل من يـدعي رؤية سمـر قند، عما رأى فيهـا مـن العجـائب، وشاهده من عـلامات الظرف والغرائب، فـإن أخبر برؤية هذه السارية الفائقه، كـانت رؤياه صادقه، واعتدله بصـدق الكلام، وإلا كانت رؤيته أضغاث أحلام.

فصل: سمـرقنـد ليس فيهـا كيل ولا صـاع يصـان، ولا يجري على جنس المكيلات فيهـا بالكيل حسبان، وإنما معرفـة حساب ذلك عندهم بالميزان، ورطل سمر قند أربعون أوقيه، كـل أوقية بالمثاقيل مائة، فيكون رطلهم أربعـة آلاف مثقال، كل مثقـال درهم ونصف من غير زيادة ولا إخلال، فعلى هذا رطلهم بالدمشقي عشرة أرطال.

حكى لي مولانا محمود الحافظ المحـرق الخوارزمي— ولقب بالمحرق لأن سهام ترجيعـاته كانت تصيب حبـات حشاشـات إذ ترمي، وتفوق رنات أوتارها نحو آذان القلوب فتصمي(١) طائرها ولا تنمي(٢)، فإن

١— تصمي: تصيب وتقتل.

٢— نمي الصيد: غاب عن الصياد بعد إصابته.

صـدعت من القلوب حجراً، تطـايرت من اقتداحهـا في الأرواح شرراً، فيحـرق برناته الأرواح، ويشعـل بنغماته الأشبـاح— قـال: استصحبني تيمـور في بعض أسفـاره، فكنت ملازم خـدمتـه في ليله ونهاره، فنزلت عساكـره، على حصن لحصاره، وضرب خيمتـه على مكان عال، ليشرف منه على القتال، ويتفـرج في صنع الرجال، ففي بعـض الزمان، حضرت عنده أنا ورجـلان، وكان قد حصل لـه حمى، أورثته كرباً وغماً، وكـانت سماء النزال ذات حبك واحتباك، ورماح القتال في التواء واشتباك، فأراد أن يطالع أحـوالهم، ويشـاهد أفعـالهم، وأفـرطت شهـوته في ذلك إلى العيمـه(١)، فقال احملـوني إلى باب الخيمه، فـدخل ذلك الرجـلان تحت إبطيـه، وأوقفـاه ببـاب الخيمـة، وأنا بين يـديه، فجعل يشـاهد حـربهم، ويتميز طعنهم وضربهم، ثم أراد أن يأمرهم بشيء فقال لي: يا محمود إلي فأسرعت إلى يـده، ودخلت تحت عضـده، فأرسـل أحـد الرجلين إلى عسكره، يأمـرهم بما عنّ من عجـره وبجره، فكأنه لم يبرأ عليـه، ولم يرو غليله، فقال لنا: دعاني، وعلى الأرض ضعاني، فـوضعاه فسقط كأنه رمّة بالية، أو لحمـة على باريه، ثم أرسل ذلك الرجل الآخـر إليهم، وأمرهم بما اقتضتـه آراؤه، وأكـد عليهم، فبقيت أنا وهـو وحـدنا، لم يبق أحـد عندنا، فقـال لي: يا مـولانا محمـود انظـر إلى ضعف بنيتي، وقلة حيلتي، ولا يد لي تقبض، ولا رجل لي تركـض، ولو رمـاني الناس هلكت، ولو تركـوني وحـالي ارتبكت، لا أملك لنفسي نفعـاً ولا ضراً، ولا أجلب خيراً، ولا أدفع شراً، ثم تأمل كيف سخر الله تعـالى لي العباد، ويسر لي فتح مغلقـات البـلاد، ومـلأ بـرعبي الخافقين، وأطار هيبتي في المغـربين والمشرقين، وأذل لي الملوك والجبـابرة، وأهان بين يـدي الأكـاسرة والقيـاصرة، وهـل هذه الأفعـال إلا أفعـاله؟ وهذه الأعمال إلا أعماله؟ ومن هو أنا غير سطيح ذي فاقه، لا باب لي في الدخول إلى هذه الأفعال ولا طاقه، ثم بكى وأبكاني، حتى مـلأت بالدموع أرداني، فانظر إلى هذا

١ — أي الشهوة الشديده إلى اللبن.

الوبر(١)، كيف سلك بهذا القول مسلك القائلين بالجبر، وأنشدوا فيه بالفارسي بيتين وهما شعر:

نيم تني ملك جهـــانرا كـــرفت ... جشم كشـــا قـــدرت يـزدان ببين

بـاي نـه وتخت بـزبـر قـــــدم ... دســـت نـــه وملـك بـــزيـــر نكين

ترجمته فقلت دو بيت:

قـــد أظهـــر قـــدرةً بخـــافي حكمـــه ... من ملـك شقـــا الدنا جـــافي قسمـــه

لا كـفٌ لـه والملـكُ في خـــــــاتمه ... لا رجلَ له والتخـت مـوطىء قـدمِـه

فصل: وأمـا عســاكـره وطرائق سلوكهم، فـإنهم على دين ملوكهم، كانوا استـدرجوا من حيث لا يعلمون، ورزقـوا من حيث لا يحتسبون، مسخراً لهم خفيات الدفائن، مفتـوحاً عليهم خبيات الخزائن، ميسراً لهم مكامن المطالب والمعادن، كل طرف منهم قـد جال وسطاً، وصار بطرق اللوم أهدى من القطـا، قـد دبروا الأمـــور، وجـربوا أحـــوال الدهور، وقاسوا معـاصر العصور، وكابدوا المكائد، وعالجوا الشدائـد، ومارسوا الأشيـاء، وذاقوا الناس والدنيـا، وعرفـوا مـداخل كل مارق ومخارجـه، وأدركوا مداركه ومعـارجه، لا تدهيهم داهيه، ولا يطغيهم طاغيه، ربما يمرون بقفراء، ويجيزون بمهمه صحراء شعر:

لايفـــــــــــزع الأرنـــب أهـوالها ... ولا تـرى الضـب بها ينجحـــــــــــز

فيقف بعضهم، ثم تراه، ينظـر إلى أرض ذلك المكان وثراه، ثم يقـول ليس هذا الثـرى، من هذا الثـرى، ثم ينـزل عن دابتـه ويأخـذ من ذلك التراب ويشمه، ثم يلتفت إلى جهـاته الأربع فيقصد منهـا جانبـاً ويؤمه، ثم لا يـزال يسير بمن معـــه من الأعــــوان، حتى يصلـوا إلى مكان، فيحفـرون ويخرجـون كمين الدفـائن، ومـا في ذلك المكان من المغـلات

١— أي الرجل الضعيف العاجز.

والخزائن، وكذلك إذا وصلوا إلى عمائـر، أو مروا على مقابر، يتـوجهون إلى الخبء، كأنهم وضعـوه بأيديهم، أو أوحت شيـاطينهم ذلك إليهم، وربما يجيئون إلى مقام، مـر على ساكنه فيـه أيام، ومضى عليه فيـه شهور وأعوام، وفيه شيء مطمور، لم يكن لصاحبـه وساكنه به شعور، فبمجرد دخـولهم إليـه، يفتح ذلك عليهم ويطلعـون عليهم، وحين يطلع سـاكنه على ذلك، يأكل ندامة وحسرة يديه.

وكان لهم درايات في دهرهم عجيبـه، وسهام آراء في عـزمهم مصيبه، وكانوا يحملون البقر ويركبونها، ويسرجون الحمر ويلجمونها، ويسابقون على ذلك أصحـاب الخيل العـراب، إلى قصبـات المغـانم فيسبقـونها، ويطعمون الجمل، لحـم الكلـب والحمل، ويعتاضون عـن شعير الفرس، بالقمح والأرز والـدخن، والزبيب والعـدس، وربما أعـوزهـم ذلك في السفر فأطعموا دوابهم لحاء الشجر.

حكى القاضي برهـان الدين إبراهيم بن القوشـة الحنفي المذكور رحمه الله تعالى أن قازان والتتار، لما قدمـوا هذه الديار، خرج من له قوة الفار فـاراً مـن الشرور، كما فعلوا في قضيـة تيمـور، ومن جملتهم تـاجـر بالصـالحية، كـان في عيشة رخيـه، وله أموال وافـرة وفيه، جمع مـاله من صامـت المال، ووضعه في قدرة فـوال، ثم عمد إلى بـركة ماء فحفـرها، ووضع تلك القدرة تحتهـا وطمرها، ثم ردها إلى مبـانيها، وأعاد ميـاهها إلى مجاريها، وحين انتشب الوثوب، وقدمت الدواب للركـوب، قالت له امـرأته: قـد نسينا قـرطين، وأخـاف أن يحدث عليهما في الطريق شين، فانظر لهما مكانا، وحصل لنا بذلك أمانا، فقـال: أما الآن، فلا مكان، ثم أخـذهما ووضعهما في سقف سقيفه، على خشبـة لطيفـه، ثم ركبا وتركـا الديار وذهبـا، فلما حل بدمشـق التتـار، نزل منهم فـرقـة في تلك الدار، فجعلوا يأكلون ويشربـون، وهم في خـوضهم يلعبـون، فبينا هم بعض الأيام في النشـاط، قرض الفأر أحـد تلك الأقـراط، فتدحـرجت لؤلؤته

وسقطت على البلاط، فتبادرت الجماعة إليها جارية، كأنهم يتسابقون إلى قرطي مارية، فسبقت الجماعه، ودخلت البلاعه، فكشفوا عن وجه الأرض ستر خدرها، فوجدوا الأموال كلها في قدرها، فأخذوها واللؤلؤة، وأخرجوها، وقصدوا باقي القرطين واقتسموها.

وجماعة تيمور أيضاً كذا كانت، وكل معضلة من القضايا إذا وصلت إليهم هانت، وكل منهم كان على دين ملكه، وفي فنه إلى غايته عرج، فإن كنت محدثا عن أحوالهم وأخبارهم فحدث عن البحر ولا حرج.

فصل: يحكى أن واحداً منهم من أهل الذكاء والكيد، أراد في فصل الشتاء التنزه، فقصد الصيد، فأخرج مركوبه، وهو بقرة، فشد عليها سرجه، وهو خشبة متكسره، غرزه(١) قضيب مدور، وحزامه حبل مبتر، وتجمل بلباسه، وهو جلد فروة منهوش، وبتاجه، وهو طرطور من لبد منفوش، وشد كنانته، وهي جلود ممزقه، مشدودة بحبل وعليها خروق ملزقة، سهامها قد التوت، وحنيتها قد استوت، ومعه بازي قد نتف القرناص ريشه، وقلع عن حقل بدنه زرع خوافيه وحشيشه، ثم ركب جواده، وحمل بازيه وقصد اصطياده، فرأى جماعة من البط، على ساحل غدير حط، فرفع يده بالبازي ساعه، حتى عاين تلك الجماعه، ثم وضع يده بخفض، وأرسل البازي على الأرض، فصار يحجل رويدا، وقد أضمر للبط كيداً، إذ لم يكن له قوة الطيران، ولا جناح عليه به يستعان، فوصل إلى الطير بسكون، وهي آمن ما يكون، لأنها لا تتوقع البلاء، إلا من جهة السماء، فدخل بينها فما نفرت منه، ولا هربت عنه، فلم تشعر إلا وقد وثب على واحدة وفلذها، فأدركه صاحبه وأخذها.

ولما رحلوا عن دمشق، وقد مشقوا أوراق نعمها من أغصان وجودها أي مشق، وكان مع بعضهم بقرة نهبها، وحملها ما أخذه من الأموال التي سلبها، وأركبها أسيرة، وسار بها مدة يسيرة، فبعد سيرها يومين أو

١ — الغرز: الركاب.

ثلاثة قلقت، ونادت بلسان حـالها أنها ما لهذا خلقت، فلما لم تجد مشكياً مما شكت، توكلت على الله وبـركت، فأنزلوا الراكبـة عنهـا، وصـاحـوا عليها، فلم تقم فحلوا أحمالها وضربوها، فلم تتحـرك، فأوجعوها ضربا، وأشبعوها لعناً وسباً، وتلك المباركـة باركة، فأدموها وهم يضربوها، إلى أن كادوا يهلكونها، فمن شاحط بمقدمهـا، ومن جاذب بمؤخرها، ومن متعلق بقـرنها، ومن متشبـث بأذنها، وهي جـاثمـة مشبهــه، فيل أبرهه، فعجزوا عنها وأيسوا منها.

فبينما هم على ذلك، وقــد ضـاقت عليهم المســالك، وإذا هم بشيخ كوسج(١)، كأنه شجرة عوسج، قد سلك المشارق والمغارب، ومرت به أنواع التجـارب، وقـاسى برد الأمـور وحـــرها، وذاق حلوها ومـرها، وعـرف خيرها وشرهـا، مـر بهم، وهم في كـربهم، فلما رآهـم أسـارى، عاجزين حيارى، سكارى ومـا هم بسكارى، قال: تنحوا عنها أي جنه، ثم دنا منهـا دنـو الراقي من ذي جنه، وأخـذ كفــاً من تراب، أنعم من عيش الشبـاب، ثم قبض على قـرنها، وصبـه في أذنها، ثم هز رأسهـا في مناخها، حتى وصل التراب إلى صماخهـا، فوثبت قـائمه، وهي من ذلك الرغـام راغمـه، وجعلت تنفـض رأسهـا، وزادت اضطرابها وشماسهـا، وطلبت المسير، وكـادت تطير، فأعــادوا عليهـا أحمالها، وزادوا أثقـالها، فصارت تلك البليها، تعدو ولا يقدر عليها.

فصل: وكـان في عسكره من الترك عبــدة الأصنام، وعبـاد النار من المجوس الأعجـام، وكهنة وسحرة، وظلمة وكفرة، فـالمشركون يحملون أصنامهم، والكهـان يسجعون كـلامهم، ويأكلون الميتة والدم المسفـوح، ولا يفــرقــون بين مخنوق ومـــذبوح، وناس حـــزاؤون(٢)، وزواجـــر خراصون، ينظرون في ألواح الضأن، ويحكمون بما يرون فيها على أحوال

١— الكوسج: الرجل الناقص الأسنان، أو الذي لحيته على ذقنه فقط دون عارضيه.

٢— الحزاء: الكاهن.

كل مكان، وما حدث في كل بقعه، من الأقاليم السبعه، من الأمان والخوف، والعدل والحيف، والرخص والغلاء، والسقم والشفاء، وسائر ما يكون فلا يكادون يخطئون.

ولهم أيام، وشهور وأعوام، كل عام منسوب إلى حيوان، يحسبون بها ما مضى من السنين، فلا يتأتى فيها زيادة ولا نقصان.

وفي الخطا لهم خط يسمى دلبرجين(١)، رأيت حروفه أحداً وأربعين، وسبب زيادته أنهم يعدون التفاخيم والإمالات، حروفاً وكذلك البين بينات، فتتولد الزوائد، وكل حرف زائد.

وأما الجغتاي فلهم قلم يسمى أويغور، وهو بالقلم المغولي مشهور، وعدته أربعة عشر حرفا وسبب نقصانه وانحصاره في هذا العدد، أن حروف الحلق يكتبونها على هيئة واحدة، وكذلك تلفظهم بها، ومثل هذا الحروف المتقاربة في المخرج، مثل الباء والفاء، ومثل الزاء والسين والصاد، ومثل التاء والدال والطاء، وبهذا الخط يكتبون تواقيعهم ومراسيمهم، ومناشيرهم ومكاتيبهم ودفاترهم ومخاتيمهم، وتواريخهم وأشعارهم، وقصصهم وأخبارهم، وسجلاتهم وأسفارهم، وجميع ما يتعلق بالأمور الدنيوية، والتوراه الجنكيزية، والماهر في هذا الخط لا يبور بينهم، لأنه مفتاح الرزق عندهم.

فصل: وكما كان فيهم من جبل على الفظاظه، والقسوة والغلاظه، ومن هو قليل الرحمة بل وعديم الاسلام، كفرة فجرة أوغاد أنذال طغام أغتام، قد اتخذوا من دون الله هادياً ونصيراً واستكبروا به في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً، استجرهم كفرهم وحبهم إياه، إلى أنه لو ادعى النبوة أو الإلهية، لصدقوه في دعواه، كل منهم يتقرب إلى الله تعالى ببره، ينذر له إذا وقع في شدة، ويفي بنذره، واستمر على اعتقاده الباطل وكفره،

١ — كانت أحرف خط الخطا قريبة من الأحرف الصينية.

مـدة حياته، وبعـد مـوته، ينقل النذور ويقـرب القربان إلى قبره، وكـان ترقى معـه في المصـاحبة، حتى وصـل إلى مقام المراقبـة، قيل انه كـان في السفر، فـرأى واحداً من العسكر، كأن الكـرى عطف رقبته، أو السرى أمال شفته، أو على حـال لا يتوجه عليه فيهـا لوم ولا عتب، فضلا عن أن يترتب عليـه ضرب أو سب، فقال تيمـور: ترى مـا ثم أحد قـاطع، يقطع رأس هذا الفاعل الصانـع، ولم يزد على هذا الكلام، فسمعه واحد من اولئك الكفـرة اللئام، اسمـه دولت تيمور، وهو أمير كبير مشهـور، قد ألبسه الله ثوب النقمـه، ولم يشمه شيئاً من روائح الرحمة، ففي الحال سل رأسـه من بين كتفيـه، وحملـه إلى تيمـور، ووضعـه بين يديه، فقـال تيمـور: ويلك ما هذا الأمـر الأفظع، فقـال هذا الرأس الذي أشرت أن يقطع، فأعجبته هذه العبارة، وابتهج بأن أمره يمتثل بأدنى إشارة.

وكان فيهم الظرفاء والأدبـاء، والأذكياء والشعراء، ومنهم في الفضل أعلام وعلماء، وفيهم المحقق، والبـاحث في العلوم والمدقق، ومن شارك في كل العلوم، وبحث فيهـا بحثـاً شافيـاً من طريقي المنطوق والمفهـوم، ويقـرر مذهب الصـوفية وإحيـاء العلوم، ومع هذا فبعضهم يمضي على مقتضى مـا عمله، وكـان من الذين آمنوا وتواصـوا بالصبر وتواصـوا بالمرحمة، وبعضهم كـان مع رقـة الحاشيـه، واللطافـة الفـاشيـه، والعلم الوافي، والظرف الشـافي، والجمال الفـائق، والكمال الشـائق، والكلام الرائق، قلبـه أقسى من الحجر، وفعلـه أنكى من ضرب الصارم الذكـر، يقـولون من قول خير البرية، ويمـرقون من الدين كما يمـرق السهم من الرميـة، وإذا وقـع مسلم في مخاليبهم، وابتلي غـريب بتعـذيبهم، صنف ذلك العالم المحقق، والحبر المدقق، في استخـراج المال منه أنواع العذاب، وأصناف العقـاب، واستحضر في فنون تعذيبـه كتباً ومسـائل، وسرد في علوم تـريبـه خطبـاً ورسـائل، فيصير ذلك المسكين يتكوى، ويستغيث ويتلوى، ويستجير بالله وآياته، ويستشفع بكـل ما في أرضـه وسمـواته،

من ملك ونبي، وصديق وولي، وذلك المليح يضحك ويتظارف، ويتمايل ويتلاطف، وينشد لطائف الأشعار، ويتمثل بطرائف النوادر والأخبار، وربما تحرق وبكى، وتأوه لما يفعل بذلك من التعذيب وانتكى، وصار كبعض قضاة الإسلام، المستولي على مال الأيتام، يخطب ويبكي، وفعله في قلوب المسلمين ينكي.

ولما كانوا في دمشق دخلوا إلى بيت واحد من الأعيان بزقاق العجم(١)، وإذا هو مملوء من النفائس والخيرات والنعم، شعر:

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامُ ... خلعت عليه جمالها الأيامُ

فقبضوا على صاحب ذلك المنزل وربطوه، وبأنواع العذاب والعقاب عذبوه، ثم أحكموا رجليه شداً، وعلقوه، واستخرجوا النفائس، واستجلوا من حسانها العرائس، وأحضروا لذيذات المطاعم والمشارب، وقضوا من التفكه والتنعم ما لهم من مآرب، وجعلوا يأكلوم ويشربون، ويلهون ويطربون، وإذا تحرك في واحد منهم الخبث، أو ثمل وأخذه في سكره العبث، عمد إلى ذلك المسكين وهو في شدة النكاد، فسقاه الماء والملح، وسففه الكلس والرماد، وكان فيهم عالم متقشف عن تناول المنكرات متعفف، كما قيل:

عجبت من شيخي ومن زهده ... وذكره النار وأهوالها
يكره أن يشرب في فضة ... ويسرق الفضة إن نالها

وكانوا إذا رأوا القدح المزعفر، أحضروا له السكر المكرر، ووضعوه له في صيني الخوافق، وصبوا عليه الماء الرائق، فيسكرون هم بالأقداح القوادح، ويسكر ذلك الفاسق المحروم من الروائح، ثم يتوجه إلى صاحب المنزل، ويضحك عليه وهو في أشد ما يكون من العذاب، ويسخر منه ويهزل، ثم يتمايل على صوت المثاني والمثالث، ويتناول من تلك المآكل والمشارب، ويقول: بشر مال البخيل بحارث أو وارث.

١— ربما منطقة الحلبوني الحالية في دمشق.

وكـان في عسكره كثير من النسـاء، يلجـن معـامع الهيجـاء، ووقـائع البأساء، ويقـابلن الرجال، ويقاتلن أشد القتـال، ويصنعن أبلغ ما يصنع الفحــول من الرجــال في النزال، من طعن بالرمـح، وضرب بالسيف، ورشق بالنبـال، وإذا كـانت إحداهن حـاملاً، وأخذهـا وهـم سائـرون الطلق، تنحت عن الطريق واعتزلت الخلق، ونزلت عن دابتها ووضعت حملها، ولفته وركبت دابتها، وأخذته ولحقت أهلها.

وكـان في عسكره ناس ولدوا في السفـر، وبلغوا وتزوجـوا وجـاءهم أولاد، ولم يسكنوا الحضر، وكان في عسكره ناس صلحـاء عباد، ورعون زهاد أجــواد أمجاد، لهم في الخيرات أوراد، وفي وردهـا إصــدار وإيراد، دأبهم خلاص مأسور، أو جبر مكسور، أو إطفاء حريق، أو إنقاذ غريق، أو إصطناع معـروف، أو إغــاثة ملهـوف، مهما أمكنهم، ووصلـت إليـه يدهم، إمــا بقـوة وأيد، وإمـا بنوع خــديعـة وكيـد، وإمــا باستيهـاب واستشفاع، أو تعويض وابتياع، وكانوا سائرين معه بالاضطرار، ودائرين معه لهذه المعاني بالاختيار، حكى لي مولانا جمال الدين، أحمد الخوارزمي، أحـد القراء المشهـورين المجـودين، وكـان إمام محمـد سلطان في حيـاته، وإمـام مدرستـه بعد وفـاته، ثم خطيب بروسـه، وبها أدركته المنيـة، سنة إحـدى وثلاثين وثمانمائــه، رحمه الله تعـالى، قـال: كنـت في سمـرقند في مدرسـة محمد سلطان، أعلم مماليكـه وأولاد الأمراء القرآن، فأرسـل إليه جـده الظلوم، وهو متـوجـه إلى بلاد الروم، أن يتـوجـه إليـه، ويفـد هو والأمير سيف الدين عليه، فامتثل ما به أمر، وأخذ في إعداد أهبة السفر، وقـال لي: هيء مـرافقك، واقطع عـلائقك، وخذ أهبـة سفـرك، واعمل مصلحــة رهطك ونفـرك، ووافقنا في المرافقــه، فإن من حسن المرافقــة الموافقـه، فاستعفيتـه من الذهاب، وفتحت له في سد خـوجة السفـر كل باب، فقلت له: يا مولاي أنـا رجل من أهل القرآن والفاقـه، ما لي بفتح باب السفر من طاقة، لأني ضعيف البنيـان، رخو الأركان، لاجلد لي على

الحركـة- وإن كان في صحبـة مولانا الأمير كل خير وبركـة- خصوصـاً على هذا السفر البعيد الشقـه، الكثير المشقه، ومع كوني ليس لي على ذلك من طاقـه، لا جمل لي في مناخ السفر ولا ناقـه، وأما أنتم فالسفـر عليكم حتم لازم، وحق مــلازم، لايسعكم فيـه التخلف، ولا يفسح لكـم فيـه المطل والتســوف، فلم يعفني، وتعلل لي بعلل، عللني فيهــا ولم يشفني، فلم أر بداً من الاستعـداد، وتحصيل الرفيـق والزاد، ثم سرنا حتى وافينا جـده، وقد ركب في الجادة جـده وجـدّه(١)، ورأينا من تلك العساكـر، بحـاراً لا أول لها ولا آخـر، إن إنفـرط أحــد من سلك جماعتـه، وضل معتـزلاً عن سنن سنته، لا يصل إليهم بالسرج والشمع، ولا يهتـدي إلى سنة جماعته إلا إن كان يوم الجمع.

فبينا أنا معهم أسير، وقـد وهـن مني العظم الكسير، وأثر فيَّ التعب، وأخذ مني النصب والوصب، ومللت السرى، وعدمت الكرى، نفضت يدي من الـرفيق، وأخــذت على فجـــوة من الطريـق، فلما أن خلوت، هيمنت(٢) بالقــرآن العظيم، وتلوت، ثم استهـواني الـذوق والشـوق، فحلقت بمراشيق حلقي إلى فوق، وكان صوته أطيب من رقيق المقطوع على رخيم الموصـــول، وألذ من جمع شمـول على كأس شمـــول، بنسيم الشمال معلول، وبرضاب الحبيب مشمـول، قال: وإذا برجلين ضعيفين، كالعـود البالي نحيفين، أشعثين أصفـرين، ذوي طمرين أغبرين، بصراني عن جنب، وعلقـا بي علـوق الوتد بالطنب، فجعـلا يراقبــان أحـوالي، ويستمعان أقـوالي، فلما زمزمت زمـزمتي(٣)، وكففت هينمتي، وكتمت في خـزانة صـدري جـواهر كلماتي، وختمت بطابع دعـائي زواهر آياتي، بكيـا لمناجـاتي، وأمنا على دعـواتي، ثم أقبـلا نحـوي، وسلما، واهتـزا لما

١— أي حظه واجتهاده.

٢— أي قرأت بصوت خافت.

٣— زمزم المغني: ترنم.

سمعـاه من تلاوتي، وترنما، وقـالا: أحيى الله قلبك، كما أحييت قلوبنا، ومحوت بها سطرت في ألواح صـدورنا بحسن تلاوتـك ذنوبنا، ثم أنهما آنسـاني بالخطاب، وجـارياني بالسـؤال والجواب، وإذا هما من صميم الجغتاي، وخالص عسكر تيمـور، ومن ضئضيء(١) التتار، وسنخ الفتن والشرور، ثم سألاني عن نجـاري ووجاري، وعن رفيقي في هذا السفـر وجاري، فاخبرتهما عن مـولدي ومحتدي، ومسقط رأسي من بلدي، وأني من أهل القـرآن، وأني مع محمد سلطان، فقالا لي: يا سيـدنا الشيخ، إنما جئنا إليك لتحسـن إلينا، وإنا سـائلوك عن شيء فـلا تجد فيـه علينا، فقلت: قولا وطولا، فلن تجداني ملولا، فقالا: يا مولانا هذا شيء يعنينا، وإن كـان قـد عنانا، وكل من اشتغل بما لا يعنيـه، فقـد ترك مـا يغنيـه، ووقع فيها لا يعنيه.

شعر:

ومـن لم يعـرف الخيرَ — مـن الشرِ يقـعُ فيـه

فبـا الله يا سيـدنا قل، من أين تأكـل؟ فقلت: على خـوان، محمـد سلطان، فقـالا: مأكـول هذا العسكر حـلال، أم حـرام ووبال؟ فقلت: الغـالـب عليـه الحرام، بل كله واللـه مظالم وآثام، لأنه مـن الثـارات والنهب، والغارات والغصب، والاختلاسات والسلب.

فقـالا: والله يا إمـام، لقـد أسأنـا الأدب إذ واجهناك بهذا الكلام، ولكن أنتم أهـل العلم، شيمتكم العفـو عـن الجاني والحلم، وأنتم أولى بجبر الكسير، وفك الأسير، وتيسر الأمـر العسير، فقـابل منـا هذا الفحص بالصفح، ولا تعامل هذا الإلحاف باللفح.

فقلت: سلا، ولا تُسْلسـلا، فقالا: نسألك باللـه الذي اصطفاك لخزن كـلامـه، الذي تعبد به عبـاده، وبيَّن لهم فيـه معـالم حلاله وحـرامـه، لا

١— أي من الأصل والمعدن.

تؤاخـذنا بما تهجمنا عليك به، فإن الشيخ المرشـد كـالوالد الشفـوق، لا يؤاخذ ولده بقلة أدبـه، فقلت: كلا سلا مـا شئتما، وسلسلا مهما أردتما، فقالا: يا سيدنا أما كـان لك مندوحة عن مرافقة هؤلاء اللئام، والتعفف بـالحلال استغنـاء عـن الحرام، فقلت: إني دخلـت فيهـم وأنـا مضطـر، وخـرجت معهم وأنا كـاره مجبر، وأكـرهني محمـد سلطان، وحـاباني بما حباني من الإحســان، فصحبتهم وعين ذاتي من كحل الراحــة مـرها، وحملتني فرسي في سفري كرهاً ووضعتني كرهاً.

فقـــالا: أرأيتك لو امتنعـت عن الخروج، أكــانـوا يريقـــون دمك، ويأسرون أولادك ويسبون حرمك؟ فقلت: لا والله، وحاشا لله، فقالا: أكانوا يحبسـونك ويضربونك، وفي مقام المصـادرة يجلسونك؟ فقلت: أنا أمنع جناباً، من أن يسوموني خسفاً وعـذاباً، لأني حافظ القرآن، والقرآن حـافظي من هذا الخسران، قـالا: فغـاية فعلهم معك، إذا رأوا تعـززك وتمنعك، أنهم كــانوا يشتمـوك، ويعمــدون إلى معلومك فيقطعــونك، ويسخطون عليك، ويمنعـــون برهم الـواصل إليك؟ قلت: ولا كــانوا أيضاً يفعلون كـذا، وتعززي وتمنعي مـا يحط من مكانتي عندهم إلى هذا الأذى، ولكنهم حـابوني فـاستحيت، وخـادعـوني فـانخـدعت، وليتني أبيت، فقالا: لا يصلح هذا عذر لـك وحجة، ولا يسلك بك إلى صحة الاعتـذار بين يدي الله تعـالى سواء المحجـة، فهـلا جلست في مكانك، واشتغلت بتلاوة قـرآنك، ومطالعة علمك ومبـاحثة إخـوانك، وفرغت بدنك عن الكلال، ومـلأت بطنك من الحلال، واحتميت في حمى دينك عن هـؤلاء اللئام، واسترحـت من الاضطـرار إلى تناول الحرام، مـع إنا سمعنا من أمثـالكم، مـا قد ضرب في أمثـالكم- أهل القـرآن وقاصتـه، أهل الله وخـاصتـه- وأنهم عتقـاؤه بين خلقه، وببركـاتهم أدرَّ سحـاب رزقــه، وأن السـلاطين، ملوك الناس أجمعين، وأنكـم أنتم ملوك الملوك والسـلاطين، واذا أعتقكم الله وأعفاكـم الناس، وصرتم الانسان العـالم

بمنزلة القلب والكبد والرأس، ولم يبق لأحد عليكم سلطه، ثم ألقيتم أنتم أنفسكم بأيديكم إلى هذه الورطة، وتهافتم على التهالك، تهافت الفراش على النار، وتشبثتم مع كونكم قادرين على الخلاص بأذيال الضر والاضطرار، فكيف يصح هذا الاعتذار، وأنى ينجيكم هذا العذر من عذاب الملك الجبار، و هل صرتم إلا كما قيل:

معاشر القرّاء يا ملح البلد ما يُصلح الملح إذا الملح فسد

فقلت: أما إذا حررتما القضية، فكلنا في هذه المصيبة سوية، مصراع:

(بي مثل ما بك يا حمامة فاندبي)

وقيل شعراً:

بي مثل ما بك يا حمام البان أنا بالقدود وأنت بالأغصان

فبكيا وانتحبا، وتأوها والتهبا، وتنفسا تنفس الصعدا، وقالا: ما بين قصتنا وقصتك في المدى، فورب الخافقين إن بين القصتين، لبعد المشرقين، ولكن ما للمقال مجال، وما كل ما يعلم يقال، وأين السر من الإعلان، وإن الحيطان لها آذان، فقلت: هذا ليس بحجه، فلا تعدلا عن سواء المحجة، فقالا: نحن المضطرون جبراً، المأخوذون قهراً وقسراً، وإنا مكتبون في الديوان، مضافون إلى واحد من أعيان الأعوان، إذا ورد علينا مرسوم بالبروز، في يوم عيد مثلاً، أو نوروز، وسكون الخروج وقت الظهر، وتأخر منا واحد إلى وقت العصر، لم يكن له جزاء فيما ارتكبه، إلا الصلب أو ضرب الرقبة، فضلا عن ضرب وشتم وشناعه، أو رفع عدل أو تقديم شفاعه، وأين أنت عن قعود ما أو تخلف، أو استتار بذيل توار أو توقف، فنحن مدى الدهر لمثل هذا مستوفزون، وعن مثل ما جرى على أضرابنا من هذا البلاء متحرزون، مصيخون أبداً لما أشار، وما أمر، عاملون بمقتضى قول من قال: الله من رأى العبرة في غيره فاعتبر، ويا ليتنا أمكننا التحويل

عن مملكتـه، والـرحيل عن إقليم ولايتـه وسلطنتـه، وكيـف لنا بذلك وهـي مسقط رأسنـا، ومحل أنـاسنا، ومحط إينـاسنـا، وإيلاف رحلتنـا، ومـزدرعـات معيشتنـا، ومـدرج، آبائنا ومخرج أبنائنا، ومقـام قبـائلنا وعشائرنا، ومثابة قاطننا وغـابرنا، ولو غاب من هوام قبائلنا جد جد، فضـلا عـن بلبل أو هدهد ، لحجـف البـاقين سيل الظلـم والحيف، ولتحكم في رقاب سائرنا صائل الموت بالسيف.

وأمـا إذا برزنا وعـزمنا، على المسير معـه وتجهـزنا، فنسأل كم سنة نغيب، وأي جهـــة يريد ذلـك المريد المريب، فنـأخـذ أهبتنا لـذلك المقدار، وكل منا ابن عم الآخر وجار، وله جـراب فيه سويقه، ومعه كلفة نفسـه وفرسه وعليقـه، يصوم مدى الدهر، ويفطر على مـا يسد الرمق، ويلبس ما يستر العورة من رث الثياب والخلق، كل ذلك من زرع أيدينا وكـدنـا، ومـا بذلنا فيـه من عـرق جبيننا، والحلال غـاية جهدنا، ولا نتعرض لمال أحد ولا لعرضه، ولا نقف في طريق إبرامه ولا نقضـه، ولا لأحد عنـدنا نشب، ولا بيننا وبين أحـد علاقـة ولا سبب، ولكن بأمـوالنا البـلاء الطام، والمصـاب العـام، ثم رقّصـا رؤوسهما يميناً وشمالاً، وارتعـدت فرائصهما هيبة وجـلالاً، وابيضت شفـاههـا واسودت جبـاههما، وأخـذا في البكاء والعـويل، وانتحبـا الانتحـاب العـريض الطويل، فـوالله لقـد ذابت نفسي لديهما، واستصغـرت كبـار المشـايخ بالنسبـة إليهما، وتفكرت فيما دهاهما من شـدة الأمـر، وعلمت أنهما، هما القـابضـان بكفيهما على الجمـر، ثم تأوهت آهاً بعـد آه، وقلت بالله يا أخـواناه، ومـا هذا البـلاء الطام، والمصـاب العام، الذي ذكـرتماه؟ قـالا: خيولنـا ومواشينا، وحـوامل مهادنا وغواشينا، نرفق بها بالتحميل، وما نركبها إلا وقت الإعياء في الرحيل، وأمر قضيمهـا قصم ظهورنا، وأعجـز أمورنا، واضطرّنا إلى الخوض في دماء المسلمين وأمـوالهم، وألجأنا إلى رعي زرعهم وتحمل

وبالهم، ومـا ندري كيف المخلص، وأنّـا ننجو من ذا المقنص، فبـالله يا سيدنا الشيـخ هل تجد لنا في هذا الأمر الغالي رخصـه، أو هل من قطرة برود تطفيء هذه الحرارة، وتسكـن شرق هذه الغصـة؟ فقلت: لا والله، إلا عناية اللـه، وأيم الله لقـد، أشبعتماني شراً، وجـرعتماني صبراً ومقـراً(١)، و أوسعتماني نكداً وضراً، وكـان همومٍ مـا بي، من نصبي و عـذابي، يكفيني، إلى يوم تكفيني، فقـد زدتماني بلاء على بلائي، وعناء على عنائي، فبـالله من أنتما ومـا أسماؤكما، وفي أي قطر أرضكما وسماؤكما، ومع مـن أنتما، فحييتما مـا حييتما، فخبراني، ولا تحيراني، لأجيء في كل وقت إليكما، وأفوز بالسلام عليكما؟ فقالا: يا مـولانا، الحمد لله الذي برؤيتـك حبانا، إن معـرفتنا لا تجديك شيئاً ولا تَبُـرَّك، وعدم المعـرفـة بنا لا يؤذيك ولا يضرك، والغـالب على ظننا مولانا، أنـك بعد اليوم لن ترانا، وإن قـدر اجتماع فنحن نسعى على رؤوسنا إليك، وخليفتنا الله والسلام عليك.

ثم ودعاني وما وقفا، وأودعاني أليم الفراق، وانصرفا، هذا من البحر قطرة، ومن الطود ذره، ونسأل الله سبحانه وتعـالى أن يصون عن الزلل أقوالنا، وعن الخطل والخلل أفعالنا وأحوالنا.

تم آخره والحمـد لله رب العالمين، وصلى الله على سيـدنا محمد وعلى [آله] وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

١ــ المقر: نبات مر المذاق، وربما كان هو الصبر أو ما يشابهه.

خـــاتمة الكتـــاب

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

الحمد لله الذي أدب عبده أحمد فاحسن تأديبه، وخصه إذ رباه يتيماً وأنشاه غريباً بكل يتيمة وغريبه، وأظهر له في بيان بديع المعاني منهج كل فن وأسلوبه، فأعجب أهل زمانه إذ أعجزهم بما أتاهم به من كل أعجوبه، أحمده حمداً تفتقت في رياض آلائه أنوار فصاحته، وأشكره شكراً تعبقت في رياض نعمائه أزهار بلاغته، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة طابق خبرها الواقع والإعتقاد، وأسندت إلى حقيقة الصدق فصارت حقيقة الإسناد فتمنطق الإيمان بأقوالها، وتعلق الاسلام بأفعالها، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أنشأ أخبار بعثته على التوحيد، وقصر فصل رسالته على وصل الإخلاص بالتعبيد، صلى الله عليه صلاة باقية بقاء إعجازه، موصولة بطنب الإطناب وصل فصيح الكلام بإيجازه، وعلى آله وأصحابه شموس سماء الفصاحة، وبدور أفلاك البلاغة، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فيقول العبد المفتقر إلى مولاه، المعترف بتقصيره وخطاياه، المغترف من بحار كرمه وعطاياه، الراجي في حدائق المغفرة ثمرة العفو مما جناه، أحمد بن محمد بن عبد الله الحنفي مذهباً، العجمي لقباً، الأنصاري نسباً، الدمشقي مولداً، السني معتقداً، عامله الله بما كان أهله، وحفظ عليه دينه وعقله: لما كانت الدنيا دار انقلاب، ومحل تغير واضطراب، قدمت على الأخرى للاكتساب، إما لجزيل الثواب، وإما لوبيل العقاب، وكان سيرها سريع الاحتثاث، واذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، أردت أن يخلد لي ذكري، ويجول لي في خواطر الآخرين فكر، لعل رحمة تتبعني، أو دعاء صالحاً ينفعني، فناداني لسان الحال:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

وأمـا الأولاد فليت صـالحهم كفـاني شره، ووازن في حيـاتي نفعـه وضره، فلم يبق إلا علم ينفع، أو إفادة ترفع.

وقـد صنف العلماء في كل فن من العلـوم مـا بلغـوا فيـه الغـاية، وتدرجـوا في تقـريره وتحريره من البـداية إلى النهـاية، وعينـوا معـانيـه متوناًوشروحاً، وبينوا فحاويه خفاء ووضوحاً، مع أن دروس العلوم قد درست، وحـدائق ريـاضهـا ذبلت ويبست، وصـار الكلام فيهـا عيـاً، والمستـوى في تحقيقها وتدقيقهـا نيا، ولم يبق لطالـب العلم به انتفـاع، إلا أنه اذا احتاج إلى القوت عـرض كتبه لتباع، غير أن بعض كبراء العصر، ورؤساء الدهر، وبقـايا الأكياس، متشوفون لتـواريخ الناس، ومتطلعون لمعـرفـة أحـوال من ســاس، من ذنب وراس، ومستشرفـون لســالف الأخبـار، كيف كــان أمـر النـاس وصـار، ولم يكـن فيما مضى، من هذه الأمـة وانقضى، من متغلبيهـا وبغــاتها، ومتمـرديها وطغـاتها، مسلمهـا وكـافرها، مقسطهـا وجائـرها، عـاتيها ومـواتيها، مصـادقها ومعـاديها، صـالحهـا وطالحهــا، سـانحهـا وبارحهـا، غـابرها ودارجهــا، عـابرها وخارجها، مثل تيمور الأعـرج، ولا أعبر منه في العتو ولا أخرج، سيره كلهـا عبر، وكل عبرة منهـا فيهـا سير، أمـوره أظهـر من أن تخفى، ومـا أضرمـه من فتائل الفتن شرقـا وغـربا، أعظم من أن يطفأ، فقصدت مـا ذكـرته، وذكرت مـا قصـدته، وتوخيت الإفـادة والاعتبـار، لا التفاخـر والاشتهـار، فاعترضتني نوائـب الخطوب، وكشرت دون مرامي أنيـاب القطوب، وجبهتني يد الردع، وصدمتنـي قارعة المنع، بأن أكبر الكبـائر، في هذا الدهر الدائـر، أدب أديـب، أو فضل أريب، أو علم عـالم لاسيما غريب، لقد كـره الأديب والفقيه، كراهية التحـريم لا التنزيه، وقد تقرر هذا في الأذهان ورسخ، ولهم الذنب إذ يـداهم أوكتـا وفـوهم نفخ، ثم ذكرتني شأني وخاطبتني بلساني، وقالت شعراً:

أتصرف غض العمـــر في طلـب العلى فتُظمـىء أكبــاداً ونُسهِـــر أعينـا

تقاسي صروف الدهر فقراً وغربة ... وبعداً عن الأوطان للقلب موهنا
وعيلة أطفال ضعاف كأنهم ... جوازل(١) زغب أنهكتها يد الفنا
ففي مثل تلك الحال ما كنت صانعاً ... وكنت بنفس فقرها واسع الغنى
إلى أن حباكَ الله فضلاً ورفعة ... وحُزت فنوناً من علوم لها سنا
فصرت عزيزاً في البرايا مكرماً ... وطارا إلى الآفاق من صيتك الثنا
وقد سُل فوق الرأس سيف مشيبه ... وهل بعد هذا غير معترك الفنا
أتخشى ضياعاً بعد ذاك وعَيْلةً ... فترهب من فقر وترغب في الدُنا
فتبذل وجهاً طالما صنت ماءه ... لك اللّه لا تفعل وكن متمكناً
وهل في الورى من يرتجى لمُلمة ... وإن قيل من للمكرمات يقل أنا
فصن عن جميع الخلق نفسك واتكل ... على الله مولىً لم يزل بك محسنا

فما ثم ذو فضل بصدر منشرح، فحط عنك واسترح، فتضاعفت الحال تشتيتاً، وزاد الكبد تفتيتاً، وارتبكت في عزمين، واشتبكت بين همين، بين أن أسكت فأضيع أو أن أقول فلا يسمع، فقدمت رجلاً وأخرت أخرى، واستنهضت جواد فكري كراً وفراً، فقواني صدق النية، فيما هممت، وخلوص الطوية على ما عزمت، وجمعت من بال متفرق، وألفت من فكر متمزق، من قضايا تيمور الطويلة العريضة نبذة، وجبذت بكف الأفكار من قوس حكاياته جبذه، نثلت في بيانها من بديع المعاني الجعبة، وسللت وقد صرفت نحو مشرق النطق سنان الكلام عضبه، وشحذت غربه، فجاءت بحمد الله تعالى ظريفة المعاني كاملتها، لطيفة المباني فاضلتها، قلت في مرآة الأدب:

بألفاظ ألحاظ تشير إلى النُهى ... تُعَلِّم فن السحر كيف يكون

حوت دقة الجزل ودقته، ورياقة الغزل ورقته، ولطافة الأدباء،

١ــ جوازل جمع جوزل وهو فرخ الحمام.

وظرافة الشعراء، وفصاحة البلغاء، وبلاغة الفصحاء، وحقائق الحكماء، ودقائق العلماء، مع الأمثال الفائقة، والاستشهادات اللائقة، والاستطرادات الرائقة، والتشبيهات الغريبة، والاستعارات العجيبة، ونوافث السحرة من علماء البيان، ونوادر المهرة من أرباب الديوان، ومزجت جليل التحمس فيها بريق التغزل، ونسجت جديد الجد بمعتق التهزل، وطرزت طلع ذلك كله بإعلام الآيات الشريفة، ونقوش الأحاديث الكريمة المنيفة، أصبت بكل ذلك محز القصد، وطبقت بحسامه مفصل الضرب، قلت في مرآة الأدب:

كأن النهي قد كان عني ناعساً فمر على أذنيه ما أتلفظ

فذاق لهذا الشهد صدق حلاوة ففتح عينيه وجا يتلمظ

فمن أراد التنزه في التواريخ، فعليه بمداومة تكرارها، ومن قصد التفكه في رياض الإنشاء فليقتطف من بهي أزهارها، ومن سلك طرائق الأدب، فليجن من حدائقها جنا ثمارها، ومن رام التسلق إلى ذروة العلوم، فليتشبث بأذيال أستارها، ومن طلب الإعتبار بتقلبات الزمان، فليتأمل حقائق أخبارها، ومن اعتنى بسياسة الملك، فليتدبر دقائق أسرارها، مع أني لم أوفها حقها في التهذيب ، ولم تنل استحقاقها في حسن الترتيب والتشذيب، لأن الكلام كالدر المنتظم، والدر(١) المنسجم، لا بد أن يتعانق لفظه ومعناه أولاً وآخراً، ويتطابق عبارته وفحواه باطناً وظاهراً، وإلا اختل نظمه، واعتل فهمه، وانحطت منزلته، وسقطت من سلم الفصاحة درجته، وهذا يحتاج إلى بحر ذهن صاف، ومعدن علم بكفالة ما يتم به عقود جواهر واف، وذوق أحلى من العسل، وفكر أمضى من الأسل، ويحتاج كما قيل إلى حاضر من التوفيق، ومعاون صالح من النية، فإن غروب الألسنة ربما جاوزت إلى ما يثبت على القائلين الحجة، ومن لي بذلك، وأنى يتيسر لي سلوك هذه

١— الدر : اللبن الكثير.

المسالك، وكنت طالما أفوق سهم النظر في بيداء التأمل نحو قنص معنى دقيق، وأصوب غواص الفكر في دأماء(١) التدبر إلى جوهر قصد رقيق، حتى إذا قلت فاز القناص، وحاز الغواص، وإذا بقاطع الشواغل قطع بترس الشواغل والحوادث على سهم خاطري الطريق، وبتمساح الهموم إلتهم غواص فكري فإذا هو في بحر الغموم غريق، فتشتد في وجه قصدي المسالك، وأصير من نهار أزهر إلى ليل حالك، قلت:

فأنى أنتقي للنظم دُرا | ولم تظفر يدي منه بوَدْعه

لكن لما كان الشروع ملزماً، واتمام ما شرعت فيه متحتماً، لم أر بداً من إلحام ما أسديته، وإصماء ما أنميته، فصرت في وعوره أقع وأقوم، وفي بحوره أغطس وأعوم، إن راق راكد الخاطر، أو حمى الفكر الفاتر، فتذكرت من الكلام أوائله، وألحقت بكل منه ما شاكله، وإذا أزعجه من الزمان الجفا، تكدر منه ما صفا، وتبلدت الأفكار، وتولدت الأخطار، وتساوى عند بصر البصيرة الليل والنهار، قلت:

أكمل كل سطرٍ بعد شهرٍ | وأبني كل بيتٍ بعد عامِ

فلا أضع المحمول وقد حُمل الموضوع، ولا أذكر الخبر إلا وقد نسي المبتدأ قلت مضمنا شعراً:

والفكر كالبحر يبدي لي جواهره | مع الصفاء ويخفيها مع الكدرِ

فتنخرم القاعده، ويختلط رأس المال والفائدة، فقل لي أنى ينتظم لي؟ قال وقد انفرط نظام الحال: هذا وإن الكلام له مقامات، ولكل من الفصاحة والبلاغة درجات، قلت قديماً مترجماً:

ما استوى في موقفِ افصاح منطيقٍ ولو | قد سحبا سحب سحبان وأصمى الأصمعي

فافتكر فيما ترى في منزل أعني الورى | هل ترى تبّت تحاذي قيل: يا أرض ابلعي

١ـ الدأماء: البحر.

وأين من يوفي المقامات حقها؟ ويعطي كل مستحق منها مستحقها، ولقد سلكت في هذا الكتاب مسلك أبناء العصر، وطريقة أولاد الدهر، فإن الناس بزمانهم، أشبه منهم بآبائهم، ولو أخذت فيه أخذ العرب العرباء، وألبسته في ألفاظه ومعانيه ثوب الاستعصاء والإباء، فأبرزت ما قصدته من المعاني الجزلة العجيبة، في قوالب فحلة غريبة، لما التفت أحد إليه، ولا عول لقصور الهمم والأفهام عليه، ولما كانت المجازات المشهوره، خيراً من الحقائق المهجوره، والغلط المستعمل، أولى من الصواب المهمل، أبرزتها في إشارات رشيقة، وعبارات رقيقه، وعملت في بعض المواضع بقوله رجزاً:

عمداً كسوت مرهبا مغثمرا(١) ولو أشاء حِكته محبّرا(٢)

وقد قيل:

إذا أحسستَ في لفظي قصوراً وخطي والبراعة والبيان
فلا تَرْتَبْ إن رقصي على مقدار ايقاع الزمان

ثم إن بين هذا الكتاب، وبين ما صنعه قبله ذوو الآداب، ليوناً مديداً، وأمداً بعيداً، بوجوه منها إن زمانهم كان بالرفاهية بساعد، وأنا في عصر لا ساعد لي فيه ولا مساعد، ومنها إن وقتهم كان فيه من يربي الفضل وأهله، ويحل كلاً منهم محله، من الملوك والأكابر، وذوي الفضائل والمآثر، وأرباب المناصب والمفاخر، وأقل من فيهم كان يحب السماع، ويميل إلى الفضل والأدب بالطباع، فكان الفضل فضيلة، والأدب خصلة جميلة، وأما الآن، فقد انقلب بأهله الزمان، فصار حامل الفضل والأدب من رهطه، والمنتظم من العلم في سلكه وسمطه، كأنه سارق عملته(٣) تحت إبطه، ومنها أن الافهام كانت مدركة، وكانت كذلك قريحة المتكلم

١— المرهب: الثوب ذي الأكمام، والمغثمر: الرديء الفاسد.
٢— المحبر: المزين.
٣— العملة: السرقة.

متحركـة، لقد صارت الأفهام جـامدة، والقرائح خامـدة، ونارها هامدة، ومنها أن غالب ما صنف أخباره كـاذبه، وسهام أغراض غير صائبه، لأنه لا واقع يطابقـه، ولا خارج يوافقـه، فعمـد مصنفه إلى مـا عقدته مخيلتـه، وتوهمته مفكرته، فألف حسبما أراد، وأسس على مقتضى اختياره ما شداه وشاد، وأما هذا الكتاب فأخباره صـادقه، وكلماته بالصدق ناطقه، إذ هي في الواقع للخـارج مطابقـه، فأبداها منشيء الخاطر وأعـاد، على طبق مـا أريد منه ووفق مـا أراد، وليتني في هـذا وهذا كفـافـا، من خيرها وشرها معـافى، ولئن ساعـد الزمـان بترفيه الحال، وخـلا من سكان الهمـوم ربع البـال، لأتتبعن آثاره، ولأسترن بقدر الإمكـان عواره، ولأبذلن الجهـد في ترقيحـه، وإصلاحه وتنقيحـه، وإلا فالصفح مـأمول، والعذر عنـد خيار الناس مقبول، والمسـؤول من صدقـات ذوي الأدب، البالغين في البـلاغة أعلى الرتـب، أن يسبلوا ذيل الإغضـــاء عليـــه، وينظروا بعين الإفـــادة والاستفادة إليـه، ويقيلوا العثار، ويقبلوا الأعـذار، فيشدوا أسره، ويجبروا كسره، ويرقعـوا خللـه، ويحققـوا أمله، راجين من لطف الله مـــا أرجـوه منهم، لعل الله سبحـانه أن يعفو عني وعنهم، مع إنا كلنا في الهوا سـوا، وإنما الأعمال بالنيات، ولكل إمرىء ما نوى.

الحمد لله حمدا يمـلأ أركان الأمكنه، ويعطر خيـاشيم الأزمنه، وصلى الله على سيـدنا محمد صـلاة تبلغ قائلهـا مأمنه، وتحله بشفاعتـه في جنة الفـردوس الأعلى مسكنه وعلى آلـه وأصحـابه الذين استمعـــوا القـول فـاتبعوا أحسنه، ونستغفـر الله من حصـائد الألسنه، وحسبنا الله تعـالى ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تـــم (١)

١ـــ جاء في نهاية النسخة المخطوطة الخاصة:

١ـــ الحمد لله البر الجواد، العواد على عبيده بعد الشدائد، وصلى الله على محمد

٢ـــ الحمد لله، وبه أكتفي، طالع هذا الكتاب من أوله إلى آخره في أوقات متفرقة آخرها شعبان المكرم سنة ثمان وتسعين وثمانمائة أحمد بن محمد المالكي لطف الله تعالى به. سنة٨٩٨.

المحـــتوى

الصفحة	الموضوع
٣	توطئة
٧	مقدمة المؤلف
٩	ذكر نسب تيمور
١٦	دخوله إلى قرشي
١٧	ذكر من أسر في فتنة تيمور
١٨	ذكر نهوض المغول على السلطان
١٨	ذكر الحيلة التي صنعها
٢٠	ذكر وثوب توقتاميش خان
٢٢	ذكر علي شير
٢٤	ذكر ابتداء ما فعله من التسلط
٢٥	ذكر قصده ممالك خوارزم
٢٥	ذكر عوده ثانيا إلى خوارزم
٢٦	ذكر مراسلته سلطان هراة
٢٨	ذكر اجتماعه بالشيخ زين الدين أبي بكر الخوافي
٢٩	ذكر عوده إلى خراسان
٢٩	ذكر قصده ممالك سبزوار
٣٠	ذكر ما جرى له في سبزوار مع محمد رأس طائفة الزعار

٣٢	ذكر مراسلته شاه شجاع
٣٧	ذكر مراسلته شاه ولي أمير ممالك مازندران
٣٧	ذكر مراسلة شاه ولي سلاطين العراق
٤٠	ذكر توجه تيمور إلى عراق العجم
٤٢	ذكر ما أبرمه شاه منصور
٤٣	ذكر ما نقل عن شاه منصور
٤٧	ذكر ما وقع بعد واقعة شاه منصور
٤٧	ذكر حلوله بأصبهان
٥٠	ذكر ضبطه طرف الموغول
٥١	ذكر عوده إلى ممالك فارس وخراسان
٥٨	ذكر سكون مؤقت لتيمور
٥٩	ذكر غوصه مما وراء النهر وخروجه من بلاد اللور
٦١	ذكر تخريب أذربيجان
٦٣	صفة قلعة النجاة
٦٨	ذكر أخبار صاحب بغداد
٦٨	ذكر ما فعله في بلاد أرزنجان
٦٩	ذكر ما جرى لسلطان ماردين
٧٥	ذكر رجوعه من ديار بكر
٧٥	ذكر وصوله إلى أمم الدشت

٨٢	ذكر ما وقع من الخلاف في عسكر توقتاميش
٨٤	ذكر أيدكو وما صنعه
٨٦	ذكر ما جرى بين أيدكو وتوقتاميش
٩٠	ما كان من أمور تيمور ودواهيه
٩٠	ما يتعلق بممالك الشام
٩٢	جواب السلطان بايزيد لسلطان سيواس
٩٦	قصد تيمور الهند
٩٨	ما فعله ضد الفيلة
١٠٠	وفاة الظاهر برقوق
١٠٧	موت سلطان سيواس
١١٠	محو قرايلوك عثمان آثار أنوار برهان الدين السلطان
١١١	ذكر ما كان نواه قرايلوك
١١٤	ما وقع من الفساد بعد قتل السلطان برهان الدين
١١٦	قصد تيمور سيواس
١١٧	توجه تيمور نحو بلاد الشام
١١٩	مراسلة تيمور لأمراء حلب
١٢٠	ما فعله أمراء حلب
١٢٢	وصول تيمور إلى حلب
١٢٤	ما فعله بحلب نقلاً عن ابن الشحنه

١٣١	وصول أخبار ما حدث بحلب إلى دمشق
١٣٢	خروج الناصر فرج من القاهرة
١٣٣	حكاية ما شاهده ابن عربشاه في حماه سنة ٨٣٩
١٣٣	وصول تيمور إلى حمص
١٣٦	وقائع دمشق
١٣٧	ذكر ما افتعله سلطان حسين ابن ابنة تيمور
١٣٨	فرار السلطان فرج وعوده إلى مصر
١٤٠	خروج أعيان دمشق إلى تيمور
١٤٨	ذكر ما صنعه بعض التجار
١٥٣	احراق دمشق
١٥٤	انسحاب تيمور وعودته
١٥٥	من وقع بأسره من أهل دمشق
١٥٨	ذكر ما أباد بعده الجراد
١٥٩	حصار تيمور لقلعة ماردين
١٦٠	توجه تيمور إلى بغداد
١٦١	ما فعله السلطان أحمد بن أويس
١٦٣	قصد تيمور تدمير ممالك الروم
١٧٠	ما عزم عليه ابن عثمان
١٧٣	توجه ابن عثمان لملاقاة تيمور

١٧٤	ما وقع من الخباط بعد وقعة ابن عثمان
١٨٠	ذكر أولاد ابن عثمان
١٨١	ما فعله تيمور مع ابن عثمان
١٨٤	استيلاء تيمور على قلعة أزمير
١٨٥	قصده بلاد الخطا واستخلاص ممالك الترك والجتا
١٨٧	نفيه الله داد
١٨٨	نموذج يدل على عمق تفكير تيمور
١٨٩	غدر تيمور بالتتار
١٩٣	نزول تيمور على ممالك الكرج
١٩٦	الاستيلاء على حصن منيع
١٩٨	ما جرى للكرج مع تيمور
١٩٩	طلب الكرج الأمان
٢٠٠	توجه تيمور عائداً إلى بلاده
٢٠١	استقباله من قبل ملوك الأطراف
٢٠٢	توزيع تيمور التتار
٢٠٤	ذكر ما ابتدعه من منكراته
٢١٢	بعض حوادث تيمور المتقدمه
٢١٧	عزم تيمور قصد بلاد الخطا
٢١٩	مرسوم من تيمور إلى الله داد

٢٢١	وفاة تيمور
٢٢٧	ما وقع بعد وفاة تيمور
٢٢٨	استيلاء سلطان خليل على الملك
٢٣٠	قفول عساكر تيمور مع جسده إلى سمرقند
٢٣٣	دفن تيمور
٢٣٤	أخبار خليل سلطان
٢٣٥	ذكر من أظهر العناد من الأمراء
٢٣٦	أخبار الله داد
٢٣٨	ورود مكتوبين إلى الله داد من خليل سلطان
٢٣٩	من خلفه الله داد في اشباره
٢٤٠	ما تم لألله داد مع خدايداد
٢٤١	ورود كتاب من خليل سلطان
٢٤٢	لحوق الله داد بخليل سلطان
٢٤٣	تنبه خدايداد لخديعة الله داد
٢٤٥	قصد ايدكو ما وراء النهر
٢٤٦	ذكر بير محمد حفيد تيمور
٢٤٨	تجهيز خليل سلطان سلطان حسين
٢٤٩	خداع الله داد سلطان حسين
٢٥١	أخذ سلطان حسين الميثاق على الأمراء

خروج خليل سلطان من سمرقند	٢٥١
مقابلة العساكر الخليلية جنود قندهار	٢٥٣
خروج عسكر العراق على خليل سلطان	٢٥٥
ما فعله بير محمد بعد انكساره	٢٥٦
توجه بير محمد لمقابلة خليل سلطان	٢٥٧
ما صنعه بير محمد بعد هزيمته	٢٥٨
طلب بير محمد الصلح	٢٥٨
خلاف بين بير علي وبير محمد	٢٥٩
ما حدث أثناء غياب خليل سلطان	٢٥٩
توجه خليل سلطان ضد خدايداد	٢٦٠
مفارقة شيخ نور الدين خدايداد	٢٦١
رجوع شيخ نور الدين إلى الاعتذار إلى خليل سلطان	٢٦١
أمر خليل سلطان ببناء ترمذ	٢٦٢
ما فعله شاه رخ في خراسان	٢٦٤
ما حدث في أقاليم ايران	٢٦٤
خروج الناس من الحصر وطلبهم أوطانهم من ما وراء النهر	٢٦٥
من أخبار خليل سلطان وزوجته شاد ملك	٢٦٨
مراسلة الله داد خدايداد	٢٦٧
وقوع خليل سلطان بالأسر	٢٦٩

٢٧٠	ما جرى من الفساد بسمر قند
٢٧١	قيام شاه رخ
٢٧٢	وصول جنود شاه رخ إلى سمرقند
٢٧٣	ظهور دولة شاه رخ
٢٧٤	نهاية خدايداد
٢٧٥	عودة خليل سلطان من ممالك أنديكان
٢٧٦	صفات تيمور البديعة
٣٢٠	خاتمة الكتاب